

المدينة الاستثناء

قراءة مورفولوجية لمدينة بورسعيد

قاسم مسعد عليوة



تلقى بنشر الدراسات والأبحاث الفنية بتفصيصية
المكان وأهميته في التسارع المصري والعربي

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير
إبراهيم عبد المجيد
مدير التحرير
سيد الوكيل
سكرتير التحرير
محمد رفاعي

الأردن الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة
بل تعبر عن رأي وإتجاه المؤلف في تمام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن
كتابي من الهيئة العامة لقصور الثقافة أو بالإشارة إلى المصدر.

ملامحة هيئة المكان

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد تـسوار
أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن
الإشراف العام
محمد أبو المجد
الإشراف الفني
د. خالد سرور

• المدينة لا ستناء
• قرية موزاوية المدينة تونسي
• قديم صمد عابوة
• الطبعة الأولى
• الهيئة العامة لقصور الثقافة
• القاهرة - 2007 م
• 23.5 م
• تصميم الفلاح - هند سمير
• المراجعة الفنية: ممدوح بدران
• رقم الإيداع: ٢٢١٠٦ / ٢٠٠٧
• الترقيم الدولي: 977-437-495-9
• الفراءات: - باسم / مدير التحرير
على العنوان التالي: ١٥ شارع أمين
سماهي - القنصر العسيمي
القاهرة - رقم بريدي 10561
ت. 7947891 (داخلية 850)
• الطباعة والتشريب
• شركة الأمل للطباعة والنشر
ت. 3904096

المدينة الاستثناء

قراءة مورفولوجية لمدينة بورسعيد

المدينة الاستثناء

قراءة مورفولوجية لمدينة بورسعيد

الباب الأول:	
الفصل الأول: متعة التحليق فوق نقطة الالتقاء.....	19
الفصل الثاني: ثلاثة أفرع وحاضرتان	35
الفصل الثالث: عقاب القصرين	49
هوامش الباب الأول	55
الباب الثاني:	
الفصل الأول: رجل سريع الانقياد	61
الفصل الثاني: خراف وكواسر	79
الفصل الثالث: طفلة أسمها بورسعيد	95
هوامش الباب الثاني	108
الباب الثالث:	
الفصل الأول: من فوق الفنار	115
الفصل الثاني: في شوارع ثلاثة	133
الفصل الثالث: وصف المعمار	159
هوامش الباب الثالث	176
الباب الرابع:	
الفصل الأول: في المجون وأساليبه	181
الفصل الثاني: في مديح المقاهي	191
الفصل الثالث: صدح الموسيقى	207
هوامش الباب الرابع	229
الباب الخامس:	
الفصل الأول: مصدران للإشعاع الثقافي	233
الفصل الثاني: بيوت يذكر فيها اسم الله	259
الفصل الثالث: بورفؤاد.. لؤلؤة خرجت من صدقتها	283
هوامش الباب الخامس	315
المراجع	318
الملاحق والصور.....	323

الإهداء

إلى أبنائي..
سميح وشادي ورشا
وأحفادي..
محمد وسيف وجنى

المحب
قاسم مسعد عليوة

المقدمة

نعم هي المدينة الاستثناء، وما ينبغي لها إلا أن تكون كذلك.
مدينة خارج الأطر . لا تعرف الجمود ولا تعترف بالحدود .. تجتنب ولا تُجتنب ..
وتخرج على كل صور المحاصرة والاحتواء.
لم لا وهي المدينة التي تبني نفسها بنفسها، وتمك من إمكانات التمدن ما لا تقدر عليه
مُخَيَّلَات المخططين والبنائين ؟
مدينة غافلت الكل وآلت إلى ما آلت إليه من بهاء، وبرهنت لكل متابع أنها - فعلاً لا
قولاً- المدينة الاستثناء.
مدينة رفعت أراضيها المنخفضة فأصبحت في مستوى البحر، وأزاحت سبخها وملحها
لتخرج شطأها أراهاير على هيئة قبيلات وعمائر.
سأقت دلالها فأهداها البحر أراضي ما كانت لها قبلاً، ونظرت إلى البحيرة فاستحوت
وسحبت ماءها عن قيعان منحت نفسها لها عن طيب خاطر لتفعل بها ما تشاء.
هي مدينة أنثى، مصرية عربية أفريقية أوروبية (معاً)، تغسل شعرها بماء البحر،
وتلاعب بقدميها ماء البحيرة، وأنى فردت ذراعيها عمّ العمار.
وعمار مدينتنا لا يعرف غير الازدهار والتنامي والامتداد . واستداده ضارب في
الاتجاهين : الأفقى وإن وثب من أفريقيا إلى آسيا، والرأسي وإن بدا أنه يحايت السحاب.

إنها بالفعل المدينة الاستثناء.

الاستثناء بموقعها العبقري الذي يصل بين قارات ثلاث هي إفريقيا وآسيا وأوروبا، ويظروف نشأتها التي رافقت شق قناة السويس في أشهر وأدق عملية جراحية تجرى لسطح الكرة الأرضية، والاستثناء بكونها أول مدينة مصرية تنشأ في العصر الحديث بعيداً عن نهر النيل، وخارج نطاق القاهرة المركز.

ولا يمكن إلا أن توصف بـ " المدينة الاستثناء " لأنها المدينة الأولى والوحيدة في مصر وفي العالم العربي التي تبلورت فيها المواجهة بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية في حين متقابلين هما حيا العرب والإفرنج، وبعدم كانت السيطرة للثاني أضحت للأول بعد صراع كفاحي مرير. أما لماذا سُمي حي الوطنيين بحي العرب وليس بحي المصريين أو حي الفلاحين أو الأجراء أو أى اسم آخر ؟ .. فالإجابة عليه هي الاستثناء الذي لم تصنعه أية مدينة مصرية أو عربية أخرى.

وهي أيضاً المدينة المصرية العربية الوحيدة التي فعلت ما لم تفعله أى مدينة مصرية أو عربية أخرى بإقرانها العروبة بالسيادة عند تسميتها لأغلب أبنائها، فمن تسميه بـ " العربي " لا بد أن يُسبق بـ " السيد "، ومن تسميه بـ " السيد " لا بد أن يُتبع بـ " العربي "، حتى إن اقتصر شهاده الميلاد على واحدة فقط من هاتين المفردتين، وما أكثر " السيد العربي " في هذه المدينة . إن من يشمون بهذه التسمية المركبة، وأكاد أقول بهذه الصفة، مثلوا - وقت التواجد الأجنبي بها - الأكثرية الكاثرة، ويترديدا هذه الأسماء / الصفات في فضاعات شوارعها وبين جدران مبانيها قاومت الأجنبي بقدر ما عايشته .. أليست هذه المقاومة الاستثناء .

وفي ذات الاتجاه ابتكرت الشخصية المعجزة في مقاومتها .. شخصية " أبو العربي " .. لكأنها قصدت أن يصبح أباً لكل العرب .. شخصية : وثابة، شجاعة، مواجهة، مقاتلة، فتانة، منطلقة، مرحة، وتقصد فوق هذا وذاك علاقات الأسرة والجيرة والزمان.. هل بعد هذا من خصائص وصفات يحتاج إليها العرب ؟ .. لكن شاء الهدأمون الباغون في زمن الانعطاف السالبة الكبرى - انعطافة السبعينيات من القرن الفائت - أن ينالوا من هذه الشخصية قطعونها بالباطل في كل خصيصة وصفة تتمتع بها، وجعلوها مادة للتندر والسخرية، وأطلقوا عليها بكل فجاجة النكات تلو النكات، غير أنها - مع كل هذا - ما تزال تمارس فعل حتمية الوجود على الرغم من كل الأقاويل التي تزعم أن عصر الحتميات قد ولى وانقضى، فهل بعد هذا - أيضاً - من استثناء؟

وحدث أن ولدت - أنا محدثك عزيزي القارئ - من رحم هذه المدينة بعد نحو ست

وسبعين سنة من تدميرها، وبالتحديد بعد أربعة أيام وسبعة أشهر وخمس وسبعين سنة، ولدت مع خواتيم الحرب العالمية الثانية . لم تكن لمصر في هذه الحرب ناقة ولا جمل، ومع هذا نال المدينة من دمار هذه الحرب ما نالها، ومن الحرب العالمية الأولى نالت أيضاً بعضاً من شروها، وكذا من الغزوة الإنجليزية الاحتلالية سنة ١٨٨٢م. هي حروب كثيرة سبقت ميلادى شهدتها هذه المدينة، وحروب أخرى عشتها معها : عدوان ١٩٥٦م، حرب ١٩٦٧م،، حرب الاستنزاف، وحرب ١٩٧٣م، وبخلاف هذه الحروب، ومعارك ثورة ١٩١٩م. المدينة، ومعارك ١٩٥١م./ ١٩٥٣م. الفدائية، فإنها هي أسيرة الجنود الإنجليز العشرة في غزوة ١٨٨٢م. (طابية الديبة)، وهي صاحبة أول نصر بعد هزيمة ١٩٦٧م. (موقعة رأس العش)، ومحقة أكبر هزيمة نالتها القوات البحرية الإسرائيلية (إغراق المدمرة إيلات) . ياه .. كل هذه الحروب والمعارك خاضتها هذه المدينة حديثة النشأة وخرجت منها منتصرة مزهوة !.. كل هذه الحروب ولم تنل منها . حتى - ما تناله القلعة من الظفر الطرى ! .. إنها حقاً للمدينة الاستثناء..

وفوق الأوسمة الاستثنائية العديدة التي زينَتْ صدرها، أهدتها الأمم المتحدة وساماً استثنائياً آخر يثبت أنها لسنوات وسنوات ظلت المدينة المصرية الأولى في التنمية البشرية .

وأنا وإن كنتُ - عزيزى القارئ - أبغى بهذا الكتاب تقديم هذه المدينة، بصفتها الاستثنائية هذه، لك وللعالمين معك ومن بعدك، فسوف أجتهد ألا أذكر اسمها مقترناً بهذه الصفة، لأن الاستثناء عندها ما عاد استثناءً من فرط الاعتياد.

وأستميح صديقى، ورفيق دريى، الشاعر الكبير محمد محمد الشهاوى عذراً إن تماس عنوان كتابى مع عنوان قصيدته العصماء " المرأة الاستثناء "، فمدينتى كأمراته تشبه الشمس دونما أفول، وهي جميلة مفعمة بلهيب الوضاعة، ومترعة بالآلق المترقرق على شطآنها، ومثلما فعلت امرأته أسلمتُ مدينتى أعضاءها ليد السحر لترسم فى جسمها الغضُّ أحلى الأساطير، وعنها لا يمكن لأى مزار إلا أن يقول غير العبارة التى نطقت بها مزامير امرأته .." هي (مدينة) تشبه المستحيل ".

فصباية العشق إذن قد جمعتنا .. هو لامرأته، وأنا لمدينتى .. وكلاهما يُعدُّ فى دنيا التشبه كائناتاً مستحيلات.

" هي (مدينة) تشبه الشمسُ

إلا أفولا

على شاطئ الألق المترقرق..

مفعمة بلهيب الوضاعة ،
مترعة بأريج الأنوثة
تسلم أعضائها ليد السحر،
ترسم في جسمها الغض
أحلى الأساطير
ماذا يقول لسان المزامير عنها
إذا ما أراد لنا أن يقولوا
هي (مدينة) تشبه المستحيلا ..

أعتقد أنه قد أن الأوان عزيزي القارئ لأن أبدأ معك سياحة غير عجول للتعرف على
قسمات هذه المدينة التي جمعت بين الجدة والطرب والقتال واللعب، فاستعد ..
وأعلم أنك معى سوف تتركب صهوة خيالك، ومعى سوف تجتاز حدود المكان والزمان،
وأمامك ساعرض معطيات البيئة واستثناءات الجغرافيا والتاريخ، وأتعهد بأن أقف بك على
مورفولوجية هذه المدينة الاستثناء .. كيف نشأت، وكيف تشكلت، وإلى أى حال أت .
وبعدها سأنطوف بك أرجاء هذه المدينة لأريك معمارها - العمار الاستثناء - وتصاريح
الزمن فيه وأفاعيل الناس به، وإن كنت أتخيل، منذ الآن، أننا لن نتمكن من الإحاطة بكل
جوانبها، وأنى لنا بهذه الإحاطة .. ومدينتنا هي بورسعيد.. بورسعيد الاستثناء؟

قاسم مسعد عليوة
بورشعيد: ٢١ يناير ٢٠٠٦م

الباب الأول

٢٠٢٠

الفصل الأول

متعة التحليق فوق نقطة التقاء خطى الطول والعرض

١٨ ، ٣٢ شرقاً و ١٦ ، ٣١ شمالاً

تخيل عزيزي القارئ أنك طائر بحري.. نورس مثلاً أو ما شابه.. وتخيل أيضاً أنك، وقد صرّت كذلك، عدتْ أو عاد بك الزمن إلى الوراء نحو مائة وخمسين عاماً لتخلق عند خط طول ١٨. ٣٢° شرقاً وخط عرض ١٦. ٣١° شمالاً.

أرجوك.. لا ترفع رأسك عن الورق وتقلب باصبريك في فضاء المكان الذي تقرأ فيه، ولا تخاطب نفسك بلسان الحيرة في أمر ذلك المؤلف الذي يطالبك بتخيل أمور لم ترد إلى ذهنك قبل الإقدام على قراءة ما كتب. أرجوك لا تفعل هذا، فأننا لم أطلب منك سوى أن تتخيل، والتخيل ليس فقط أمراً سهلاً وميسوراً، وإنما هو أيضاً أمر ييسر فهم أشياء كثيرة قد لا يتيح الواقع فهمها على النحو الأكمل. ولاحظ أنني ما رجوتك إلا ليقيني من أنك ستجد في التخيل بهجة تخرجك مما أنت فيه الآن. إنها بهجة المغامرة.

أنا نفسي ساقطها، وستجدني منك نورساً أو ما شابه. إلى جوارك سأخلق، وستجدني أعلو حينما تعلو، وأهبط حينما تهبط، أُميد كيفما شئت وشاعت الريح عند نقطة التقاء خط طول ١٨. ٣٢° شرقاً وخط عرض ١٦. ٣١° شمالاً، في ذلك الزمن الذي ليس سحيقاً جداً، فمائة وخمسون عاماً تقريباً من عمر كوكبنا الأرضي مدى قريب جداً.

لا تتواضع إلى هذا الحد وتساألني عن جدوى هذا التحديد الدقيق لنقطتي التقاء خطي الطول والعرض فأنت بالتأكيد تعرف ماهية خطوط الطول وخطوط العرض وأهميتها

الجغرافية، وأنه منذ رسمها هيبارخوس (١٤٠ قبل الميلاد) ما كان للخرائط التي تلتها كخرائط بطليموس المعروفة باسمه والخرائط العربية كخريطة المسعودي (٩٥٦ م) وابن حوقل (٩٧٧ م) والإدريسي (٧٥٤ م) النتائج الهامة في مجال الكشف الجغرافية الكبرى^(١). إن كنت ناسياً فعلاً فخطوط الطول عبارة عن أنصاف دوائر تتصل نهاياتها في أقصى طرفي الأرض، وكل خطي طول متقابلين يمثلان دائرة عظمى متكاملة، ومن ثم فكل خط طول هو نصف دائرة ويتجه اتجاهاً شمالياً وجنوبياً حقيقياً. ويمكن رسم عدد لا نهائي من خطوط الطول على الكرة الأرضية، وبالتالي هناك خط طول لأي نقطة يمكن اختيارها على الأرض. هذا ما يقوله الجغرافيون^(٢).

وخطوط العرض دوائر كاملة أيضاً وإطلاق وصف الخطوط عليها هو إطلاق جوازى، وكل دوائر العرض دوائر بها ٣٦٠ درجة وتتميز بأنها متوازية وتمثل اتجاه شرق - غرب حقيقى. وتتقاطع هي وخطوط الطول بزوايا قائمة فيما عدا منطقتي القطبين. وكذلك يمكن رسم عدد لا نهائي من دوائر العرض على الكرة الأرضية، ولذلك فإن أى نقطة على سطح الأرض تقع على خط عرض ماعدا نقطتي القطب الشمالي والقطب الجنوبي، والأصل أن تكون المسافة بين كل درجتى عرض ثابتة ابتداءً من خط الاستواء حتى القطبين، إلا أن فلتحة الأرض جعلت هذا الأمر غير متاح تماماً^(٣).

ها أنتذا قد حصلت على معلومات تؤهلك لأن تصبح بعدما تستعيد هينتك البشرية عالماً جغرافياً إن أردت. لكن دعنا من هذا الآن فإنها لمتعة فعلاً أن نظير ونحلق ونرقب من عل .. فوقك السحاب وتحته الماء واليابسة.. انظر، إن الأرض تكاد تكون كلها مغطاة بالمياه.

عن الأخضر العميق ورماله السوداء:

تعال اميط معى كى تميز هذا الشريط الضيق الداكن. إنه شريط من الرمال السوداء. ركز بصرك عليه. اطلعه فى ذاكرتك ثم اتركه قليلاً الآن ولا تغفل عنه فإن لهذا الشريط شأن سوف تعرفه عما قليل، ما أظنه منك الآن هو تأمل هذه المساحات الشاسعة من الماء. بالتأكيد أنت تستطيع تمييز ماء عن ماء، وتعرف ما هو البحر وما هى البحيرة، فهذا العريض باهر الاخضرار أحياناً عميق الزرقة غالباً؛ الهادر الصاخب فى أوقات، الهادئ المستكين فى أخرى، هو بعينه البحر الأبيض المتوسط، ذلك الذى أطلق عليه أجدادى وأجدادك المصريون القدماء وصف: "الأخضر العميق" وأسموه "حاونبو" وركبوه فى رواحهم وغدوهم إلى ومن "ببيلوس"، ومن فوق ثبجه نقلوا الخشب والذهب والحبر والدواجن، وغيره وهبوا سكان لبنان وسوريا واليونان بعضاً من حضارتهم وثقافتهم

ومكنوا للآلهة المصرية فيما وطأوه من أراض شمال وشرق هذا البحر.

إنه البحر الذى ظن الإغريق أن الإله بوسيدون قد أخضعه لسلطوته، وفى أساطيرهم رأى ركاب سفينة الأرجو الشجعان من أعاجيبه وأهواله ما أمكنهم أن يروه، وفعلوا فوق سطحه ما فعلوا. إنه ذات البحر الذى جابه الفينيقيون. وهو ذاته البحر الذى تاه فيه أينياس ورفاقه قبل أن ينهض الرومان بدولتهم وينتزعوا الهيمنة عليه من دولة قرطاجة ليصبح اسمه بحر الروم. وهو عينه البحر الذى سيطر عليه العرب وأحبال طارق بن زياد مياهه إلى محفز لجنوده عند فتحه للأندلس هناك فى أقصى الغرب منه.

إنه بحر أساطير وأساطيل ومذابيح

بحر على وداعة هيئته دام، وعلى بهاء منظره قاس، وعلى نعومته تنعم أسماكها بالاغذاء على لحوم البشر.

هذا البحر أنت بالتأكيد تعرفه. تعرف صفاته وكائناته وتاريخه. ولعلك تعرف أنه كان منذ نحو خمسين ألف سنة - لا يهم إن زادت ألفاً أو قلت ألفاً بحسابات علماء الجيولوجيا - بحيرتين عظيمتين مفصولتين عن بعضهما البعض إذ كانت تونس الخضراء ملتصقة بمالطا وصقلية وإيطاليا، وكانت مفصولتين عن المحيط الأطلسي إذ كانت المغرب ملتصقة بإسبانيا ولم يكن بوغاز جبل طارق قد تخلق بعد، كما كان بحر القلزم (البحر الأحمر) متصلاً بالبحر الأبيض عن طريق ما أطلق عليه برزخ السويس. ولم تكن هناك دلتا فى مصر بشكلها الحالى، وإنما كان يشغل هذه المنطقة خليج فسيح من خلجان البحر الأبيض، وكانت هضبة المقطم، هذه العالية التى تشغلها الآن أحياء سكنية وبيوت، مغمورة بمياه إحدى هاتين البحيرتين اللتين صارتا بحراً. ثم حدث أن انتهى العصر الجليدى فى أوروبا فانفصل - ببطء وعبر آلاف السنين - البحران: الأبيض والأحمر، وانحسرا عن بحيرة التماسح والبحيرات المرة، واندمجت قارتا آسيا وإفريقيا، وانفصلت تونس عن مالطا وصقلية وإيطاليا، كما انفصلت المغرب عن إسبانيا وتكوّن بوغاز جبل طارق، ليظهر حوض البحر الأبيض المتوسط بشكله الحالى - تقريباً - ويتصل بالمحيط عن طريق البوغاز، ثم ظهرت دلتا نهر النيل وفروعها السبعة ومن بينها الفروع الثلاثة التى روت منطقة الشمال الشرقى من مصر وهى الفرع البيلوزى والفرع التنيسى والفرع المنديسى.

بالتأكيد أنت تعرف كل هذا يا عزيزى. إن خذلتني وقلت أنك لا تعرف فأعد نفسك لرحلة طويلة بعض الشيء تطير فيها إلى هضبة المقطم وجبل عتاقة وجبل شبراويت وانظر بنفسك، ستجد آثار أسماك وحيوانات البحر وقد تحجرت، وسترى آثار انسحاب المياه فى ثنايا الجبل خطوطاً كاشفة ودالة على أن بحراً كان عندها ثم انحسر.

وأؤكد لك أنني قد رأيتُ هذه الآثار رأى العين ولستها، بل استخلصتُ بعض القواقع المتحجرة لنفسى وظلت عندى ضمن أندر مقتنياتى إلى أن ضاعت ذات حرب. سامح الله من أضعافها.

ولأن البحر عريض وهائل، فإن النقطة التى تُحلق فوقها الآن - مهما بدت من الاتساع بالنسبة لكينا - ضئيلة بل شديدة الضآلة بالنسبة لحوض البحر كله. وأنا وأنت لا تحلق فى الحقيقة إلا فوق خليج من خلجان هذا البحر. إنه الخليج البيلوزى . نحن نتوسط هذا الخليج فهو يمتد من دمياط غرباً إلى رأس كاسياس بالقرب من فم بحيرة البردويل شرقاً، وطوله يقدر بنحو ٧٥ ميلاً ويقدر عمقه بنحو ١٤ ميلاً، ويسبب الرأس الصغير من اليابسة المتقدم فى البحر يمكن تقسيم هذا الخليج إلى خليجين صغيرين، وتستطيع يا عزيزى أن تحفظ للجهة الشرقية اسمها الأسمى (خليج بيلوز) أو تسميها بخليج الطينة أو التينة إذا كنت تأتلف من الطين الدبق مثل سكانها، أما الجهة الغربية منه فلك أن تسميها مثلما يسميها الأهالى بخليج الديبة نسبة إلى فم الديبة مصب الفرع المنديسى إلى البحر الأبيض.

والرياح التى تهب على هذا الخليج تأتيه من الجهة الغربية والشمالية الغربية، وهى التى تسبب العواصف أحياناً، وهبات الرياح الشمالية والشمالية الشرقية قليلة وضعيفة هى والرياح الجنوبية . وتختلف قوة التيارات المائية فى الخليج شدة وضعفاً تبعاً لقوة الرياح. وسرعة التيار المائى لا تزيد على ميلين اثنين فى اليوم الواحد تقريباً، إلا أنه يوجد تيار آخر أشد تأثيراً شمالى الخليج، من خواصه أنه يدفع بالسفن فى الاتجاه الجنوبى، لذا توجه هذه السفن دقاتها إلى الشمال بما قيمته ربع درجة لتحافظ على مسارها إلى الموانئ الشرقية.

وعمق المياه عند المصب القديم لفرع النيل البيلوزى هو ثمانية أمتار على بعد ٧٥٠٠ متر من الساحل، وإلى الغرب من هذا المصب بنحو ٣٠ كيلومتراً - حيث تحلق بالضبط - فإن عمق الثمانية أمتار يكون على بعد ٢٣٠٠ متراً فقط من الساحل، ولهذه الخاصية أهمية كبرى سوف تعرفها فيما بعد.

وإلى الغرب من النقطة التى تحلق فوقها، وعلى مسافة جد ضئيلة يقع مرفأ دمياط، ذلك المرفأ التجارى عظيم الشأن الذى جاءت إليه وانهمرت منه جيوش الصليبيين، ومنه أيضاً خرجوا. وإلى الشرق كانت هناك مرفأى ممائلة : انطاكية وصور وعكا وبيافا وغيرها. مرفأى كان لها شأن وأى شأن فى حركة الملاحة البحرية فى العصور الوسطى، ومن ثم كانت مطعماً للغزاة المتسرلين بسرايل متنوعة لعل أشهرها سربال الدين.

اللافت في هذه العصور التي وصفت بالوسطى أن كثيرين لم يفكروا بالرسو في المنطقة التي نخلق فوقها. ربما لأن اللسان الرملي كان شديد الضيق، وربما لأن السبخ ظاهر من حوله، أو لأن البشر الذين اختاروه مكاناً للعيش قليلون ولا مطمع فيهم يغري بغزو منطقتهم، فهم ساكنو أكواخ لا مال لديهم ولا ثروة، صيادو أسماك وطيور لا أكثر، لذا فقد نعم هذا الموضع بالأمن والسلام لدهور ودهور، سفن تروح وأخرى تجي، جميعها يحف بهذا الجزء من الخليج دونما التفات، وقوافل وجيوش تنقل البشر والبضائع وخيرات النماء والخراب إلى حواضر لصيقة بموضعنا ساجتهد لأقل إليك بعض أطراف من قصصها حينما يحين الحين.

انظر.. لا أثر هنا لأي عمران.. الماء والرمال الأسود حتى الصيادين لا نراهم. ربما خمنت أنهم في قبيلة، ولعلك تخيلت أن أجسادهم وظلالهم اندمجت بزرقة السماء وسمرة الرمل فلا نراهم. ربما كان ما خمنت أو تخيلته صحيحاً، لكن الأصح أنهم قلة قليلة من البشر قدمت من جنوبي البحيرة، التي ستعرف عنها الكثير والكثير جداً بعد قليل، واستوطنت هذا اللسان الرملي وبالتحديد عند البوغاز المعروف ببوغاز أشتوم الجميل. حيث الوفرة الوفرة من السمك والطيور أقامت. هنا أيضاً فوق تلك البقعة اليابسة الواقعة شرقي البحيرة أقام مجموعة من الناس قرية لهم حيث لا أمواج ولا هدير ولا نوات، هذه القرية هي قرية القابوطي التي أطلق عليها اسم شخص سوف تنسج حوله الأساطير وتروي الحكايات.

إنهم أناس قليلون، سواء في الشرق أو في الغرب. يكادون يكونون جزءاً من الطبيعة التي يعيشون فيها. تسيطر عليهم ولا يزعمون أنهم يسيطرون عليها إلا بقدر ما يستخلصونه منها لحفظ الأود والاتجار مع العابرين أو المقيمين بالمناطق القريبة.

أراك قد صدقت أنك نورس أو ما شابه، فما هي ذى التماعات أسراب الأسماك تلقت انتباهك، وما أنتذا تحملق في أفواج السلاحف الصغيرة التي خرجت لتوها من بيضها المدفون في الرمال السوداء وراحت تزحف مسرعة باتجاه موج البحر. يا له من منظر بهيج. نداء الحياة يجذبها إلى الماء فتجري قبل أن تهبط عليها جوارح الجو، وفي جريها لا تعباً بالكداس القواقع والطحالب التي لفظتها الأمواج، ولا بالأسماك الميتة أو بالسراطين التي تحفر أخنانها. صحيح أن في البحر أقراس وجوش، لكن فيه أيضاً الكائنات الأقل ضراوة كاللافين مثلاً، تلك التي تسبح أسراباً أو أزواجاً. انظر إلى قفازاتها الرشيقة فوق سطح الماء، ألا تُشعرك بالمرح؟.. وما هي أسراب السردين تلتمع تحت الماء وتقرض نفسها على عينيك وعيئي، وكذا أسراب أبو منقار، والسيوف والزلفانة. ولو دقت قليلاً لرأيت

الأسماك الكبيرة نسبياً، فهي هي أسراب اللوت، القاروص، الدنيس، البورى، السفرديا، البلاصيطا، النقط، المرجان، السيجان، الباغ، الموز؛ وقد تُنزع أسرابها الكثيفة الهشة في أن مجموعات من الخبار (السيبيا - السبيط)، الأخطبوط، وقناديل البحر والتعاين ؛ وفي العمق البعيد عنك وعنى تسبح في تودة أعداد من الوقار والحيتان والشبين والباراكودا والترسة وغيرها من الأجسام ضخمة الأجرام مفتوحة الشهية : ولو كنا من الطيور الغواصة لرأينا في قاع هذا البحر في موضعنا هذا أسماك غطا موسى، الجمبرى (الريبيان)، الاستاكوزا، الشيكال، الحناجل (الكابوريا - السراطين)، أم أربعة وأربعين؛ وملصقاً بالقاع ستجد الإسفنج وقد جاورته القواقع وفي أنواع وأنواع، منها على سبيل المثال لا الحصر الإختيتيا والسورنباقي، والجندوقلى، وبلح البحر، وصواغ الجنية، والخلول، وأم الخلول، واليكوليز، وما لا أعرف له اسماً.

عن الحوض الرمادى يادى الاتساع وتنوعه الحيوى:

هاهى ذى بحيرة المنزلة تتبسط تحتك - وأمامك وخلفك - بمياهها الرمادية وموجياتها الهادئة غالباً الثائرة أحياناً.

هى حوض هائل الاتساع والضخامة .. التنوع الحيوى بها من الغنى والاتساع بحيث أدهش الباحثين على مر العصور.

ومع هذا لا تستهولك الضخامة التى هى عليها الآن، ولا تنس أننا قد رجعنا بالزمن أو رجع هو بنا نحو مائة وخمسين عاماً، وأننا الآن فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى. مساحة البحيرة الآن أكبر بكثير مما هى عليه فى زماننا الذى جئنا منه، فقد فعلنا بها الأفاعيل. لا تستعجلنى الحديث فى هذه المسألة فكل مقام مقال.

كان أندريوسى واضحاً فى دراسته التى أجراها عن هذه البحيرة إبان الحملة الفرنسية، وبالتحديد عام ١٨٩٩م، حينما أكد على أن جيولوجيا مصر السفلى تخضع لمبادئ بالغة البساطة، ورد تكوين هذا اللسان الرملى إلى الأعاصير التى تحمل الرمال من قاع البحر وتلقى بها إلى الساحل وذلك عندما يلتقى التيار الساحلى الذى يتبع سواحل المتوسط من الغرب إلى الشرق بمجارى فروع النيل من جهة اليسار، وإن يحدث هذا تتضاعف سرعة هاتين القوتين المندفعتين مما يتسبب فى ترسيب يتخذ شكل قمع تتفاوت فى درجة حدتها بينما يتخذ البلاج، لوقوعه بين النهر وهذه القمم، شكلاً دائرياً ؛ وقد أكد أن هذين الشكلين دائمان، ويجدهما المرء عند مصب فرع دمياط، وعند فتحتى فم الدببة وأم فارج (أم مفرج) والمزج بين الرمل والطين موجود باتساع البلاجات بين دمياط وبيروز^(٤).

يهمنى أن تعرف أن مساحة هذه البحيرة التي نخلق فوقها الآن تتجاوز السبعمئة وخمسين ألف فدان، أما في الزمن الذي جئنا منه فمساحتها دون ذلك بكثير. ومع هذا فهي أكبر بحيرات مصر الطبيعية، وأخصب مسطحاتها المائية، وأكثرها إنتاجاً للأسماك، وترتبط بالبحر كما ترى من خلال بوغاز هو في الأصل مصب لفرع النيل التتيسي . وتقع هذه البحيرة بين خطي طول ٣١ ٤٥° و ٣٢ ١٥° شرقاً وخطي عرض ٣١ ٢٥° و ٣١ ٢٥° شمالاً. هل رأيت كم هي فسيحة؟.. قارن وستجد أنها شديدة الاتساع، مترامية الأطراف، وإن كانت ضحلة، وقلما تجاوز المتر عمقاً.

إن أردت معلومات أكثر فهي تقع في المنخفض الجيولوجي المحصور بين صدع البيلوزيوم من ناحية الشرق وصدع دمياط اللانقية من ناحية الغرب، وتشغل جزءاً من الدلتا القديمة لنهر النيل في المنطقة التي كانت تمر بها فروع النيل الثلاثة: المنديسي والتتيسي والبيلوزي. أراك مندهشاً.. لا تندهش فطبيعي أن الوضع لم يكن كذلك في العهد القديم . لا تقلن باصريك هكذا فيما تراه، ولا تضربين بجناحيك هكذا في الفضاء، فهذه المنطقة كانت بالفعل من أكثر المناطق خصوبة في العصور القديمة، وهناك من الشواهد الكثير والكثير مما يدل على أن منطقة البحيرة كانت واحدة من أزهى الجنان المصرية لولا أفعال الجيولوجيا والبشر، وقيل أن أحكى لك عن الحواضر العامرة التي كانت قائمة على مقربة من نقط التقاء خط الطول ٢٨ ٣٢° شرقاً وخط العرض ١٦ ٣١° شمالاً أسمح لي بأن أخبرك بأنه قبل القرن السادس الميلادي لم يكن لبحيرة المنزلة أي وجود، ومن ثم لم يكن هناك لسان رملي، فأى من الطبيعة والإنسان لم يكن في حاجة إليه لأن الاختضار كان هو الملح السائد في المنطقة بأسرها، ومعين هذا الاختضار هو تلك الأفرع الثلاث لنهر النيل.

والسبب في نشأة البحيرة يعتبر من المسائل الخلافية، ففي حين يميل كثيرون من المتخصصين إلى نسبة هذه النشأة إلى زلزال قوى حدث في النصف الأخير من القرن السادس الميلادي أدى إلى انخفاض أراضي هذه المنطقة وطفيان البحر واقتحامه لكثبان الرمل التي كانت تفصل بينه وبين الأراضي الزراعية(٥)؛ فإن آخرين أرجعوا هذه النشأة إلى حدوث تغييرات في خط شاطئ البحر أدت إلى تقدمه إلى داخل اليابسة في بعض المناطق وتراجعها عنها في مناطق أخرى(٦) ؛ وهناك من يرى أن هذه البحيرة ليست ذات أصل بحري، ولكنها تكونت من تجمع مياه النيل في منطقة منخفضة شمال شرقي الدلتا مما أدى إلى ظهورها على هيئة سلسلة من المستنقعات العذبة (٧) : أما العلامة جمال حمدان فقد رأى أن الأصل في بحيرات مصر الشمالية جميعها . ومنها بحيرة المنزلة.

مجرد خلجان هامشية من البحر لم تدمها تماماً رواسب النهر(٨)؛ وهناك من يرى أن سبب غمر أراضي شرق مصر بمياه البحر لا يرجع إلى الانخفاض عن سطح البحر، وإنما إلى ارتفاع منسوب مياه البحر، وجتهد في هذا أن ارتفاع منسوب مياه البحر كان عاماً بحيث تأثرت به سواحل البحر المتوسط كلها(٩).

لا تندهش للجزر الكثيرة التي تراها منثورة وسط مياه البحيرة، فحتى مع الغمر الهائل لمياه البحر، كما سبق أن أخبرتك، فقد نجت بعض المناطق اليابسة وظلت مشربة بأعناقها وتتأبى على الغرق. هل تعرف كم جزيرة هي ؟... لن تصدق، إنها ١٠٢٢ جزيرة. نعم ألف واثنان وعشرون جزيرة تصل مساحاتها إلى نحو ٣١٢٧٠ فداناً(١٠). بالطبع هي متفاوتة الأحجام ومن يجوبونها للصيد أو يقيمون فيها يسمونها بالأكوام والعلاوى والمراحات. والمراحات هي الجزر التي تضم تجمعات بشرية وتتخللها ممرات مائية تسهل عملية الانتقال. وكما أنها متفاوتة الأحجام فهي أيضاً متفاوتة الارتفاعات إذ تتراوح ارتفاعاتها عن سطح البحيرة بين العشرين سنتيمتراً والمترين، وبعضها عامر بالنباتات المائية والزراعات المحصولية كما ترى، وبعضها مغطى بطبقة رقيقة من الأملاح، وهي إما جزر طينية التربة مثل جزر: الحصنة، مورجان، الدمالون، ابن سلام، تنيس، كوم الذهب، الميدة، أبو مسلم، العين ؛ وإما جزر رملية التربة مثل جزر: غنيم، حجر، الظهر، بطيخ، جميل، السمريات، القرعة، عجاج، دياب، حطب، السرجة. وتتميز النوعية الأولى من هذه الجزر باتساع المساحة فقد تصل مساحة بعضها إلى ٢١٥ فداناً، بينما يغلب على النوعية الثانية صغر المساحة، وجمعها بين الرمال والقواقع . وأغلبها متعرج وغير منتظم.

أنت نورس دقيق الملاحظة إذ تسألني عن هذه الخطوط الرفيعة من اليابسة المتناثرة بين هذه الجزر، وتقول إنه لا يمكن اعتبارها جزراً.. نعم هذه الخطوط الممتدة طولاً في غير عرض كبير ليست جزراً ولا تدخل في الرقم المذكور آنفاً. إن كل خط منها يسمى برأ مثل: بر الرمل، بر العفريت(لا تخف فلا شيء يخيف في هذا البر)، وبر الحمار (لا تضحك).

وتتميز بيئة هذه البحيرة بوفرة الحشائش والنباتات المائية التي تنمو فيها وعلى ضفافها الخارجية وحواف الجزر والمناطق القاحلة والمزروعة منها، ومن أهم هذه الحشائش والنباتات: البردى، الحجة، السمار، النسيلة، الخُرزة، البشتين، ورد النيل(يأسنت الماء)، الحامول، السرمق (له أسماء شائعة أخرى مثل القطف، الخُبيرة الإفرنجى والسبانخ الرومى)،الملوح، الزينة، السويدية، الزيتون، الحدادى .. وأنواع مختلفة من اليوص والغاب والطحالب . وهذه النباتات أنواع، فمنها المغمور مثل: نباتات نخشوش الخوت والطحالب ؛ ونباتات جرفية (تلك التي تنمو على حواف المسطح المائي) مثل: الغاب والسمار والبردى ؛

والنباتات الطافية وهي إما: نباتات حرة الطفو لا تتصل جذورها بالقاع مثل نبات ورد النيل، أو نباتات طافية ثابتة الجذور مثل نبات البشتين(١١).

وهناك نباتات أخرى تنمو في المناطق القاحلة داخل الجزر وتحمل ملوحة التربة وجفافها وهي النباتات العصيرية كالملاح، الزينة، السويدية، الزيتون، الحدادي ؛ ولهذه النباتات جميعها دور بيئي عظيم الأهمية فهي تجدد الأكسجين الذي تستنزفه الأحياء المائية وتثبت قاع وجوانب البحيرة من الانجراف بفعل حركة المياه فضلاً عن تنقية المياه. وطبيعي أن البشر يستخدمون الكثير من هذه النباتات فضلاً عن أنها غذاء مهم للحشرات والأسماك والطيور ومأوى يوفّر البيئة الصالحة لتكاثرها.

ويما أنك نورس فإنك قادر على التمييز بين أنواع المياه . تقول أنك تعرف نوعين من المياه: العذب الفرات، والمالح الأجاج، ولأنك طائر بحري فأنت تميل بالطبع إلى الملح الأجاج الذي تلائم كائناته حيوصلته؟.. لكن غير هذين النوعين يوجد نوع ثالث هو نوع المياه الشروب . لا تسأل عما تكون هذه المياه فطواعية سأشرح الأمر لك . في جنوب البحيرة مياه عذبة لكنها ليست فرائاً، وفي شمالها - لاسيما بالقرب من البواغيز - مياه ملحة لكنها ليست أجاجاً، وبينهما توجد المياه الشروب وهي المياه العذبة شبه المالحة وتحمل هذه النوعية من المياه معظم المسطح المائي في البحيرة، والسبب يعود إلى أن البحيرة تمثل مصباً طبيعياً للقنوات المتفرعة عن النيل والمصارف الزراعية . إذن فدرجات الملوحة في البحيرة شديدة الانخفاض في المناطق الجنوبية منها وشروب في معظم مسطحها المائي، وعالية في الشمال لاسيما الغربي منها. ويشكل البخر المصدر الرئيسي لفقد المياه من بحيرة المنزلة حيث يصل معدل البخر اليومي إلى ٥,٥ سم/ يوم أو ٢,٤ مليار متر سنوياً، كما تصل كمية التسرب من أسفل عن طريق الخزان الجوفي إلى ٢,٥ مليون متر مكعب سنوياً، وقد أثبتت الدراسات أن التسرب من البحيرة إلى البحر والعكس عن طريق القاع متماهي الصغر(١٢).

وتتميز مياه البحيرة على وجه العموم بطبيعتها القلوية فتوصف بأنها قلوية التفاعل، إذ تحتوي على نسبة غير قليلة من الكلوريدات والكبريتات والبيكربونات وقليل من الأزوتات كما تحتوي على الصوديوم والجير والمغنسيوم والسيلكون ويبلغ الوزن النوعي لمياه البحيرة ١,٠٢ - ١,٠٢ ترتفع في أوقات التحاريق إلى ١,٠٥ - ١,٠٧ ولذلك اشتهرت البحيرة بالملاحات.

وتتألف البحيرة من حوالي ٣٠ حوضاً تعرف محلياً بالبحار مثل بحار: دشدي، الديجو، أتريب، أم الجيف، البشتير، الجنكي . وتختلف الأحواض في أعماقها وتتميز بتجاورها مما

يسهل الانتقال فيما بينها(١٣).

وما دمت أيها النورس قد خبرت نوعيات المياه داخل هذه البحيرة، فقد أن لك أن تعلم أن تركيبة المجتمعات السمكية التي تعيش فيها تعتمد على التغير في درجة الملوحة، مثلما تعتمد على الحركة الدورانية للمياه فيها. وهذه الحركة الدورانية لا تسهم فقط في التطهير الذاتي للبحيرة، وإنما أيضاً في دفع الأسماك السطحية والقاعية إليها . وفي أحوالها العادية توفر البحيرة جميع الظروف اللازمة لنمو وبناء الأسماك التي تعيش فيها أو تغد إليها . وعلى الرغم من عدم وجود حصر دقيق لنوعيات وأحجام الأسماك التي تعيش في البحيرة، إلا أن الشواهد - تؤيدها بعض الدراسات والإحصاءات القليلة - تدل على اغتناء البحيرة بأنواع عديدة من الأسماك، ويمكن تصنيف المعروف منها إلى:

أسماك المياه العذبة:

وتأتي إلى البحيرة من النيل عبر الترع والقنوات والمصارف، وهي إما أسماك تعيش في نطاق ضيق من الملوحة مثل أسماك: البلطي والقرموط، وإما أسماك تعيش في نطاق واسع من الملوحة مثل البلطي الحساني الأخضر (الشيار).

أسماك المياه المالحة:

وتأتي إلى البحيرة من البحر عبر البواغيز وهي في طور الزريعة أو الأصبعيات، وما إن تنمو حتى تهاجر إلى البحر مرة أخرى . وهي إما أسماك تعيش في المياه العذبة والمالحة (معا) دون أن تموت كأسماك البوري والطويرة والحنشان؛ وإما أسماك تعيش في نطاق واسع من الملوحة كالجرانة والقاروص والنقطة واللوت والزلعانة وأبو نصف منقار؛ وإما أسماك تعيش حيث الملوحة العالية ولذا تظل في المناطق القريبة من البحر مثل الهيلي والدنيس وأسماك موسى.

وتوجد في البحيرة أيضاً عائلات القشريات كالسراطين (أبو جلمبو - الكابوريا) وجراد البحر والروبيان (الجمبري)، وبعض أنواع من الرخويات التي تعيش داخل القواقع والمحار ذي المصراعين (البكلوز).

وتشكل الحشرات والطفيليات حلقة مهمة من حلقات السلسلة الغذائية في البحيرة، فتنتشر فيها ومن حولها أعداد لا حصر لها من الحشرات الطائرة والزاحفة والفاطسة، منها: البعوض والهاموش والعصويات والزنابير وذباب المنازل والفاكهة والخنافس الدوارة والفاطسة والنمل والعناكب وصراصير المنازل والحقول، والديدان المفلطحة والخطية كالإنكستوما والإكسيورس والإسكارس ؛ وجميعها تعتبر من المستهلكات الثانوية التي تغتذى على المنتجات الأولية أو العفن أو دماء وأنسجة وعصارات الفرائس الحيوانية

والنباتية التي تتطفل عليها أو على بعضها البعض. وبالتالي تتغذى عليها وعلى يرقاتها الرتب والأنواع الحيوانية الأعلى كالأسمك والطيور وبعض الحيوانات.

وعلى الرغم من أن بعضها ضار بصحة الإنسان والحيوان، إلا أنها تمثل حلقة مهمة من حلقات السلسلة الغذائية في بيئة البحيرة كما قلت لك، فضلاً عن دورها في عملية تلقيح النباتات المنتشرة حول وداخل البحيرة.

والبعوض هو أهم هذه الحشرات وأكثرها انتشاراً. وعلى الرغم من أن معظم أنواعه الموجودة بالبحيرة ليس ضاراً، فإن منه ما يحمل الجراثيم التي تسبب عدداً من الأمراض المهلكة مثل: الملاريا والحمى الشوكية والحمى الصفراء، وهي أنواع تعيش على ما تمتصه من الدماء. ويعوضه الأنوفليس الفرعوني ناقلة طفيل الملاريا هي الأكثر انتشاراً في بيئة البحيرة. واحذر يا عزيزي فهذا النوع من البعوض لا يحدث صوتاً أثناء طيرانه (لا يَزِن) كما أن لدغته ليست لاسعة.

وتشهد البحيرة في فصلي الربيع والصيف خروج الهاموش كامل الأطوار في أعداد هائلة تحملها الرياح من سطح البحيرة المائي إلى اليابسة وتنقل أسرابه أثناء هذا الخروج كميات كبيرة من المواد العضوية من بيئة البحيرة.

والبحيرة أيضاً غنية بالبكتيريا والطفيليات التي تعيش داخل أو خارج عوائلها، ومن أهمها طفيل الهستروفوس الذي ينتقل إلى الإنسان والحيوانات الثديية عن طريق الأسماك(١٤). وينتشر في المناطق الجنوبية عدد من القواقع المنتشرة في دلتا نهر النيل، التي يعتبر كل منها عائلاً مثالياً لتفريخ سركاريا البلهارسيا. إلا أن هذه القواقع غير موجودة في مناطق المياه المالحة، مما يحد من انتشار فرص البلهارسيا لاسيما في المناطق الشمالية من البحيرة.

وأنواع البكتيريا والفيروسات الممرضة الموجودة ببيئة البحيرة متعددة مثل: بكتريا القولون التي تسبب الإسهال، والشيحلا وتسبب الدوسنتاريا، والسالمونيلا وتسبب التيفود والباراتيفود، والكوليرا وتسبب المرض المسمى باسمها. ومن الفيروسات المنتشرة فيروس شلل الأطفال وفيروس التهاب الكبدى الوبائي. ومن الكائنات الدقيقة وحيدة الخلية: الانتاميبيا وتسبب الإسهال والزلات المعوية وخراج الكبد، والجيارديا وتسبب الإسهال، ونجليزا أميبيا وتسبب التهاب السحائي المخي(١٥).

لماذا تبعد عنى؟.. هل أزعجتك؟.. أه أيها النورس الزائغ.. أنت تحاول اللحاق بالنورسة الفاتنة التي حفت بك وسيفتك وسيفقتى.. أرجع، فقد تقودك إلى سرب النوارس الذي تنتمى إليه، وقد تنفرد بك في جزيرة من الجزر لتستمتع بك وتستمتع بها، واحذر فطيرانك خلفها

سيكون سبباً في أن تلقى حتفك، فقد ينقض عليك أكثر من غراب من غربان البحر، فينقروك نقرأ يجعلك تتمنى الموت قبل أوانه.. ارجع، ولا تكن غريباً فتهلك، ثم لا تنس بداية أنك نورس بشرى، وما تفعله الآن ضد الطبيعة التي فطرت عليها.

جميل أنك توقفت عن ملاحقة هذه النورسة. أنت نورس عاقل . أرحت نفسك وأرحتني، فتعال الآن أحدثك عن طيور هذه البحيرة . انتن معي إلى هذه الناحية، ثم تلك، وتلك، وتلك أيضاً.. أرايت الكثافات اللونية التي تتركش مياه البحيرة وتتحرك فوق الجزر والأحراش؟.. إنها طيور الماء، وتقدر أنواعها - حسبما سجل العلماء فيما بعد - بنحو ٤٥٠ نوعاً(١٦). وتتوزع هذه الأنواع على مجموعتين عريضتين إحداهما مقيمة والأخرى مهاجرة، وهذه الأخيرة تنقسم إلى طيور عابرة إلى مناطق الإشتاء - وبحيرة المنزلة من أهمها - وطيور تقضى فترة الشتاء بأكمله فيها . وتقدر أعداد الطيور العابرة بنحو ٢ مليون طائر(١٧)، بينما تقدر الطيور المقيمة بنحو ٣٠٪ من مجموع الطيور المسجلة(١٨). وقدر العلماء - فيما بعد طبعاً - جملة الطيور المهاجرة التي تأوى إلى البحيرة في الشتاء فقط بنحو ٣٠٠ ألف طائر(١٩).

واتساع مسطح البحيرة وتنوع بيئاتها بين مياه ضحلة وجزر مغطاة بالنباتات وقنوات مائية ومسطحات طينية جعل لها أهمية خاصة كماؤى لكل هذه الأنواع والأعداد من الطيور. ومن أهم المناطق التي تجاور بحيرة المنزلة بحيرة الملاحه ببورفؤاد.

ومن أهم الطيور المتواجدة بالبحيرة: البط الكيش والحمراى والزرقانى والخضارى والشرشير والشرشير المخطط والبلبول والشهرمان، والغُر، وبجاج الماء والدجاج السلطاني، والقطقاط الذهبي والرمادي وقطقاط الرمل الكبير، والنوارس التي تنتشبه بها الآن - والنوارس كما تعلم ليست نوعاً واحداً فمنها الفضى والقرقطى وأسود الرأس وصغير الحجم وكل هذه الأنواع موجود في البحيرة - والبليشون الأبيض والرمادي والأرجواني والبشاروش، والبجع الأبيض، والإوز العراقي . ومنها أيضاً طيور الغطاس، سواء كانت حمراء الرقبة أو سوداء أو كانت متوجة، والمُليح، وطيوطى البطانخ واخضر الساق وأحمرها وأرقطها، والأبقع، والسنتونو، وأكل المحار، والنكأت، وأبو اليسر المطوق، والقناير، والوروار، والزقران البلدى والشامى، والكروان رفيع المنقار، وكروان الماء الأوربى، والكروان الغيطى الصغير، واليمام الحمري والبلدى والمطوق، وأبو الفصاد الصغير. وفيها أيضاً غراب البحر وغراب الليل وخطاف البحر، وغيرها كثير.

والوالم أيها النورس العزيز أن أساليب عيش البشر ستهدد فيما بعد بانقراض أنواع مثل : المُلح والبشاروش والبط الشهرمانى والبط الخضارى والبط الزرقانى والدجاج

وصدق أو لا تصدق، هذه البحيرة تهب أماليها طواعية ويدور إجبار مادة الجبس بعض مناطق منها غنية بمادة البناء هذه والحصول عليها لا يتطلب جهداً أو عناءً، لكن فيما بعد - في الزمن الذي أتينا منه - سيحتاج من الراغب فيه أن يخفر في القاع ليحصل عليه، وسيستلزم هذا دفع رسوم مالية في حين أنه الآن متاح للراغب دونما تنظيم وبلا مقابل، ومما تهب البحيرة من ثروات الملح المستخلص من البرك والسبخات على أطراف البحيرة، تصير الحكومة في قادم السنوات استغلالها للسمية التي ستصبية نتيجة للتلوث الذي سيطرأ على بيئة البحيرة . وفي قادم السنوات أيضاً سوف تحاول الحكومة الكشف عن البترول والغاز الطبيعي في قاعها.

المناخ هنا، فمعروف أن مناخ أية منطقة يتأثر بعدة عوامل منها الموقع بالنسبة لخطوط العرض والطول، وطبوغرافية وتضاريس الأرض، والمساحات المائية القريبة منها أو المحيط بها لتأثيراتها الواضحة على درجتي الحرارة والرطوبة وكميات الأمطار ولارتباطها بسرعة الرياح . وجميعها تضافرت لتسهم في إيجاد مناخ جيد يساعد على تواجد حياة نشطة بالمنطقة، فالنهاية الدنيا لدرجة الحرارة تصل صيفاً إلى ٢٤,٥ درجة في المتوسط، أما متوسط نهايتها العليا فيصل إلى ٣١ درجة ؛ ويصل متوسط النهاية الدنيا شتاءً إلى ١٣ درجة، أما متوسط النهاية العليا فيصل إلى ١٩ درجة ؛ ومتوسط نسبة الرطوبة هو ٧٢ صيفاً و ٧٤ شتاءً ؛ أما مجموع كميات الأمطار بالمليمتر فهي صفر في الصيف و ١٩,٤ شتاءً ؛ وتتراوح سرعة الرياح بين ١٠ كم / ساعة و ٢٠ كم/ساعة . وأقصى درجة حرارة سُجلت على وجه الإطلاق هي ٤٦ درجة مئوية، وقد سُجلت في شهر يونيو، وتراوحت أدنى درجة حرارة بين الصفر ودرجتين مئويتين وقد سُجلت في شهر فبراير، أما نسب الرطوبة فهي عالية في المعتاد، على النحو الذي سلف ذكره، ويندر أن تقل عن ٧٠٪ أو تزيد عن ٨٠٪ (٢٢). وتتماثل سرعات الرياح تماثلاً نسبياً خلال العام وتصل إلى ذروتها في فصل الربيع، إذ تصاحبها رياح الخماسين.

ويمكن حصر النوات في عشرين نوةً الأغلبية الغالبة منها تحدث في فصول الخريف والشتاء والربيع، وواحدة منها فقط تقع في بداية فصل الصيف أو على مشارفه، وتعتبر أشهر نوفمبر وديسمبر ويناير ومارس أكثر شهور السنة استقباليةً للنوات في منطقتنا . وهي على العموم قصيرة الأمد . قد تستمر لسبعة أيام، كما في نوتي الكرم (يناير) والحسوم (مارس)، وقد لا تستمر إلا يومين اثنين فقط، مثلما هو الحال مع نوة الشمس الكبيرة ورياح الخماسين ورياح النقطة، وهذه النوات على خطورتها ليست مهلكة إن تم التحسب لها، إلا أن أخطرها ما يتعلق برياح الصليبية التي تهب على هذه المنطقة في أكتوبر من كل عام، وهبوب هذه الرياح يكون شديداً كل خمس سنوات، وإذا ما هبت تحدث ما يشبه الإعصار، وقد تحدث بسببها كوارث ضخمة حيث تهب الرياح في وقت واحد من جميع الاتجاهات.

الفصل الثاني

ثلاثة أفرع وحاضرتان

اسمح لى الآن أيتها النورس العزيز، ونحن نطوف بأجواء موضحنا أن أسرد عليك نبذات عن فروع النيل القديمة التي كانت تمر بهذا المكان أو بالقرب منه في قديم الزمان. لعلك تعرف أنه كانت للنيل سبعة أفرع في دلتاه، وكانت المنطقة التي تُحلق فوقها الآن جزءاً من هذه الدلتا، بل كانت أخصب أراضيها وهذه الأفرع كما سماها استرابون الذي زار مصر بعد هيرودت بحوالى ٥٠ سنة في القرن الأول الميلادي هي: الفرع البيلوزى، والفرع التتيسى، والفرع المنديسى. وقد حدثك عن هذه الأفرع الثلاثة - أما الفروع الأربعة الأخرى فهي: الفرع الفاتنيتى، الفرع السنينتى، الفرع البوابيتى، والفرع الكانونى. وجميعها يحمل أسماء أهم المدن التي كانت تمر بها، ولا يهمننا هنا سوى الفروع التي كانت تمر بمنطقة: البيلوزى، التتيسى، والمنديسى.

الفرع البيلوزى:

لنبدأ بالفرع البيلوزى المنسوب إلى مدينة بيلوز التي كانت قائمة على مصبه وسأحكى لك عنها حكايات وحكايات. كان هذا الفرع يبدأ من رأس الدلتا القديمة عند جزيرة الوراق شمالي إمبابية ويتجه شرقاً متبعاً مجرى ترعة الشرقاوى وأبى الأخضر وفاقوس، وكان يتصل بالبحر المتوسط عند منطقة المحمدية بسيناء حيث ميناء بيلوز الذي كان يقع على بعد ٢٨ كيلو متراً جنوب شرقى موضحنا الحالى، ولأثار هذا الميناء شهرة سوف أحكى لك

تتغاً منها بعد قليل. ويكفى أن أقول لك أن الخليج الذي كان هذا الميناء يُطل عليه سمي باسمه فأصبح يعرف لمد طويلة من الزمان بالخليج البيلويزي. وحسب دي بوا - إيميه (أحد علماء الحملة الفرنسية) فإن الفرعين البيلويزي والكانوني كانا يشكلان قمة الدلتا ويحدها من ناحية الشرق والغرب(٢٣).

الفرع التنيسي:

وكان الفرع التنيسي يتبع مجرى بحر موييس الحالي من عند تل أتريب (شمال بنها حالياً) وكان يمر بمدينة تنيس على بعد تسعة كيلومترات جنوب غربى موضعنا الحالي، وكان يصب عند نقطة سُميت ببوغاز تنيس، ثم أطلق على هذا البوغاز بعد ذلك اسم أم فارح أو أم مفرج، وهو اسم محرف لطايبية قروجة التي بنيت في عصر محمد علي باشا. ويقع هذا البوغاز أو الفم على بعد ٢٠ كيلو مترا شرقي موضعنا.

الفرع المنديسي:

أما الفرع المنديسي فكان يبدأ من قرية كفر الجهنمي على بعد ستة كيلومترات جنوبى مدينة ميت غمر ويمر بتل تسمى الإمديد (نمويس) قبل أن يمر بمدينة (مندس) عاصمة مصر في عهد الأسرة التاسعة والعشرين، وقد ظلت هذه المدينة من سنة ٣٩٩ إلى ٣٧٩ قبل الميلاد، أى لمدة عشرين سنة محل إقامة ملوك مصر . ومعنى كلمة مندس باللغة المصرية القديمة جزيرة التيس وقد انتشرت فيها عبادة أوزوريس . وكان هذا الفرع يأتى إلى موضعنا هذا أو يخف به، ليصب مياهه في البحر المتوسط من خلال بوغاز الديبة، هنا أسفل منا باتجاه الغرب قليلاً . وبوغاز الديبة هذا أمر محمد علي باشا ذات مرة بردمه حتى لا تزداد ملوحة مياه بحيرة المنزلة بتأثير مد البحر، فأوسع البحر من فم أشتوم الجميل الواقع إلى الغرب من مصب الديبة المردوم . هذه هي أقاعيل الطبيعة.

عن الازدهار الحضارى القديم فى المنطقة:

إنّ فقد كانت هذه المنطقة ممراً ومعبراً للمياه العذبة إذ تشق طريقها للزوبان في مياه البحر المالح ؛ وحيث يوجد الماء العذب توجد الخضرة، وتتووع صور الحياة، وتتعدد مظاهر وممارسات البشر. وللشعر عادات وأساليب تختلف باختلاف البيئات ما بين بدوية وريفية وساحلية وحضرية؛ فما بالك وقد جمعت الأزمان السالفة هذه البيئات كلها في المنطقة التي نخلق فوقها الآن؟... بالتأكيد سنجد فيها إن بحثنا، وربما بدون بحث، مفردات مثل: المضرب والحقل والشاطئ والمدينة، والجوادر والحراث والمركب والمركبة، والخيمة والبيت والمعبد والقصر والقلعة... إلى آخر ما يستحدثه البشر ويستخدمونه بتتابع لا ييزهم فيه أى كائن حى.

ولعله قد أن أوان الحديث عن الحواضر التي قامت واندثرت بالقرب من منطقتنا ،
واسمح لى أن أركز حديثى على اثنتين منها فقط .
لنبداً بتتيس الموعلة فى القدم .

تنيس:

لنتجه إلى المتبقى منها .. والمتبقى جزيرة الوصول إليها ومشاهدة ما بها ليس
بالمعضلة . فقط حرك جناحك واندفع معى باتجاه الجنوب الغربى ، وإلى أن تلوح لنا
ساقص عليك أطرافاً من أخبارها .

يعود تاريخ إنشاء مدينة تنيس إلى ما قبل الأسرة الثامنة عشرة من الأسر التي
حكمت مصر القديمة . وإبان الحملة الفرنسية وصفها أندريوسى بأنها وجزيرة تونة من
أهم جزر بحيرة المنزلة ، وأنها احتفظت باسمها فى حين أصبح يطلق على جزيرة تونة اسم
عبد الله (عبد الله بن سلام) وهو اسم شيخ أو ولى أقيم له ضريح فى هذه الجزيرة(٢٤) .
وقد استدل ابن حوقل على قدمها من وجود تلال من جثث الموتى المتراكمة التي وجدت
ملفوفة فى أكفان من الكتان كما كان يفعل قدماء المصريين . وكان بها عمارة لم يكن
يأحسن منها ، وبُنيت الملوك مصر فى وسطها مجالس ونصبت عليها قباب زينت بأحسن
الزينة والنقوش ، فإذا بدأ النيل يجرى انتقل الملوك إليها ، فأتقأموا بها إلى النوروز ، ثم
رجعوا ، وكان كل ملك يأتى يعمرها ويزيد فيها ويجعلها متنزهاً له ، ولم يكن بينها وبين
دمياط سوى مسيرة نصف نهار .

وحسب المسعودى فإن " طولها من الجنوب إلى الشمال ثلاثة آلاف ذراع ومائتا ذراع ،
وعرضها من المشرق ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وثمانون ذراعاً ، ولها تسعة عشر باباً
مصفحاً بالحديد ، وبها نحو مائة وستين مسجداً ، وستة وثلاثون حماماً ، ومائة معصرة
للزيت السرج والقصب ، فضلاً عن مائة وستون طاحوناً ، وعدد كبير من الحوانيت " .
واشتهرت تنيس بالزراعة ، وكانت بها أشجار كثيفة من النخيل والكروم . وأقيمت بها
صهاريج عظيمة تحت الأرض كانت تملأ بمياه النيل عندما تفيض وتطرد المياه الملحة .
وكان السكان يستعملون هذه المياه حتى السنة التالية ، وكل من لديه ماء فوق حاجته يبيع
الفاض لغيره ، وجمعت إلى شهراتها العديدة شهرتها فى صناعة الألبان وصيد الأسماك .
وقيل والعهد على الرواة إن السيدة هاجر زوج إبراهيم الخليل وأم إسماعيل من
تنيس(٢٥) ، إلا أن آخرين قالوا بأن إبراهيم الخليل لم يحط رحاله إلا فى تانيس - وليس
تنيس - وهى صوبين المعروفة الآن بضان الحجر .

ومن قبيل الخلط بين الإخبار والأسطورة ما ذكره تقى الدين أحمد بن على المقرئى فى

كتابه المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بخط المقيزي أن تنيس بلدة من بلاد مصر في وسط الماء سُميت بهذا الاسم نسبة إلى تنيس بن حام بن نوح، كما ذكر أيضاً أن الذي بناها هو قليمون بن أنريب بن قبطيم (أحد ملوك القبط)، إلا أنه بالبحث في الكتاب المقدس لم يستدل على اسم تنيس كإبن لحام بن نوح ضمن سلسلة مواليد بني نوح (ك) (١٠) (٢٦). وقد ذكر المقيزي أن تنيس كانت تصنع كسوة الكعبة المشرفة . ومن طريف ما قاله عن تنيس أنه في سنة ٣٧٨هـ. صيد بأشتوم تنيس حوت طوله ثمانية وعشرون ذراعاً ونصف ذراع، وطول رأسه تسعة أذرع، ودائرة بطنه مع ظهره خمسة عشر ذراعاً، وفتحة فمه تسعة وعشرون شبراً. وقد أمر أمير تنيس أبو إسحاق بن لوبه به فشق بطنه وملح بمائة إردب ملح، وقد رُفِعَ فكه الأعلى بعمود خشب طويل . وكان الرجل يدخل إلى جوفه بقال الملح وهو قائم غير منحن، ثم حملوا الحوت إلى القصر حتى رآه العزيز بالله. ومن طريف حكاياته أيضاً أنه في ليلة الجمعة ١٨ ربيع الأول سنة ٣٩٩هـ. شاهد أهالي تنيس تسعة أعمدة من نار تلتهب في آفاق السماء من ناحية البحر، فخرج الناس إلى ظاهر البلد يدعون الله حتى أصبحوا فحفت تلك النيران (٢٧).

وكانت فيها آثار كثيرة للأوائل، وأكبر مسجد بها طوله ١٠٠ ذراع، وعرضه ٧١ ذراعاً، ويوقد فيه كل ليلة ١٨٠٠ قنديل، وكل مساجدها ذات منائر غير الزوايا العديدة، وبها ٧٢ كنيسة، ٢٥٠٠ حانوت، ٥٠٠٠ منسج للنسيج الأقمشة . واشتهرت بصناعة النسيج وذاع صيت الحل التنيسية من الكتان، وكان يبلغ ثمن الحلة مائتي دينار . وكان لا يصنع الثوب للخلفاء في بغداد إلا منها. ويقال له البُدنة، يصنع من الذهب، ولا يدخل فيه من الفلز غير أوقيتين . ويُذكر أن ثوباً صنع فيها للخليفة من عرض واحد بلغ ثمنه ألفي دينار. وكانت تجارتها من الأقمشة مع العراق حتى سنة ٣٦٠هـ. (سنة ٩٧٠ ميلادية) تتراوح بين عشرين وثلاثين ألف دينار سنوياً . وكان نسايج تنيس ينسجون بالوقلمن الذي لا ينسج في مكان آخر من جميع أنحاء العالم، وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار، وكانت تُحمل أثوابه إلى المشرق والمغرب ويقال أن إمبراطور الروم عرض على سلطان مصر (الخليفة الفاطمي) أن يأخذ منه مدينة تنيس ويعوض عنها بمائة مدينة من مدائن دولته فرفض.

ومع هذا العمران كانت تنيس مدينة عسكرية اشتهرت بصنع السلاح، وكانت لها أسوار حصينة، وحسب المسعودي فإن صناعة السلاح المتخذ من الصلب من الصناعات التي كانت تبلغ فيها تنيس مبلغ منسوجاتها، ولأنها ظلت مطمعاً دائماً للقراصنة والغزاة، فقرر المتوكل سنة ٢٣٩هـ. (سنة ٨٥٤ م) أن يقيم فيها حصن على غرار ما فعله في

ويحضرني هنا مما قرأتُ في الزمن الذي أتينا منه عن قصة هذا الحصن أن الروم هاجموا دمياط سنة ٢٨٣هـ. (٨٥٣ م.) فملكوها وما فيها وقتلوا فيها عدداً كبيراً من المسلمين وسبوا النساء والأطفال وأهل الذمة فنفر إليهم عنبسة بن إسحق، وكان أمير مصر في جيش كبير فلم يدركهم، ومضى الروم إلى تنيس فلم يتبعهم عنبسة فقال يحيى بن الفضل للخليفة المتوكل (٢٨) :

أترضى بأن يوطأ حريمك عنوة
حمار أتى دمياط والروم وتب
وأن يستباح المسلمون ويحربوا
بتنيس رأى العين منه وأقرب
مقيمون بالأشتوم يبغون مثل ما
أصابوه من دمياط والحرب ترتب
فما رام من دمياط شبراً ولا درى
من العجز ما يأتى وما يتجنب
فلا تنسنا إنا بدار مضيفة

بمصر وإن الدين قد كاد يذهب
وقد حول صلاح الدين الأيوبي تنيس إلى مدينة حربية سنة ٥٨٨هـ. (١١٩٢ م.) ، ونقل أهلها ومناسجها ولم يبق فيها إلا المقاتلون . وبسبب من الحروب الصليبية أمر الملك الكامل محمد بن العادل بن أبي بكر بن أيوب سنة ٦٢٤هـ. (١٢٢٧ م.) بتهجير من فيها من أهلها وهدمها ، حتى لا تقع في أيدي الصليبيين، وهكذا اختفت تنيس إلى الأبد، ولم تنبق منها إلا آثارها الدوارس.

ها هي ذى جزيرة تنيس تلوح في الأفق، فمد جناحيك واتبعني لأريك بعضاً من مجد تنيس الغابر. انظر .. ها هو تل تنيس الأثرى.. لقد ابتلت البحيرة الكثير من آثار المدينة التي كانت ظاهرة ولم يتبق سوى هذا التل.. وكما ترى فإن مساحته تزيد أو تقل قليلاً عن الثمانية كيلومترات مربعة، ومتدرج الارتفاع، وارتفاع قمته عن سطح البحيرة يصل إلى أربعة أمتار ونصف المتر. ومع هذا فهأنذا ترى شواهد الحياة التي كانت تمارس هنا وقت أن كانت هذه الأطلال عامرة بالحياة.

هذه الحفرة التي تكسو التل هي حمرة بقايا المبانى المتحللة وكانت تُبنى من الطوب الأحمر.. وها هي أكادس أدوات المعيشة أغلبها كما ترى من الفخاريات المهشمة. انظر إلى

الصوامع والحمامات وخزانات المياه .. تبدو منبهراً من دقة هندستها، بالفعل هي مبهرة من هذه الناحية. إن أردت أن تقترب أكثر فلنقترب . إنك تبدو مأخوذاً وأنت تتابع رصف الأبنية والأسقف والسراديب المبنية بالأجر الذي ما زال محتفظاً بصلابته على الرغم من الرطوبة والرياح والرمال الملحية . انظر إلى هذا العמוד الرخامى ، ألا تشعر ببعانى العظمة والظود، ويعطيك إحساساً قوياً بالتحام الحضارات والتواريخ؟

لقد كانت تنبئ حاضرة ليست ككل الحواضر.

بيلوز التى أصبحت الفرما:

لننطلق شرقاً.

لن نظير كثيراً فأتار الحاضرة التى نطلبها قريبة جداً. ثمانية وعشرون كيلومتراً فقط ونصل إليها.

حتى نصل، دعنى أخبرك بأننا سنتجه إلى بيلوز التى كانت، وقد كانت حصن وسوق مصر الشمالى الشرقى، وكثيرون يربطون بينها وبين الفرما، ويرون أن الفرما هي بيلوز بتسميتها العربية، وأن الفرما ما أقيمت إلا على أطلال بيلوز أو ملاصقة لها، واسمها المصرى يعود القديم بر أمون، أى مدينة الإله أمون، ومنها الاسم العبرى يرمون، والقبطى برونى وبرما، والعربى الفرما . وبيلوز أنشئت كضاحية لمدينة أمون فى العصر اليونانى وسكنها بعد ذلك البيزنطيون والرومان والعرب.

والحقيقة أن تعاقب المدن فى نفس الموقع، وفى بعض الأحيان فى نفس الموضع، يمثل ظاهرة يمكن تلمسها بوضوح فى كثير من المدن المصرية. وما شهادته على سبيل المثال مدينتا الإسكندرية والقاهرة ، يماثل مع الفوارق بالطبع ما شهادته بيلوز.

ويعنى بيلوز هو الطبيعة لوقوعها فى منطقة تغطيها البرك والمستنقعات. ومن تفسيرات أسماء المدن المخلوطة بالأساطير والخرافات والحيل اللغوية ما قيل من أن الفرما كانت بحيرة ماء فغرق فيها ألف مركب ورمى البحر منها ألف رجل فسميت ألف رما أى ألف رمة وتحولت إلى الفرما (أبو المكارم - القرن الثانى عشر) ؛ ومنها أيضاً ما نقله المقرئى عن ابن خالويه من أن الفرما سميت باسم أخى الإسكندر باني الإسكندرية وكان يسمى الفرما : وعلى غرار ما يذهب إليه الأخلاقيون الدينيون المتعاملون بأمور الدنيا دونما سند من العلم اللهم إلا بعض الروايات غير المؤصلة ذهب جلال الدين السيوطى إلى أقصى ما يكون عليه الوعظ الأخلاقى حينما رد ذبوع صيت مدينة الإسكندر عن مدينة شقيقه، حسبما كان يروى وقتها، إلى أنه - أى الإسكندر - قال لما بنى مدينته : هذه مدينة فقيرة إلى الله تعالى غنية عن الناس فبقيت بهجتها، فى حين أن شقيقه الفرما قال عن مدينته :

هذه مدينة غنية عن الله فقيرة إلى الناس فذهبت بهجتها (٢٩).

وقد بلغ عدد سكانها في العصر المصري القديم حسب إحدى الروايات مائة ألف نسمة، وكانت مسرحاً لجزء من أحداث أسطورة إيزيس وأوزيريس، فالصندوق الذي خدع به ست والمتآمرون معه - أوزيريس الطيب وأغلقوه عليه لما تمدد فيه ثم سمروه وختموه بالرماس المذاب ، هذا الصندوق حملوه وألقوا به في أشتوم الطينة (بيلوز)، وما لبثت مياه هذا الأشتوم أن دفعت به إلى البحر، لذا فقد كان هذا الأشتوم مكروهاً، وتضطر إيزيس إلى مواصلة رحلة بحثها بالاتجاه نحو بيبيلوس لتستخلصه - كما هو معروف - من الشجرة التي حل فيها، وإن تحقق لها هذا لفته رافة وشفقة وحنواً في قطعة من القماش وضعت فوقه دهاناً وأرقدته في الصندوق وأنزلته في سفينة عادت بها إلى بيلوز، فلما صارت في معزل خيأت الصندوق في مكان مستتر، وقيل في غابة كانت أشجارها متكاثفة، وذهبت تبحث عن حوريس، وكان عند مرضعته في مدينة بوتو... واتفق أن ست كان يصطاد ليلاً في نور القمر بتلك الغابة فعثرت رجله بالصندوق فعرفه وعرف الجثة التي فيه، في الحال أخرجها وقطعها أربع عشرة قطعة ويعثرها، فجمعت إيزيس ثلاث عشرة قطعة وركبتها في مواضعها من بدنه ثم استكملت القطعة الناقصة وهي عضو التناسل من خشب الجميز، فلما تكامل جسمه بهذه الحالة انبعثت فيه الحياة. وتضمنت الأسطورة بياناً بالجهات التي حلت فيها أعضاء أوزيريس، فكان هدبا المعبود وحدقتا عينيه من نصيب مدينة بيلوز (٣٠) . وكان لبيلوز ميناء على البحر المتوسط في ذلك العصر . وقد أقام رمسيس في هذه المدينة مدة ثم شيد إلى جوارها مدينة بر " رمسيس " .

ولأنها كانت بحق مفتاح بوابة مصر الشرقية لإشرافها على الطريق القادم من الصحراء ولامتلاكها ناصية البحر ولجريان نهر النيل إليها عبر فرعه البيلوزي فقد أصبحت مطعماً للطامعين، وأمامها عسكرت جيوش الإسكندر الأكبر، وكان قد وصل إلى مصب الفرع البيلوزي المقدوني عام ٣٣٢ ق.م، واستولى عليها أنطونيوس الرابع سنة ٧٠ ق.م، وجابيتيوس سنة ٥٥ ق.م، ويذكر أنه عندما دب الخلاف بين كليوباترا وأخيها الصغير بطليموس فرت كليوباترا إلى سوريا حيث جمعت جيشاً وسارت إلى مصر ووقفت أخوها عند (بيلوز) استعداداً للحرب معها سنة ٤٨ ق.م، ودخلها أوكتافيوس بسهولة بعد انتصاره على أنطونيوس في موقعة أكتيوم سنة ٣٠ ق.م، وارتبط ببيلوز مصرع القائد الروماني الأشهر يومبي لدرجة أن أندريوسي طالب إبان الحملة الفرنسية بوضع نصب تذكاري لهذا القائد الذي قتل غيلة في بيلوز وقت ازدهارها في العهد الروماني (٣١). ويومبي كما هو معروف كان هو وقيصر صديقين ثم تحاربا كثيراً، ولما هُزم يومبي فر إلى مصر هو

وزوجته وبعض من رجاله، لكن بوثنيس Pothinus خصي بطليموس الثاني عشر ووزيره أمر الخدم بقتل بومبي انتقاءً لغضب القيصر أو سعياً لاسترضائه فطعن بومبي طعنةً نجلاء حين وطأت قدماه رمال الساحل بينما كانت زوجته تنتظر إليه في هلع.

ومرت العائلة المقدسة في العام الأول الميلادي ببيلوز في رحلة القدوم إلى مصر عبر رفح والعريش، ومرت بها أيضاً في رحلة الخروج عبر بابليون ومسطرد ويليبيس(٢٢).

وكان الفينيقيون يدخلون مصر بمراكبهم من ميناء بيلوز، وكانوا يسمونها ميناء "سين". وقال استرابون: "وفي مدينة سين أو بر أمون حصلت معارك كبيرة بين المصريين والآشوريين بقيادة سينا شريب، كما حصلت بها معارك هائلة بين المصريين والفرس بقيادة كاثنيس، وفي هذه المعركة وصلت نجيدات يونانية للجيش المصري فانتصر...".

وذكرت بيلوز في الكتاب المقدس باسم (سين) كما جاء في قاموس الكتاب المقدس بالصفحة رقم ٤٩٧: سين مدينة مصرية ورد ذكرها في حزقيال (١٦:١٥:٣٠)، ومن نصوصه التي ورد فيها اسم سين "واسكب غضبي على سين حصن مصر واستأصل جمهور نو وأضرم ناراً في مصر.. سين تتوجع توجعاً"، وسين مصر أي عظمة مصر. وفي الصفحة رقم ٨٩٤ بالمرجع نفسه "سين (حز ١٦:١٥:٣٠) هي نفس بيلوسيوم في العصر الكلاسيكي...". وربما يكون اسم شبه جزيرة سيناء مشتقاً من اسم هذه المدينة، إلا أن دي بوا - إيميه في دراسته المعنونة "مذكورة حول فروع النيل القديمة ومصباتها في البحر" تراجع عما اعتقده بهذا الخصوص بعدما رأى الترجمة الدولية للتوراة التي تجعل من سين هذه مدينة سايس(٢٣).

وفي سنة ٦١٦ ميلادية احتل الفرس بيلوز أثناء حملتهم التي زاحموا بها الرومان في احتلالهم لمصر، وقد خربوا الكنائس والأديرة المتواجدة بها قبل أن يتحركوا منها إلى ممفيس.

وفيما يبدو أن التحصينات الواقعة على طريق بيلوز / رفح قد ضعفت في أواخر الحكم الروماني لمصر مما أدى إلى سحب الحاميات منها والاكتفاء بتحصين بيلوز، حتى أن المسلمين عند فتحهم لمصر بقيادة عمرو بن العاص لم يلقوا مقاومة تذكر من هذه الحصون اللهم إلا من حصن بيلوز فكان منبع الأسوار وبه كثير من التكدسات الإدارية. ويقال أن القبط الذين كانوا بالمدينة صاروا يومئذ لعمرو أعواناً.

وقد تعدد عمرو التباطؤ في تحركه نحو هذا الحصن حتى يدركه المد الذي طلبه من الخليفة، فلما بلغه صده قوات الروم فضرب على المدينة حصاراً. والغالب أن قوات الروم بها كانت كبيرة، يدل على هذا أمران: أولهما أن عمرو بن العاص لم يجازف باقتحامها

بمجرد وصوله إليها، وإنما حاصرها وطلب المدد، وثانيهما أن الروم لم يدفعوا إلى المدينة بقوات أخرى تدعم القوات المتواجدة بها.

وقد دام الحصار شهراً دأب الروم خلاله على مناوشة الجيش المحاصر. وحتى يطيل عمرو من أمد حصاره للمدينة دفع ببعض من قواته إلى الإغارة على المناطق القريبة لتوفير ما يلزم لإعاشة كتائب جيشه. ولما طال الحصار بالروم اضطر قائد الحصن إلى مهاجمة جيش المسلمين بقوات أكبر من تلك التي كانت تقوم بالمناوشات، لكن المسلمين اضطروهم إلى الارتداد فانتهز عمرو ووضع القهقري الذي وضع الروم أنفسهم فيه وأمر قواته بمضاغفة الضغط ومطاردتهم حتى سبقوهم إلى أبواب الحصن وسيطروا عليه. وقُتل يومها من الروم عدد كبير، وكان ذلك في أول المحرم سنة ١٩ هـ. (يناير سنة ٦٤٠ م). (٢٤).

وتغير الاسم من بيلوز إلى الفرما، ولا يهم في رأي معرفة ما إذا كان التغيير في الاسم قد طرأ عليه قبل الفتح الإسلامي أم بعده، فمثل هذا التغيير يستلزم وقتاً، وقد ذكرت لك أنفاً أصل تسمية الفرما وسلسلة التحريفات التي طرأت على الاسم المصري القديم (بر أمون) حتى وصل إلى الفرما؛ لكن من المهم أن أذكر لك أنه كانت بالفرما (بيلوز) في عهدها الإسلامي واحدة من أقدم إيبارشيات الكرازة المرقسية، وكانت تحتوى على الكثير من الأديرة والكنائس. وكان بها عدد كبير من الأساقفة. وقد زار الراهب أبيفانيوس الفرما سنة ٨٧٠م، أي بعد الفتح الإسلامي لها بسنوات، وفي زيارته هذه رأى بها كنيسة باسم السيدة العذراء تذكراً لمرور العائلة المقدسة.

لقد كان دخول وخروج أغلب الخلفاء والملوك والأمراء إلى ومن مصر باتجاه بلاد المشرق لا يتم إلا بمرورهم هم ومن يصطحبونهم من رجالات الحكم والدين وقادة جيوش الحرب عبر الفرما (بيلوز). حتى قطر الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون لما اتجه بها موكبها إلى بغداد لتتزوج من الخليفة العباسي المعتضد سنة ٢٨٦ هـ. (٨٩٩ م) لم يكن أمام هذا الموكب إلا أن يمر بأرغد مدينة على أسهل طريق، طريق الفرما التي تملك مفتاح بوابة مصر الشرقية.

وقد تعرضت الفرما (بيلوز) للغزو على أيدي الصليبيين، ولم تدم نهائياً إلا على يدى بلدوين الأول ملك بيت المقدس، فبعدما عبر غزة والعريش ووصل إلى الفرما في ٢١ مارس ١١١٨م، ووجدها خالية من أهلها دخلها بجيشه وأحرق مسجدها الجامع وسائر مساجدها، ثم واصل سيره إلى تنيس، وفيها أصيب بالمرض نتيجة أكلة سمك من أسماك بحيرة المنزلة، فقفل عائداً، وقبل أن يصل إلى مدينة العريش داهمه الموت فشق أصحابه بطنه وصبروه ونزعوا أحشاه ورموها في المكان الذي عُرف بسبخة بلدوين ثم حُرقت إلى

سبخة البردويل أي بحيرة البردويل، و تقع على بعد تسعين كيلومتر من تنيس . وشديدة القرب من الفرما التي هدمها.

ولقد بهرت هذه المدينة العرب مثلما بهرت غيرهم، فوصفها ياقوت الحموي وصفاً دقيقاً حدد به موقعها، وأهم ما يميزها ويميز سكانها، وأساليب العيش فيها، فوصفها بأنها مدينة قديمة بين العريش والفسطاط قرب قاطية وشرق تنيس على يمين القاصد لمصر، بينها وبين بحر الظلام المتصل بحر الهند أربعة أيام . وعن ثرواتها قال أنه كان بها مقطع الرخام الأبيض بلونين، وبها من التخييل الذي كان يثمر حين ينقطع اليسر والربط في سائر البلدان، ووصف مناطق السباح المحيطة بها بالموحلة، وقال بأنها لا تكاد تنضب صيفاً وشتاءً، وأن شرب أهلها من ماء المطر الذي يخزن في جباب، وصف أهلها بأنهم نحاف الأجسام متغيرو الألوان، وهم من القبط وبعضهم من العرب من بنى جرهم وسائر جزام، يعملون بالتجارة مع القوافل وأكثر متاجرهم من البلع والشعير.

وكما كانت عادة كتاب هذا العصر فقد مزجوا الواقع بالخرافة والحقيقي بالمتخييل عند حديثهم عن هذه المدينة . من ذلك ما قال به ياقوت الحموي وأعاد ذكره الكندي عن الطريق التي كانت تمتد من الفرما إلى جزيرة فيرس (يعنى قبرص) في البحر، فغلب عليها البحر. وبالإضافة إلى ما ذكرته الأدبيات المختلفة عما اشتهرت به هذه المدينة، فقد اشتهرت أيضاً في مجال الصناعة لاسيما صناعة الأواني الفخارية، وأدوات الزينة، والأقمشة الكتانية . وكانت تصدر إنتاجها عبر طريق رفح البرى وطريق المتوسط البحرى إلى أثينا وروما وجزيرتي قبرص وكريت والشام الكبير.

أكاد أشعر وأنت تنظر إلى ونحن في طيراننا أن سؤالاً يدور في دماغك البشرى، الذي تحتويه هذه الرأس النورسية، عن السبب وراء كل ما حكيت، وعن الدافع الذي حاد بى عن الجغرافيا إلى التاريخ. ولا أظنك قد رددت مسلكى هذا إلى شهوة الكلام أو حب الاستعراض أو الرغبة في التباهى وغيرها من أمراض المثقفين التي تعوبناها. لا أظنك تفعل هذا بى، فسؤالك مشروع، والإجابة عنه غاية في السهولة واليسر، وقد سبقنى إليها العلامة جمال حمدان فقال في هذه المسألة الموجز المفيد " .. البيئة قد تكون خرساء، ولكنها تنطق من خلال الإنسان، وربما تكون الجغرافيا صماء، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها " (٣٥) . ومن الأقوال البليغة التي ذكرها أيضاً في ذات الاتجاه " .. إن التاريخ ظل الإنسان على الأرض بمثل ما أن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان " (٣٦).

ها نحن قد اقتربنا من المدينة المندثرة بفعل تدمير بلدوين، وما طرأ على الفرع البيلوزى من إطماء وغمر بالرمال . وأضاع من هيبته طغيان مياه البحر على مينائها الذي لم يبق

منه إلا بعض الأرصعة المهشمة التي تدل على الأهمية التي كان عليها فيما مضى من سالف السنين . ها نحن قد وصلنا . نعرف الاسم الذي يعرف به موقع هذا الميناء الآن؟.. يعرف بالمحمدية .. موقع معروف لدى البدو الذين يعيشون في هذه المنطقة الآن .. أين خرابته التي تراها الآن مما كانت عليه في الفترات الإغريقية والبيزنطية والرومانية؟.. صحيح أن الطريق الساحلى الذى ربط بين المدينة المندثرة ورفح كان من أقدم طرق التجارة، لكن الميناء كان ذا فائدة قصوى للمدينة، تجارياً وحربياً، وأيضاً مصدر خطر بالغ لها . وقد عظم من أهميته الحربية إقامة القلاع الساحلية.

مدٌ بجناحيك وجاورنى فأقودك إلى أطلال المدينة.

انظر.. هذا هو كل ما تبقى من المدينة العظيمة.. كومان أثريان يمتدان في خطين متوازيين لمسافة ميل ونصف الميل. تعال أريكهما .. ها هو الكوم الشرقى أقل في الامتداد، هذا صحيح، لكنه أعظم في الارتفاع، أما الكوم الغربى فكما ترى يمتد حوالى الميل ويتسع إلى نصف ميل وارتفاعه لا يتعدى ٤٠ قدماً، وبين الكومين أرض مستوية كما ترى . ويرجح أن الفرع البيلوذى كان ينتهى عند هذه الأرض.

آلٌ ببصرك إلى بقايا ذلك الحصن، وتقعد معى ذلك السور المبنى بالطوب الأحمر، ألا تراه عظيماً ؟.. وهذه الأعمدة الجرانيتية التي تطعن في قلب التاريخ، أليست دليلاً على الازدهار الحضارى الذي كانت عليه هذه المدينة؟.. تأمل معى ضخامة الكومين واتساع المساحات التي تشغلها آثار الذين كانوا يقيمون هنا، ألا توحى إليك هذه الضخامة وتلك الاتساعات بروعة الحياة التي كانت تصطبغ في هذا المكان؟.. أنا شخصياً على يقين من المكانة العظيمة التي كانت هذه المدينة تحظى بها في مختلف العصور.

الفصل الثالث

عقاب المقصرين

٤- نتيجة الاستشارة العامة المقصود تحقيق

لعلك استنتجت بإحساسك النورسي نوعيات البشر الذين سكنوا هذه المنطقة وقت ازدهارها. أو سكنوا يتخومها - من فلاحين وأرباب صنائع وصيادين ورعاة ورجال دين وقادة وجنود.

هم مصريون بالأساس وإن خالطهم الأوروبيون والآسيويون من يونانيين ورومانيين وهكسوس وفُرس. وهل نسيت غزوات قورش وقمبيز؟.. منهم من جاء غازياً ناهباً، ومنهم من جاء مهاجراً مقيماً. ولعل أهم الهجرات التي شهدتها المنطقة ثلاثاً هي : هجرات الهكسوس والإسرائيليين والعرب، وسوف أحدثك عنها عاجلاً، لكن لسانى يستعجلنى كى أقول لك إن من استوطن هذه المنطقة من هؤلاء استيطاناً حقيقياً ذاب فى نسيجها واندمج فى لُحمتها وأصبح مصرياً منبت الصلة عن البيئة التى جاء منها.

هذا ليس كلام نورس وطنى متعصب، وإنما هى حقيقة أثبتتها الواقع المصرى عبر الحقب التاريخية المختلفة، ويتوزع الاتجاهات الجغرافية الأربعة فيها، وأكدته الأبحاث الحديثة، فالشعب المصرى شعب أصيل منذ القدم ... مقيم ومتجذر، وإن كانت هناك احتمالات اختلاط كبرى قد وقعت فى مصر لأشباح جنسية أفريقية وآسيوية، فهى احتمالات لا يقينية يقول بها بعض من ذوى الجموح النظرى، لكن الصحيح هو ما قال به شانتز، وأكدّه جمال حمدان، فالمصريون القدماء شعب أصيل، تواجدوا فى مصر ولم يغدوا

إليها من مكان آخر(٣٧).

وحسبما يقول الأنثروبولوجيون فإن احتمالات الاختلاط المهمة في مصر قلت مع ومنذ بداية عصر الأسرات التاريخية، فمنذ فجر التاريخ برز الشعب المصري كوحدة جنسية واحدة الأصل ومتجانسة بقوة في الصفات والملامح الجسمية ؛ وأغلب الوافدين إلى مصر - لاسيما من الشرق - لم يفدوا إليها كمهاجرين، وإنما كفزاة حربيين، وهذا ما حكيت لك عنه ورأيت أنت أيها التورس العزيز آثاره بأطلال كل من تنيس والقرما التي هي بيلون.

وغالباً ما تتغلغل الهجرات البشرية وتسرى في الريف مثلما تتغلغل وتسرى في المدن، أما الغزوات الحربية فتقتصر على المدن تقريباً . والهجرات تمثل حركات ضخمة الحجم كماً، وكلية كيفاً ، بمعنى أنها تشتمل على الجنسين مما يجعل تأثيرها الجنسي محققاً، أما الغزوات العسكرية فيضعة محدودة من حركة " ذكرية " بحتة. ولذا تذوب إن لم تُدب، فمن بين نحو ٤٠ موجة دخلت عدت في التاريخ المصري، لا نجد إلا ثلاث هجرات حقيقية هي الهجرات التي حدثت عنها آنفاً.. هجرات الهكسوس والإسرائيليين والعرب(٣٨) .

ولاحظ يا عزيزي أن هذه الهجرات جميعاً جاءت من الشرق، أى من آسيا، وعبر مفازات أقضت إلى منطقتنا هذه أو حفت بها.

والهجرة ليست كلمة بسيطة تتكون من الأحرف التي تشكلها فحسب، كما قد يتخيل البعض، فالحقيقة أنه بين ثنايا هذه الأحرف تتجمع حزم معقدة من الدوافع والسلوكيات والإمكانات والثقافات والتيارات والمجالات والأنماط المترابكة بعضها فوق بعض، وغالباً ما تكون هذه الحزم بطيئة وحثيثة في تحركها حتى ليظن المعايش لها أنه لا توجد ثمة هجرة في سبيلها إلى التحقق، في حين أن الناظر إليها بعد تحققها يتصور أنها إنما كانت مجرد قفزة واحدة غيرت وبدلت ما لم يتصور أنه قابل للتغيير أو التبدل.

وعلى الرغم من أن الهجرات، التي تبدو عادة في صور تصاعدية، لا تخلو من بعض ارتدادات، إلا أنه غالباً ما لا يسجل التاريخ سوى القوى الواضح من هذه الارتدادات، لاسيما تلك التي تكون بفعل ضغوط عسكرية كما حدث مع الهكسوس، أو بدافع ديني مثلما كان من أمر الإسرائيليين، فقد طرد الجيش المصري كما هو معروف الهكسوس الذين أقاموا بمصر نحو ٥٠٠ سنة بعد تحرشات وكر وفر ومحاصرة ومعارك لعل أشهرها معركة أواريس . وخرج الإسرائيليون برفقة النبي موسى من أرض جاشان وتخومها فراراً من بطشة الفرعون. وكلاهما أواريس وجاشان كان يتأخم منطقتنا ويحف بها.

وعلى العموم فقد طُرِدَت الهجرتان الأوليان من مصر تماماً بعد استقرار مؤقت، و كان استقرارهما بها محلياً، فأما بشرق الدلتا بالنسبة للهكسوس، أو بوادي الطميلات (أرض

جاشان) بالنسبة للإسرائيليين : أما هجرة العرب فبدأت بأعداد محدودة كغزوة " ذكزية "، ولكنها سرعان ما تحولت إلى هجرة واسعة النطاق مختلطة النوع . وهي أيضاً بدأت كشبه استقرار على أطراف الصحراء وحواف المدن، لكنها ما لبثت أن استقرت في الأراضي الزراعية وانتشرت في المدن. ولهذا كُتب للتعريب في مصر أن يكون تحولاً خالداً لا ظاهرة عابرة كالهلبية(٣٩).

وعليه، فإن من سكنوا هذه المنطقة أو عاشوا في جوارها، وقت أن كانت تضج بمظاهر الحياة، بادية وريفاً وحضراً، هم المصريون الأصلاء، وأن من جاورها من يونانيين ورومان وهكسوس وإسرائيليين وقرس وأقاموا فيها، لاسيما في مدينتها، وفي مقدمة هذه المدن تنيس والفرما (بيلوز)، ما لبثوا أن اختفوا، حتى لكان إقاماتهم بالمنطقة - ومن ثم بمصر - كانت إقامات عابرة، فبعد أن طمرت أفرع النيل الثلاثة تلاشوا ولم يتبق سوى العرب الذين أثروا في مصر ثقافياً ومصرتهم مصر جنسياً، وقد ساعد على هذا أن كلاً من العربي والمصري من أصل قاعدى واحد منذ ما قبل الإسلام، بل ما قبل التاريخ. حتى أنه يمكن القول بأن الاختلاط الجنسي المصري - العربي هو زواج بين أقارب بعيدين(٤٠)، لذا كان ميسوراً أن تستقبل مصر بصحرائها وريفها ومدينتها العرب بالحفاوة التي تليق بالأقرباء. وقد كان طبيعياً، بعدما نال الجفاف والتبوير من المناطق الخضراء وانخفضت الحركة في التخوم الصحراوية وازورت عنها القوافل، أن تستقبل بيئة بحيرة المنزلة أعداداً غير قليلة منهم، باعتبارها البيئة الأقرب والأصلح لأن تكون موئلاً لهم . صحيح أن الانتقال إلى البحيرة لم يصل في هذه الأوقات إلى درجة التزاوج، لكن - وهذا أمر طبيعي - أدى هذا الانتقال واستمراره واستقراره إلى مجموعة من التغيرات على المقيمين الأصليين، العائشين داخل البحيرة وجولها، فانطبعوا - عبر سلسلة من علاقات الجدل والمصاهرة - بطابع هو مزيج من المصرية والعربية.

النيل يعاقب المقصرين في حقه :

لكن أين هم سائر البشر الذين كانت تعج بهم هذه الأراضي التي قحلت؟.. أين هم

وأين مدنها وقراهم ومضاربهم؟..

سيخ وطنين وملح ورمل جاف تسفوه الرياح .. هل هذا كل ما تبقى؟..

أنتَ تورسُ لمح .. تقول النيل هو مصر .. إنْ فاضَ أحيا، وإنْ جفَ أمات.. قولتك قولة حق، فها أنتذا ترى تأثير طمر ثلاثة أفرع قصار .. لا غرس أو زرع، لا جنى أو حصد، ولا صناعة ولا تجارة .. ومن ثم فلا قوافل ولا أساطيل ولا حروب أو اقتتال؟.. أى دراما تلك التي صنعتها الطبيعة، في هذه المنطقة من مصر، بالناس الذين سكنوها وظنوا أنهم قد

سيطروا عليها وخذوا فيها ؟.. عليهم الوهم فأنظرت لهم الطبيعة أنها الأقوى والأبقى، وأن النيل الذى هو بطلها الرئيس قادر على أن يغضب، وإذا كان قد منّح فبإمكانه أن يمنع .. وما داموا قد تحججوا بالإغارات الأجنبية، ولم يبذلوا العناية اللائقة بقرعه، فلم يعملوا على تطهيرها ولم يقوموا بإزالة الطمي والرواسب من مجاريها، فليحجز عنهم مياهه، وليمنع عنهم خيره، ولا يلومون إلا أنفسهم.

وهكذا أصبحت المنطقة الغناء قفراً ييباً.

هوامش الباب الأول

الفصل الأول:

- (١) د. يسرى الجوهري، الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٦م، ص ٣٣٣ .
- (٢) محمد سامى عسل، الجغرافيا الطبيعية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ١٦-١٧ .
- (٣) المرجع السابق، ص ١٧ .
- (٤) علماء الحملة الفرنسية، وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، المجلد الثالث، دراسات عن المدن والأقاليم المصرية، بلون ناشر، ١٩٨٤م، ص ٣٩-٤٠ .
- (٥) فؤاد فرج، المدن المصرية: منطقة قناة السويس، مطبعة المعارف ومكتبتها، القاهرة، بدون تاريخ نشر، ص ٢١ .
- (٦) د. السيد عباس زغلول، "التطور الجيولوجى لبحيرة المنزلة"، المؤتمر القومى لبيئة بحيرة المنزلة، محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد، ٢٧-٢٩ أكتوبر ١٩٩١م، ص ٦ .
- (٧) د. محمد صفى الدين، مورفولوجية الأراضي المصرية، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٢٧٠ .
- (٨) د. جمال حمدان، شخصية مصر: دراسة فى عبقورية المكان، الجزء الأول، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٨١٨ .
- (٩) محمد عوض محمد، نهر النيل، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ١٩٩م.
- (١٠) فريق عمل محافظة بورسعيد، "بورسعيد وبحيرة المنزلة"، المؤتمر القومى لبيئة بحيرة المنزلة، محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد، ٢٧-٢٩ أكتوبر ١٩٩١م، ص ٦ .
- (١١) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى:
- خالد منتصر، "المشاكل التى تواجهها محافظة دمياط من تلوث بحيرة المنزلة: الاقتراحات- التوصيات"، المؤتمر القومى لبيئة بحيرة المنزلة، محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد، ٢٧-٢٩ أكتوبر ١٩٩١م، ص ٣ .
- ج.م.ع، مجلس الشعب، الفصل التشريعى السادس، دور الاعتقاد العادى الأول، مضبطة الجلسة السادسة عشرة، ٩ فبراير ١٩٩١م، ص ٧١ .
- (١٢) د. محمد حسن عامر، "مصادر التلوث فى بحيرة المنزلة وطرق التخلص منها"، المؤتمر القومى لبيئة بحيرة المنزلة، محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد،

- ٢٧- ٢٩ أكتوبر ١٩٩١م، ص ٤ .
- (١٣) د. محمد صفى الدين، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٠ .
- (١٤) قسم علوم البحار بكلية العلوم جامعة قناة السويس، تقرير أولى عن التلوث في المياه الإقليمية لبورسعيد، مرفوع لمحافظة بورسعيد، أكتوبر ١٩٩٠م، ص ١٩-٢٠ .
- (١٥) د.أحمد أمين الجمل، "تلوث المياه في مصر وأثره على صحة الإنسان"، (إعداد)، الدورة التدريبية الأولى لفروع ومكاتب البيئة بالمحافظات، جهاز شئون البيئة ومؤسسة فريدريش إيبيرت، الإسكندرية، ١٧-٢١ يوليو ١٩٨٩م، ص ٧ .
- (١٦) مندى بهاء الدين وآخرون، عالم الطيور في مصر، برنامج الطيور المهاجرة، المركز الدولي لحماية الطيور ومركز التعليم والوعي البيئي بحديقة الحيوان، الجيزة، ١٩٩٠م، ص ٣٨ .
- (١٧) نعمات حسين، "دعوة للمحافظة على ٢ مليار طائر مهاجر تغير أرض مصر"، الحياة الجديدة، جهاز شئون البيئة، القاهرة، العدد ٢٨، مارس ١٩٨٩م، ص ٢٨ .
- (١٨) مندى بهاء الدين وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨ .
- (١٩) د. جميل عبد المولى، "أهمية بحيرة المنزلة كمأوى للطيور البرية"، المؤتمر القومي لبيئة بحيرة المنزلة، محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد، ٢٧-٢٩ أكتوبر ١٩٩١م، ص ١ .
- (٢٠) أحمد عبد الرزاق وحسن صانق عمران، المحميات الطبيعية ببورسعيد، جهاز شئون البيئة فرع بورسعيد، بورسعيد، بدون تاريخ نشر، ص ١٢ .
- (٢١) اللواء عبد المنصف محمود، على شفاف بحيرات مصر، الجزء الأول، سلسلة من الشرق والغرب العدد ١٩٨، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ٨ يناير ١٩٦٧، ص ٧٢ .
- (٢٢) المرجع السابق، ص ٧١ .
- الفصل الثاني:**
- (٢٣) علماء الحملة الفرنسية، مرجع سبق ذكره، ص ٣٧٧ .
- (٢٤) المرجع السابق، ص ٢٥ .
- (٢٥) أحمد هاني قزامل، انهيار سد مصر: بورسعيد قبل أن تتحول إلى قنطرة أخرى، بدون ناشر، ١٩٩٧م، بورسعيد، ص ٥١، نقلاً عن حياة إبراهيم ومحمد شلبي، (غير مذكورة تفاصيل المرجع المنقول عنه)، ص ١٢٢ .
- (٢٦) القس شنودة فتحي، تاريخ إيبارشية بورسعيد قديماً وحديثاً، ط ١، دار الأوتل للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ١٤ .
- (٢٧) المرجع السابق، ص ١٥ .
- (٢٨) لواء عبد المنصف محمود، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤ .
- (٢٩) محمد السيد عيد، الفرما مدينة كان لها تاريخ، أخبار الأدب، القاهرة، العدد ١٢٤، ٢٦ نوفمبر ١٩٩٥م.
- (٣٠) لواء عبد المنصف محمود، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢ - ٤٦ .
- (٣١) علماء الحملة الفرنسية، مرجع سبق ذكره، ص ٤٧ .
- (٣٢) حسن الرزاز، طرق مصر المقدسة، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،

- ١٩٩٧، ص ٤٢-٤٥، ص ١٠١-١٠٣ .
- (٣٣) علماء الحملة الفرنسية، مرجع سبق ذكره، ص ٣٧٩ .
- (٣٤) حسين الرزاز، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٣ .
- (٣٥) جمال حمدان، شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، العدد ٥٠٩، مايو ١٩٩٢، ص ٦ .
- (٣٦) المرجع السابق.
- الفصل الثالث:**
- (٣٧) جمال حمدان، شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان، كتاب الهلال، مرجع سبق ذكره، ص ٣٢، نقلًا عن:
- E.Chantre, Recgerches Anthropologiques dans L' Alrique Orientale, Egypte, 1904, P.302-3.
- (٣٨) المرجع السابق، ص ٣٥-٣٦ .
- (٣٩) المرجع السابق، ص ٣٧ .
- (٤٠) المرجع السابق، ص ٣٨ .
- ما لم يرد بشأنه هامش فالعمدة فيه هو الباحث اعتماداً على دراساته السابقة وخبرته بالموضوع.

الباب الثاني

الفصل الأول

رجل سريع الانقياد

الآن وقد طفتنا معاً عند نقطة التقاء خط الطول ١٨، ٣٢ شرقاً وخط العرض ١٦، ٣١ شمالاً وما حولها، و شاهدنا ما يحيط بها من تضاريس طبيعية وآثار تاريخية، أدعوك إلى أن تفعل مثلى . اخلع عنك ريشك و نفض عنك تعبك و تعال معى فى صورتك الأدمية إلى مكتبتى، فما سأحكىه لك قد لا يحتاج إلى تخيل أو مشاهدة قدر ما يحتاج إلى تدقيق وتوثيق، و لعلى وإياك نجد هذه الحاجة فيما تزخر به المكتبة من كتب ومراجع وصور ووثائق.

هل بلغك أمر شخص يدعى لويبر Le Père.. إن لم تكن تعرف عنه شيئاً، أقول لك بداية إنه فرنسى ولد عام ١٧٦٣ م.، وتوفى عام ١٨٤١ م.، وجاء إلى مصر فى عهد الحملة الفرنسية باعتباره كبير مهندسى الرى والطرق والجسور فيها . وهو - وهذا ما يهمنى أن أنقله إليك - وأضع التقرير المشهور عن إيصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط . فقد عهد نابليون بونابرت إليه فى ٤ نوفمبر ١٧٩٩م برئاسة اللجنة المكلفة بدراسة المنطقة المجاورة لساحل البحر الأبيض المتوسط، فقصى عامين فى فحص ودراسة مشروع وصل البحرين عن طريق نهر النيل .

وتصميم المشروع كما وصفه لويبر يتلخص فى أن تُحفر ترعة من السويس إلى البحيرات المرة ويعاد حفر الخليج القديم المعروف بخليج أمير المؤمنين، ذلك الذى حفره

عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٣٢ هـ (٦٤٤ م) وكان يصل النيل بالبحر الأحمر إلى أن يتلاقى مع بحر موسى قرب بوياسط (قرب الزقازيق) ثم إلى فرع دمياط ومنه إلى الترعَة الفرعونية ففرع رشيد، ومنه إلى الإسكندرية بواسطة ترعة الإسكندرية .

كان هذا هو مشروع لوبيز الأصلي، لكنه حبس كذلك فكرة وصل البحرين رأساً بواسطة ترعة أخرى تخترق برزخ السويس فيما بين بيلوز على البحر الأبيض و مدينة السويس على البحر الأحمر، غير أنه اعتقد خطأ أن البحر الأحمر يعلو عن سطح البحر الأبيض المتوسط بنحو تسعة أمتار .

أظنك تتوقع متى أن أحدثك عن قناة السويس . ألمح هذا في أسابير وجهك، وربما نشط ذهك الآن في تقلب الأمور المتصلة بهذه القناة، ولعلك تريد أن تسبق الأحداث فتدرب بين نقطة التقاء خط الطول ١٨، ٣٢ شرقاً وخط العرض ١٦، ٣١ شمالاً والموضوع الذي تتوقع أن أحدثك عنه . لكن قبل أن أجاريك اسمع لي بأن أسالك إن كنت تعرف شخصاً اسمه لبنان بك . هل تعرفه ؟ لا يصدقك لقب البكوية فليس لبنان هذا بمصري أو تركي أو حتى أردني، إنه فرنسي أيضاً، كان ضابطاً في سلاح البحرية الفرنسية واسمه لبنان دي بيلفون، وقد حضر إلى مصر عام ١٨١٨م، ضمن بعثة علمية بصفته رساماً، ولأنه شرب من ماء النيل فقد كان بإمكانه أن يغادر مصر ثم يعود إليها ثانية، لكن يبدو أنه شرب من النهر الخالد ماءً كثيراً فقد مكث فيها ولم يغادرها . الأكثر من هذا أنه عكف على دراسة مشروع لوبيز نظرياً وتطبيقياً، ولما التحق سنة ١٨٣٠م. بخدمة الحكومة المصرية أمره محمد علي باشا باصطحاب موجيل بك والاستعانة به في دراسة مشروع وصل البحرين.

هل تعرف موجيل بك ؟ .. إنه أيضاً فرنسي شغل منصب مهندس للطرق والكبارى بالحكومة المصرية، ولأنهما - موجيل ولبنان - تأثرا بأفكار لوبيز فقد اقترحا وضع أهوسة جنوب البحيرات المرة لتتحكم في اندفاع المياه إلى البحيرات ومنها تسيير القناة حتى تصل إلى النيل، ثم ما لبث لبنان أن أدخل عام ١٨٤٠م. تعديلات جوهرية على مشروعه الابتدائي بعد أن تيقن من أنه لا فرق بين مستوى البحرين، فوضع مشروعاً لشق قناة مستقيمة بينهما لأنها أقصر وأقل تكلفة وأكثر ملاءمة لأوروبا واحتياجات تجارتها، فمثل هذه القناة المستقيمة تسمح بالمرور السريع للسفن ذات الحمولات الكبيرة بين السويس والفرما .

غير أنه أصر على ضرورة إقامة أهوسة عند فم خليج السويس . وتبدأ القناة حسب

تصوره من شرق خليج السويس وتجه إلى الشمال حتى تصل إلى البحيرات المرة ثم تجتازها إلى بحيرة التمساح بعد أن تخترق مرتفعات سراييوم ثم تجتاز بحيرة التمساح، و بعد أن تدور حول المنطقة المعروفة باسم مرتفعات الجسر تمر بالشاطئ الشرقي لبحيرة المنزلة لتصب في خليج بيلوز على البحر الأبيض المتوسط في النقطة التي كانت تعرف قديماً باسم قم الطينة واقتراح إقامة برزخ عند مدخل القناة في البحر الأبيض المتوسط لحمايته من رواسب النيل (١). وفي سنة ١٨٤٥ م وصل إلى مصر الدوق دي مونتينيبييه ابن ملك فرنسا فقدم له لبنان مشروعه ثم توجه به إلى منطقة برزخ السويس ليشرح له على الطبيعة. و عاد الدوق إلى فرنسا وأدى عرضه للمشروع في باريس إلى تكوين جمعية الدراسات الخاصة بحفر قناة السويس التي تأسست في ٢٠ نوفمبر ١٨٤٦م. بمساعدة السان سيمونيين وبقوة دفع ونفوذ من (أثفانتان) السان سيموني المعروف، وتكونت هذه الجمعية من خمسة من الفرنسيين وعشرة من الألمان واثنين من الإنجليز، وكانت على اتصال بليان دي بيلفون وبالقنصل النمساوي لورين Laurin، وقد قيل وقتها أن نفقات حفر القناة أكثر من نفقات مد خط السكك الحديدية بين الإسكندرية والسويس(٢).

وقد اتخذ السان سيمونيون من مشروع لبنان المباشر علاوة على مشروع لوبيير أساساً لأبحاثهم و محاولاتهم لتنفيذ مشروع توصيل البحرين، وأكد ميشيل شيفاليه أحد السان سيمونيين البارزين إمكان شق قناة مستقيمة تصل بين البحرين مباشرة دون حاجة إلى استخدام النيل(٣). وفي عام ١٨٤٧م سافرت ثلاث جماعات منها إلى مصر إحداها بزعامة إنجليزي هو روبرت ستيفنسون Robert Stephenson، والثانية برئاسة فرنسي هو "بولان تالابو" Paulin Talabot، والثالثة برئاسة نمساوي هو نجريللي Negrelli، حيث اضطلعت كل منها بعمل مسح تفصيلي لبعض جوانب الموضوع(٤). ولعلها هي اللجنة الفنية التي قال عبد الرحمن الرافعي بأنها تأسست ١٨٤٦م من بعض المهندسين من مختلف الأمم لدرس مشروع حفر القناة، وجاء أعضاؤها إلى مصر لفحص المشروع في أواخر عهد محمد علي، واستمروا على عهد عباس وعاونتهم الحكومة وعهدت بتخطيط المواقع إلى بعض كبار المهندسين مثل: لبنان بك وسلامة أفندي إبراهيم وإبراهيم بك رمضان وطائل أفندي وغيرهم، وانتهت اللجنة إلى أن فرق مستوى البحرين ليس أمراً ذا بال، ورأت الوصل بينهما بشق ترعة تجتاز الدلتا(٥) : لكن محمد علي باشا أعرض منذ البداية عن مشروع القناة، ولم يرغب فيه لما توقعه - إذا ما تم - من العواقب الوخيمة التي يمكن أن تحيق بمصر إذا ما فتح قلب مصر لسفن الدول الأوروبية . من هنا كان عدم

استجابته لدعوة المهندسين وإغراءات الماليين الأوروبيين الذين زينوا له المشروع. وكان يردهم بلطف و حكمة، و يهدم و يمينهم، وفي الوقت نفسه يُضمر الإعراض عن هذا المشروع حتى نهاية حكمه (٦).

وقد قامت بريطانيا بإجراء تحرياتها عن موقف محمد علي باشا من المشروع عن طريق سفيرها في القسطنطينية اللورد كاويل Cowely الذي كتب إلى البارستون رئيس وزراء بريطانيا يقول " إن محمد علي قد أبلغ الصدر الأعظم رشيد باشا بأن الدول العظمى قد ألحَّت عليه في بناء القناة، ولكنه أعارها أذناً صماء، وأنه يفكر في الاضطلاع بالمشروع بنفسه بعد الانتهاء من العمل الذي يقوم به حالياً - يقصد قناة الدلتا - كذلك فقد طلب الوالي إلى رشيد عدم تشجيع المشروع إذا عرضته على الباب العالي أية دولة أجنبية(٧). أنت عرفت الآن لوبيير و ليتان بك و موجل بك، فهل تعرف شخصاً يدعى لويجي نيجرلي؟

لا تتعجل فتقول إنه فرنسي ضابط أو مهندس، صحيح أنه مهندس لكنه ليس فرنسياً بل هو نمساوي . و هو صاحب مشروع مؤيد للاتصال المباشر بين البحرين وقد اتصل بالسنان سيمونين عام ١٨٤٢م و ساهم في جميعتهم المشكلة لدراسة قناة السويس بصفته ممثلاً للعنصر النمساوي ورئيساً للشعبة النمساوية التي حضرت إلى مصر عام ١٨٤٧م . وقد أكد في مشروعه على إمكان إنشاء مدخل و ميناء على الخليج البيلوزي .

بعد دراسة نيجرلي عاهدت جمعية دراسات قناة السويس في عام ١٨٤٦م إلى شخص يدعى " بولان تالابو " Paulin Talabot بدراسة منطقة البرزخ بين البحرين لمعرفة مدى إمكان شق قناة تصل ما بين السويس و بيلوز - الفرما - و قد نشر تالابو تقريره في عام ١٨٤٧م الذي تضمن أربعة مشروعات من بينها مشروع قناة ملاحية مباشرة بين البحرين سواء أكان ذلك باستخدام أهوسة أو بدونها لتساوي ارتفاع البحرين، لكنه رأى صعوبة إنشاء البروزين اللذين قال بهما نيجرلي وإرسائهما على أرض غير صلبة، و كذلك صعوبة إنشاء مدخل ميناء على الخليج البيلوزي، وعلى ذلك فإنه رأى التخلي عن أي مشروع مباشر ينتهي إلى الخليج البيلوزي(٨).

المهم من هذا كله أن نظرية الأمتار التسعة التي تخفض بحراً (الأبيض) و ترفع بحراً (الأحمر) نُمِرت تدميراً لصالح نظرية أهم و أدق هي نظرية الأواني المستطرقة.

أراك تعجب لذكر كل هؤلاء قبل ذكر فردينان دى ليسبس . لا تعجب فما قدمناهم على دى ليسبس إلا لأنهم سبقوه وعاصروه، ووفق هذا وذاك كانوا من أهل الإبداع والابتكار، أما هو فلم يكن أكثر من مغامر، وفي أفضل الأحوال يمكن أن نستعير له من دنيا الأعمال

وصف المروج، ذلك الذي يتبنى مشروعات الغير فيروج لها كيما تتحقق و تدخل دنيا التنفيذ.

بداية أقول لك إن فردينان دى ليسبس هذا لم يكن مهندساً ولا خبيراً ملاحياً و لا حتى مسئولاً ذا دراية إدارية . كل ما هنالك أنه من عائلة دبلوماسية، فجده وأبوه و خاله كانوا منضوين في السلك الدبلوماسي الفرنسي، فالحقه خاله بارتيليمي Barthelemy بوزارة الخارجية الفرنسية قبل أن يعينه بالقرب منه في لشبونة، أما أبوه ماتيو Mathieu فقد فتح أمامه طريق مصر إذ كان أول ممثل لفرنسا في مصر بعد الحملة الفرنسية خلال الفترة من ١٨٠٢م إلى ١٨٠٤م وكان فردينان في البداية تلميذاً – قنصلاً .

و حينما جاء إلى مصر لأول مرة عام ١٨٢١م لم يسمح له بالنزول من السفينة إلى الأراضي المصرية - وكان قائماً من تونس - بسبب اكتشاف حالات كوليرا أدت إلى عزل جميع ركاب السفينة في الحجر الصحي، وفي الحجر قرأ فردينان الدراسة التي أجراها لوبير ضمن مجموعة من الكتب التي أحضرها له رئيسه فشئت انتباهه فكرة القناة التي ستختصر الطريق إلى الهند، واستطاع بذلك أن يحصل على التقرير الذي أعدته جماعة السان سيمونيين حول المشروع بحكم صلته بمحمد علي باشا، وتصادق مع لبنان بك وتحصل منه على صور مما كان يكتبه عن المشروع (٩).

وقد أبدى محمد علي باشا نحو فردينان الذي تولى منصب مساعد القنصل الفرنسي عطفاً كبيراً لما كان بينه و بين أبيه من صلات الصداقة القديمة، فقد كان قنصلاً لفرنسا في مصر سنة ١٨٠٣م، واتصل فردينان دى ليسبس بالأمير محمد سعيد إذ عهد إليه أبوه أن يُعنى بتربيته الرياضية، فتعلم الأمير على يده أنواع الرياضة والمهارة في ركوب الخيل. من هنا نشأت صلات الود بينهما، واستمرت صداقتهما طوال حياة سعيد باشا، ولما كان الأمير الشاب يعاني من البدانة ومن النظام الغذائي الصارم الذي فرضه عليه الباشا فقد كان فردينان يعد له أطباق المكرونة الشهية، وحسب روبري سوليه فقد روى فردينان هذه القصة بنفسه(١٠).

وإزاء أخطائه أوقع عليه مجلس الدولة الفرنسي عام ١٨٤٩م، عقوبة تأديبية باللوم والطرده من السلك الدبلوماسي، فقام بدور مزارع و عاش لفترة في منطقة بيرى الفرنسية حيث توفيت زوجته ثم أحد أبنائه بالحمى القرمزية(١١).

لا تضجر من هذه التفاصيل ولا يخامرناك أي شك في جنواها، فما تعمدت ذكرها على مسامحك - وهي قليل من كثير- إلا لتتمكن من بناء تصور شبه متكامل عن ذلك الرجل الذي قلب موازين الأمور في مصر و العالم.

طبيعي والكعكة التي يعد بها مشروع لوبير ضخمة ولذيذة أن يظل أمر الاستيلاء عليها هاجس هذا القنصل المغامر المطرود أثناء تقاعده ، وقد دفعه هذا الهاجس إلى أن يكتب مذكرة بشأن هذا المشروع ويترجمها إلى العربية ويفكر في عام ١٨٥٢م في تقديمها لوالى مصر عباس الأول، إلا أن صديقه قنصل هولندا رويسينايرز حذره بلا دراية، وأكد له أنه لا توجد أى فرصة لكى يهتم الوالى بهذا المشروع، فقدمه مباشرة إلى السلطان العثماني باعتباره حاكم مصر الأسمى، إلا أن السلطات العثمانية أبلغته أنه لا يمكن المشروع فى مثل هذه الأعمال إلا عن طريق الحاكم بمصر، فأرجأ المشكلة إلى وقت يكون موافياً أكثر . وجاء هذا الوقت سريعاً إذ اغتيل عباس الأول عام ١٨٥٤م وانتقلت ولاية مصر إلى محمد سعيد باشا فسارع فردينان دى ليسبس بكتابة خطاب إليه يهنئه بالمنصب وقال له إنَّ الدبلوماسية لم تعد تشغل وقته وأنه سيكون سعيداً لو أمكنه الإعراب له عن تقديره واحترامه، فرد عليه محمد سعيد ودعاه إلى المجيء إلى مصر فى شهر نوفمبر بعد عودته من زيارة القسطنطينية (١٢).

من فوره اتصل بجمعية الدراسات الخاصة بقناة السويس فى باريس وأقنعها بصلته الوطيدة بوالى مصر الجديد وحصل منها على توكيل ليعمل باسمها من أجل الحصول على امتياز قناة السويس و فى ٧ نوفمبر ١٨٥٤م وصل فردينان دى ليسبس إلى الإسكندرية فاستقبله مندوب الوالى وأحاطه بحفاوة بالغة وأوصله إلى مقر الضيافة، فأخذ مثل كل مروج لطيف يستطلع مزاج الوالى من خدمه وحاشيته ليتحقق من التغيرات التى طرأت على هذا المزاج خلال فترة ابتعاده عنه. و فى ١٥ نوفمبر ١٨٥٤م دعاه محمد سعيد باشا لرافقته فى مناورات الخريف، فما كان من فردينان دى ليسبس إلا أن امتطى الجواد الذى أهده إياه الوالى ووثب به فوق حاجز من الأحجار على مرأى من القواد والحاشية فى حركة أكروبياتية أعجبت الوالى وحاشيته، وكان فى مقدمة المعجبين وزير المالية ذو الفقار باشا المقرب من الوالى . ولم يكن فردينان دى ليسبس يحتاج لأكثر من هذا ، وعليه فاتحه فى أمر المشروع فى اليوم التالى، وزينه له فقبل محمد سعيد باشا المشروع ووعده بالمساعدة، واستدعى قواد جنده وعرض عليهم الفكرة، ولأنهم كانوا متأثرين إعجاباً بغروسيه فردينان دى ليسبس فقد سارعوا إلى استحسان المشروع دون أن يبحثوه أو يوازنوا بين مضاره ومزاياه فكانوا حسب عبد الرحمن الرافعى هم و سعيد فى قصر النظر سواء (١٣) ؛ ولم تفت فردينان دى ليسبس هذه الحقيقة المؤلمة فقد أشار إليها، فى شيء من التهكم والسخرية، وقال " جمع سعيد باشا قواد جنده، وشاورهم فى الأمر، ولما كانوا على استعداد لتقدير من يجيد ركوب الخيل ويقفز بجواده على الحواجز و الخنادق

أكثر من تقديرهم للرجل العالم المثقف، انحازوا إلى جانبى، و لمَّا عرض عليهم الباشا تقريرى عن المشروع، بادروا إلى القول بأنه لا يصح أن يرفض طلب صديقه، وكانت النتيجة أن منحتى الباشا ذلك الامتياز العظيم» (١٤).

وكان أن فوجئ قناصل الدول باستدعاء محمد سعيد باشا لهم للحضور إلى قصره بالقاهرة فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤م ليتلوا عليهم ورقة كان قد أعدها له فردينان دى ليسبس، ولم تكن هذه الورقة سوى فرمان الامتياز الأول.

اشتمل فرمان الأول على اثنتى عشرة مادة كلها مجعفة بحق مصر و مُشجعة لأطماع المغامر فردينان دى ليسبس، فقد جاء فى المادة الأولى : يؤسس المسيو فردينان دى ليسبس شركة يُعهد إليه بإدارتها تسمى " الشركة العالمية لقناة السويس البحرية " لشق برزخ السويس واستغلال طريق صالح للملاحة الكبرى، وإنشاء وإعداد مدخلين كافيين، أحدهما على البحر الأبيض المتوسط والآخر على البحر الأحمر وبناء مرفأ أو مرفأتين . ويلاحظ هنا ثلاثة أمور، أولها أنه لم يرد فى فرمان أى ذكر لجمعية الدراسات الخاصة بقناة السويس التى وكَّلت فردينان دى ليسبس عنها، ففرمان الامتياز واضح فى تحديده لاسم فردينان دى ليسبس دون غيره وبهذا نسب المشروع لنفسه وأنكر التوكيل. وثانيها أنه لم يرد بالفرمان أى تحديد دقيق لمواقع المدخلين على البحرين المتوسط والأحمر، ومن ثم لم يأت ذكر نقطة التقاء خط الطول ١٨، ٣٢ شرقاً وخط العرض ١٦، ٣١ شمالاً .

أما ثالثهما فيتعلق باسم الشركة، فعلى حين أن أغلب الأدبيات التى تناولت قناة السويس وتعرضت لهذا فرمان ذكرت أن اسمها هو الشركة العالمية لقناة السويس، نجد من يقول بأن فرمان قد نص على أن اسم الشركة هو " الشركة العامة لقناة السويس البحرية " وليس " الشركة العالمية لقناة السويس البحرية " (١٥) . وقد ورد هذا فى تمهيد فرمان الأول، وفى مادته الأولى كما ورد فى تمهيد فرمان الثانى، وفى المادة الواحدة والعشرين منه ، الأمر الذى يحتاج إلى تدقيق وتحقيق ونشر لصور ضوئية أو زنكوغرافية للفرمانين فى صورتيهما الأصليتين، لأنه لو صح هذا - و لا نستبعده - فإن الأمر يحتاج إلى وقفة لتفسير معنى عامة، فلا أظن يا عزيزى أنه قد قصد ذلك النوع من الشركات المملوكة ملكية عامة للشعب، فلم يكن هذا المصطلح شائعاً فى ذلك العهد، ولذلك فأتأ أميل إلى أن هذه المفردة إنما تعنى الشمول والعالية، واستند فى هذا إلى ما ورد بالتمهيد الذى ورد فى مقدمة فرمان حول الإيضاحات التى قدمها دى ليسبس لمحمد سعيد باشا وبيئت أنه فى الإمكان تأسيس شركة لهذا الغرض تؤلف من أصحاب رؤوس الأموال فى شتى

الأمم (١٦) : ومن ثم فإن عبد الناصر لم يقع في فخ عندما أصدر قراره بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية، لأنه كان اسمها الفعلي، ومع هذا أرى أنه من الضروري بمكان البحث في هذه النقطة التي أغفلها الباحثون أو كادوا.

وجاء في المادة الثالثة أن مدة الالتزام تسع وتسعون سنة تبتدئ من تاريخ افتتاح قناة البحرين .. ونصت المادة الخامسة على أن تجبى الحكومة سنوياً من الشركة ١٥ ٪ من صافي الأرباح المستخلصة من الشركة ويوزع الباقي بواقع ٧٥ ٪ للشركة و ١٠ ٪ للأعضاء المؤسسين . ومن العجيب المستغرب أن هذا فرمان منح الشركة امتيازات لا تمت للقناة بصلة، منها إعطاؤها أراضي الدولة بغير مقابل وإتاحة زراعتها بمعرفة الشركة أو بواسطتها وإعفاؤها من الضرائب لمدة عشر سنوات (م ٧) وترك فرمان تحديد مساحة تلك الأراضي للمهندس ليتان صديق دي ليسبس (م ٨)، كما منح الشركة حق استغلال المناجم و المحاجر الداخلة في الأملاك العامة واستخراج المواد اللازمة منها لأعمال القناة بدون دفع أية رسوم (م ٩)، وكان أمراً غير مألوف، ومثيراً لأكثر صور الدهشة والعجب قوة، السماح للشركة باستغلال قناة التغذية (قناة المياه العذبة) المتفرعة من النيل والمتاخمة لمنطقة حفر القناة استغلالاً خاصاً مع إباحة بيع مائها للفلاحين المصريين بمبالغ تحصل عليها خزنة للشركة (م ٨).

وحدث بعد إعلان فرمان الأول ثلاثة أمور كان ينبغي توقع أحدها على الأقل، وهو ما تعلق بهياج إنجلترا التي فاجأها فرمان فأقامت الدنيا ضده، ولأنها كانت تعلم أن فرمان لن يكون ساري المفعول بدون موافقة الباب العالي - وهذا ما أشّر به سعيد باشا على فرمان - فقد أوغرت إنجلترا صدر السلطان التركي ضد فرمان فعارضه، ليبدل دي ليسبس غاية جهده لإقناع أوروبا بمشروعه، وفي رحلات مكوكية اتجه إلى القسطنطينية ثم إلى إنجلترا وطاف بالدول الأوروبية واتصل بإمبراطور فرنسا من أجل إنفاذ فرمان .

أما الأمر الثالث فقد اكتشفه دي ليسبس نفسه في فرمان الذي سعى إلى إنفاذه ورأى فيه عيباً، فقد تبين له أن هذا فرمان جاء خالياً من أي نص يتعلق بالعمالة اللازمة للحفر، وأيقن أن خلو فرمان من هذا النص سيكلفه كثيراً فلجأ إلى نابليون الثالث الذي تدخل لدى الباب العالي للقضاء على التأثير الإنجليزي عليه وطمأنته، كما اتجه صوب وإلى مصر ليوقع على فرمان الثاني الذي قدمته له وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ ٥ يناير ١٨٥٦م، بعدما عرض دي ليسبس عليه نتائج الدراسات التي قامت بها اللجنة الدولية الفنية (لجنة ١٨٥٥م) وأثبتت أن سطح كل من البحرين واحد، وأن الأرض صالحة لاجتياز

القناة الملحية وأنه من الممكن إقامة ميناء عند الطرف الشمالى للقناة غرب الخليج البيلوزى. عقب صدور هذا فرمان اتجه دى ليسبس و معه لبنان بك و موجيل بك باعتبارهما كبيرى مهندسى الحكومة المصرية فى رحلة استكشافية لمنطقة البرزخ، ووصل لبنان وموجيل إلى الفرما فى ١٠ يناير ١٨٥٥م، وقدموا فى ٢٠ مارس من نفس العام المشروع التمهيدى إلى دى ليسبس، وقد أثبتا فيه أن طمى النيل ليس له وجود بين الرواسب البحرية أمام ساحل البحر المتوسط، ودللا على ذلك بأن شاطئ بيلوز لا يتكون إلا من الرمال فقط وليس فيه أى أثر لرواسب نهريّة كما سبق أن أخبرتك يا عزيزى (١٧).

وبتوجيه من دى ليسبس شكّلت لجنة دولية فى ٣٠ أبريل من نفس السنة من المهندسين والفنيين لدراسة تقرير لبنان وموجيل، وإبداء رأيها فى مدى صلاحية المشروع للتنفيذ بهدف طمأنة من يتطلعون للاكتتاب فى أسهم الشركة عند الإعلان عن تأسيسها. وبعد ثمانية أشهر، أى فى ديسمبر من ذات السنة، وصلت اللجنة إلى منطقة الفرما ودرست على مدى ثلاثة أيام الساحل البيلوزى دراسة وافية، وبحثت إمكان إنشاء ميناء على هذا الساحل، ودرست بعثة لاروس المقررة عن اللجنة الدولية الخليج البيلوزى لمدة شهر آخر وانتهت إلى أن الساحل مكون من الرمال الدقيقة، ويليه منطقة رملية تمتد فى البحر حتى يصير عمق الماء عشرة أمتار، وتوصلت إلى أن العمق اللازم لملاحة السفن الكبيرة، وهو ثمانية أمتار، متوفر فى المنطقة الغربية من الخليج البيلوزى حتى دمياط على بعد ٢٣٠٠ متر من الشاطئ، بينما لا يتوفر هذا العمق نفسه فى المنطقة الشرقية من الخليج إلا على بعد ٧٥٠ متراً من الشاطئ، وهذا ما سبق أن قلته لك عند الحديث عن الخليج البيلوزى، كما تبين للجنة أن نسائم البر و البحر التى يتعرض لها الخليج معظم العام من شأنها أن تسهل حركة السفن دخولاً وخروجاً من وإلى الميناء المزمع إنشاؤه على منفذ القناة الشمالى فى جميع الأوقات(١٨).

ويتعلق الأمر الثانى بالسان سيمونيين فقد هاجروا و ماجوا من سطو دى ليسبس على المشروع وحاولوا عرقلة تحرك دى ليسبس بتنشيط مشروعات مغايرة لم يكتب لها النجاح . من هنا كان الخصام الذى لا علاج له بين دى ليسبس، الذى أظهر وجهه الحقيقى، وأصدقائه القدامى.

ويبدو أن دى ليسبس قد قدّر حدوث هذا الهياج وحدد حجمه ورتب نفسه لمواجهة واحتوائه، فقد حرص على أن يُرسل إلى جمعية دراسات قناة السويس نسخة من جميع الوثائق، المذكرة التى وضعها، والفرمان، وجميع الخطابات المرسلة إلى القنصلين البريطانى والفرنسى ، وأرسل إليها أيضاً قائمة بأسماء الأشخاص الذين، فى رأيه، يمكن

أن يكونوا مؤسسى الشركة القادمة . وكانت أسماء الشخصيات السان سيمونيين الأساسية واردة فى هذه القائمة فكسب بهذه الحيلة رضا بعضهم . لكن الهجوم من أغلبهم عليه كان شديداً، حتى أنه اتهم بأنه ينقض على السان سيمونيين كالخنفساء، ووصف بأنه مجنون خطر يُفسد مشروع السويس النبيل . إذ ذاك استعان دى ليسيس بعائلته وبأصدقائه ووزع المناصب على المنضمين إليه من السان سيمونيين وطلب معاونة حماته (مدام دى لامال) عريضة الاتصالات، واعترف لها بأنه يطمح إلى أن يجمع وحده خيوط هذا المشروع الكبير، وأنه لا يرغب فى قبول شروط أى شخص، وهدفه هو فرض جميع الشروط (١٩).

والفرمان الثانى جاء كثير التفاصيل (٢٢ مادة)، شديد الإجحاف والتفريط بحقوق المصريين فشروطه الفاحشة لا ترضى بها حكومة رشيدة ساهرة على مصالح البلاد (٢٠). بمقتضى هذا الفرمان صندق محمد سعيد باشا على الامتياز الذى سبق أن منحه لصديقه المغامر الطموح، وبمقتضاء حصلت الشركة على امتيازات عديدة خلاصتها كما يلى:

١- منحت الحكومة الشركة امتياز إنشاء قناة السويس بين خليج الطينة على البحر المتوسط والسويس على البحر الأحمر، وإنشاء ترعة للمياه العذبة صالحة للملاحة النيلية تستقى من النيل وتصب فى القناة الملحّة، وإنشاء فرعين للرّى والشرب يستمدان مياههما من التربة المذكورة ويصلان إلى السويس و الطينة (م ١).

٢- تنازلت الحكومة للشركة مجاناً عن جميع الأراضى المملوكة لها والمطلوبة لإنشاء القناة الملحّة وترعة المياه العذبة و توابعها، وهى مساحة شاسعة تتراعى على طول القناة والترعة المزمع إنشاؤها بعرض كيلومترين من الجانبين، وقد تنازلت عنها الحكومة بلا مقابل مع إعفائها على الدوام من الضرائب، وتنازلت أيضاً عن جميع الأراضى القابلة للزراعة لتستصلحها الشركة وترويهها، مع إعفاء هذه الأطنان من الضرائب مدة عشر سنوات من تاريخ استثمارها (م ١٠) .

٣- خوّلت الشركة، عدا ما تقدم، حق انتزاع الأراضى المملوكة للأفراد مما ترى لزومها لإجراء الأعمال و الانتفاع بالامتياز فى مقابل أن تدفع الشركة لأصحابها تعويضات عادلة (م ١٢) .

٤- على أصحاب الأطنان الواقعة أملاكهم على ضفاف الترع التى تنشئها الشركة إذا أرادوا رى أراضيتهم بمياهها أن يحصلوا على ترخيص بذلك من الشركة فى مقابل تفويض يؤدونه لها (م ٨) .

هـ- منحت الحكومة الشركة طول مدة الامتياز الحق في أن تستخرج من المناجم والمهاجر الأميرية كل المواد اللازمة لأعمال المبانى وصيانتها وملحقات المشروع، دون دفع أى رسم أو ضريبة أو تعويض وأعفت الحكومة الشركة من الرسوم الجمركية والعوائد عن جميع الآلات والمواد التي تستوردها من الخارج (م ١٣).

٦- حدد أجل الامتياز بمدة ٩٩ سنة من افتتاح القناة البحرية للملاحة وبعد انتهاء هذه المدة تؤول القناة إلى الحكومة المصرية (م ١٦). ولكن المادة قيدت هذا الحق بشرط قد يؤدي إلى تعطيله، أو يفتح باباً للمشاكل، وهو وجوب أخذ الحكومة في هذه الحالة جميع المهمات والمعدات المخصصة لأعمال المشروع البحرية، وأن تدفع للشركة قيمتها التي تقدر بالتراضي أو بناء على تقدير الخبراء وبالطبع لا يوجد ما يمنع الشركة من المبالغة في تقدير قيم المعدات التي خصصتها أو تخصصها في المستقبل للمشروع، أو أن تعتمد الإسراف فيها لتعجيز الحكومة، ولتختلق العقبات التي تعطل حق مصر في استرداد القناة. ثم إن المادة ١٦ من هذا فرمان لم تذكر شيئاً عن المنشآت التابعة للشركة، كالمبانى مثلاً وقد كان فرمان الأول (م ١٠) ينص على أن شأنها شأن القناة في رجوعها للحكومة دون مقابل، أما فرمان الثاني فقد صيغ بأسلوب مجحف بحقوق مصر كل الإجحاف. يضاف إلى هذا (و الملاحظة من عندي) أن هذه المادة أتاحَت للشركة تجديد الامتياز لمدد متتالية كل منها تسعة وتسعون سنة.

٧- حُولَت الشركة حق فرض ما تشاء من الرسوم على السفن التي تمر في القناة البحرية أو الترع و الشغور التابعة لها على شرط أن لا تزيد النهاية العظمى عن عشرة فريكات عن كل طن وكل شخص من المسافرين (م ١٧).

٨- في مقابل الأراضي والامتيازات الممنوحة للشركة تحصل الحكومة المصرية على حصة قدرها ١٥ ٪ في المائة من صافي الأرباح السنوية (م ١٨) وقد خسرت مصر هذه الحصة سنة ١٨٧٩م، فعندما ارتبكت أحوالها المالية بسبب إسراف إسماعيل باعت هذا النصيب إلى البنك العقاري بفرنسا مقابل ٢٢ مليون فرنك.

٩- نص فرمان على أن يكون أربعة أخماس العمال من المصريين على الأقل (م ٢) وتعهدت الحكومة ببذل مساعدتها للشركة وتكليف جميع موظفيها وعمالها في جميع دوائر المصالح بأن يمدوا الشركة بمساعدتهم لها (م ٢٢)، وقد فسرت الشركة نصوص هاتين المادتين على أنها تعهد من الحكومة بتسخير أربعة أخماس العدد الذي تطلبه من العمال، وأن يكونوا من الفعلة والفلاحين المصريين، وأن أدوارهم محددة في أعمال الحفر والإنشاء، وفي كل الأحوال يجب وضعهم تحت تصرف الشركة لتشغيلهم فيما تريده من أعمال، ومن

هنا كانت السخرة وكانت ظروف العمل القاسية وموت نحو ١٢٠ ألف فلاح مصري أثناء حفرها بمتوسط شهري ألف شهيد وبمعدل يومي ٢٢ شهيدا، وذلك من عشرين ألفا كانوا يساقون إلى ساحات الخفر كل شهر.

وكان فرمان الامتياز الأول (م ٢) يخول الحكومة حق تعيين مديري الشركة، ولكن هذا الحق لم يظهر له أثر في فرمان الامتياز الثاني، وهذا فرمان يقضى بإلغاء النصوص الواردة في فرمان الأول بما يخالف أحكام فرمان الثاني، واقتصرت المادة (٢٠) من فرمان الثاني على أنه " يرأس الشركة ويديرها صديقنا ووكيلنا المسيو فردينان دى ليسبس بصفته المؤسس لها طوال المدة التي تستغرقها الأعمال، ثم لمدة أخرى قدرها عشر سنوات تبتدى من تاريخ استغلال الامتياز. وقد خسرت الحكومة في فرمان الثاني حق تعيين مديري الشركة و حفظ لها فقط حق تعيين " مندوب " عنها لدى الشركة ليمثل حقوق الحكومة ومصالحها، الأمر الذي يحق معه وصف هذا فرمان بالفرمان الشخصي مثلما فعل روبير سوليه مع فرمان الأول (٢١)، لأنه فصل تفصيلاً ليركز السلطة بين يدي دى ليسبس .

و كان فرمان الأول ينص (المادة ٤) على أن الحصون التي ترى الحكومة لزوم إنشائها في منطقة القناة لا تكلف بها الشركة، قد أغفل هذا النص في فرمان الثاني، وفسر إغفاله بأنه لا حق للحكومة في إقامة الحصون في هذه المنطقة.

والأدهى أن سعيد باشا في معاضدته لصديقه الفرنسي المغامر، وتذليله للعقبات وإزاحته لها من أمامه، ذهب إلى أقصى مدى بما أعطاه له، بالإضافة إلى كل المزايا الفرمانية التي ذكرتها لك يا عزيزي، المبالغ المتوفرة في خزانة الحكومة وقتئذ وقدرها ١٠٠ ألف جنيه ليستعين بها على العمل (٢٢).

فهل رأيت يا عزيزي كيف خول محمد سعيد باشا الشركة مزايا جعلتها تشارك الحكومة المصرية في ملكيتها العامة وسيادتها ؟ .. وهل رأيت كيف ملكها مرافق ومنافع عامة لا يملكها أبناء البلاد ؟ .. أسمعت تقول كأنها دولة داخل دولة .. نعم لقد جعل منها محمد سعيد دولة أخرى بها راحت تنمو وتستفحل داخل الدولة المصرية (٢٢).

اتصل دى ليسبس برجال البنوك مثل فولد Fould وروتشيلد Rothschild لتمويل المشروع فطلبوا عمولات كبيرة دفعته إلى أن يقوم بنفسه بتنظيم الاكتتاب في جميع البلدان بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية . و تم افتتاح مكتب في باريس وتعيين مراسلين في الأقاليم والدول الأخرى، فيما أن المشروع عالمي فيجب أن يكون رأس المال عالمياً أيضاً . وحسب روبير سوليه خاطب دى ليسبس بنفسه الجمهور أثناء رحلات عديدة في المملكة

المتحدة (أربع مرات خلال الفترة من ١٨٥٦م إلى ١٨٥٨م) وبارشونة وفينيسيا، وفيينا، وأوديسا(٢٤) .

لقد كان دي ليسبس أفاقاً دهاًقاً، وكان حريصاً على أن يبدو حسب ديفيد لاندز - صاحب واحد من أهم الكتب التي كشفت النهب الأوروبي المنظم لصر - مملوياً بحماس الأنبياء، طليقاً في خطابه، أنيقاً في كتابته ؛ ولهذا جعل من مشروع القناة كل شيء لكل الناس ؛ فإذا كان من يكتب إليه دي ليسبس من أهل المثل قال له إن القناة خطوة عظيمة نحو عالم جديد مشرق، وإذا كان فرنسياً وطنياً - بل إذا كان مواطناً أوروبياً - قال له دي ليسبس إن القناة ضرورية قاضية لغدر الشرقيين، وإذا كان رأسمالياً حريصاً قال دي ليسبس إن المشروع استثمار عظيم التزمته الحكومة المصرية بضمانه ضد أى خسارة(٢٥).

وفي اليوم الخامس من نوفمبر ١٨٥٨م تم فتح باب الاكتتاب و طرح ٤٠٠ ألف سهم للبيع في السوق فاكتتب ٢٦ ألف شخص في فرنسا اشتروا ٢٠٧ آلاف سهم حسب روبيير سولييه، أما ديفيد لاندز فالرقم عنده يزيد قليلاً ليصل إلى ٢٢٢٣٦٨ سهماً(٢٦) ؛ أما الأماكن الأخرى فقد كان الفشل فيها شبه تام فكل عبقرية دي ليسبس وكل الأساليب التي استخدمها للترويج لمشروعه، فلم يشتري الإنجليز أو الأمريكان أو الروس أو النمساويون، بل الأتراك أيضاً. شيئاً من هذه الأسهم ولكل منهم أسبابه ؛ ولعللجة هذا الفشل فقد باع جبرياً لسعيد باشا ١٧٦ ألف سهم بدلاً من الـ ٦٤ ألف سهم المتفق عليها ، وتحملت مصر إخفاقات دي ليسبس في توزيع الأسهم.

ورهن سعيد مستقبل مصر عندما وقع اتفاقية مع شركة القناة يدفع بمقتضاها أعباء المساهمة عن طريق سندات من الخزينة المصرية.

ولقد نصت هذه الاتفاقية على أن يكون سعر السهم مائة فرنك، ومعنى ذلك دفع مبلغ ٢٠٠,٧٦٤ فرنك عن ١٧٧٦٤٢ سهماً لم يكن سعيد قد سدد منها في أبريل ١٨٦٠م غير ٢,٥١٦,١٥٧ فرنك فحسب، أما الباقي فتتمت تغطيته بالطريقة سالفة الذكر، على ألا يتم سداد الدفعات الأولى إلا سنة ١٨٦٣م (٢٧). غير أن الموقف تغير عند نهاية ١٨٦٢م. فقد ارتفع ثمن السهم إلى ٣٠٠ فرنك، ومن ثم ارتفعت أعباء مصر المباشرة من ١٥ مليون فرنك إلى ٥٤ مليون فرنك (٢٨).

وحسبما ذكر نوبار باشا في مذكراته تمخض هذا الأمر عن نشوء موقف حرج وروي أن محمد سعيد باشا توجه إلى قنصل فرنسا بالشكوى مما فعله دي ليسبس، وملخص ما فعله أنه سلم محمد سعيد باشا ورقة منفصلة فسلمها بدوره إلى سكرتيره دون أن يقرأها،

ليفاجاً بعد أيام يطلب من دي ليسبس يرجوه أن يتكرم بإصدار أوامره لدفع قيمة اكتتابه، فسأله محمد سعيد باشا " أى اكتتاب؟"، فأجاب " قيمة اكتتابكم البالغة ٨٨ مليون فرنك"، وأحضروا الورقة المنفصلة التي دُون على ظهرها بالفعل مبلغ ٨٨ مليون فرنك قيمة اكتتاب والى مصر، فقال دي ليسبس " لقد مضت خمسة عشر يوماً و جلاتكم صامتون، فبهذا الصمت تكونون قد صدقتم على الاكتتاب ... لقد أبلغت ذلك لزملائي وللأشخاص الذين يحملون لكم أرق المشاعر وكلفوني بإبلاغ تحياتهم لجلالتكم".

ويقول نوبار باشا: إن محمد سعيد باشا قال لقنصل فرنسا بلهجة عسكرية ما معناه لقد أغرقنى صديقك دي ليسبس حتى أذنى" (٢٩).

ويورد روبير سوليه تعليقاً للمؤرخ المصرى محمد صبرى على هذا الأمر فيقول " إن تحميل خزنة نائب ملك مصر (الوالى) بـ ٤٤ ٪ من رأس المال الإجمالى - لشركة يقال إنها عالمية - الذى كان يجب الحصول عليه من رؤوس الأموال الحرة، هو دَفْعٌ لمحمد سعيد باشا نحو منحدر الاستدانة المشؤوم" (٣٠).

لقد كانت صداقة غريبة تلك التى ربطت بين دي ليسبس و محمد سعيد باشا، صداقة تشيع فيها الكراهية مثلما تشيع فيها المودة والإقبال والإدبار والترضية والتهديد. وقد وصل الأمر بمحمد سعيد باشا أن حاول قتل دي ليسبس حسبما ذكر الأخير فى مذكراته، ومن الحيل الكثر التى مارسها دي ليسبس على صديقه أنه أوهمه وأدخل فى روعه بأن نابليون الثالث إمبراطور فرنسا يرغب فى استضافة ابنه طوسون للتعليم بمدارس فرنسا فسر محمد سعيد باشا، لكن ما إن وصل طوسون إلى باريس حتى التفت دي ليسبس إلى صاحبه ليقول له إن ابنك رهينة عندنا إذا أنت عدت إلى معارضة المشروع، أو كررت التنبيه على العمال بعدم التوجه إلى منطقة الحفر. ويقال إن هذه الحيلة قد أثرت أبلغ الأثر فى محمد سعيد باشا وأنها من أسباب موته وهو فى سن الأربعين (مات فى ١٨ يناير سنة ١٨٦٢م)، وحسب تعبير د. مصطفى الحفناوى كان دي ليسبس من الصفافة ولؤم الطبع بحيث دخل المسجد الذى صلى فيه على محمد سعيد وشيعه إلى مقره الأخير وتقبل العزاء فى ضحيته (٣١).

لقد كان محمد سعيد باشا أول حاكم مصرى ينفّذ انفتاحاً سافراً على فرنسا وأوروبا بدافع من تربيته ومن صداقته الغربية لفردينان دي ليسبس، ويتأثر من هذين الدافعين تدفق الأوروبيون فى عهده على مصر باحثين عن الثروة فى مشروعاته المجزية، ومكثرين من إساءة استخدام عنصر الثقة. وتمتع القناصل الأوروبيون منذ عهده بخصانة تحولت إلى حق إفلات الأوروبيين الذين قاموا بأعمال نصب واحتيال واختلاس حقيقيين من طائفة

العقاب.

لقد كان محمد سعيد باشا سريع الانقياد و التأثر بما يسر به إليه أصدقائه المقربون، ومن ثم كثرت قراراته غير المبنية على الدراسة فضلاً عن التأتى عند إجرائها . والامتيان الذى منحه لفردينان دى ليسبس لشق قناة السويس ليس إلا مثلاً واحداً على سرعته فى اتخاذ القرارات، فقد اتخذ قرار منح الامتيان دون تفكير فى العواقب، والسبب هو تأثره بـ "اللعب العاطفى على علاقات صداقة قديمة" (٣٢).

ما رأيك يا عزيزى فى استراحة قصيرة التقط فيها بعضاً من أنفاسى و تستريح أنت من ثرثرتى ؟

لقد قطعنا شوطاً لا بأس به فى الحديث عن الجغرافيا و التاريخ . ربما بدا لك مما عرضته عليك بطريقة أقرب إلى البانورامية، أننا قد ابتعدنا كثيراً عن نقطة التقاء خط الطول ١٨، ٣٢° شرقاً وخط العرض ١٦، ٣١° شمالاً، لكننى أطمئنتك بأننا على العكس قد اقتربنا جداً .

ريح ساقبك فقط واحتس شيئاً لتجدد قواك .

أنا شخصياً سأفعل هذا، فليتك تفعل مثلى لنتهيأ لما هو آت .

الفصل الثاني

خراف وكواسر

أخشى عزيزي القارئ أن يتسرب إليك أي قدر - ولو ضئيل - من الملل وأنت تقرأ هذا الكتاب . إن حدث - وأرجو ألا يحدث - فنح الكتاب جانباً وانصرف إلى ما هو أفيد لك، فإنفاق الوقت على غير المفيد إهدار للحياة ؛ أما إذا كنت ترغب - ما تزال - فيما أرويه وتطبيقه، فما عليك إلا أن تستمر في التصفح.

أشكرك.

وبما أنك أبهجتنى، ولأن كلينا نال من الراحة قسماً، فإنني أدعوك لنزهة على ضفة قناة السويس .. فما رأيك ؟.

أشكرك مرة أخرى .. وهيا بنا.

نحن هنا في أقصى نقطة من شمال شرق قارة إفريقيا . نُطلُ على البحر المتصل بقارة أوروبا وعلى دقائق يسيرة من قارة آسيا . ها هي ذى قارة آسيا أمامك على الضفة الأخرى من القناة .

إنها نقطة التقاء خطي الطول ١٨ ٣٢° شرقاً والعرض ١٦ ٣١° شمالاً .. نقطة عبقرية نادرأ ما نجد مثيلاً لها على الكوكب الأرضي . بل يستحيل أن تجد مثيلاً لها على كوكبنا . وأرجو ألا يفوتني الحديث عن ملامح هذه العبقرية، أما الآن فأريدك أن تتخيل - وأنت في صورتك البشرية - أنك تعيش عام ١٨٥٩م. عند موضعنا هذا تحديداً، وتحديداً في يوم

الاثنين الموافق ٢٥ أبريل من عام ١٨٥٩م، لن ترى طبعاً سوى مساحة من الرمال القفر غمر البحر بعضها، فيما راحت الرياح - رياح الخماسين - تُطير الجاف من الرمال. وبالطبع ستري أسراباً من الطيور، ومنها النوارس، هل تتكلمها؟ ها هي ذى تحلق وتميد فتبهرك رشاققتها، وقد تبهرك التواءات الأسماك وتمايلها بين مناقير بعضها. هنا، وفي هذا اليوم تحديداً، سنتم أدق وأشق وأشهر عملية جراحية يمكن أن تُجرى على سطح الأرض. أدوات الجراحة ليست معقمة وليست رفيعة الحد وليست متطورة. مجرد قنوس ومعاول وجواريف ومقاطف .. لا توجد معاطف بيضاء ولا أقنعة أو أغطية رأس أو قفازات، وإنما أسمال ومزق من قماش .. ولا تتوفر تروليات للنقل، كهربائية أو يدوية، إنما زكائب وحبال وحمير وجمال وكرايبج وأسلحة.

هنا وفي هذا اليوم تحديداً سنتم أول وأخطر وأهم عملية اختزال قارى تحدث على وجه الأرض في القرن التاسع عشر الميلادي، فبموجب هذه العملية سيتحتم تغيير خرائط العالم. ولأول مرة سيتم رسم خط حدودى صناعى (بفعل البشر)، طبيعى (بحكم أنه مكون من مياه ومحفور فى رمال). ما بين أقصى شمال شرق القارة الإفريقية وأقصى غرب القارة الآسيوية سيرسم هذا الخط. بعدما كانت التخوم من التداخل بحيث لا تتيح معرفة بدايات أو نهايات كل من القارتين، فبعد عشر سنوات فقط من ذلك اليوم ستتغير الخرائط والعلامات الدولية، والسبب هو هذه العملية الجراحية الفذة.

هنا فى هذا المكان، وفى نهار ذلك اليوم .. اليوم الخامس والعشرين من أبريل ١٨٥٩م. أقيم حفل متواضع اقتصر على جمع من مستخدمي الشركة والمقاول العام وفريق من العمال المصريين بلغ عددهم فى ذلك اليوم نحو مائة عامل جىء بهم من دسباط والنواحي القريبة منها (٢٣). فى هذا الحفل ألقى دى ليسبس خطبته التى مالا فيها محمد سعيد باشا كعادته، وجاء فيها " باسم شركة قناة السويس العالمية البحرية وتنفيذاً لقرار مجلس إدارتها نضرب أول معول فى هذه الأرض ليفتح أبواب الشرق لتجارة الغرب وحضارته...". وبعد ذلك أمسك بمعول وضرب به الأرض، إيذاناً بالبداية فى عمليات الحفر وتبعه أعضاء الوفد فالمهندسون ثم سائر مستخدمي الشركة. بعدها وجه حديثه إلى العمال المصريين وقال لهم " سوف يبدأ كل منكم بمعوله فى عمليات الحفر كما فعلنا نحن الآن واذكروا أنكم بهذا لن تحفروا الأرض فقط، ولكن ستجلبون الرخاء لأسركم ولبلادكم"، ثم صاح " المجد والفخار لأفندينا محمد سعيد باشا، فليعيش عمراً طويلاً" (٢٤).

وبعدما شرع العمال المصريون فى أعمال الحفر ولم يكن التصديق العثماني على فرمان الامتياز قد صدر بعد، والهدف كان معروفاً وهو وضع تركيا وإنجلترا أمام الأمر

الواقع (٣٥). ورويداُ رويداُ بدأت بورسعيد فى النشوء.

البداية كانت مجموعة من الخيام للعمال الأجانب من فرنسيين وبنسايين ويونانيين، وزودت هذه الخيام بالواح خشبية توضع على أرضياتها التى هى فى الأساس رمال الحفر بعد ما تم فرشها فى المناطق المنخفضة والأراضى السبخة بارتفاع مترين ونصف المتر . ثم ما لبثت الأكواخ والاكتشاك الخشبية أن ظهرت، ومنها ما كان من مخلفات حرب القرم . وقد أقيمت هذه الأكواخ على الشريط الرملى الفاصل بين البحر المتوسط وبحيرة المنزلة . ثم حلت محل الأكواخ والاكتشاك الخشبية شاليهات واكتشاك قامت بتصنيعها شركة فرنسية تعرف باسم فريريه دى ميكام وقد وصلت هذه الاكتشاك إلى بورسعيد فى يوليو ١٨٥٩م. لتحل محل الخيام (٣٦). ثم ظهرت المنازل المصنوعة من الأخشاب المستوردة والقرميد الأحمر، واستخدمت كذلك مواد محلية كالبيوص والطين والحصير، وأقيمت بعض المباني من الطوب المحروق الذى تم صنعه من الطين المستخرج من قاع البحيرة . ولأول مرة شهدت بورسعيد عام ١٨٦٥م. استخدام المباني سابقة التجهيز وكانت من نصيب الأوروبيين ؛ أما العمال من الوطنيين، وقد جلبتهم الشركة فى البداية من دمياط والدقهلية والإسكندرية والقاهرة وغيرها، فقد أقاموا على الهامش حيث البرك والمستنقعات، وإقامتهم كانت فى عيش من البيوص . التقسيم كان عنصرياً وطبقياً منذ البداية، فالأجانب أقاموا فى المدينة الوليدة بالقرب من أباكن حفر القناة، والوطنيون ليس لهم سوى ما أطلق عليه قرية العرب التى تقع غرب المدينة فى منطقة كثيرة البرك والمستنقعات وقد وصفها أحد الكتاب الفرنسيين بأنها مثال بائس للحياة فى الشرق(٣٧).

ومن حيث الحجم لم تكن قرية العرب تقارب عُشر مساحة المدينة وقتها وكانت تفصل بينهما أرض فضاء تقترب مساحتها من الخمسمائة متر . وأخذت هذه المساحة فى التقلص إلى أن زالت تماماً ولم يعد يفصل بينهم سوى شارع واحد .

أشعر أنني قد اقتربت جدا من هدفى بحدیثى عن نشأة المدينة لكن القناة تضغط على بأحداثها الكثيرة التى لو انصرفت إليها لحرفتني عن هدفى وبغيتي ؛ لكننى أستمحك عذراً فثمة أمور ثلاث تفرض نفسها على من يتصدى للحديث عن بورسعيد وإن ارتبطت أكثر بقناة السويس. أول هذه الأمور لو كان قد تحقق لما شقت القناة ولما أنشئت بورسعيد أصلاً، فقد فرغ محمد سعيد باشا عقب بدء الحفر ربما بسبب هياج الأسد البریطانى وسعيه – مؤيداً من النمسا - لدى السلطان العثمانى لإبغار صدره ضد نائبه على مصر بإثارة مخاوفه من عزم الأخير على الاستقلال بمصر، وكان من نتائج هذا صدور أوامر السلطان بوقف أعمال الحفر. من فورة نقل محمد سعيد باشا الأمر إلى الشركة، وطلب

قنصل فرنسا ذاته من مواطنه إطاعة الأمر، لكن دى ليسبس رفض الرضوخ(٣٨). وبعد أن توقفت الأعمال بضعة شهور استأنفها من جديد دى ليسبس وعندئذ قام محمد سعيد باشا، على كل ما يربطه بقرديناد دى ليسبس من صداقة وعلاقات، بإصدار أوامره إلى جعفر باشا محافظ دمياط لسحب الشغالة من أولاد العرب وإعادتهم إلى دمياط(٣٩). وفيما يلي نص الأمر الذي أرسله والى مصر إلى جعفر باشا محافظ دمياط فى ٩ يونيه سنة ١٨٥٩ م. مؤرخاً ٢١ ذى الحجة ١٢٧٥ هـ . "بمجرد وصول أمرى إليك يجب أن تقوم بسرعة وتذهب إلى دى ليسبس وأن تسحب الشغالة من أولاد العرب المصريين الجنسية وتعيدهم إلى دمياط وأن تبلغنى بتاريخ عودتكم وعدد العمال الذى سحبتهم من الشغل وقد حررنا هذا لكم ولأتباعكم " . حاشية : يجب أن تمنعوا بعد الآن ورود شغالة من أولاد العرب المصرى الجنسية للمحل المذكور بتاتاً وإذا كتب لكم المسيو المذكور بهذا الصدد فقولوا له أنكم مأمورون بجمعهم من طرفنا ولديك أوامر بهذا المنع وإذا اقتضى الأمر عرض الحال علينا فاعرضوه ولذلك حررنا هذه التحشية " (٤٠).

كما أصدر أمراً سرياً آخر بمنع توريد الطعام والماء لمناطق الحفر وذلك لوقف أعمال الحفر حتى تصدر بها موافقة من السلطان العثمانى، وفى نفس الوقت وجه شريف باشا ناظر الخارجية منشوراً إلى أعضاء السلك القنصلى فى مصر بعدم تعاون رعاياهم مع دى ليسبس فى أعمال حفر القناة (٤١).

ومضت الحكومة فى سياستها غير الوقية إزاء الشركة فمنعت صيادو السمك فى بحيرة المنزلة من التعامل مع رجال الشركة، ولولا شحنات من الأطعمة وماء الشرب كان يبعثها دى ليسبس من الإسكندرية إلى بورسعيد، حيناً على ظهر السفينة التجارية " سعيد "، وحيناً على ظهر سفينة شراعية لتعرض رجال الشركة فى منطقة بورسعيد لخطر المجاعة أو الموت عطشاً(٤٢).

وما كان من الشركة إلا أن تحدث قرار الحكومة المصرية بجلبها للأطعمة ومياه الشرب من الإسكندرية إلى بورسعيد، وسعت فى جمع العمال الأوربيين حتى وصل عددهم إلى مائتى عامل ورخصت لمقاول الشركة أن يشتري مركبين لاستخدامهما فى تفريغ شحنات السفن فى بورسعيد، وبتخاذ الإجراءات لتموين ورشة بورسعيد بالمواد الغذائية بحيث تكفى لمدة شهر، على أن تبايع للعمال فى المنطقة . وقع هذا كله فى يونيه عام ١٨٥٩م. وتكرر فى أكتوبر من نفس العام، فقد رأت تركيا أن المشروع يجعل من مصر - فى أتون أى حرب أوروبية - مسرحاً للنزاع يؤدى فى النهاية لا إلى فصل مصر عن تركيا فقط، بل إلى غياب حكم أسرة محمد على من مصر . وحددت مصر أول نوفمبر ١٨٥٩م. موعداً

إخلاء المنطقة من جميع المستخدمين والعمال. واستجاب العمال الأجانب لأوامر قناصلهم وغادروا المنطقة فيما عدا المستخدمين والعمال الفرنسيين، بزعمهم لأروش، فقد أظهروا تحديداً سافراً لقتل فرنسا وللحكومة المصرية. وطلب دي ليسبس العون من نابليون الثالث ومن الإمبراطورة أوجيني، وأثار الرأي العام الفرنسي فمارس نابليون الثالث ضغوطه على القسطنطينية، وتدخلت وزارة الخارجية الفرنسية لدى قنصلها في مصر وأمرته بعدم التعرض للفرنسيين ونقلته من مصر في ٢٦ أكتوبر عام ١٨٥٩م. ومن ثم استمر العمل في القناة، وسكنت مصر، واستخدمت الشركة العديد من الفلاحين وغيرهم من دمياط والبقهلي والإسكندرية والقاهرة وغيرها (٤٣)، كما استعان ببعض بدو الصحراء وجمالهم وخيامهم، وبالأخص بدو مديرية الشرقية. وفي آخر ديسمبر سنة ١٨٥٩م. وصل عدد العمال المصريين الأحرار العاملين في حفر القناة ٢٢٠ عاملاً منهم ٢٢٠ عاملاً استأثرت بهم مواقع الحفر في بورسعيد، ووصل عدد العمال الأوروبيين إلى ١٥٨ عاملاً منهم ٨٠ عاملاً أجنبياً كانوا يعملون في بورسعيد (٤٤).

وكانت الشركة تدفع للأوروبي ١٥ ريالاً في الشهر، أما أجرة العامل المصري في اليوم فكانت فرنكاً واحداً يومياً. ويُذكر أن الشركة هي التي أطلقت على العمال من المصريين لقب الوطنيين الأحرار لتمييزهم عن أعمال السخرة (٤٥).

وثاني هذه الأمور السخرة التي بدأ تطبيقها في منطقة الحفر اعتباراً من شهر أبريل ١٨٦١م.، بعدما تبين للشركة بنهاية سنة ١٨٦٠م. أن عدد العمال لم يتجاوز ١٧ ألف عامل بما لا يتناسب وضخامة العمل المطلوب، ففكر دي ليسبس في تطبيق تفسيره للفرمان الثاني. هنا ظهرت وصمة العار التي لطخت كل من كانت لدية سلطة إصدار أوامر التنفيذ والمتابعة سواء في الشركة أو في الحكومات المصرية والعثمانية والفرنسية.

فيما سبق عرضت لنص المادة الثانية من فرمان الامتياز الثاني الصادر في ٥ يناير ١٨٥٦م. الذي يوجب أن يكون أربعة أخماس العمال على الأقل من المصريين وكذا تعهد الحكومة المصرية ببذل مساعدتها للشركة وتكليف جميع موظفيها وعمالها في جميع دوائر المصالح أن يمدوا الشركة بمساعدتهم كما نصت على هذا المادة الثانية والعشرين من ذلك الفرمان. وأخبرتكم يا عزيزي بأن الشركة قد فسرت هاتين المادتين على أنها تتضمنان تعهداً من الحكومة المصرية بتسخير أربعة أخماس العدد الذي تحتاجه الشركة من العمال على أن يكونوا من الفعلة والفلاحين وتحديد أدوارهم بأعمال الحفر والإنشاء، وأن الشركة وحدها هي التي تهيمن على تشغيلهم فيما تريده هي من أعمال وقد تحقق للشركة ما أرادت بالحيطة والمداورة حتى وصل عدد العمال الذين أعدتهم الحكومة المصرية لهذا العمل

بدون أجرة ٢٧٠٠٠ عاملاً، أما عدد الشغالة والمستخدمين فبلغ ٥٠٠ تقريباً (٤٦). ولقد نشرت جريدة Standard البريطانية مقالاً أعادت نشره جريدة L'Isthme de Suez مترجماً إلى اللغة الفرنسية، في العدد ١٢٢ الصادر في ١٥ يوليو ١٨٦١م. ص ٢٢٨ مجموعة السنة السادسة، وجاء في هذا المقال ما يلي : لقد علمنا من مصدر موثوق به أن هؤلاء العمال التمسعين كانوا يسحبون سيرا على الأقدام إلى بورسعيد، وقد ربط بعضهم إلى بعض كالجمال أو مثل قطعان العبيد في إفريقيا (٤٧).

وتم تقسيمهم إلى مجموعات تضم كل مجموعة منها بين عشرين وخمسين عاملاً بقيادة (مقدم) يختاره المفاول أو مسئول ساحة الحفر المزود بكرياج أو بندقية وكان يهبط ظهور الفلاحين ويطلق النار على من يحاول الفرار ثم يطلب غيره، هكذا دونما رحمة ودونما تطبيق حتى للأنحة استخدام العمال المصريين في أشغال قناة السويس التي أصدرها الوالي في ٢٠ يوليو سنة ١٨٥٦م. ونصت على توفير الغذاء والماء والسكن والرعاية الصحية وتحديد لساعات العمل وكميته وتحديد للأجرة وغيرها من الأمور اللازمة لتنظيم العمل، فالغذاء اقتصر على الجبن القديم والمش والعلسل والبصل لفترة تتراوح بين ثمانية أسابيع واثني عشر أسبوعاً وكانت البصلة حسب "ماتتو" مراقب عام الشركة المستقبل تُقطع إلى أربعة أجزاء لتقليص نصيب العمال اليُوساء . وورقياً ووفقاً لما جاء في وثائق الشركة فإن الجراية اليومية للعامل الواحد من أبناء العرب تنقسم إلى نوعين : النوع الأول وقد عرف باسم "يوم الأزرق" وكانت تكلفته ٥٣ فرنك، واليوم الثاني عرف باسم "يوم العدس" وكانت تكلفته ٤٥ فرنك، وكل من النوعين غاب عنه تماماً من اللحوم والدواجن والأسماك . والأعجب أنه مذكور في وثائق للشركة أنها كانت تقدم لعمال الحفر البسكويت (٤٨).

وبالنسبة للإمداد اللوجستي فقد كانت القاهرة تمد هذه المنطقة الفقيرة إلى المواد الغذائية - باستثناء الأسماك والطيور - بالقول والعدس والبصل والعلسل، وكانت دمياط تمدّها بالدقيق والأرز والخضروات، والدقهلية بالماشية والخضروات، والإسكندرية بالزبد والشعير والأغنام، وكانت هذه هي مناطق الإمداد المحلية : أما الإمداد الخارجي فقد كان يأتي من يافا التي أمدت منطقة الحفر بالدجاج والبيض، والعراق بالتمر، أما مجموعة الدول الأوروبية (إيطاليا، إنجلترا، فرنسا، سويسرا، النمسا، واليونان) فكانت تمدّها بالخمور والأملاح والدقيق والزيت ومختلف أنواع البضائع . ومع هذا فاستهلاك أغلب هذه المواد التموينية سواء كان محلياً أو أجنبياً كان قاصراً على مهندسي الشركة والعمال الأوروبيين، ولم يترك هؤلاء العمال المصريين سوى فئات الفئات.

أما عن مياه الشرب فلم تكن تكفى عشرات الآلاف الذين رُجَّ بهم إلى هذه المنطقة القفر. وقامت الشركة بمخالفة أساسيات المشروع الذى نُص فيه على أن نقطة البدء هى توصيل مياه النيل لساحات الحفر قبل الشروع فى حفر القناة الملحة، فبسبب من الاعتبارات السياسية المعروفة وقتذاك قامت بحفر القناة الملحة وأجّلت حفر ترعة المياه العذبة، وجلبت مياه الشرب إلى ساحات الحفر بوسائل بدائية وغير كافية عبر اللسان الرملى الفاصل بين البحر والبحيرة.

فى أول الأمر تم جلبها من الإسكندرية فى السفينة التجارية " سعيد " التى خصصت لهذا الغرض، ثم بواسطة قوافل الجمال التى كان الماء يستجلب فوق ظهورها من دمياط، عبر اللسان الرملى الفاصل بين البحر والبحيرة، وكذا عن طريق القوارب التى كانت تجلب الماء من المطرية عبر بحيرة المنزلة (٤٩) .

وكان محمد سعيد باشا قد أعد مفاجأة سارة لفرديناند دى ليسبس وزملائه بحشره نحو ١٠ آلاف عامل سخرهم ليحفروا قناة (ترعة) تخرج من النيل شمال مدينة دمياط حتى تصل إلى بحيرة المنزلة لتسير فيها القوارب حاملة المياه والتموين إلى بورسعيد (٥٠).

ولكن غالباً ما كانت قوافل الجمال والقوارب تتأخر، لاسيما عندما تسوء الأحوال الجوية، فكان يستعاض عنها باستخراج المياه من أبار قرية قاطية الموجودة على بعد كيلومترات شرق موقع الحفر ولم تكن مستساغة . وأحضرت الشركة مكثفين لتحلية مياه البحر فى سنة ١٨٥٩م. قدرة كل منهما خمسة آلاف لتر من المياه يومياً، وأضيف مكثف ثالث سنة ١٨٦٠م. إلا أن تكلفة تشغيل هذه المكثفات كانت عالية وكانت تحتاج إلى كميات هائلة من الفحم، لذا كان تشغيلها يتم بالتناوب ولا يتم تشغيل المكثف الثالث إلا عندما يتعطل المكثفين الأولين (٥١).

ووصل الأمر إلى حد تطبيق نظام توزيع الماء بالبطاقات، ولم يزد نصيب الفرد عن لترين من الماء لجميع استعمالاته .

وقضت الشركة فى الاعتماد على وسائلها الخاصة لجلب المياه، ومن ثم عقدت اتفاقاً آخر فى يونيه عام ١٨٦١م. مع محمد الجيار، أحد أكبر ملاك السفن فى بحيرة المنزلة ومن نوى الموارد الضخمة لنقل ماء الشرب فى البراميل سعة كل برميل متر مكعب، وكان يتم توزيع الماء بواسطة مضخات ضاغطة فى خزان شيدته الشركة من الصاج يسع اثنين وثلاثين متراً مكعباً. وقد تسببت إحدى العواصف التى هبت على المنطقة سنة ١٨٦١م. فى منع وصول قوارب المياه إلى بورسعيد واستمرت يومين فكان أن تجمهر العمال فى اليوم

الثالث عند موقع وصول القوارب وقاموا باغتصاب المياه من البراميل عنوة، وعندما تكرر الحادث في العام التالي جلبت الشركة الماء من بئر تقع عند فم الطينة، ولكن طعمه لم يكن مستساغاً (٥٢) .

وكانت هناك محاولات كثيرة لسرقة المياه، فقد قام بعض المراكبية بسرقة المياه من فنتاس برأس العش، وفشلت هذه المحاولة عندما أطلق الخفير النار عليهم . كما قام خمسة أشخاص من الأهالي بالتعدى على خفير أحد أحواض المياه التابع لأحد الأجانب وقاموا بالاستيلاء على الماء الموجود به . وكانت قلة الماء سبباً لحدوث المشاجرات بين الأهالي في قرية العرب، وفي محاولة للتغلب على هذه المشكلة قام الأهالي بجمع مبلغ ١٥٨ فرنكاً لإقامة ظلمية إضافية بقرية العرب إلى جانب الظلمية الموجودة بها وأبدوا استعدادهم لتحمل تكاليفها، وأقيمت الظلمية، وقامت المحافظة بتعيين قواص بكل ظلمية منعاً للمشاجرات. وطالب قنصل النمسا والمجر بزيادة عدد القواص، ومع ذلك فقد استمر سكان المدينة - وبخاصة الأهالي - يشكون من قلة الماء، وكان ذلك يسبب قلقاً شديداً ورعاجاً دائماً للمحافظة (٥٣) .

ويسبب شح المياه كان أغلب العمال يموتون بالدوسنتاريا الحادة، ومنهم من كان يدفع أجره اليومي لقاء شربة ماء، وظهرت أمراض التيفوس والتيفود في ساحات الحفر لاسيما في بورسعيد بسبب الافتقار إلى وسائل ونظم النظافة العامة والشخصية . وكتيجة لانتشار الطاعون البقري بين الماشية في الريف المصرى ووصولها إلى بورسعيد عن طريق البحر المتوسط، بسبب أن النيل كان يقذف جثث الحيوانات إلى البحر، وكان التيار الساحلى يدفعها شرقاً باتجاه بورسعيد لتلقى الأمواج المدينة كل يوم بعدد من هذه الجثث وقد تاكل وتعفن (٥٤)، كما ظهرت الأمراض الصدرية والرمية وحالات الإسهال الشديد والالتهابات الكبدية الوبائية والجدري .

وجاء وقت ربما كان سنة ١٨٦٢م، كان يجرى فيه تنفيذ ثلاثة مشروعات في آن واحد، إذ كان يتم إنشاء مدينة بورسعيد على البحر المتوسط وحفر القناة الملاحية التي تربط هذا الميناء بمدينة السويس على البحر الأحمر ثم حفر قناة أخرى للمياه العذبة بدءاً من النيل لتزويد المعسكرات(٥٥)، فتحوط خنادق الحفر إلى محاشير للآلاف المؤلفة من المصريين الذين يسامون مر العذاب نهارةً تحت وقدة الشمس وإيلاً إذ يتعثرون في بهمة ظلام لم تقدر المشاعل على تبديدها.

وفي سنة ١٨٦٥م، عصف بالعمال وباء الكوليرا مما دفع بالعمال إلى الهرب، وسبقهم الأجانب الذين جاؤا إلى بورسعيد يقطعون المسافة سيراً على الأقدام، ويحملون معهم

أنقالهم ثم فروا منها . وكان ذلك بعد يوم ٢٨ يونيو ١٨٦٥م. فقد قدم إلى بورسعيد عامل يوناني من الإسماعيلية وأصطحب معه الكوليرا، وبعده هبطت إلى المدينة سيول جارقة من الفارين من الزقازيق والإسماعيلية وعتبة الجسر، وازدادت الوفيات منذ اليوم الثالث من شهر يوليو كما ازداد عدد الفارين إلى المدينة، ولم يحاول أحد من رجال الشركة وقف ذلك السيل من اللاجئين إلى المدينة خشية وقوع تصادم(٥٦) . وقلد الأهالي الأجانب وهربوا من المدينة حيث قطعوا عشرات الكيلومترات سيراً على الأقدام، ونتيجة لهذا أصبح الموقف في بورسعيد ينذر بحالة خطيرة للغاية . ولك أن تتخيل عزيزي القارئ، إذا كان هذا هو الحال في بورسعيد حيث درجة الحرارة اللطيفة والبحر الممتد والهواء المشبع باليود والساحل اللطيف، الحال في سائر المناطق لاسيما الوعة منها كم منطقة الجسر مثلاً . لقد كان الأمر فوق كل احتمال وخارج أي سيطرة .

حول هذه الفواجع قال الكاتب الأوربي ريت : Ritt لم تكن هناك قوة بشرية تستطيع أن تكبح جماح تلك الحركة " (٥٧).

واعترف كبير أطباء الشركة في تقريره المنشور في العدد رقم ٢٢١ من جريدة الشركة الصادر يوم ١٥ من سبتمبر ١٨٦٥ بأن الموقف قد أصبح في غاية الخطورة حيث عجزت الإدارة الصحية عن الحصول على رجال ينقلون المرضى إلى مراكز الإسعاف أو يرفعون جثث الموتى .

لقد اعتصمت الشركة كل ذرة نشاط لدى عمال الحفر، ولم تقدم لهم الرعاية اللازمة وتعددت أسباب إيدائهم، ومن ثم موتهم . ومن لم يمت عطشاً أو من سوء التغذية مات إجهاداً أو مرضاً أو بلسعات الكرايبع أو ضربات الشمس أو طلقات الرصاص. حتى إذا ما سلمنا بأن السخرة كانت أمراً معتاداً في مصر، فإنه حسب القاضي الأمريكي كرايبيتس CRABITES لم يحدث مطلقاً أن أسوء تطبيقها كما حدث في حفر قناة السويس(٥٨). إنها السخرة التي أزهقت أرواح ١٢٠ ألف مواطن مصري من أجل شق هذه القناة التي عادت على مصر لأوقات طويلة، على حد تعبير عبد الرحمن الراقعي، بالويل والخسران(٥٩) .

وحدث أن مات سعيد باشا وأدلى الوالي الجديد إسماعيل باشا أمام القناصل الأجانب بكلمة كانت كفيلة بإثارة قلق دي ليسبس وشركته إذ انتقد فيها مبدأ السخرة، فلما طلب دي ليسبس من إسماعيل باشا أن يشرح له معنى تصريحه كانت إجابته " لا يوجد من هو أكثر حماساً للقناة مني، لكنني أريد أن تكون القناة لمصر، لا أن تكون مصر للقناة " .

قول بليخ يا عزيزى .. أليس كذلك؟
قول يليخ بمن قبض لتوه على صولجان الحكم.. ربما كان صادقاً وهو يقوله، وربما كان يغازل به مشاعر الوطنيين من رعاياه..

فيا ليتة نفذ ما قال، أو شرع فى تنفيذ ما قيل إنه كان يفكر فيه بشأن هذه القناة ؛ فقد قيل - والعهد على الرواة - أنه فكر فى أن يتولى بنفسه تنفيذ المشروع، أى أن تتولى مصر حفر وإدارة القناة، لكنه لم يفعل أى شىء بهذا الاتجاه، واستمرت أعمال المشروع على نفس الوتيرة. وشحذ دى ليسبس قدراته على المناورة ومهاراته فى عمليات الاستمالة فاقترح إطلاق اسم الإسماعيلية على مدينة التمساح لأنه فى هذا " توحيد فى المستقبل لاسمى سعيد وإسماعيل العزيزين على قلوبنا "؛ ولأنه استشف فى إسماعيل رغبة - سلفه - فى اكتساب رضا الأوروبيين ونيل إطرائهم، فقد أنهك فى مغالته واستمالته ليعاضد المشروع ويسانده .وهذا ما كان من إسماعيل بالفعل، فلولا جهوده وإتعاماته على المشروع لفشل دى ليسبس فى إنجازه.

لكن القسطنطينية، بتأييد من بريطانيا العظمى، عاودت سنة ١٨٦٣م. الهجوم على المشروع وطالبت بإلغاء السخرة فى برزخ السويس فما كان من دى ليسبس إلا أن دافع عن تطبيق نظام السخرة تحت إشراف شركته، وهون من خسائر هذا النظام بزعم أن أسلوب السخرة لدى شركته أكثر إنسانية من مثيلاتها وضرب مثلاً بالسخرة التى استخدمت فى تشييد خط سكك حديد الإسكندرية - القاهرة - السويس وأفتت آلاف المصريين.

وهل السخرة إلا سخرة ؟
وهل فرنسا وإنجلترا إلا أسد وذب يعبثان بشعب ظنه رعاته خرافاً لا تملك حتى حق المناهة إذ تقترس ؟
أين كان أولو الأمر ؟
ماذا فعل إسماعيل باشا صاحب مقولة " .. أريد أن تكون القناة لمصر، لا أن تكون مصر للقناة ؟
هو أيضاً كان فى طور التشعلب، وكان مهموماً باستخلاص مصر من بين أنياب العثمانيين ليضع خرافتها بين أنيابه وحده دونما شريك .
لكن كيف والأسد والذئب الأوروبيان المتصارعان منجذبان نحو ذات الخراف ؟
إنه لأمر مؤرق فعلاً.
وفعلاً كان إسماعيل مؤرقاً بأربعة أمور نص عليها الفرمان الثانى، ورأى أنها مجحفة

بحقوق مصر والمصريين وهذه الأمور هي :

- ١- تعهد الحكومة بتقديم العمال الذين تحتاج إليهم الشركة لغاية عشرين ألفاً باستمرار (تم تجاوز هذا العدد أكثر من مرة)، وزعم الشركة أن لها مطالبة الحكومة بتعويض في حال تقصيرها أو عجزها عن تقديم هذا العدد.
- ٢- ملكية الشركة لترعة المياه العذبة التي كُلفت بإنشائها واستغلال رى الأطنان المملوكة للأفراد على جانبيها مقابل أجر تقبضه منهم حسب تقديرها.
- ٣- ملكية الشركة لجميع الأراضي التي ترى أنها في حاجة إليها لحفر القناة، وإنشاء الترعة العذبة، وإغفاؤها على الدوام من دفع الأموال الأميرية عليها، وملكيتها لجميع الأراضي التي تستصلحها وتزرعها، وإغفاؤها من دفع أموالها مدة عشر سنوات.
- ٤- اضطرار الحكومة إلى نزاع ملكية الأطنان المملوكة للأفراد إذا احتاجت إليها الشركة لاستغلال امتيازها (٦٠) .

وقد ضخم الأسد البريطاني من هذا القلق بهجومه على شركة قناة السويس من محورين جانبيين هما: السخرة وامتيازات الأراضي الواسعة على ضفتي القناة؛ فالسخرة عمل لا إنساني تقوم به شركة ذلك الفرنسي . فعلت بريطانيا هذا على الرغم من أن الشركات البريطانية مثل شركة " بينيسولار والأورينثال " تستخدم نظام السخرة، مما أوضح النفاق البريطاني فيما يتعلق بالسخرة في حفر قناة السويس، وعلى الرغم من أن امتيازات الأراضي التي تضع يدها عليها تهيب لها إقامة مستعمرة بريطانية عند نقطة عظيمة الإستراتيجية في الإمبراطورية التركية، فهل تقبل تركيا هذا؟.. وهل تتحمل مصر هذا التهديد لسيادتها؟.. وهل تتحمل بريطانيا عدواً كامناً على الطريق القصير المؤدى إلى الهند ؟

هناك من يرى أن بريطانيا العظمى قد أخطأت في هجومها على الشركة من خلال هذين المحورين، فعملية إنشاء القناة كانت على وشك الوصول إلى اللحظة التي أصبح فيها من الممكن - بل من المناسب - الاستعاضة عن عمل السخرة بعمل الآلات والكرافات، وأن سحب السخرة لن يصيب الشركة بضرر قاتل ؛ أما محور امتيازات الأراضي فالمخاوف بشأنها قد تتحقق في المدى البعيد لكن في وقت الهجوم فلم يكن للامتيازات أهمية جدية. وقد كان لنشأة المدينتين الجديدتين - بورسعيد والإسماعيلية - تأثير إيجابي على المستثمرين. وحسب ديفيد لاندر لم يصب التشويش الجانبي على الشركة في خزائنها بقدر ما أصابها في حساسيتها، وأنه كان ينبغي على بريطانيا أن تعرف أن دي ليسيس كان يفاوض بعض شركات المقاولات والهندسة الفرنسية على بناء واستخدام كراكات القناة منذ

سنة ١٨٦٢م، (٦١). وعلى أية حال فقد بدا سنة ١٨٦٣ م . أن حالي السخرة وامتيازات الأراضي هما القضيتان الأساسيتان، وفي لندن وباريس والقسطنطينية والقاهرة بدأت المعركة حولها (٦٢).

وقام نوبار باشا الذي أعاده إلى السلطة إسماعيل باشا كوزير للخارجية بجهد مكوكي، إذ أخذ على عاتقه مهمة إلغاء السخرة، ومطالب بإعادة طرح الاتفاقيات المتعددة بالبحث والتفاوض لاسيما أن العدد الفعلي إن تم تسخيرهم من المصريين وصل إلى رقم السنتين ألفاً، باحتساب دوران العمل بين الذين يقدمون إلى مكان الحفر ومن يغادرونه، وفي هذا يقول نوبار باشا "كان سكان مصر محكوماً عليهم أن يعطوا الشركة بالمانوية بين شهرين وثلاثة من وقتهم ومن عملهم ومن حياتهم بلا أى مرتب : لأنه بالرغم من الاتفاق الجارى الذى بموجبه يجب دفع فرك عن كل يوم عمل فإن الشركة كانت تطردهم بلا أى مرتب، بل وحتى يدفعون ثمن الغذاء على حسابهم" (٦٣).

وتنقل نوبار باشا بين تركيا وفرنسا من أجل تخفيف شروط الامتياز وخاطب الشركة موضحاً مطالبه التى يمكن تلخيصها فيما يلى :

١- إنقاص عدد العمال الذين تلتزم الحكومة بتقديمهم للشركة إلى ستة آلاف لأن تسخير العدد الحالى (٢٠ ألفاً) يضر بالبلاد والزراعة.

٢- زيادة أجورهم، وجعلها فرتكين لكل عامل فى اليوم، لكن يعوض الفلاح ما يخسره من ترك بلده وأرضه وما يبذله من الجهد للعمل فى حفر القناة.

٣- إلغاء امتياز ملكية الشركة للأرضى، وفى مقابل ذلك تأخذ الحكومة المصرية على عهدها إتمام التزعة العنبة، وأن تعوض الشركة قيمة النفقات التى بذلتها فى القسم الذى أنشأته منها .

وقد عارضت الشركة هذه المطالب، بحجة أن إنقاص عدد العمال من عشرين ألفاً إلى ستة آلاف يعطل إتمام المشروع، ويطول مدة العمل من ثلاث سنوات إلى عشر، مما يؤكد الشركة خسائر جسيمة، وأن القناة، من المسائل الجوهرية، التى لا تنازل عنها(٦٤).

وتعقد الموقف .. مصريون تفنيهم السخرة، وفرنسيون يتباهون بإنسانيتهم ويتشبثون بمكاسبهم وحكومة ترغب فى حفظ ماء وجهها وياب عال يهدد وإنجليز يتربصون ويملطون انتظاراً، والنتيجة هى الغيظ العنيف الذى رَجَّ دى ليسيس رجاً، وردود الأفعال من الأطراف المختلفة التى أدت إلى تفاقم الأوضاع وتزايدت حدة المطالبة بإلغاء السخرة ويعودة قناة المياه العذبة إلى المصريين فى أجزاء من الأرضى التى هيمنت عليها الشركة، وظل الوضع يسير من تازم إلى تازم حتى أدخل نابليون الثالث للتحكيم بين

المتفارقين، وكان الطرف الفرنسي في النزاع لا يخضع بالتبعية إلى نوابليون هذا، فلكنما سلّمت الحكومة المصرية بقبولها هذا التحكيم " الذنب مفتاح الكرار " حسب التعبير المصري الشائع . وأثبت الذنب أنه بالفعل ذنب، فبعد أن شكّل نوابليون لجنة لدراسة الموضوع، وأطلع على نتائج أعمالها ، أصدر حكماً ذنبياً بتعويض تدفعه مصر للشركة مقداره ٨٤ مليون فرنك إذا ما استعادت قناة المياه العذبة و ٦٠ ألف هكتار أى حوالى ١٤٨ ألف فدان من الأراضي المروية جزئياً.

وقد أصدر نوابليون الثالث حكمه هذا في ٦ يوليو سنة ١٨٦٤م . وتفصيله كما يلى :

١- إبطال حق الشركة في مطالبة الحكومة بتقديم العمال المصريين، وإلزام الحكومة في مقابل ذلك بتعويض مالى تدفعه للشركة ومقداره ٣٨,٠٠٠,٠٠٠ فرنك.

٢- تنازل الشركة للحكومة عن كل حق في ترعة المياه العذبة، والتزام الحكومة بإتمامها مع احتفاظ الشركة بحق الانتفاع بها، وإلزام الحكومة مقابل هذا التنازل بأن تدفع للشركة تعويضاً قدره ١٦,٠٠٠,٠٠٠ فرنك .

٣- جعل الأراضي المملوكة للشركة واللازمة للمشروع ٢٣,٠٠٠ هكتار تقريباً منها ١٠,٣٦٤ هكتاراً على جانبي القناة البحرية وملحقاتها، و ٩٦٠٠ هكتار للترعة العذبة وثلاثة آلاف هكتار لمبانى الشركة.

٤- إعادة الأراضي الأخرى التى اتضح عدم لزومها للمشروع ومساحتها ٦٠,٠٠٠ هكتار، مقابل تعويض تدفعه الحكومة وقدره ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك.

وجملة هذه التعويضات بالجنيهات المصرية تعادل ٣,٣٦٠,٠٠٠ جنية مصرى بيانها كالتالى:

١,٥٢٠,٠٠٠ مقابل إغفاء الحكومة من تقديم العمال المصريين لحفر القناة.

٦٤٠,٠٠٠ مقابل تنازل الشركة عن حق إنشاء الترعة العذبة.

١,٢٠٠,٠٠٠ مقابل تنازل الشركة عن دعوها في ملكية الأراضي.

٣,٣٦٠,٠٠٠ مجموع التعويضات.

وإذا علمت أن رأس مال الشركة هو ثمانية ملايين جنيه أمكنك أن تقدر فداحة التعويضات التى حكم على مصر بأدائها، وأنها تبلغ على وجه التقريب نصف رأس مال الشركة (٦٥). وهكذا عرف الذنب الفرنسي كيف يأكل الكنف المصرية.

وعلى الرغم من كل المكاسب التى جنتها الشركة من الحكومة المصرية لم تنس لا للحكومة ولا للخبديو أنها اضطرت بسبب إلغاء السخرة إلى استخدام الأجانب بأجور باهظة، ودفعت أجوراً للراغبين من المصريين فى العمل بساحات الحفر، وبدأت فى إحضار

الماكينات البخارية والكراكات التي صُنعت في فرنسا خصيصاً من أجل أعمال الحفر بالقناة. لذا دأبت على المبالغة في طلب التعويضات كلما عملت مصر على استرداد بعض من حقوقها.

ومن عجيب أن أهل الحل والعقد في مصر كانوا يستجيبون لمطالب الشركة فيها هو الخديو لِمَا عقد والشركة اتفاقاً آخر في ٢٣ أبريل ١٨٦٩م. ألغى فيه الشرط الخاص بإعفاء مستوردات الشركة من الخارج من الرسوم الجمركية، أعطاها مقابل ذلك تعويضاً قدره عشرون مليون فرنك، وعندما تنازلت الشركة للحكومة عن بعض المباني والمستشفيات تقاضت عشرة ملايين فرنك (٦٦) .

ولَمَّا تم حفر القناة وأصبحت جاهزة للافتتاح كانت مواصفاتها كما يلي:

الطول ١٦٤ كيلومتراً

العمق ٧,٥ المتر

العرض عند مستوى سطح الماء ٥٢متراً

العرض عند القاع ٢٢متراً

الفاطس المسموح به ٢٢,٥ قدما

توقعك منك عزيزي القارئ سؤالاً لكك لم تسألني؟

لماذا سميت بورسعيد بهذا الاسم؟

ربما كانت الإجابة جاهزة لديك، فوفرت على نفسك مشقة السؤال . أنا أيضاً أعلم أنك إن أجبت ستقول إن المدينة نسبت للوالى سعيد . هذا صحيح.. لكن من الذى أطلقه ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟..

هنا أتدخل فأجيب بأن اللجنة الدولية التى تكونت من فرنسا وانجلترا وهولندا وروسيا والنمسا وإسبانيا وبيدمونت (مقاطعة إيطالية) هى التى أختارت فى اجتماعها بتاريخ ٣٠ أكتوبر ١٨٥٥م. هذه التسمية للشعر المقترح إقامته شمال القناة، واختارتها باللغة والأحرف الأجنبية ومبرر التسمية جاهز ومعلن، فهل هناك ما يفوق التيمن بحاكم مصر وقتها .. الوالى محمد سعيد باشا ؟

وطبعاً لم تخرج المسألة من دائرة التماق والتناق .

ومع هذا جدلت الأحداث الجسام الاسم فى وجدان المصريين وعشقه الوطنيون قبل الأجانب.

الفصل الثالث

طفلة اسمها بورسعيد

كثيرة هي الكتابات التي تناولت افتتاح القناة وجميعها محتشد بالتفاصيل وتفاصيل التفاصيل. وما كان ينبغي لى أن أتحدث عن هذا الافتتاح لولا أنه دشّن مدينة بورسعيد وجعلها محط أنظار الكافة وأعطاهها شرعية النمو. صحيح أن نشأتها بدأت يوم الاثنين الموافق ٢٥ أبريل ١٨٥٩م. مع أول ضربة معول فى أرض الموضع الذى خطط ليكون مجرى القناة، بل منذ الإعداد لهذه الضربة، وصحيح أيضاً أن نموها استمر على مختلف الأصعدة، تنظيماً وعمراناً وإدارة، على الساحل المنبسط الضيق الذى أقيمت فوقه الخيام والأكشاك الخشبية والأبنية البسيطة منذ الضربة الأولى إلى ما قبل الافتتاح، لكن الأصح أن هذا الافتتاح كان إيذاناً واقعياً بالإعلان عن اكتشاف عبقورية مدينة ناشئة فى مكان قلما يوجد كوكب الأرض به على سكاكه . وإذا كانت بورسعيد، هذه الطفلة الملقوفة فى أقمطتها، هى نتاج العلاقة – الشرعية – بين الطبيعة والمواطن المصرى، فإن حفل الافتتاح كان بمثابة "سبوع المولود" بما يحتويه من ضجيج ومفرات تتفق وصحيح ومفرات الطقس المصرى العريق .

وضعت بورسعيد الطفلة على " منخل " المكان عند الطرف الشمالى لقناة السويس ومعها فى ذات المنخل: الذهب للسعد، والملح لمنع الحسد، والقرآن لنشدان البركة . وفى أجواء تتردد فيها أهزوجة " الصلاة عليه الصلاة عليه.. جينا المولود وفرحنا به " تصاعدت

النصائح التقليدية من قبيل " اسمع كلام أبوك، ما تسمعش كلام أمك " .
لا تظن يا عزيزي أن ما قلته لك عن المنخل وما فيه مجرد تصورات أديب خصب
الخيال... لا .. نع هذا الظن، فلو قارنت حجم وكمية ونوعية البذخ الذي صاحب الاحتفال
لمأثته أنت بالذهب الذي تحرص الأسرة المصرية ذات المنبت الشعبي على وضعه مع
المولود، وإن اضطرت إلى استعارته من الغير . وهذا عين ما حدث عند الاحتفال الشهير
بدءاً من الدعوة الفخمة التي كُتبت على رق الغزال وانتهاء بالولائم والحفلات الباذخة، التي
استمر ترتيبها نحو أربعين يوماً، وأقيمت على شرف ضيوف مصر، وفي مقدمتهم
الإمبراطورة أوجيئي زوجة نابليون الثالث، والإمبراطور فرانسوا جوزيف إمبراطور
النمسا، وملك المجر، والأمير فريدريك ويلهلم ولي عهد بروسيا، والأمير هنري أخو ملك
هولندا، والأميرة قرينته. ووفقاً لتعبيرات من أرحوا لهذه الاحتفالات، فإن التاريخ لم يعرف
ما يدانيها في الإسراف والتبذير، فقد بلغت نفقاتها على أصح تقدير - حسب عبد الرحمن
الرافعي - ١,٤٠٠,٠٠٠ جنية بأسعار ذلك الوقت طبعاً(٦٧).
لن أحكى لك عن تفاصيل هذا البذخ فبالتأكيد أنت تعرفها . وإن لم تكن تعرفها
فالمراجع بشأنها كثيرة. وإسماعيل ما أنفق كل هذا إلا مباهاة، كما قلت، واستمتاعاً
بعلامات الانبهار التي شاعت في ملامح كل من شاهدوا الاحتفالات أو سمعوا بها أو قرأوا
عنها. وأيضاً أنفق ما أنفق طلباً للسعد، كما توخى، فقد أراد أن يرْسَخ لدى الكافة أنه
خديو كامل الأهلية ومكتمل المقومات، وأنه يصلح لأن يكون ذنباً بين طعان الذئاب . وهذا
ما استشعرت تركيا وأغضب سلطانها عبد العزيز، الذي اعتبر عدم توجيه الدعوة له ليرأس
تلك الاحتفالات إغفالاً لواجب الولاء نحوه، في حين أن الواجب كان يقتضى - بحكم هيمنة
تركيا على مصر وشؤونها - ألا توجه تلك الدعوات إلا عن طريق الباب العالي . وترجم
السلطان هذه الغضبة بمنشورات أرسلها إلى جميع السفراء العثمانيين لدى الدول الغربية
بأمرهم فيها بالاحتجاج على عمل والى مصر واعتباره خارجاً عن حدود اللباقة والسيادة
التي لتركيا عليه. وربما كان هذا هو سبب عدم حضور ملكة بريطانيا وملك بروسيا
وهولندا وروسيا الذين أنابوا عنهم من يحضر الاحتفالات بدلاً عنهم ؛ كما أن إمبراطور
فرنسا نابليون الثالث رفض في آب الدعوة متعللاً بانتشغاله بأسور الدولة، وأرسل أوجيئي
بدلاً منه. وقد أرجع عدد من المؤرخين سبب اعتذاره بأنه علم بالخطأ التي كان ينوى
إسماعيل تنفيذها بإعلان استقلال مصر عن الدولة العثمانية، فخشى أن يُوقعه ذلك في
صدام معها، وبالفعل كان استقلال إسماعيل بمصر هو السعد الذي يرجوه من وضعه كل
ذلك الذهب في منخل المولود الجديد.

أما الملح فكان ذلك المتزج بعرق الفلاحين والشغيلة، مُلأً القناة الأصلاء، فهم أصحاب الأرض، وهم الذين كدوا وضحوا في سبيلها، هؤلاء الذين تجمعوا خارج نطاق دائرة الاحتفال بأزيائهم الشعبية أو بأسمالهم البالية مع حميرهم وجمالهم وأدوات الحفر التي لم تبرد قبضاتهم عليها، هؤلاء الذين لا يملكون سوى متعة النظر - إن تمكنوا - لا المشاركة . وكيف يمكنهم أن يشاركوا بما هم عليه من وهن وإدقاق ومسغبة، مادام إسماعيل قد حشد نحو ٤٠ ألفاً من كبار رجالات مصر وأعيانها وعمدها ومشايخها ورجال الإدارة فيها وأغنياء أقاليمها وزعامات القبائل ليتألقوا شرف الدخول في دائرة الاحتفالات؟.. هم إذن في الهامش، دوماً في الهامش، لكن لا ضير من وجهة نظر خديو البلاد من أن يستخدمهم كنوع من أنواع الفولكلور والبهرجة المهرجانية ليضفي نقوشاً، غير مألوفة للزوار، على الصورة الذهبية لعصره التي يبقى أن يرسخها لديهم، هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى ليعرض على ضيوفه الأنقاء نوعية البشر الذين يحكمهم، ليعلموا - ولو بالباطل - مدى ما يعانونه من أجل أن يجعلهم أكثر تحضراً وتمتدناً فلا يحسدونه على ما استعرضه أمامهم من مظاهر الأبهة والتعظيم .

وهذا ما ترجمه الخديو إسماعيل عملاً لا قولاً، إذ أوعز إلى مديري الأقاليم بإرسال أعداد من الأهالي بنسائهم وأطفالهم وأدواتهم البيئية، فانتشروا على جانبي القناة من عربان وفلاحين وصعايدة وسودانيين وغيرهم، وقفوا أمام الأكواخ والعشش، وركبوا خيولهم ونوقهم وحميرهم، وبذلك تمثلت جميع الأزياء المصرية والسودانية من كل الألوان في المشاهد التي حضرها الضيوف المترفون، حتى إن الإمبراطورة أوجيني أبرقت إلى الإمبراطور نابليون الثالث تخبره فور وصولها بأن الاستقبال كان فخماً وأنها لم تر في حياتها ما يماثل ذلك. لم تنتظر وهي الإمبراطورة حتى تهبط إلى البر، بل أسرع من فرط انبهارها بالإبراق إلى زوجها وهي بعد على ظهر " الإيجل " . وطلقات المدافع ترسل تحياتها وأمامها تتكاثف دلائل الاحتفاء وتتبدل مظاهر الاستقبال الحافل قالت لزوجها الموجود في فرنسا " استقبال ساحر. لم أر في حياتي مثل ذلك " (٦٨).

أما نشدان البركة الدينية فقد توفرت مقوماته بالدعاء للخديو في المساجد ومن فوق المنصتين الضخمتين اللتين أقيمتا إلى يمين ويسار منصة الملوك والأمراء وكبار المدعوين . التي إلى اليمين خصصت لرجال الدين الإسلامي، وفي مقدمتهم الشيخ مصطفى العروسي والشيخ محمد المهدي والشيخ إبراهيم السقا ؛ والتي إلى اليسار خصصت لرجال الدين المسيحي يتصدرهم المونسنيور باوير مرشد قصر التويلري . وتأكيداً لطلب البركة بئى الاحتفال بتلاوة قرآنية ثم ألقى شيخ الإسلام خطبه دعا فيها بنجاح المشروع . وإذا كان

علماء الدين الإسلامي حسب روبرت سوليه قد أدوا الخدمة الدينية بسرعة واتزان فإن المونسنيور باوير وكان يرتدى رداءً أرجوانياً وطاقيّة مربعة وألقى موعظة طويلة ومغالية في التشديد، فبعد أن حيا إسماعيل ومنح أوجيني ثناءً جسوراً " روحك الشجاعة تفعل أكبر الأشياء في صمت " قام الكاهن بالإشادة بفرنسا " الكريمة النبيلة التي أظهرت جميع طبقاتها الاجتماعية حماساً لشق برزخ السويس ومنحت هذا العمل ملايينها وأنزعتها ونكاتها وطاقاتها ومهندسيها وعمالها ومستخدميها ومعداتنا ...، ولم يبخل باوير بنعوته وأوصافه المتباهية فقال " من المباح التأكيد بأن الساعة التي حانت ليست فقط من ساعات هذا القرن الأكثر مهابة، لكنها الأكثر عظمة وحسماً من بين الساعات التي شهدتها الإنسانية منذ أن أصبح لها تاريخ على الأرض. إن هذا المكان الذي تتجاوز فيه إفريقيا وآسيا من غير أن يتماسا إطلاقاً، وهذا العيد الكبير للجنس البشرى، وهذا الحضور المهيّب والجامع لمختلف أجناس الأرض، وجميع الأعلام والرايات التي ترفرف في بهجة تحت هذه السماء المشرقة والصليب المنتصب في مواجهة الهلال وسط احترام الجميع. كم من معجزات، وكم من مفارقات مذهشة وكم من أحلام معروف بأنها خيالية أصبحت وقائع ملموسة " (٦٩).

وقبل أن يلقى دى ليسيس خطبته تلا رجال الدين المسيحى صلاة شكر شاركهم فيها المسيحيون من الحضور.

أما عن بقية الطقس، بالطريقة التي أنهيتها إليك وظننت أنها خيال أدبي، فإننى أزعج أن الأب في النصيحة الشعبية المحذرة للملود " اسمع كلام أبوك، ما تسمعش كلام أمك " يحتفل أحد معنيين أو كليهما معاً : المعنى الأول أن الأب المعنى بالنصيحة هو إسماعيل باشا والأم هي تركيا : أما المعنى الثانى فينصرف إلى وطني مصر، فمع هذا الملود الجديد الذى جاء أنشئ اسمها بورسعيد، ومع إرهابات استقلال مصر عن الباب العالي، بانت نذر التسابق الغربى على التهام الكعكة المصرية فكان لابد من تحذير للاحتراز مما عساه أن يأتى في قابل الأيام من مخاطر ظهرت نذرها في هذه الاحتفالات الباذخة، لكن فيما يبدو أن أحداً ما كان يرى - وسط بهرجة الاحتفال - الأخطار المحتملة على وجه الدقة، وإن رآها لم يدرك هولها وبشاعتها.

التفاصيل جد كثيرة ومتعددة الروافد حتى لاكاد أظن أنه لانهية لها. وقد يكون من الأوفى، حتى لا تجرّفنا التفاصيل وتفصيلات التفصيلات في تيارها، أن نعود إلى ما كنا قد وصلنا إليه بالحديث عن بدايات النشأة، وبواكير منشأتها . وقد سبق أن ذكرت أن البداية كانت مع الخيام، ثم تم ردم بعض الأماكن السيخة بالرمال الناتجة من الحفر، وفوق

مناطق الردم هذه أقيمت الأكتشاك الخشبية ثم المنازل المصنوعة من الأخشاب المستوردة والقرميد الأحمر ثم المبانى، التى استخدم فيها الطوب المحروق المصنوع من الطمى المستخرج من قاع بحيرة المنزلة، وذكرت لك أنه إلى جوار بحيرة المنزلة، فى مكان يبعد عن المدينة التى يسكنها الخواجات، كانت قرية العرب حيث العيش المصنوعة من البوص، وحيث الفقر والمرض واقتناح مقومات الحياة الإنسانية الكريمة.

لكن أى الأعمال الإنشائية غير السكنية كان أسبق إلى الظهور ؟

أسمعك تجيب بأنه من الطبيعى أن تكون الأعمال التنظيمية والمبنائية والورش اللازمة لها والأبنية التى تقدم من خلالها الخدمات للعاملين فى القناة هى الأجدر بأولوية التشييد. هذا عينه ما كان، فقد تم من الناحية التنظيمية تحديد أرض المدينة ببيعش الشوارع الرئيسة التى كانت تمثل فى جملتها أرصفة أو جسوراً تحيط بالمدينة التى كان شكلها مستطيلاً فى ذلك الوقت (٧٠).

كان الرصيف الشمالى مطلاً على ساحل البحر وموازياً له وهو أول رصيف تم إنجازه عام ١٨٥٩ وقد أطلق عليه فيما بعد عند افتتاح القناة سنة ١٨٦٩م. رصيف أوچينى، ويفعل ظاهرة طرح البحر، وسوف أحدثك عنها فيما بعد، ابتعد البحر عن هذا الرصيف. وكان الرصيف الجنوبى، الذى عرف وقتها برصيف البحيرة، يحد المدينة من ناحية الجنوب، لكنه لم يعد كذلك بعد اتساع المدينة على حساب البحيرة وتحول شأن سائر الأرصفة إلى شارع.

ووازى الرصيف الشرقى القناة - الضفة الغربية للقناة - وأطل على الميناء، وأطلق عليه عند الافتتاح رصيف فرنسوا جوزيف نسبة إلى إمبراطور النمسا الذى كان ضمن ضيوف إسماعيل كما سبق أن أخبرتك.

أما الرصيف الغربى فكان يمتد من غرب رصيف أوچينى شمالاً حتى غرب رصيف البحيرة جنوباً وعرف برصيف الترسانة.

وجميعها تحول إلى شوارع وتغيرت أسماؤها فرصيف أوچينى أضحى شارع أوچينى ثم أصبح فيما بعد شارع صغية زغلول؛ و رصيف البحيرة أضحى شارع البحيرة وتحول إلى شارع رقم ١٠٠ ثم أصبح بعد حرب ١٩٧٣م. شارع المشير أحمد إسماعيل على ؛ و رصيف فرنسوا جوزيف أضحى شارع فرنسوا جوزيف ثم أصبح شارع السلطان حسين فشارع شكرى القوتلى ثم شارع فلسطين ؛ وكذلك كان الأمر مع رصيف الترسانة فقد أصبح شارع الترسانة ثم تغير ليكون شارع الأمين ثم شارع محمد سرحان. وقد كان لهذه الأرصفة التى انقلبت إلى شوارع دوراً ووظيفة، أما الدور فهو تحديد

المدينة تحديداً طوبوغرافياً بيسر تجهيز الأراضي وتقسيمها، وأما الوظيفة فهي حماية المدينة الناشئة من أمواج البحر وفيضان البحيرة . وكى تقوم هذه الأرضة بوظيفتها فقد روى عند إنشائها أن تكون على ارتفاع من سطح البحر يتراوح بين المترين والمترين ونصف المتر. وبسبب التوسع العمرانى تجاوزت المدينة حدود هذه الشوارع باستثناء الشارع الشرقى الذى تحاذيه القناة من ناحية الشرق، ومع هذا فيمكن اعتبار بورفؤاد امتداداً عمرانياً للمدينة الأصل باتجاه الشرق، فلكان القناة لم تحد من التوسع العمرانى وإنما أكدت عليه وتسببت فيه.

وإذا كان إنشاء هذه الأرضة عملاً تقتضيه الاعتبارات التنظيمية والعمرانية، التى سأحدثك عنها فيما بعد، فهو عمل يتسم بالمحدودية والخطية والنمطية وعدم التعقيد : أما أعمال الإنشاءات البنائية فعلى النقيض تماماً إذ تتصف بالكثرة، وعدم الخطية، وعدم النمطية والتعقيد، إن على مستوى التخطيط أو التنفيذ، لاعتبارات منها التكنولوجى والهيدرولى والإدارى وهى اعتبارات متداخلة ومندمجة إلى أقصى حد . ومن هذه الإنشاءات ما يرتبط برسو السفن أو حماية الميناء من الإطماء أو هداية السفن واستقبالها أو إيصال المون إلى المدينة أو حمايتها وحماية مصر من الأمراض التى تغد من الخارج عند مرور السفن بالقناة، وكذلك ما يتعلق بأنظمة الجمارك والتجارة الخارجية . وبالطبع ما يتعلق بأمن البلاد وسلامتها.

فيما يتعلق بالميناء ورسو السفن فقد أنشئ مرسى من الخشب بطول ٢٦٠ متراً يمتد داخل البحر حتى عمق ثلاثة أمتار يتيح نقل التموين ومهمات الحفر ومواد البناء لاسيما الأحجار التى كانت ترد من الإسكندرية وقد مدت على هذا المرسى قضبان حديدية تسير عليها عربات تُدفع بالأيدى بعدما تُحمل بما يتم تفريغه من السفن، ويتم تحريك هذه العربات إلى حيث الورش والمستودعات(٧٨).

ولحماية الميناء من الإطماء بفعل الرواسب والرمال التى قد يذفعها التيار البحرى، ولضمان هدوء مياه الميناء وعدم ارتفاع الأمواج داخله، تم إنشاء حاجزين أحدهما غربى والآخر شرقى . وإنشأؤهما تم بكتل حجرية كانت تستجلب من محاجر المكس بالإسكندرية، ثم ما لبثت الشبكة أن تعاقدت مع شركة داسو أخوان لعمل الأحجار الصناعية لتصنيعها محلياً.

وقد تم تصنيع مائتين وخمسين ألف متر مكعب من الصخور الصناعية، وكان يتم عملها على هيئة بلوكات زنة البلوك الواحد عشرون طناً، وكانت تصنع من خرسانة الدقشوم والجير المائى والرمال، ويؤى فى تصنيع هذه البلوكات داخل بورسعيد وعمرها

في الماء اعتباراً من أغسطس سنة ١٨٦٥م. حتى تم الانتهاء من الحاجز الذي بُدئ العمل به اعتباراً من عام ١٨٥٩ واستمر بناؤه حتى بلغ طوله أوائل سنة ١٨٦٩م. نحو ٣٥٠٠ متر وارتفع عن سطح الماء بمقدار مترين ووصلت نهايته إلى نقطة يبلغ عمق المياه عندها عشرة أمتار، وأطلق عليه رصيف دى ليسبس وكان مبدؤه نقطة التقاء رصيف أوچينى برصيف فرانسوا جوزيف (٧٢).

وبسبب هذا الحاجز نشأت ظاهرة طرح البحر، فقد أدى تراكم الرواسب غربى هذا الحاجز إلى تكوين أراض جديدة شمالي شارع أوچينى الذى كان موازياً للبحر ومواجهاً له مما نتج عنه إضافة مساحات أخرى توسعت بمقتضاها المدينة باتجاه الشمال، وشقت فيها شوارع عديدة موازية لشارع أوچينى باتجاه البحر، وعليه فقد كانت إطالة هذا الحاجز مطلباً تكرر أكثر من مرة حتى يصل إلى العمق التى كان عليه من قبل .

أما الحاجز الشرقى فقد بدأ تنفيذه اعتباراً من ١٨٦٦م. واستمر العمل فيه حتى ١٨٦٨م. وبلغ طوله ٢٥٠٠ متر ووصلت نهايته إلى نقطة يبلغ عمقها ثمانية أمتار ونصف المتر وتتقارب نهايتى هذين الحاجزين من بعضهما عند مدخل الميناء (٧٣). وبهذا تكونت ببورسعيد ميناء خارجية مساحتها المائية حوالى مائة فدان بعيدة عن تأثير الرياح وتأثير التيارات المائية وتأثير الرواسب النيلية (٧٤).

ولهذا بداية السفن كان لا بد من وجود فئار، لذلك تقرر سنة ١٨٥٩م. إنشاء فئار مؤقت صنع من الخشب وكان يضيء لمساحة عشرة أميال. وكان يفي بالغرض من بنائه أثناء فترة الحفر، إلا أنه بعد إتمام بناء الحاجز الغربى فى أوائل سنة ١٨٦٩م. لم تعد إضاءة هذا الفئار كافية فأقيم فئار جديد على الحاجز الغربى وتم إنشاؤه فى مارس ١٨٧٠م. وقد بُنى من الخرسانة وكان ذا لون رمادى (٧٥) . كما أقيم عند نهاية الحاجز الشرقى فانوس صغير فوضع فوق مصطبة لإضاءة مدخل الميناء ليلاً (٧٦) . وكان الفئار يضاء بغاز الاستصباح ويضيء لمسافة ٢٠ ميلاً بحرياً.

ومما يذكر هنا، أنه تم بناء أربعة فئارات على ساحل البحر المتوسط بين الإسكندرية وبورسعيد لتهتدى بأنوارها السفن القادمة لميناء بورسعيد من الإسكندرية أو التى تغادره إليها. وقد أقيمت هذه الفئارات فى رشيد، البرلس، عزبة البرج بالإضافة إلى بورسعيد . وقد جعلت قواعد هذه الفئارات على ارتفاع ثمانية وأربعين متراً وبين نهاية القاعدة وقبة آلات الضوء نحو سبعة أمتار، ونور كل منها يرى على مسافة عشرين ميلاً بحرياً (٢٦ ألف متر) وأنوارها متواصلة، بمعنى أنه متى غاب عن السفن ضوء أحدها، ترى الضوء الآخر فلا ينقطع عنها الاهتداء بأنوارها، والفئارات الثلاثة الأولى صُنعت من الحديد، أما فئار

بورسعيد فمن الخرسانة. وكان لكل فناء ضوء خاص به سواء من حيث اللون أو سرعة الحركة(٧٧). ولنا عن فناء بورسعيد حديث آخر.

وحدث أن استقبل الميناء عام ١٨٦١م. نحو ١٢٥ سفينة، فأنشئت ثلاثة أحواض داخلية على الضفة الغربية للقناة لتستقبل أعداد السفن المتزايدة، واكتملت هذه الأحواض الثلاثة سنة ١٨٧٠م. وهي أحواض: التجارة، الترسانة، وشريف. وخصص الحوض الأول لرسو القوارب الصغيرة وبلغ طوله ٢٠٠ متر وعرضه ٢٠٠ متراً وعمقه ١٦ متراً وخصص لمهام الشركة وبه مرسى المعدي التي تربط بورسعيد ببورفؤاد وكان الركوب فيها مجاناً لغاية ١٩٣٧م. ثم قررت الشركة تحصيل بضعة مليارات من كل راكب نظير هذه التعديـة وعلى أرضه هذا الحوض أقيمت دار الجمرك ودار بوليس الميناء وفي الجهة الأخرى مبنى إدارة شركة القتال، وسوف أحدثك عنه إن شاء الله؛ والرصيف الثاني طوله ٣٥٠ متراً وعرضه ١٧٥ متراً وعمق مياهه ١٦ متراً وبه كثير من المراسي والسقالات والمواعين والكراكات وبه كثير من المراسي والسقالات والمواعين والكراكات، وعلى ضفته سراي استراحة ضباط البحرية الإنجليزية التي إى هاوس واستراحة شركة القتال ومنزل باشمهندس شركة القتال؛ أما حوض شريف فطوله ٤٣٥ متراً وعرضه ٢٩٠ متراً تقريباً ومساحته حوالي ثلاثين فداناً وعمقه ١٦ متراً وخصص لرسو السفن التجارية الضخمة، وعلى أرضه مخازن الاستيداع ووابور لتبريد اللحوم الخاص بالجيش الإنجليزي.

ومع ازدياد النشاط في الميناء أنشئت أرضه أخرى منها رصيف للفحم وآخر للمازوت والبتروـل. وأنشئ حوض عباس حلمي بطول ٨٠٠ متراً وعرض ١٥٠ متراً وعمق ١٦ متراً؛ وقد قامت على أرضه مخازن الفحم والمازوت ومستودعات شركات الغاز ومحطات البنزين ونقطة تموين السفن بالمياه العذبة(٧٨).

أما الأحواض الخارجية فافهمها الحوض الخارجي للملتهبات وطوله حوالي ٩٠٠ متراً وعرضه حوالي ٧٠٠ متراً وعمق مياهه كان أيضاً ١٦ متراً ومساحته حوالي ١٥٠ فداناً وعلى أرضه كان المنار الخشبي القديم وورشة الأحجار الصناعية. ويليـه الحوض العمومي لورش ومخازن شركة قناة السويس وطوله ٦٠٠ متراً وعرضه ٣٧٥ متراً وعلى أرضه ورشة تصليح الكراكات وورش ومخازن الشركة وبه حوض تصليح المراكب وبه الحوض الجاف ومستودعات الأسمنت ومخزن الجير ورصيف لتخزين مهمات الكراكات واللنشآت ومخازن أدوات الكهرباء والزلاقات والدينامو الخ. ويلي ذلك حوض إسماعيل وأحواض مواعين الفحم (٧٩).

ولكى تتمكن يا عزيزي من تكوين صورة شبه كاملة للميناء وقتها، ولتقف على مدى ما

كانت تمثل مشكلة رسو السفن وتقريبها من أهمية فإننى أذكر لك أنه تقرر فى سنة ١٨٦٠م. إنشاء جزيرة .. نعم جزيرة .. جزيرة بعرض خمسة أمتار وعمق نصف المتر وطول يبلغ نحو ستين متراً وتمتد من الساحل فى خط مستقيم نحو البحيرة . ولم يكن الهدف من إنشاء هذه الجزيرة مجرد حماية السفن وتقريبها، وإنما أيضاً استخدامها كمدخل للتغر واستغلالها كمستودع للبضائع . وعلى الرغم من أن من أن قرار إنشاء هذه الجزيرة يعود إلى سنة ١٨٦٠م. فإن الإقدام على إنشائها كان فى مارس ١٨٦٢م. واستمر حتى سبتمبر من نفس العام حيث أصبحت جاهزة لاستقبال السفن(٨٠).

ويدهشنى أن أحداً ما عاد يذكر الجزر التى كانت قائمة وسط الميناء، على الرغم من أنها لم تُزل إلا فى وقت قريب . وكنتُ وأبناء جيلى نمر بها عند التوجه إلى بورفؤاد أو عند العودة منها . وكانت تستخدم كمراش أو كمحطات للإصلاح وأماكن للورش والمخازن، وكانت لها أرقام ووظائف.

فالجزيرة رقم (١) البحرية والجزيرة رقم (١) القبلية بها مراسى شركة قناة المنزلة والملاحات ومخازن الفحم ومخازن النشآت وأندية التديف والحمامات البحرية ؛ والجزيرة رقم (٢) بها زلاقات لتصليح الفلايك وورش شركة بورسعيد ؛ والجزيرة رقم (٣) بها ورش تصلح صالات المياه العذبة لتموين السفن وتصليح الفلايك وكثير من المراسى والزلاقات ؛ والجزيرة رقم (٤) بها كثير من مخازن الفحم ومخازن البضائع والورش الميكانيكية ؛ والجزيرة رقم (٥) بها أيضاً مخازن للفحم بالإضافة إلى جزيرة الشنتبيه القديمة التى كانت تستخدم كورشة للأحجار الصناعية، واستخدمت فيما بعد لرسو الفلايك، وكانت بها زلاقات ومخازن لأدوات المراسى(٨١).

غير أنها أزيلت فى النصف الثانى من القرن العشرين بغرض توسيع الميناء وتيسير مرور قوافل السفن وعبور المعديات من وإلى بورسعيد وبورفؤاد.

واستلزم الأمر حفر قناة بطول ٢١٠٠ متر ويعمق نحو نصف المتر ويعرض خمسة أمتار لتصل بين منشآت الميناء وبين بحيرة المنزلة وذلك لتيسير نقل مياه الشرب ومواد التموين والبناء إلى المدينة مباشرة بواسطة القوارب والصنادل. ولم يكن يفصل هذه القناة عن البحر سوى ٦٠ متراً.

وفى سنة ١٨٦٠م. تم حفر قناة بعرض يتراوح بين ١١ و١٢ متراً وعمق ١,٥ المتر واتصلت هذه القناة سنة ١٨٦٢م. بالبحر لتتمكن الوحدات البحرية التى يتم تفريغ السفن البخارية بها من الاحتماء بالبحيرة .

وفى سنة ١٨٦٥م. تم الاهتمام بقناة تسمح للسفن الصغيرة بالدخول إلى المدينة وعرفت هذه القناة بقناة المدخل أو القنال الداخلى . وكان عرضها ٧٠ متراً وعمقها ٢,٥ المتر، واتصلت ببخيرة المنزلة وقناة السويس عن طريق ممر الرسوة المائى . وظلت هذه القناة قائمة حتى تحولت المدينة وأصبحت مدينة حرة اقتصادياً، حيث أدت الطفرات العمرانية إلى ردمها؛ وكانت قد أقيمت على ضفتيها ورش لتقطيع الأخشاب ولصناعة سفن الصيد والوحدات العائمة صغيرة ومتوسطة الحجم وكذا أقيمت منشآت خدمات صيانة السفن، فضلاً عن استيعابها للمؤن ومواد البناء التي كانت ترد إلى المدينة.

فى مايو من سنة ١٨٦٥م. بدئ فى اتخاذ إجراءات الحجر الصحى بهدف الوقاية من الأمراض والأوبئة التي تحملها السفن القادمة من الخارج وتحصيل العوائد عليها . وكانت بورسعيد قد ابتليت بوباء الكوليرا فى ساحات الحفر فى صيف هذا العام، كما سبق أن أخبرتك، وقدم هذا الوباء من الهند عن طريق الحجاج مما أدى إلى هرب الكثير من الأجانب من سكان الإسماعيلية والقازيق إلى بورسعيد فانتشر الوباء بها وتزايدت أعداد الوفيات. ومنذ سنة ١٨٦٧م. أخذ بنظام تطعيم الأطفال من الأجانب والمصريين ضد هذا الوباء، ومع هذا انتشر هذا الوباء ببورسعيد مرة أخرى لاسيما بقرية العرب سنة ١٨٦٨م. (٨٢) .

ولم تكن هناك أماكن مناسبة لعزل الأشخاص والبضائع والمواشى . وأمكن بعد لى تخصيص بعض الخيام بالبر الشرقى لإقامة الحجاج بها مدة الحجر الصحى وبموافقة شركة القناة. ولم يتم إنشاء خشبية للمواشى إلا فى سنة ١٨٧١م. ومخزن البضائع فى سنة ١٨٧٦م.، وكان على إدارة صحة بورسعيد مواجهة تحديات الجوارين الأجانب على محل الحجر الصحى للمواشى، حيث كانوا يأخذون مواشيهم دون إتمام إجراءات الحجر الصحى (٨٣).

ولم يتم إنشاء مبنى خاص للحجر الصحى لعزل المرضى والعناية بهم، لاسيما الأجانب، إلا عام ١٩٠١م.، واختير موقعه عند الكيلو ٤,٥ من الضفة الشرقية للقناة، واشتهر باسمه الأجنبى (الكارنتينا).

ظل ميناء بورسعيد منذ افتتاح القناة، ولعدة سنوات، بدون دائرة جمركية ؛ بل لم يكن هناك سور يفصل الميناء عن المدينة مما سهل الدخول والخروج إلى البلاد ومنها بدون رقيب، وقد أدى هذا الوضع إلى دخول العديد من الأجانب إلى مصر بغير طرق مشروعة واستقرارهم فى بورسعيد.

وبمرور الوقت ظهرت فكرة إنشاء المنطقة الجمركية وبمقتضى هذه الفكرة تم إنشاء

سور من الخشب، بدا كأنه سور رمزي، وكان منخفضاً، ولم تكن له أبواب. وفي سنة ١٨٩١م، استبدل سور من الحديد بالسور الخشبي. ومع هذا لم يكن من السهل على العاملين بجمرك بورسعيد مباشرة أعمالهم، حيث تمتع الأجانب بامتيازات أتاحت لهم التهرب من سداد الرسوم الجمركية.

وقامت شركة القناة بإدخال وارداتها غير المعفاة من الجمارك ضمن طرود المهمات المعفاة. ومع أنه قد تم أخذ التعهدات على مشايخ المطرية وأشتوم الجميل بعدم الإفراج عن البضائع المهربة، والتنبيه على وكلاء قناصل الدول الأجنبية ببورسعيد بمنع رعاياهم من التهرب من الجمرك أو تهريب البضائع، فإن التهريب وتجارة المنوعات ظلا منتشرين بالمدينة. والأدهى أن دى ليسبس - على الرغم من عدة اتفاقات - أعلن قناصل الدول الأجنبية بأن جميع الواردات إلى بورسعيد هي حق الشركة وليس للحكومة أى حق فيها، وعليهم التنبيه على رعاياهم بعدم دفع أية رسوم على بضائعهم إلى الحكومة المصرية (٨٤). وعلى الرغم من اتفاقات تالية مع الحكومة المصرية تقضى بإخضاع جميع البضائع الواردة للرسوم الجمركية فقد امتنعت شركات "وُمس"، "بازان"، "وولس" وشركة الفحم عن دفع الرسوم الجمركية على الفحم الحجري (٨٥).

وحينما طلبت محافظة بورسعيد من وكلاء قناصل الدول الأجنبية إقناع رعاياهم بضرورة التعاون وسداد الجمارك رفض وكلاء إنجلترا وفرنسا القيام بهذه المهمة (٨٦). ومنذ افتتاح القناة ظل النزول إلى أرصفة الميناء من السفن الراسية يقتضى استخدام الفلايك إلى أن قامت الشركة في أبريل من سنة ١٩٢٧م. بتشغيل كبارى عائمة للقيام بذات الوظيفة التي كانت تقوم بها الفلايك (٨٧)، وهى عبارة عن مجموعة من البراطيم أو الجوفات الحديدية شبه اسطوانية ومغلقة من كل الجوانب على ما بها من هواء فتعوم، ومن ثم تربط إلى بعضها البعض حتى تصل بين سلم السفينة ورصيف الميناء. وهذه الكبارى كانت دائمة التراجع لمجرد أن لنشأ أو أية عائمة ذات محرك تمر في الميناء، مما كان يؤدي إلى تأرجح الماشين فوقه.

هوامش الباب الثاني

الفصل الأول:

- (١) د. زين العابدين شمس الدين نجم، بورسعيد: تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩ حتى عام ١٨٨٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ١٥ .
- (٢) جون مارلو، تاريخ النهب الاستعماري لمصر من الحملة الفرنسية ١٧٩٨م إلى الاحتلال البريطاني ١٨٨٢م، ترجمة د. عبد العزيز رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦م، ص ٥٦ .
- (٣) زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ١٦ .
- (٤) جون مارلون، مرجع سبق ذكره، ص ٥٨-٥٩ .
- (٥) عبد الرحمن الراقي، عصر إسماعيل، الجزء الأول، الأعمال الفكرية، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١م، ص ٥٩ .
- (٦) المرجع السابق، ص ٥٩ .
- (٧) جون مارلو، مرجع سبق ذكره، ص ٦٠-٦١ .
- (٨) محمود صالح منسى، مشروع قناة السويس بين أتباع سان سيمون وفردنان دى ليسبس، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧١م، ص ١١٢-١١٣ .
- (٩) روبرت سوليه، مصر: ولع فرنسي، ترجمة لطيف فرج، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٢٤ .
- (١٠) روبرت سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٦ .
- (١١) روبرت سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٤-١٢٥ .
- (١٢) روبرت سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٦ .
- (١٣) عبد الرحمن الراقي، مرجع سبق ذكره، ص ٦١ .
- (١٤) المرجع السابق، ص ٦١، نقلاً عن أصول قناة السويس ص ١٥ .
- (١٥) محمد الشافعي و محمد يوسف، قناة السويس : ملحة شعب.. تاريخ أمة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٦م، ص ٣١، ص ٤١ .
- (١٦) المرجع السابق، ص ٣١ .
- (١٧) محمود صالح منسى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٥ - ٢٢٨ .
- (١٨) المرجع السابق، ص ٣٠٤ - ٣١١ .
- (١٩) روبرت سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٥ .
- (٢٠) عبد الرحمن الراقي، مرجع سبق ذكره، ص ٦٣ .
- (٢١) روبرت سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٣ .
- (٢٢) عبد الرحمن الراقي، مرجع سبق ذكره، ص ٦٦ .
- (٢٣) المرجع السابق .

- (٢٤) روبرت سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٠ .
- (٢٥) ديفيد لاندز، بنوك وياشوات، ترجمة د. عبد العظيم أنيس، كتاب الأهالي، حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي، القاهرة، العدد السابع، ١٩٨٥م، ص ١٦٢ .
- (٢٦) المرجع السابق.
- (٢٧) المرجع السابق، ص ١٦٢ .
- (٢٨) المرجع السابق.
- (٢٩) روبرت سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٤١ - ١٤٢، نقلًا عن:
- Nubar Pacha, Memoires, introduction et notes de Mirrit Boutros - Ghali, Bayreuth, 1983.
- (٣٠) المرجع السابق، ص ١٤٤ نقلًا عن:
- Mohammed Sabry, L'empire Egyptien sous Ismail et L'ingerence anglo-francaise, Paris, Gauthier 1933.
- (٣١) مزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى :
- د. مصطفى الحفناوي، قصة قناة السويس، الطبعة الثانية، ذاكرة الكتابة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- حسن رفعت عبد الجواد، ٢٥ عاماً إرادة وإدارة مصرية، دار الجامعي العربي، القاهرة، بدون تاريخ نشر، ص ١٧ .
- (٣٢) هنري لورنس، المملكة المستحيلة : فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر والانتشار العربي، القاهرة وبيروت، ١٩٧٧م، ص ٦٩ .
- الفصل الثاني:**
- (٣٣) عبد العزيز الشناوي، السخرة في حفرة قناة السويس، ط٢، تاريخ المصريين، العدد رقم ٢٢٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٥١ .
- (٣٤) زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ٢١ نقلًا عن:
- Reymond, Paul, Le Port de Port-Said, Le Caire, 1950, P.33-34.
- (٣٥) عبد الرحمن الراقعي، مرجع سبق ذكره، ص ٦٧ .
- (٣٦) زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦ .
- (٣٧) المرجع السابق، ص ٢٧ نقلًا عن:
- La cour, Raoul, L'Egypte, Paris, 1871, p 458-60.
- (٣٨) روبرت سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٨ .
- (٣٩) زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢ .
- (٤٠) ضياء الدين حسن القاضي، موسوعة تاريخ بورسعيد، الجزء الأول، المستقبل للطباعة، بورسعيد، ١٩٩٧، ص ٢٩، نقلًا عن: أمين سامي باشا، تقويم النيل: عهد محمد سعيد، ص ٢٥٩ . (النص منقول بحذافيره بما به من أخطاء لغوية وركاكة).
- (٤١) المرجع السابق.
- (٤٢) عبد العزيز الشناوي، مرجع سبق ذكره، ص ٥٦ - ٥٧، نقلًا عن:

Fitzgerald Percy: The Great Canal at Suez. Its Political, Engineering and Financial History, 2 vols, London, 1876, t. I, p. 171.

(43) زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣-٢٤ .

(٤٤) عبد العزيز الشناوى، مرجع سبق ذكره، ص ٦٤-٦٥، نقلًا عن:

Voisin Bey: Le Canal de Suze, t. 7 vols, Paris, 1902-1906, VI, pp. 149-150.

(٤٥) ضياء الدين حسن القاضى، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢ .

(٤٦) المرجع السابق، ص ٣٨، نقلًا عن:

أمين سامى باشا، تقويم النيل، مجلد عباس الأول ومحمد سعيد ص ٣٢٦ .

(٤٧) عبد العزيز الشناوى، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٩ .

(٤٨) محمد الشافعى ومحمد يوسف، مرجع سبق ذكره، ص ٥٣ .

(٤٩) عبد العزيز الشناوى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٧ .

(٥٠) فتحي رزق، قناة السويس الموقع والتاريخ، دار النصر للطباعة الإسلامية، شبرا مصر، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٥٨ .

(٥١) زين العابدين، مرجع سبق ذكره، ص ٢٩-٣٠ .

(٥٢) المرجع السابق، ص ٤٠، نقلًا عن:

Ritt, Oliver, Histoire de Suez, Paris, 1869, P.225 Fol. W. Notice Sur L'etat actuel des travaux de Lsthme de suiez, Geneve, I, 1863, p.15.

(٥٣) المرجع السابق، ص ٤٢ .

(٥٤) عبد العزيز الشناوى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧١ .

(٥٥) روبرت سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٠ .

(٥٦) عبد العزيز الشناوى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٩ .

(٥٧) المرجع السابق، ص ٢٧٧ نقلًا عن:

Ritt, Oliver, Op. Cit.p. 320.

(٥٨) محمد الشافعى ومحمد يوسف، مرجع سبق ذكره، ص ٥٧ .

(٥٩) عبد الرحمن الراقعى، مرجع سبق ذكره، ص ٦٩ .

(٦٠) المرجع السابق، عصر إسماعيل، ص ٩٤ .

(٦١) ديفيد لانزن، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٥-١٦٦ .

(٦٢) المرجع السابق، ص ١٦٦ .

(٦٣) روبرت سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٣، نقلًا

Nubar Pasha, Memoires, Introduction et Notes de Mirrit Boutros-Ghabli, Beyrouth, 1983

(٦٤) عبد الرحمن الراقعى، مرجع سبق ذكره، ص ٩٥ .

(٦٥) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى:

- وزارة الخارجية، جمهورية مصر، الكتاب الأبيض فى تأميم شركة قناة السويس، المطبعة الأميرية.

القاهرة، ١٢ أغسطس سنة ١٩٥٦ م. ص ٦ (بالكتاب مجموعة من الوثائق الهامة عن قناة السويس منها: فرمان الامتياز الأول الصادر من القاهرة في ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤م.، فرمان الامتياز الثانية بشأن شروط إنشاء واستغلال قناة السويس البحرية الكبيرة وملحقاتها لىصادر بالإسكندرية في ٥ يناير ١٨٥٦م. اتفاقية ٢٢ فبراير ١٨٦٦م. المحددة للشروط النهائية التي صدق عليها الباب العالي، اتفاقية القسطنطينية ١٨٨٨م. المحددة للوضع النهائي للقناة، القرار الجمهوري رقم ٢٨٥ الصادر في ٢٦ يوليو ١٩٥٦م. بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية ومذكرته الإيضاحية) .

- عبد الرحمن الراجعي، مرجع سبق ذكره، ص ٩٥ - ٩٦ .

(٦٦) المرجع السابق، ص ٩٩ .

الفصل الثالث:

(٦٧) المرجع السابق.

(٦٨) روبر سوايه، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٧ .

(٦٩) المرجع السابق، ص ص ١٨٩-١٩٠ .

(٧٠) مصطفى محمد البغدادي، مدينة بورسعيد: دراسة في جغرافية المدن، رسالة ماجستير، قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٥م.، ص ٢٧ نقلًا عن:

Reymond , p, " le port de port-said ", le caire, 1950 pp. 49-50.

(٧١) المرجع السابق، ص ٣١ .

(٧٢) فؤاد فرج، المدن المصرية وتطوراتها مع العصور، مجلد ٢، منطقة قناة السويس، مكتبة و مطبعة المعارف، القاهرة، بدون تاريخ نشر (وإن كانت بداخله إشارة إلى أن الكتاب حرر في عهد محمد عزيز أباطة محافظ القنال، وباعتبار أن محمد عزيز أباطة بك (باشا فيما بعد) عين محافظاً للقناة في يناير ١٩٤٢م ونقل مديراً لأسبوط في ديسمبر ١٩٤٣م.، وبالرجوع إلى ما ورد في الكتاب من مواد وأحداث فإنه يرجح أن يكون تاريخ الإصدار ١٩٤٢م). ص ١٤١ (ويود الباحث أن يشير كذلك إلى أن مؤلف هذا المرجع الهام قد ذكر في الصفحة رقم ٢١٨ منه أن طول هذا الحاجز هو ٢٥٠٠متر).

(٧٣) المرجع السابق . (ويشير الباحث إلى أن المؤلف عاد وذكر أن طول هذا الحاجز هو ١٩٠٠متر، ص ٢١٨).

(٧٤) المرجع السابق .

(٧٥) زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ٣٠ .

(٧٦) فؤاد فرج، مرجع سبق ذكره، ص ١٤١ .

(٧٧) مصطفى محمد البغدادي، مرجع سبق ذكره، هامش ص ٢٢، نقلًا عن: علي مبارك، الخطط التوفيقية ص ٢٩- ٣٠ .

(٧٨) فؤاد فرج، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٧٩) المرجع السابق، ص ٢٢٨ .

(٨٠) زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨، نقلًا عن:

Voision, Pey, op. cit., p162.

(٨١) فؤاد فرج، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٨ .

(٨٢) زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٠٧-١٠٨ .

- (٨٣) المرجع السابق، ص ١٣٩ .
 - (٨٤) المرجع السابق، ص ١٤٢ .
 - (٨٥) المرجع السابق، ص ١٤٣ .
 - (٨٦) المرجع السابق، ص ١٤٤ .
 - (٨٧) ضياء الدين حسن القاضى، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٠ .
- ما لم يرد بشأنه هامش فالعدة فيه هو الباحث اعتماداً على دراساته السابقة وخبرته بالموضوع.

الباب الثالث

الفصل الأول

من فوق الفئار

سأريك مشهداً قلما رآه من أراده.

سأصعد بك أعلى مكان في بورسعيد القديمة، والحديثة إلى زمن قريب، وأضع بورسعيد كلها تحت ناظريك، إلا من بعض أماكن أخفتها العماثر العالية التي أقيمت هنا أو هناك. قد تحجب عنك هذه العماثر قليلاً من المناظر، لكنها على أية حال مناظر قليلة جداً، لا تكاد تؤثر على المشهد برمته.

ما دمت قد رغبت في رؤية المشهد الذي وعدتك به فهيا بنا.

سنرتقى سلماً حلزونياً ارتفاعه ١٨٥ قدماً أو ما يعادل ٥٦ متراً تقريباً داخل عمود خرساني ثماني الأوجه . السلم رأسى وبسطاته ليست بالاتساع المرجو، هذا صحيح، لكن الصحيح أيضاً أن هذه البسطات تتيح لنا التوقف إذا ما أتعبتنا الصعود ، توقفاً يسيراً ريثما نلتقط أنفاسنا ونتصالح مع الجاذبية الأرضية إذا ما وهنت منا قوانا.

أنت قارئ ذكي . لقد عرفت المكان الذي أدعوك للصعود إلى قمته وقلت هو الفنار . نعم هو الفنار، أو " الفتيار" بلغة الشعبيين من أهل البلد، وإن كنت مهتماً ببلاغة اللغة ورسائنها فهو المنار. دعنا نستخدم اللفظة الوسط، اللفظة الشائعة في السواحل والموانئ ودنيا الملاحة البحرية، الفنار.

إنه الفنار الذي سبق أن أخبرتك أن تشغيله تم سنة ١٨٧٠م، لكن هناك من يقول إن

تشغيله بدأ مع افتتاح القناة سنة ١٨٦٩م. وأنْ بناه كانْ قد تم سنة ١٨٦٨م (١). هأنْتذا تراه الآنْ معطلاً. نعم نحن بالنهار، لكنه في الحقيقة معطل والدليل هذه اللفتة التي تصدرت واجهته المطلة على القناة . اقرأ المكتوب عليها .. " الهيئة المصرية للسلامة البحرية". هذا ما فعلت مصلحة الموانئ والمناير بأشهر فنار في حوض البحر الأبيض المتوسط. في البداية كان لونه رمادياً. أظنْ إنني قلت لك هذا، ثم طليت أوجهه باللونين الأبيض والأسود في أشكال مستطيلة، ثم أصبح جزء أصفر اللون قاعاً فيما ظل الجزء الآخر محتفظاً بمستطيلاته السوداء والبيضاء. أيا ما كان الأمر، وحتى لا يستغرقنا الحديث عن وظائف الألوان وتأثيراتها الجمالية ويشغلنا عما انتويننا، هيا بنا نصعد إلى قمة الفنار .. أقصد الفنار.

أرأيت كم كان سهلاً صنعونا الحزوني؟ .. وقفات قليلة وقفناها وما نحن في الأعلى غير مكروشي الأنفاس. قبل أنْ نتطلع للبيوت والشوارع الموزعة أسفل منا تطلع معي إلى الغرفة الزجاجية التي هي علامة على هذا الفنار وعلى أغلب فنارات الدنيا . انظر، إنها خالية الآن. فيما مضى كان بداخلها المصباح والعدسات التي كانت تساعد على تكبير الأشعة وترسلها إلى أبعد المسافات. في البداية كانت تلك العدسات تعمل بالكهرباء، ثم حدث سنة ١٩١٥م أن استبدل غاز الاستصباح بها، والسبب هو الانقطاع المتكرر للكهرباء، ثم ما لبثت أن أعيدت إليها مرة أخرى : لكن العمان التي ارتفعت أدت إلى إطفاء نور المصباح واقتلاع العدسات ونقلها إلى الفنار الحديدي القمي الذي أقيم في الفراغ الذي كان متاحاً قبالة الاستاد الرياضي في مواجهة البحر، ولأن بقاء الحال من الحال فما لبثت مبانى قرية الكناري السياحية الناشئة حديثاً أن سُدَّت هذا الفراغ وحاصرت الفنار الحديدي حتى أصبح وجوده وسط مرتادي القرية مشكلة يبحثون لها عن حل جمالي ليتفق ونمط البناء في القرية السياحية . كما أن استغلال الفنار .. أقصد الفنار .. الذي نقف على قمته الآن أصبح مشكلة أيضاً، وأقصى ما فكر فيه مسئولو مصلحة الموانئ والمناير هو تسليم واجهته للهيئة المصرية للسلامة البحرية، وتحويل المباني المحيطة بقاعدته إلى مكاتب وإيواءات لسكن ونوم موظفيها تخيل !! .

تخيل أن يتحول هذا المكان الأثري عظيم الأهمية، الذي ارتبط بتاريخ المدينة وشهد أمجادها وانكساراتها، إلى ثكنة أقصى وظائفها إيواء مجموعة من الموظفين سواء في مكاتب أو غرف للنوم!!

ولقد بُحَّ صوتي يا عزيزي، كما بُحَّت أصوات آخرين، من أجل تحويل الفنار ومبانيه إلى متحف لقناة السويس أو للموانئ أو للملاحة أو حتى للكانات والأحياء البحرية. لكن ما

من مستجيب، وأخشى ما أخشاه أن تستيقظ المدينة ذات يوم على فاجعة إزالة وهدم الفئار تحت أى دعوى من الدعاوى، وطرح موقعه فى المزار لتُبْنى عليه مجموعة من المكعبات الخرسانية يحتلها عليّة القوم وأثرياؤهم.

لتبعد إلى وقفنا فوق قمة فئار ١٨٧٠م. أو ١٨٦٩م.

هل ترى هذا الصارى وتلك الكرة السوداء التى تتوسطه ؟.. هذه الكرة كانت تستخدم لتحديد الوقت، فكانت تتحرك كل أربع ساعات، وتسقط مرة فى الساعة الثامنة صباحاً وثانية عند الظهر تماماً وثالثة فى الساعة الرابعة بعد الظهر وهكذا. وقيل أنها كانت متصلة اتصالاً كهربائياً بمرصد حلوان(٢). وإن أردت معلومات أكثر عن موقع هذا الفئار وموقعنا الآن فوّه فهو يقع على خط عرض ٥٠ ١٥ ٣١ شمالاً و ٤٢ ١٨ ٣٢ شرقاً، ودورة الضوء كانت تستمر ١٠ ثوان، وكان ضوءه يرى على بعد ٢٠ ميلاً عندما يكون الجو صافياً، وقوة هذا الضوء كانت مليون شمعة(٣).

ودخل هذا الفئار ثقافة الوطنيين الشعبية، لحتويه هذه الثقافة وتحوله إلى مفردة من مفردتها. وصور هذا الاحتواء متعددة.

أولاهما أنه تحول فى لغة المخاطبة اليومية لديهم إلى فئيار. لماذا الفئيار وليس الفئار.. لا أدري .. لعلها عادة لسانية.. لكنها ليست متكررة فيمكن رصدها وإطلاق وصف العادة عليها.. وأصدقك القول حاولت البحث عن نطق شبيه فى مفردات أخرى فلم أجد سوى مفردة النورس.. طائر النورس الذى حلت فى هيلته أول هذا الكتاب.. الشعبيون فى بورسعيد يطلقون اسمه " نيرس " وعدا هاتين المفردتين " الفئيار " و" النيرس " لم أجد... وأتمنى لو أن المختصين فى اللهجات واللسانيات اهتموا بتحليل سبب هذا التحريف اللسانى .

وثانيتهما أنه فى جلسات الفحش والفجور يوصف هذا الفئار الذى أصبح فئياراً بأنه "... العون"، فإذا كان العون فى الثقافة الشعبية هو المارد العملاق الذى يخرج من مصباح علاء الدين عند حكه فإن الكلمة المحذوفة تادياً منى هى كلمة فاحشة يوصف بها عضو الذكورة لدى هذا العون، وهو تعبير شعبى جنسى فج يؤدى وظائف دلالية فى مواقف بعينها.

وثالثة هذه الصور أنه أصبح دليلاً على أوقات الرخاء التى كانت تعم المدينة، فبنوره الذى تستهتدى به السفن كانت ترتزق طوائف غير قليلة من السكان .

ورابعها أنه أصبح فى الثقافة الشعبية رمزاً للصمود ومواجهة المعتدين بأنفته وشموخه وقامته التى تتعالى على الانهزام.

ومع هذا كله، وبالإضافة إليه، تحول إلى مونتيفة بارزة فيما تتغنى به الحياة الشعبية داخل المدينة؟ .. فإذا ما بدت على شخص ما إمارات الانتشراح والسعادة أشير إليه – أو أشار هو إلى نفسه– بعبارة لها مدلولها الواضح لدى أفراد الجماعة الشعبية " أصل البلية فوق "، أى أنه رائق المزاج منشرح الصدر وتبدو عليه علامات البهجة وإشارات السعادة . والبلية هي الوصف الذى أسبغته هذه الجماعة على الكرة السوداء التى تجاورنا الآن ويتم بها تعيين الوقت، وحدثك عنها منذ قليل.

وينسج الشعبون حكايات قد تقترب من تخوم الأسطورة عن بلورة هذا القنار وكيف أن المحتلين سرقوها وهم ينسحبون من المدينة فى حرب ١٩٥٦م حنقاً وغضباً لأنها من الكريستال الصافى الذى ارتقى به الشعبون إلى مستوى الألاس قيمة. انظر إلى الأسفل، إن القنار يحتل ومرفقاته مربعاً تنظيمياً بأكمله وتحيط به أربعة شوارع . من الشرق شارع فلسطين الذى هو فرانسوا جوزيف، ومن الجنوب شارع الجبترى، ومن الشمال شارع الطائف، ومن الغرب شارع محمد صدقى . انظر باتجاه الشرق.. هاهو الميناء أمامك، بل تحتك، يمتد من داخل البحر بين الحاجرين الحجريين اللذين كلمتك عنهما، من الشمال حيث انفساحة البحر، إلى الجنوب حيث لا نهاية للمدى.. ولاحظ أنه لا موج ولا دوامات، لا عند البوغاز ولا داخل الميناء ؛ فقط سفن من كل نوع، وفكك ولنشات وشمندورات وفوانيس، وعلى الضفة الشرقية منه تلوح الترسانة الحالية لهيئة قناة السويس بأحواضها العائمة والجافة وأوناشها الضخمة، وإلى الجنوب منها بيوت بورفؤاد الضاحية الأسيوية لبورسعيد الإفريقية . هذه التى تظهر أمامك.. لكن اسمح لى سنتحدث عن بورفؤاد الأسيوية فى حديث مفصل فيما بعد. ولنركز حديثنا الآن على هذه البقعة الأفريقية التى تقع فى أقصى الطرف الشمالى الشرقى من القارة السوداء.

كل الكتب القديمة ذكرت أن رصيف أو شارع أوجينى المواجه للبحر هو الحد الشمالى لبورسعيد وهذا صحيح، ومنه كانت تتفرع الشوارع الموازية للقناة – وما أقلها وقتها - ورسدت هذه الكتب ثلاثة شوارع منها لها أسماء أجنبية كشارع (cannebiere كانيبيير) وأطلق عليه الأهالى اسم ميدان الميناء ؛ وشارع (science منشتر الخشب) لوجود منشتر قديم فى هذا المكان . وكان يخترق شارع منشتر الخشب هذا ميدان ديليسبس، الذى كان يمثل النقطة المركزية للمدينة وقتها (ميدان المنشية الحالى)، ويمتد حتى الورش ؛ والشارع الثالث هو شارع (Arsenal الأرسينال) وهو مواز للشارعين السابقين بنفس الطول والعرض(٤).

وحدثك من قبل عن حدود المدينة التى كانت وقتها تشبه المستطيل وتمثلت هذه الحدود

فى شوارع أوجيني فى الشمال وفرنسا جوزيف فى الشرق والترسانة فى الغرب والبحيرة فى الجنوب. هذا ما كان فى البداية الأولى، لكن سرعان ما تبدلت الأوضاع وانتشر العمران خارج هذه الحدود فى الأرض الجديدة، التى جاءت طواعية، ملغماً حدث مع طرح البحر شمالى شارع أوجيني، أو مع الأراضى التى اقتنصت اقتناصاً من بحيرة المنزلة، كما حدث غربى شارع الترسانة أو جنوبى شارع البحيرة. ولأنه لا يمكن ولا يعقل أن تُبنى شرقى شارع فرانسوا جوزيف أية عمائر لأن معنى هذا أنها ستبنى فوق مياه القناة، التى هى الأساس الأيكولوجى والاقتصادى والاجتماعى والسياسى والثقافى لكل ما يمور فى هذه المنطقة، فقد امتدت يد العمران إلى المنطقة الواقعة شرقى القناة فوق الجزء المشطور من بحيرة المنزلة والمريوم بالرمال الناتجة عن الحفر.

ومن ثم فقدت هذه الشوارع الحدودية أهميتها التى كانت عليها قديماً، بالإضافة إلى أن التعريب قد نالها - كما سبق أن أخبرتك - ومن هنا اضمحل ذكرها على ألسنة أبناء المدينة باستثناء شارع واحد ضاعت أهميته الحدودية، هذا صحيح، لكن اسمه مازال يتردد على ألسنة العامة وهو شارع أوجيني وينطق بالعامية (أوجينا) فهذا الاسم يتردد - ما زال - جنباً إلى جنب الاسم الحديث الذى أطلق عليه، وهو اسم السيدة صفية زغلول المحفور فى الذاكرة الوطنية، فلو سألت حتى أكبر المعمرين من أبناء المدينة سنأ عن أى من شوارع فرنسوا جوزيف أو الترسانة أو البحيرة أو كانبيير أو.. لا نذكره أو تعرف على موقعه، لكن أسأله عن شارع أوجيني الذى هو شارع صفية زغلول سيشير لك باتجاهه على الفور، وذلك على مبتغاك.

ولم يكن يوازى شارع أوجيني (صفية زغلول الآن) حتى سنة ١٨٧٥م أى شارع عرضه ٣٠ متراً سوى شارع واحد فقط هو شارع دى ليسبس الذى كان يبدأ من شرق المدينة ويعبر الميدان المسمى باسمه (ميدان المنشية حالياً) وينتهى بالقائه مع نهاية شارع محمد على، الممتد من المدخل الجنوبى للمدينة من عند الرسوة حتى هذه النقطة. أما الامتداد الذى ظهر بشارع دى ليسبس مع تنامى قرية العرب والتحامها بالمدينة وتحولها إلى حى .. ذلك الامتداد الذى استمر حتى الحد الغربى للقرية التى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من المدينة، فقد كان يُعرف بشارع الجامع التوفيقى. وكلا الشارعين أو قسمى هذا الشارع، باسميه ديليسبس والجامع التوفيقى، نجمهما الوطنيين بتسمية واحدة هى الشارع الثلاثينى، ولما أطلق عليه كله اسم سعد زغلول احتفظ له الوطنيون بالاسم الدال على عرضه، وما لبثت أن ظهرت الشوارع الموازية لشارع أوجيني.. شماليه بفعل طرح البحر وجنوبيه بفعل التعمير. ومن الشوارع التى وازته من ناحية الشمال شارع عباس (محفوظ

العجرودى الآن) وشارع توفيق (أحمد عرابى الآن) وشارع كتشنر (٢٣ يوليو الآن) وكورنيش البحر) عاطف السادات الآن) وجميعها من نتاج طرح البحر ولم يكن لها أى وجود عند نشأة المدينة.

ومن الشوارع الموازية لشارع أوجيني وتقع إلى جنوبه شارع التجارة ويقع بين شارعى أوجيني ودبليسيس ويمتد من شارع فرانسوا جوزيف حتى شارع محمد على. وكان يعرف بالشارع نمرة (١) على الرغم من أنه ليس أول الشوارع إنشاءً، وتغير اسمه إلى شارع الأمير فاروق ثم النهضة ليطلق عليه أخيراً اسم الشهيد فريق أول عبد المنعم رياض . ومن الشمال الغربى لشارع محمد على وعبر حى العرب والمناخ حتى شارع الترسانة يمتد شارع السلطان عبد العزيز المعروف شعبياً بالشارع التجارى . وجنوبه يمتد شارع السلطان عبد الحميد المعروف بالشارع الحميدى، على الرغم من أن اسمه الجديد هو شارع أحمد ماهر . وإلى جنوبه، بدءاً من منطقة الجمارك حتى شارع محمد على يمتد شارع مصطفى كامل ؛ ثم ابتداء من غرب شارع محمد على حتى شارع الأمين يمتد شارع كسرى (محمد فريد الآن). وشارع السواحل ومازال محتفظاً باسمه . وشارع البحيرة الذى أصبح شارع ١٠٠ ثم (المشير أحمد إسماعيل الآن).

ومن الشوارع الحديثة: الناصر، عادل الشربيني، عبد الحليم محمود، عبد الرحمن شكرى، الزعيم مصطفى كامل وهكذا تزايدت الشوارع الموازية لشارع أوجيني شمالاً وجنوباً بازدياد رقع العمران إما على الأرض التى أهداها البحر للمدينة شمالاً وإما انتزاعاً من جسم بحيرة المنزلة جنوباً.

أما الشوارع التى تتوازى مع قناة السويس وتتعامد أو تتقاطع مع شارع أوجيني فأولها أسفلتنا تماماً، وسبق أن حدثك عنه مراراً، هو شارع فرانسوا جوزيف (فلسطين حالياً)، فاتركه الآن وول وجهك شطر الغرب لأريك أهم الشوارع الموازية له. ما دمنا ننظر الآن باتجاه الغرب فأسفل منا شارع محمود صدقى (أمريكا سابقاً) . وهاك على بعد مسافة قصيرة منا شارع السلطان عثمان الذى تغير اسمه إلى شارع فؤاد الأول (الجمهورية حالياً) . وشارع القسطنطينية (الجيش حالياً)، ثم شارع منشور الخشب الذى أصبح (رمسيس حالياً)، ثم شارع فرعون الذى أصبح (الشهيد محمود طه عطعوط حالياً)، ثم شارعاً إسماعيل والأهرام اللذان أصبحا (جمال عبد الناصر حالياً) ، ثم شارع المغرب الذى أصبح (شارع الشهيد نقيب محمود محمد أبو راية)، ثم شارع المشرق ومازال محتفظاً باسمه، ثم شارع أفريقيا الذى أصبح شارع (مختار محمود سعيد) . فى هذا الشارع عاش الشاعر الكبير عبد الرحمن شكرى الذى مثل بشعره ونثره قاعدة مثلث

المدرسة الديوانية، وهناك شارع محمد علي، الذي كان ينتهي عند التقائه بشارع أوجيني، أما امتداده باتجاه الشمال في منطقة طرح البحر فكان يسمى بشارع المحروسة، أي أنه شأنه شأن الشارع الثلاثيني وشوارع كثيرة كان يتكون من قسمين لكل منها اسم مختلف هما محمد علي والمحروسة، وقد وجد المجلس البلدي اسم الشارع فجعله كله باسم محمد علي، وبعد حرب ١٩٥٦ أطلق عليه اسم شارع الشهداء لكثرة من سقط فيه من شهداء إبان هذه الحرب.

مد بصرك إلى ما بعد هذا الشارع ستري المباني، بحكم المسافة واتساع الرؤية، أكثر تلاصقاً؛ واعتباراً من الحد الغربي لهذا الشارع .. هناك .. يبدأ حي العرب كما سبق أن أخبرتك، ذلك الحي الذي كان مجرد قرية ويبعد عن هذا الشارع بنحو ٥٠٠ متر. ومن أهم شوارعه الوفائية، وقد تحول اسمه إلى نبيل منصور، ذلك الصبي الشهيد الذي قتله الإنجليز، ولم يكن قد تجاوز الحادية عشر من عمره، بعدما أحرق خيام معسكرهم في ١٦ أكتوبر ١٩٥١م.. وكان يسكن في هذا الشارع . وإلى غربي هذا الشارع شارع منهور فأبو الحسن فالقدس فالروضة (شهداء القناة حالياً) فالغوري فالدهلية فالجيزة فالنبا، والشارع الأخير يمثل نهاية حي العرب الإدارية ليبدأ من حده الغربي حي المناخ وتتوازي معه شوارع هذا الحي، ومن أهمها: أسوان وبنى سويف ونبيه وعدلى والترسانة الذي أصبح الأمين ثم (محمد سرحان حالياً) هناك حيث، يبدأ نمط العمارة في التغير، فتظهر المكعبات الإسمنتية التي أصبحت علامة على ما يطلق عليه المساكن الشعبية . ومن الشوارع المستحدثة شارع ستالنجراد (فولجراد حالياً) و٢٣ ديسمبر وعبد الهادي الحديدي والشارع الأخير يمثل نهاية حي المناخ الإدارية ليبدأ من حده الغربي حي الزهور، وهو أحد الأحياء المستحدثة بالمدينة، ويمتد غرباً ليستوعب بعض تجمعات الصيادين في القرى الملحقة بالمدينة ومنها: الجراينة والمناصرة والديبة، ويطل في امتداده غرباً حتى حدود دمياط الشرقية، ويلتقي جنوباً بالحد الغربي لحي الضواحي، والحد الشمالي لحي الجنوب، الحي الأحدث بالمدينة، الذي أنشئ لإدارة شؤون المناطق التي ضُمَّت إلى بورسعيد من محافظتي الإسماعيلية والشرقية والدقهلية.

لنعد إلى حيث نقف .

بالطبع ما نقوله صحيح.. فما ذكرْتُ لك من الأسماء إلا أقل القليل فالشوارع من الكثرة بحيث يستحيل عرضها في الدقائق المتاحة لنا للوقوف في مكاننا المرتفع هذا، ثم هي مشكلة الزهايمر وأفعال الخذلان التي تأتيناها ذاكرة شيخ مثلي . ويريحني في هذا الصدد أنْ أحيك - إنْ طُلبت المزيد - إلى المراجع التي اهتمت بأسماء شوارع المدينة. صحيح أنها

قليلة، لكنها تفي بالغرض، لاسيما فيما يتعلق بما طواه التاريخ . ثم إنني بهذا أوفر بعض الوقت لأحدثك عن أمور أراك متشوقاً لمعرفةاها.

ولعلك قد رأيت رأي العين الدقة الهندسية في تقسيم المدينة القديمة، وكيف أن شوارعها تتصف بالتوازي والتقاطع والانتساع . أقول المدينة القديمة، أما ما أضيف إليها من المساكن والأحياء الجديدة فلألسف فلسوف يتغير النسق، فالشوارع التي تفصل أو تربط بين شوارع المناطق والأحياء الجديدة لم تتأسس بسيمترية شوارع المدينة القديمة. فبدت نشازاً غير مستملح، في حين أن النسق التنظيمي القديم كان ذا هندسة واضحة الدقة والصرامة.

انظر مثلاً إلى شوارع حي العرب ودقق النظر، ستجد التقسيم البديع للمربعات السكنية، فثمة شرايين وأوردة تتقاطع طويلاً وعرضياً على الترتيب التالي: شارع عرضه ١٥ متراً فشارع عرضه ١٠ أمتار ثم شارع عرضه ١٥ متراً فشارع عرضه ١٠ أمتار وهكذا، وبين كل شارع وآخر حارات عرضها أربعة أمتار. ويتميز شارع سعد زغلول بعرضه الذي يبلغ ثلاثين متراً ومن ثم اكتسب اسمه الشعبي (الثلاثيني)، ونتيجة لهذا الترتيب الدقيق تخلقت مربعات سكنية صحية مسكونة بضوء الشمس ويتخللها هواء البحر ويسهل الاستدلال عليها فيكفي أن تذكر اسمي الشارعين أو الشارع والحارة المتقاطعين لتستدل على العقار الذي تبغيه. وسهل هذا كثيراً أعمال رجال البريد والسانقين والحنطفرجية ورجال الإطفاء والأمن ومحصلى العوائد وشيوخ الحارة وغيرهم من رجال البلدية، إضافة إلى الأغراب والوافدين .

هذا التخطيط التنظيمي الدقيق للحى تم سنة ١٨٦٩م، في ظروف الحريق الهائل الذي شب بالقرية . وقد سبق أن أخبرتك أن تحديد الأرصفة القديمة الأربعة أعطى المدينة الناشئة شكلاً أقرب إلى المستطيل، لكن إخضاعها للتخطيط العمراني أعطاهما شكلاً مثلثاً قاعدته إلى الشرق أى قناة السويس ورأسه ناحية الغرب وزاويته القائمة – تقريباً – متوازية مع البحر وساقطة على قناة السويس، ووتره ممتد بامتداد بحيرة المنزلة وساقط أيضاً على قناة السويس. ربما وقع انبعاث هنا أو هناك، لكنه في الإجمالي العام كان مثلثاً هندسياً بديع التكوين يتماشى وطوبوغرافيا المكان ويرتبط بوضعية اللسان الرملى الساحلى الذى حدثك عنه منذ البداية، ذلك اللسان الذى نشأت عليه المدينة وتضيق مساحته كلما اتجهنا ناحية الغرب . وإن أردت رأيي، كان التخطيط جيداً لأنه يفتح صدر المدينة على هواء البحر.

وما دمتا في أعلى الفناء ما نزال فاسمح لى بأن أدعوك لأن تتجاهل الإضافات

العمرائية غير المتسقة هندسياً مع التخطيط العمرانى للمدينة القديمة، مثلما أدعوك إلى أن تركز انتباهك معى.

لنبدأ بالثلاثاءات الكبيرة . هاهو شارع كتشنر (٢٢ يوليو) يلتقى مع شارع الثلاثينى (دى ليسيس والجامع التوفيقى – سعد زغلول) عند مستشفى الحميات، ليكونا رأس المثلث الأكبر داخل حى المناخ عند الاستاد الرياضى ومستشفى الحميات، أما القاعدة فعند قناة السويس. وشارع أوجينى(صفية زغلول) يلتقى بنفس شارع الثلاثينى عند مدرسة جمال يوسف وأمام سينما مصر ليكونا رأس مثلث كبير قاعدته أيضاً عند قناة السويس . وانظر أيضاً .. هاك شارع عباس يلتقى مع شارع أوجينى عند بداية شارع المحروسة (الذى أصبح شارع الشهداء) أمام المسجد العباسى ليكونا مثلثاً صغيراً قاعدته شارع إسماعيل (صلاح سالم – جمال عبد الناصر) وكذلك شارع توفيق (عرابى) يلتقى مع شارع الثلاثينى عند شارع الترسانة (الأمين – محمد سرحان) عند مقهى راس البر ليكونا مثلثاً سكنياً آخر قاعدته شارع المحروسة (محمد على – الشهداء).

أما المناطق السكنية الجديدة فشوارعها المستقيمة قليلة، وغالباً ما تكون غير مكتملة، والكثير منها غير المستقيم متعرج أو قصير المدى . كثيرها أكثر اتساعاً من الشوارع القديمة، لكن هذا الاتساع مرتبط بكثافة وضخامة ونقل وسائل النقل الحديثة ويمدى قربها أو بعدها عن وسط المدينة، والعماثر الحديثة التى تبنيها الحكومة فى هذه المناطق لاسيما تلك التى تُسمى بالشعبية لا تتفق والسياق العمرانى الأصيل للمدينة لا فى شوارعها ولا فى أسواقها العشوائية ولا فى أنماط وطرز البناء، الأمر الذى أدى إلى اضطراب وحدتها البنائية، وتشوه تركيبها الداخلى، وكرس الفوضى بدلاً من التنظيم، ومن ثم بدت هذه المناطق كما لو كانت منبئة الصلة بالعناصر العمرانية الأخرى .

وتقتضى الأمانة العلمية الإقرار بأن شركة القناة اهتمت - منذ البداية - بتنظيم المدينة الناشئة وبخطوطها العمرانى، وكانت تتشدد إزاء حالات الخروج على خطوط التنظيم التى وضعتها على خرائط خاصة . ومن صور تشدها بهذا الخصوص أنها كانت تتدخل لدى محافظة بورسعيد لإزالة العشش التى يقيمها الأهالى إذا ما كانت خارجة عن خطوط التنظيم . وكان لا بد من الحصول على ترخيص منها قبل إقامة أية مبان مهما كان نوعها سواء كان فى المدينة أو القرية، ولم يكن للحكومة دور فى هذا الشأن(ه).

وإذا كان إبعاد الحكومة عن شئون التنظيم العمرانى للمدينة والقرية أمراً مثبثاً للدهشة، فإن ما يضح من هذه الدهشة أن شركة القناة كانت تسيطر على ما يخص شوارع بورسعيد تنظيمياً ومالياً، فكانت تقوم بتحصيل ستة قروش عن كل منزل فى المدينة

تحت مطعم، وخمسة قروش عن كل دكان، وقرشين ونصف عن كل عشة بقرية العرب(٦)، بالإضافة إلى ما كانت تقوم بتحصيله ممن يرغب في البناء نظير قيامها بردم أراضي بورسعيد لإعدادها للبناء، وغالباً ما كانت هذه الأراضي ضمن أملاك الحكومة، فإذا كانت الأرض منخفضة كلفت الأهالي الراغبين في البناء عليها بردمها وإصلاحها (٧). وقد استسلمت الإدارة المصرية - وقتها - لما تقوم به الشركة من إجراءات بالنسبة للتنظيم دون مراجعة لعلامات أو حدود التنظيم، بل أمرت رعايا الحكومة بعدم الخروج عليها، وقامت بنقل بعض الأهالي الذين أقاموا بعض العيش لهم في المدينة إلى القرية تنفيذاً لطلب الشركة، وفي المكان الذي حدده مهندسوها. وراعت الشركة أيضاً عدم تسكين الأجانب في قرية العرب. وكان يتم إخلاء الشوارع والطرق من المتسبيين (من الباعة الجائلين)(٨).

ومنعاً لأي خروج على خطوط التنظيم قامت الشركة بالاشتراك مع المحافظة بوضع أوتاد بجميع الحارات لمراعاتها عند البناء، وكان يتم تغريم البائعين والتجارين الذين يقومون بأعمال تخالف خطوط التنظيم أو لعدم الحصول على إذن بإجرائها (٩). وإذا كنا نستملح تشدد الشركة إزاء الالتزام بخطوط التنظيم والتخطيط العمراني للمدينة، فإننا نستعجب تخاذل الحكومة وتنازلها عن حقها السيادي الأصلي بسماعها أو عدم اعتراضها على الشركة عندما فرضت رسوماً على المباني وحصلتها لنفسها . والأدهى هو تمادى الشركة في سياسة التحصيل هذه فكانت تُحصل عوايد على العربات التي كانت تمر بالشوارع، وعلى عربات الكارو وكانت قيمتها خمسة فرنكات شهرياً على العربة ذات الحصان الواحد وثمانية فرنكات على العربة ذات الحصانين وتقل عن ذلك بالنسبة للعربات التي تجرها البغال والحمير(١٠).

وعندما اتفق الخديو مع دي ليسبس حول شئون التنظيم بالمدينة احتكرت الشركة كل ما يتصل بهذه الشئون، فكانت تقوم بتبليط الشوارع وتخضم التكاليف من حساب مصلحة الأملاك المشتركة وكذلك تكاليف أعمال الترميمات المختلفة .

غير أن ضبط المخالفين كان يتم بالمشاركة بين الشركة والحكومة، وقد كُلف مأمور النظام التابع للشركة بالاشتراك مع مفتش البوليس بالقيام بعمل محاضر لجميع المخالفين لأصول التنظيم مثل: إهمال أصحاب الفنادق والحانات للإضاءة وإلقاء القاذورات في الشوارع، وإطلاق النيران بها، وعدم الحفاظ على انتظام المرور بوقوف العربات والباعة وسط الطرق، وغيرها من المخالفات وكانت هذه المخالفات تُحال إلى محكمة الإسماعيلية لنظرها . أما المحلات التي يُسمح لها بشغل أماكن أمام محلاتهم - إذا كانت لا تزاخم

الطرق - مثل المخازن أو المقاهي فكانت الشركة تفرض رسوماً على أصحابها نظير ذلك(١٨) .

وهكذا كانت الشركة إذن دولة داخل الدولة.

منذ البداية واجهت بورسعيد مشكلة عدم توفر مواد البناء ومنذ البداية أيضاً اتجهت جهود الشركة إلى التذكير بإيجاد مكان صالح لرسو السفن التي تجلب إلى جانب أدوات ومعدات الحفر ومواد البناء والصخور اللازمة لبناء الحاجزين الغربي والشرقي لمدخل القناة الشمالي. ولأن جلب الأحجار من جبل عتاقة كان أمراً شديداً العسر وقتها فقد اتجهت الشركة إلى جلب الحجارة من محاجر طره عن طريق فرع دمياط، ومن دمياط إلى بورسعيد، لكن لأن ذلك يستغرق وقتاً فقد جلبت الشركة الأحجار من محاجر المكس بالإسكندرية إلى بورسعيد مباشرة عن طريق البحر ولهذا جهزت المرسى الخشبي الذي كلفته ٥٢٠,٠٠٠ قدم مكعب من هذه الأحجار حتى سنة ١٨٦٤م. تم الاتجاه إلى تصنيعها محلياً عن طريق داسو كما سبق أن عرفت، لكن حجارة داسو كانت مخصصة لمحاجز الأمواج ولم تكن تصلح للبناء، فكيف يصلح للبناء حجر زنته ٢٠ طناً ؟

لذا كان يتم إحضار الأخشاب من القنطرة، أو من المحطات القائمة بامتداد القناة، أو غيرها من البلاد، وكذلك إحضار الطوب من دمياط أو من الخارج . وكان البناء خشبياً خالصاً في البداية، ومع مرور الوقت وتقدم وعمار بورسعيد حلت المنازل والدكاكين والورش المشيدة من مواد البناء، التي دخل فيها الطوب والإسمنت والجص . وكانت دعائم المباني وقتها من الخشب، الذي كان يقوم مقام حديد التسليح، فكانت عروق الخشب هي التي تحدد بدايات ونهايات الطوابق، ومنها تتشكل الأسقف والأرضيات، ولبناء الجدران الطوبية كانت العروق الخشبية تنصب متقاطعة مع بعضها البعض ثم يتم ملء الفراغات فيما بينها بالطوب والمونة التي قوامها الرمل الذي يستجلب من صحراء الإسماعيلية والإسمنت الذي يرد من الخارج، أما التراسينات (الشرفات) الخشبية فقد كانت تقوم على أعمدة خشبية غليظة وتبطن أرضياتها بالغاب الذي يغطي بطبقة من الجص فيما كان يعرف وقتها بطريقة (السدة واللياسة). وبعض المنازل كانت شرفاتها تبنى بالحجارة أو بالحديد الكريتال وترتكز على أعمدة حجرية .

إلا أن البناء بالخشب و" بالسدة واللياسة " أخذ في التراجع رويداً رويداً لصالح البناء بالطوب وحديد التسليح وبدأت أنماط وطرز عمارة القرن التاسع عشر تتسم بالندرة لا سيما بعدما فنى فنيوها وعمالها حتى إن قطعة من تراسينة أو شباك قد تُكسر فلا يمكن

لساكن البيت أو مالكة تعويضها.

وقد يكون من المفيد أن نذكر هاهنا أن المكان الذي لم يكن فيه سوى بضع خيام عند ضرب أول معول بلغ عدد المنازل فيه سنة ١٨٦٦م نحو ٢٠٩ منازل وعدد الأكشاك والعشش ١٣٢ كشكاً وعش، وفي سنة ١٨٦٥م وصل عدد المنازل إلى ١٦٠٠ منزل في المدينة وحدها دون قرية العرب، وفي سنة ١٨٧٢م أي بعد ثلاث سنوات من افتتاح القناة كان يوجد بالمدينة ٢٠٠٥ منازل وبقرية العرب ٩٩٠ مسكناً فقط مع أن عدد الأهالي كان يفوق عدد الأجانب (١٢).

منذ نشأة المدينة ومساحة العمران بها تتسع وتتزايد بالاتجاهين الرأسى والأفقى، ففي الفترة من ١٨٥٦م، حتى ١٨٦٦م، كانت مساحة العمران حوالي ٠.٧٤ كم^٢، وفي الفترة من ١٨٦٧م، حتى ١٩٢٩م بلغت زيادة مساحة العمران حوالي ١,٨ كم^٢ فإذا ما أضيفت هذه المساحة إلى المساحة السابقة نجد أن إجمالي مساحة العمران في هذه الفترة قد بلغ ٢,٥٤ كم^٢، وفي الفترة من ١٩٣٠م حتى ١٩٥٥م زادت مساحة العمران بنحو ٢,٠٢ كم^٢ أي أن إجمالي المساحة العمرانية وصل آنذاك إلى ٤,٥٦ كم^٢ . وفي الفترة من ١٩٥٦م حتى ١٩٧٤م بلغت الزيادة في المساحة العمرانية ٥,٢ كم^٢ وكانت تقترب من حجم الزيادة في المراحل الثلاثة التي سبقتها وبذا يكون إجمالي المساحة العمرانية ٩,٧٦ كم^٢ وزادت في الفترة من ١٩٧٥م حتى ١٩٩٩م زيادة بلغت ٦,٧٦ كم^٢ فبلغ إجمالي المساحة العمرانية ١٦,٥٢ كم^٢ أما في الفترة من ٢٠٠٠م حتى الآن (٢٠٠٦م) فقد زادت المساحة العمرانية بنحو ١٦,٢٧ كم^٢، وهو ما يكاد يعادل إجمالي المساحة العمرانية منذ النشأة حتى سنة ١٩٩٩م وبذلك تصبح جملة المساحة العمرانية في الوقت الحالي ٣٢,٧٩ كم^٢ (١٣).

لا تظن أن ما أضيف إلى المساحة العمرانية، على ضخامته بالقياس إلى مساحة العمران التي كانت متاحة عند النشأة، بكاف لاستيعاب احتياجات سكان المدينة . على العكس فإن العبء السكاني ظل في تزايد مستمر ضاقت عنه مساحتها الكلية، ولعل هذا هو الدافع الرئيسى لصدور قرار رئيس الجمهورية رقم ٦٥١ لسنة ١٩٧٥ بإضافة مساحات من الأراضي إلى بورسعيد استقطاعاً من محافظات الإسماعيلية والشرقية والدقهلية ودمياط، وكذا صدور قراره رقم ٨٤ لسنة ١٩٩٧ باستقطاع مساحات من محافظة شمال سيناء وضمها إليها والحقيقة أن هذه المحافظات لم تتنازل عن أراضيها بسهولة، وإنما نشأت بينها وبين محافظة بورسعيد حروب أطلقت عليها وصف الحروب الحدودية وما تزال مناوشات هذه الحروب قائمة الآن .

لأحدثك في عجلة عن تطور التقسيم الإدارى لمدينتنا، فما دمنّا قد تحدثنا عن خطوط

التنظيم فمن باب أولى أن أحدثه، ولو باختصار. عن الوعاء الذى احتوى هذا التنظيم، وأقصد به الإدارة، ففي سنة ١٨٦٣م وبسبب من تزايد مخطط الأطماع الخارجية، لاسيما الأطماع التركية والبريطانية، ويتأثير من تعارض ممارسات الشركة والمطالبات التى توجبها سيادة الحكومة المصرية على أراضيها، ولأن الشركة كانت ترى أن الأراضى المحيطة بالقناة ملك لها، وأن علاقة الحكومة المصرية بهذه الأراضى لا تكون إلا عن طريق ممثل رسمى، بالإضافة إلى وقوع الحوادث والفتن والمشاجرات بين الأروام والأهالى، بسبب من هذا كله أصدر إسماعيل باشا أمراً بإنشاء محافظة للقناة، وجعل الإسماعيلية عاصمة لهذه المحافظة، وعين إسماعيل حمدي باشا محافظاً لها . ولا يرجع سبب اختياره للإسماعيلية - فى رأى - إلى أنها سميت باسمه، بعد أن كان اسمها مدينة التمساح، فقط .. وإنما أيضاً لقربها من مركز حكمه فى القاهرة، وكانت بورسعيد وقتها مجرد مأمورية لها مأمور تم تعيينه أواخر سنة ١٨٦٤م وأوائل سنة ١٨٦٥م. وكان تابعاً لمحافظة القناة بالإسماعيلية .

ونتيجة لنموها المتسارع عرفت بورسعيد كمحافظة فى ٣٠ أغسطس ١٨٦٦م حين صدرت إرادة سنية بتعيين مصطفى بك محافظاً لها وتعيين وكيل للمحافظة أيضاً، واكتمل لها الاستقلال الإدارى والمالى فى سبتمبر ١٨٧٠م. حين صدر الأمر العالى بإجراء أعمال حسابات المحافظة بها، وإمكان تبادل المخاطبات مع جميع الجهات دون توسط محافظة القناة .

وصارت محافظة الإسماعيلية تابعة لمحافظة بورسعيد منذ يوليو سنة ١٨٧٦م، وأشرف محافظ بورسعيد على محافظة السويس إشرافاً مؤقتاً طبقاً للأمر العالى فى مايو ١٨٧٧م. وفى أوائل سبتمبر ١٨٧٩م اتسعت دائرة المحافظة ذاتها لتشمل بالإضافة إلى قرية العرب وضواحي المدينة - مثل بر الإنجليز والبر الشرقى وغيرها - محطة الذهبية المعروفة برأس العش والقنطرة وتوابعها والمحطات من أرقام ٢٤ حتى ٢٤، والمحطات التى كانت تابعة لمحافظة الإسماعيلية، أما أشتوم (بوغاز) الجميل فكان يتبع مصلحة المطرية وصحة دمياط(١٤) .

وحتى سنة ١٩٢٧م. كانت بورسعيد تضم قسمين اثنين هما الإفرنج والعرب، وضمَّ الأخير منطقة المناخين اللذين سيضمهما فى ٢٤ مارس ١٩٧٥م قسم ثالث تحت مسمى قسم المناخ ، وكذا نشأ قسم للميناء وضم شياخات بورفؤاد والدائرة الجمركية والترسانة(١٥).

وفى أكتوبر ١٩٥٩م. أصبحت بورسعيد محافظة مستقلة بعد إنشاء محافظة

الإسماعيلية وضُم القنطرة إليها بموجب القرار الجمهورى بقانون رقم ٩٤٩ الصادر فى ١٨ أكتوبر ١٩٥٩م (١٦).

وحسب تعداد ١٩٦٠م، أصبح التقسيم الإدارى لبورسعيد كما يلى (١٧):

قسم الشرق: وكان يضم شياختين هما الإفرنج شرق والإفرنج غرب.

قسم العرب: وكان يضم شياخات أبو الحسن - الجامع التوفيقي، الجامع العباسي، القايطي، ومنزّه سعد .

قسم المناخ: ويضم شياخات الجلاء - السراي - المناخ - عدلى .

قسم الميناء: وكان يتكون من شياخات بورفؤاد - الميناء - الجمرك.

وفى سنة ١٩٧٥م. تم تعديل نطاق محافظة بورسعيد بموجب القرار الجمهورى رقم ٦٥١ لعام ١٩٧٥م. وفى ٨ أغسطس ١٩٧٦م. صدر قرار وزير الداخلية رقم ١٦٨٩ يضم الكاب والتينة وما يتبعهما حسيما ورد بالقرار الجمهورى رقم ٦٥١ لسنة ١٩٧٥ إلى نطاق شياخة مصطفى حمزة بقسم الشرق فصلاً عن مركز القنطرة محافظة الإسماعيلية (١٨). وأصبح التقسيم الإدارى للمحافظة مقصوراً على ثلاثة أقسام هى (١٩):

قسم الشرق: ويضم شياخات إبراهيم حسنين (الإفرنج شرق سابقاً) مصطفى حمزة (الإفرنج غرب سابقاً) وبورفؤاد.

قسم العرب: ويضم شياخات: أبو الحسن - التوفيقي - العباسي - منزّه سعد.

قسم المناخ: ويضم شياخات الجلاء و السراي والمناخ وعدلى.

وحسب تعداد ١٩٨٠م. كان التقسيم الإدارى للمحافظة كما يلى (٢٠):

قسم الشرق: يضم شياخات: إبراهيم حسين، مصطفى حمزة، مناطق رأس العش، التينة، الكاب الجديدة - الكاب القديم - أم خلف - بحر البقر، وبعض جزر بحيرة المنزلة.

قسم بورفؤاد: بعدما انفصل عن حى الشرق

قسم العرب: ويضم شياخات: أبو الحسن - التوفيقي - العباسي - القايطي

قسم المناخ: ويضم شياخات: الجلاء، السراي، المناخ وضُمّت إليه قرى غرب: الجرابعة، المناصرة، الديبة، وبعض جزر بحيرة المنزلة.

وذلك بالإضافة إلى ميناء بورسعيد .

وفى ١٨ يناير ١٩٧٩م صدر قرار وزير الداخلية رقم ٢٠٢ بإنشاء قسم شرطة بورفؤاد فصلاً عن حى الشرق (٢١).

وفى ١٥ أبريل ١٩٨٦م صدر قرار وزارة الداخلية رقم ١٦٠ بإنشاء قسم شرطة الضواحي، فصلاً عن أقسام العرب والمناخ والشرق وبورفؤاد، يضم بحر البقر والكاب وأم

خلف ورأس العش والتينة والقابوطين والجلاء وجزر بحيرة المنزلة له .
وعن رئيس مجلس الوزراء صدر القرار رقم ١٠٤٤ لسنة ٢٠٠٠م بإنشاء حي الزهور
وضم المناطق السكنية الواقعة غربى شارع عبد الهادى الحديدي وجنوبيه، وكذا قرى
الغرب: الجراية والمناصرة والديبة، حتى الحدود مع دمياط .
وبعد سنتين أى فى سنة ٢٠٠٢م، أصدر رئيس مجلس الوزراء قراره بإنشاء حي
الجنوب فصلاً عن حي الضواحي(٢٢) .
مما سبق يتضح أن بورسعيد تضم الآن سبعة تقسيمات إدارية تحت مسمى أحياء
هى: الشرق (الإفرنج)، العرب، بورفؤاد، المناخ، الزهور، الضواحي، والجنوب.
وقد يعطيك ذكر مسميات بعض المناطق السكنية الشعبية التى أضيفت إلى خطوط
التنظيم فى المدينة القديمة صورة أكثر وضوحاً . وأغلب المناطق السكنية التى سأتذكر لك
أسماءها شعبية حكومية، وقليلها أهلى، وأقل قليلها أهلى أو حكومى فاخر : فمثلاً بعد
حرب ١٩٥٦م واعتباراً من ١٩٥٧م قام عبد اللطيف البغدادى الذى أشرف على وزارة
شئون بورسعيد ببناء ثمانى مناطق سكنية شعبية أخذت الأرقام من (١) حتى (٨)
بالإضافة إلى منطقتى الحرية (مساكن الصيادين) والأمن، ومنها ما تم على ردم جزء
إضافى من بحيرة المنزلة، وكلها حكومى باستثناء المنطقة الثانية تعمير التى خصصت
للأهالى، وكان يوجد بالمنطقة السابعة عدد من العمارات سبق أن أقيمت قبل حرب
١٩٥٦م. : وفيما بعد أقيمت مساكن اللوكس (حكومى فاخر) ومساكن الموظفين، وعقب
العودة من التهجير القسرى بعد انتهاء حرب ١٩٧٣ وذلك فى سنة ١٩٧٤ تم بناء الكثير
من المساكن الشعبية فى أنحاء الأحياء المختلفة مثل: ناصر، السلام، السلام الجديد،
السلام تملك، منطقة التصنيع، ٦ أكتوبر، العاشر من رمضان، النهضة، أرض اللاسلكى،
اللتش، مشروع الأمل، أمل الجبل وعلى بن أبى طالب، عثمان بن عفان، عمر بن الخطاب،
عمر بن عبد العزيز، خالد بن الوليد، عمرو بن العاص، بلال بن رباح، الصفا، المروة، زمزم،
فاطمة الزهراء، السيدة نفيسة، السيدة خديجة، السيدة زينب، حرفيين الزهور، أرض
العرب (تعاونيات وأهالى)، الزهور (تعاونيات)، ال ٥٠٠٠ وحدة (تعاونيات)، الجولف
(استثمارى وأهالى)، بنك الإسكان (استثمارى)، والجوهرة (استثمارى)، شباب
الخريجين (تعاونيات)، القابوطين، مساكن الأمل بالشاطىء (أهالى)، ومبارك
(استثمارى)، البويرة (أهالى)، قبضايا (أهالى)، الجوهرة (استثمار) أرض قبضايا
(حكومية وتعاونيات وأهالى) : ومعاشات العاملين بهيئة قناة السويس والبحيرى وشباب
المدينة والأسر الجديدة وأبراج محمد على والعبور والسوق الجديد، والمناطق السبع الأخيرة

تقع فى بورفؤاد.

أغلبها كما ترى مساكن شعبية حكومية موحدة الطرز، ولا تخرج - حتى مع تغير أوصافها ما بين منخفضة التكاليف ومميّزة وطاقة شمسية إلى آخر هذه الأوصاف - عن كونها غاية من المكعبات الإسمنتية تفتقر إلى اللمسات الجمالية التي كانت تتمتع بها مساكن المدينة القديمة، وللأسف فإن المساكن الأهلية الحديثة - بما فيها المساكن التعاونية - ليست سوى أبراج تفتقد لجماليات البناء، أى أنها كتل إسمنتية مشوهة وتتراوح ارتفاعاتها بين عشرة طوابق واثنى عشر طابقاً فى حين أن المساكن القديمة كانت فريدة الجمال، ولم تزد ارتفاعاتها عن ثلاثة وخمسة طوابق، ومساكن عمال شركة القناة لم تزد ارتفاعها عن طابق واحد يعلو الطابق الأرضى، وقد أدى سموق الأبراج إلى قفل السماء فى مناطق تواجدها بعدما كانت بورسعيد كلها تتميز بأنها ذات سماء مفتوحة، ولأن الأبراج - وأغلب المساكن الحديثة المشوهة - قريبة من الساحل فقد أخفت بكثافتها وارتفاعها البحر عن الراغبين فى النظر إليه، بالإضافة إلى تدميرها لمرافق البنية الأساسية التي لم تصمم أصلاً لاستيعاب أحمال هذه الأبراج وغير هذه الأمور من المساوئ الكثير والكثير.

الفصل الثانى

فى شوارع ثلاثة

فى شارع فلسطين (فرانسوا جوزيف - السلطان حسين - شكرى القوتلى):
مادمتا ما نزال فوق قمة القنار، والوقت ما يزال نهائراً، ولأن الإشراف على هذه
البانوراما المشهدة العريضة ما يزال أمراً متاحاً، فاسمح لى بأن أشير إلى بعض الأبنية
الظاهرة لنا الآن فى موقعنا هذا وبعض البعيد المتناهى . ولنبدأ بالأقرب، وليس أقرب إلينا
من شارع فرانسوا جوزيف (فلسطين) فهذا هو يمتد أسفل منا من ناحية الشرق.

تاج محل بورسعيد:

أرسل ببصرك جنوباً سترى المبنى الذى أصبح رمزاً لقناة السويس ويكاد يضارع -
على الأقل فى نظرى - رسوخ وجمال قصر تاج محل . صحيح أن مساحته أقل، وجدرانه
ليست من المرمز، ولا تحيط به الحدائق الغناء نوات الزهور، ونوافذه وأعمدته البيضاء
وشرفاته المتناسقة أقل، لكنه بطرازه الإسلامى وقبابه اللازوردية وأعمدته وعقوده
وفسيفسائه الدقيقة يبهج نفس كل ناظر... المقيم والعاير.

إنه الأثر الأشهر فى بورسعيد، وبنائه يعود إلى تسعينيات القرن التاسع عشر، فقد
وُضع الأساس فى سنة ١٨٩٣م، ليكون مبنى لإدارة شركة القناة، وصمم بحيث يشمل فيما
يشمل مكاتب الخزينة ومكاتب الإدارة ، وأثناء بناء هذه القباب الجميلة مات فى أقل من
عام سبعة عمال بسبب تساقط الحجارة عليهم، منهم الإيطالى فالنتينو . والمبنى محاط

بالماء من ثلاثة أوجه، من الشرق مياه القناة ومن الشمال مياه حوض التجارة ومن الجنوب مياه حوض الترسانة وشريف، أما من ناحية الغرب - حيث الباب الرئيسي - فالمبنى يطل على شارع واجهورن (مصطفى كامل) عند تقاطعه مع شارع السلطان عثمان (الجمهورية). وشرع في تجديده سنة ١٩٢٥م وانتهى التجديد في سنة ١٩٢٦م. وقد دخل هذا المبنى كثيرون من حكام مصر ودول العالم منهم الملك جورج الخامس والخبير عباس وجوزيف مارشال تيتو وجمال عبد الناصر وأثور السادات وغيرهم كثير كما اتخذ منه استكمال قائد القوات المعتدية على بورسعيد سنة ١٩٥٦م. مقرأ له. وفي يوم الخميس من ديسمبر ١٩٥٦م، تسلمت قوات الأمم المتحدة هذا المبنى وأنزل العلم البريطاني والفرنسي من فوقه وقصف المبنى عبر الجو خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ وأعيد ترميمه (٢٣).

دار بوليس الميناء:

وفي مواجهة من ناحية الشمال خارج سور حوض التجارة أي عند أول نقطة في شارع فرانسوا جوزيف (فلسطين) وعند التقائه ببداية شارع دى ليسبس (سعد زغلول) تجد مبنى قسم الميناء (دار بوليس الميناء)، وقد شيد في الثلاثينيات من القرن العشرين وبالتحديد بعد سنة ١٩٢٢م، على أنقاض مبنى الجمر القديم الذي نقلت مكاتبه إلى مكان يطل على بحيرة الترسانة. ومبنى بوليس الميناء يتضمن أيضاً مكتب جوازات الميناء، وفي أعلاه برج لمراقبة دخول البواخر للميناء، وكما تراه هو الآن في حلة قشبية لأنه خضع للترميم ودشن بعد هذا الترميم في عيد الشرطة (٢٥ يناير) سنة ٢٠٠٣م.

محلات وشركات وسبيل:

وإن أرسلت بصرك إلى الشمال رأيت في نفس الصف - صف قسم شرطة الميناء وصفنا - عمارة المساجرية قائمة ما تزال. وهي وغيرها من عمارات هذا الشارع عامرة منذ نشأتها بمحلات بيع الأنتيكات للسائحين الأجانب - وهذا هو محل سيمون أرزت الذي ظل لفترة أكبر مركز تجارى ببورسعيد - والشارع محتشد بمكاتب شركات التوكيلات الملاحية، وأشهرها مبنى شركة القناة للتوكيلات الملاحية الضخم، وشركات الشحن والتفريغ، والخدمات الملاحية والسياحية، كما شغلت الشركة المصرية للاتصالات هذا المكان الفريد على ناصية الشارع مع شارع صافية زغلول بعد إعادة بنائه، وكان يخص ترنزيو مندوب شركة اللويدز النمساوية وعليه كان منزله، ثم انتقلت ملكيته لشركة التلغراف الإنجليزية Eastern Telegraph co.، وقد قصفت الطائرات المقيمة في الحرب العالمية الثانية هذا

المكان كما قُصِف بضربة مباشرة في حرب أكتوبر ١٩٧٣م (٢٤).

وعند تقاطع الشارع مع شارع أوجيني وعلى رصيف الميناء وبالقرب من الباب رقم (٨) كان يوجد تمثال صغير شهير للملكة فيكتوريا (١٨١٩م - ١٩٠١م) فقد أبى البريطانيون إلا أن ينصبوه في هذا المكان رمزاً لتواجدهم في منطقة القناة. وقد اشتملت قاعدته على أربعة تماثيل صغيرة على هيئة أسود تنصب منها المياه الصالحة للشرب ، لذا أطلق العامة على هذا التمثال اسم " سنبل فيكتوريا ". وقد هدم التمثال عقب إلغاء معاهدة ١٩٣٦م. وهناك.. انظر.. فى أقصى الشمال توجد حديقة بورسعيد السياحية التى يطلق عليها اسم حديقة التاريخ، وهى حديقة حديثة أنشئت فى أواخر القرن الماضى ، وكما ترى هى حديقة منسقة بشكل جيد وتلتصق براويتها الشمالية الشرقية، قبالة تمثال صغير جيد التقليد لتحتمس الثالث، نافورة معطلة لعيوب فنية لم تكتشف إلا بعد تنفيذها.

متحف المدينة القومى:

وفى مواجهة الحديقة متحف بورسعيد القومى الذى يضم مجموعة من الآثار التى تغطى الحضارة المصرية منذ القدم حتى العصر الجديد من الآثار المصرية القديمة . به عدد من الأواني الفخارية يرجع عمرها إلى ٦ آلاف سنة قبل الميلاد، وكذا رأس الملك منقورع مصنوعاً من الألباستر، ورأس الملكة حتشبسوت بشكل أبى الهول، ومجموعة من التوابيت المهمة، ومن آثار العصر الحديث به الأدوات التى كانت تستخدمها أسرة محمد على، ونموذج رائع لواحدة من العربات التى كان أفراد هذه الأسرة يستخدمونها فى تنقلاتهم. وإزاء الشروع التى ظهرت على جدرانها (٢٥)، فإنه يجرى حالياً الإعداد لمشروع تطويره وتوسعته بهدف إدراجه بخطة ٢٠٠٦ - ٢٠٠٧م. بتكلفة ٢٠ مليون جنيه، بحيث يشتمل إلى جانب قاعات العرض المتحفى، على معامل وغرف للترميم والأمن والمراقبة، وغرف للمولدات والمحولات الكهربائية، ومكتبة ومخزن وكافتيريا وصالونات انتظار، بالإضافة إلى قاعة للهوايات وأخرى للعرض المكشوف . ومنحدرات للمقعدين من ذوى الاحتياجات الخاصة، وكذا تجهيز حديقتين متحفيتين : الأولى أمام المتحف والثانية يحتويها فناءه الداخلى (٢٦) . وللأسف فإن هذا المتحف الذى ينفرد بكونه الوحيد من بين المتاحف الذى يتواجد - حسب علمى - فى منطقة التماس مع قارات ثلاثة هى إفريقيا وأسيا وأوروبا، أفسدته الأبراج السكنية، فالمشهد الذى يُفترض أن المتحف يمثل بؤرته، حوصر بالعمارات الشاهقة التى أظهرته بمظهر القزم المستذل أمام جيروت الأسمنت والألومنيوم.

فندق وكازينو بالاس:

وقد رأت مصممة حديقة التاريخ، د.م. دليلة الكرداوى، أن يكون تنسيقها ذا دلالات رمزية تنكس على التاريخ الوطنى فزودتها برموز وموتيفات تدل على هذا التاريخ وتشير إليه، لكن جهة الإدارة رأت أن تغلقها خشية أن يدمرها الأطفال.

فى مكان هذه الحديقة كان يوجد مبنى فندق وكازينو بالاس المملوك لعائلة سيمونينى الإيطالية . وكان سيلفيو سيمونينى قد أقام هذا البناء فى الأرض التى استأجرها من شركة القناة بعد هدم السلخانة التى كانت تشغلها (من سنة ١٨٨٥م حتى سنة ١٩٠٠م). وعائلة سيمونينى هى إحدى العائلات التى هاجرت إلى بورسعيد مع مطلع القرن التاسع عشر وعاشت فى الشوارع الخلفية للحى الإفرنجى وكانت تدير فندقاً متواضعاً ثم يوماً وراء آخر نقلت مواقعها إلى شارع الميناء وأصبحت وكيل أكبر شركات السفن الإيطالية(٢٧). وفندق وكازينو بالاس هذا كان أول مبنى يضاف عيون القادمين بالبواخر من المدخل الشمالى للقناة . واجهته الشمالية كانت تطل على البحر مباشرة، وكانت هناك صخور قد وضعت فى هذه الواجهة كمصدات للموج، ولما انحسر البحر وأهدى المدينة قطعة أرض قبالة الكازينو، احتلتها طابية السلام وكانت بطايرتها تطلق ٢١ طلقة تحية لأية سفينة حربية تدخل الميناء أو تمر بالقناة. وحدث فى سنة ١٩٥٦م، عند جلاء القوات المعتدية، أن رفعت قبل انسحابها الرايتين الإنجليزية والفرنسية أعلى سارية الطابية، وحتى يظلا مرفوعين فى مكانهما أطول فترة ممكنة قامت هذه القوات بطلاء الصارى بطبقة سميكة من الشمع تحول دون تسلقه، إلا أن فدائياً أسمه سعيد الضو - لسمرته الشديدة كان الأنجليز يطلقون عليه لقب الجن الأسود - تمكن من تسلق الصارى وانتزاع العلمين وتطيخهما بالشمع الذى كان على الصارى ثم حرقهما. وقد حكى لى هو ونفر من الفدائيين، بقدر كبير من المראה، كيف أن المخابرات المصرية أخذت تستجوبه استجواباً مؤلماً حول علاقته باليساريين الذين أدخلهم إلى المدينة أثناء العدوان عبر مسارب غير معروفة وأخفاهم وأسلحتهم بمنطقة القايطى، نفس الأمر فعلة رجل مسن (٦٥ سنة) اسمه أحمد الكومى بنزعه العلم الإنجليزي من فوق سارية مماثلة فى نفس المكان ورفع بدلاً منه العلم المصرى لتتزامن الأقدام تدوس علم المنشعبين.

تعود إلى فندق وكازينو بالاس، فقد شهد أقراها وحفلات ومآتب كثيرة، وحلت فيه شخصيات عظيمة الشأن عديدة، شخصيات ملوك وأمراء ورؤساء مجالس وزارات ووزراء وزعماء يشار إليهما بالبنان . وممن حل به سعد زغلول ومصطفى النحاس وحافظ إبراهيم والزعيم الهندى جواهر لال نهرو . وفى الخمسينيات من القرن الفائت كنا دائمى

الانجذاب إلى هذا المبنى، وكما حاولنا اختراقه، فإذا كانت واجهته الشمالية تطل على الطابية، فإن نوافذه الخلفية كانت تطل على حديقة وأصف باشا (نسبة إلى المحافظ حسين وأصف باشا) الذي أنشأها، وكان في هذه الحديقة حوض للأسماك يحتل جهتها الغربية . هذا كل ما أمكنني وأقراني الفوز به من محاولات الاختراق، لذا كنتُ وهم نتلصص على المرقص المزدهم بالغواني وقباطنة السفن وبهارتها ... فقط نتلصص .

نُصب القتلى الأجنبي :

إلى جوار الحديقة والفندق أقيم نصب تذكاري لتخليد قتلى الحرب العالمية الأولى من الاستراليين والنيوزلنديين الذين مروا ببورسعيد في طريقهم إلى الدردنيل فيما بين سنة ١٩١٦م وسنة ١٩١٨م(٢٨). وكان الميجور هدسن من الجيش الاسترالي قد تقدم بطلب أوضح فيه رغبة جيش بلاده في إقامة تمثال يخلد جنوده الذين ماتوا أثناء الدفاع عن القناة وشبه جزيرة سيناء(٢٩).

وفي ٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ رُفِع الستار عن تمثال الجنود الاستراليين والنيوزلنديين المشتركين في الحرب العالمية الأولى وحضر هذا الحفل بالإضافة إلى المندوب السامي البريطاني، السير بيرس لورين رئيس الوزراء الاسترالي السابق، والمستر هيوز ورئيس الجيش البريطاني في مصر ورئيس الوزراء المصري إسماعيل صدقي باشا وسعيد ذو الفقار باشا موفداً من قبل الملك فؤاد، وقناصل الدول، وكثير من سكان المدن(٣٠).

وقد دمر المواطنون عقب انتهاء حرب ١٩٥٦م هذا التمثال، وبالتحديد بعد ثلاثة أيام من انسحاب آخر فلول المعتدين، أي في السادس والعشرين من ديسمبر ١٩٥٦م، في البداية كانوا سينسفون التمثال بالديناميت، إلا أنهم عدلوا عن ذلك لتلا يؤثر الانفجار على المباني المحيطة بالتمثال وفي مقدمتها مبنى فندق وكازينو بالاس، ومن ثم استخدموا ما وصل إلى أيديهم من أدوات، واستغرق منهم الهدم وقتاً طويلاً، وحتى ظهر ذلك اليوم لم يكن قد تم هدم سوى نصف التمثال (٣١) ولم يتم الإجهاز عليه كاملاً إلا في اليوم الثامن والعشرين من نفس الشهر، وفور هدمه تم رفع علم التحرير فوق قاعدته(٣٢).

ميناء الصيد ومارينتا الليخوت:

وبعد المتحف يوجد المُجمَع التجاري العصري وفندق سونيستا السياحي وغابة من العمائر السكنية العالية وجميعها توجد فوق المكان الذي كان يحوى الطابية والمحطة العسكرية. وإلى الشمال من هذا كله ميناء الصيد الذي أنشئ- وفقاً لرواية ضياء الدين القاضي- في عهد المحافظ عبد الهادي غزالي بك بناء على إحدى مواد اتفاقية ٧ مارس ١٩٤٩ المبرمة بين الحكومة المصرية وشركة قناة السويس العالمية وكانت قد تعهدت في

نطاق البرنامج السابغ للأعمال الكبرى بمنطقة القنال بإنشاء حوض خاص لرسو مراكب الصيد بمساحة ٤٤٠ متراً طولاً و ١٧٥ متراً (٣٣).

ومع هذا، فإن كل من هم من أبناء جيلى يعلم أن مراكب الصيد كانت ترسو فى مدخل قناة السويس إلى يمين رصيف دى ليسبس، داخل القناة، حتى عام ١٩٥٧م؛ وكان رسوها هذا يتيح لنا متابعة الطقوس التى يمارسها الصيادون عند إقلاعهم أو رسوهم، وكذا أساليبهم فى شد وتنفيذ وجمع ورتق الشباك، وإزالة السمك إلى الرصيف وتحمله على العربات التى كانت وقتها تجرها الخيول والحمير.. وكنت وكثيرون غيرى نستمتع أياً استمتع بسماع أغانيهم أثناء ممارستهم لأعمالهم على الرغم من أجواء الاضطراب التى كانت تحدثها حركة مراكبهم فى الميناء عند مرور السفن والبواخر العابرة، وهناك تسجيلات فوتوغرافية وفيلمية رصدت هذا..

وما نعرفه أنه أصبح للصيادين ميناء ترسو فيه مراكبهم بشكل منظم بعد التجهيزات التى أقيمت فى عهد جمال عبد الناصر عام ١٩٥٧م، فأتاحت لمراكبهم أربعة أحواض المساحة البحرية لكل حوض منها ٤٠٠٤٠ م، أما المساحة البرية فتبلغ ٦٠ عرضاً × ١١٥٠م طولاً، وأن العمق بلغ ٩ أمتار، وزود الميناء - فيما بعد - بمنارين يعملان بالطاقة الشمسية، وقد أتاحت هذه التجهيزات لنحو ٢٠٠ مركب صيد ألى تتراوح قدراتها بين ١٠ حصان و ٤٢٥ حصان الدخول إلى هذا الميناء، كما يسرت تموينها بالوقود والتلوج والأطعمة والوقود وأتاحت لجهة الإدارة، التى آلت منذ سنة ١٩٨٨م إلى الهيئة العامة للثروة السمكية، إجراءات التفتيش البحرى لضمان سلامة المراكب وصلاحياتها للإبحار؛ إلا أن يد الإهمال ما لبثت أن طالت هذا الميناء، وقد استتبع هذا الإهمال إجراء بعض الإصلاحات من حيث تنظيف بعض الأحواض وتعميقها وتجديد محطات الوقود وإنشاء وحدة لصناعة الثلج لكنها لم تكن كافية. وما هى جهة الإدارة تدرس نقل هذا الميناء إلى مكان آخر و تخصيص جزء من أرضيته لمشروع سياحى كبير، هو مشروع إنشاء مارينا اليخوت (٣٤). وأعلن - بما يعنى أن دراسات المشروع قد تمت - أن المساحة المخصصة للمارينا تبلغ ١٢٠٠٠متر مربع وأنها تستوعب ٥٠٠ يخت (٣٥). ولما كانت جهة الإدارة لم تحدد المكان البديل لرسو مراكب الصيد، كما امتنعت عن عرض نتائج دراسات الجدوى للمشروع - مما استدعى الشك فى قيامها بإجراء هذه الدراسات - فضلاً عما يمثله الاستيلاء على هذا الميناء لصالح الأثرياء من عنت للصيادين، فقد قمت أنا محدثك باستهجان ما أقدمت عليه جهة الإدارة (٣٦)، فسكتت عنه، لكنها أعادت طرحه بعد نحو عشرين سنة بعدما حددت المكان البديل للصيادين ومراكبهم.

رصيف وقاعدة وتمثال:

وفى مواجهة المتحف والمجمع التجارى العصرى والفندق، الموجودة الآن، حتى ميناء الصيد يمتد رصيف دى ليسبس الذى ينتهى بقاعدة تمثال دى ليسبس الخالية . والرصيف والقاعدة اليوم غيرهما بالأمس. فلم يكن الرصيف بالشكل الذى هو عليه الآن فقد كان عبارة عن حاجز للأمواج وحام للقناة من الرواسب البحرية التى كان أغلبها من طمي النيل، وتم تجميل هذا الحاجز بعمل فتحات أسفل منه ليمر الماء بين البحر والقناة من خلالها، كما عمل له سوران حجران قصيران ليتحيا أماكن لجلوس من يتنزهون فوق اللسان، وذلك قبل يوم ١٧ نوفمبر ١٨٩٩م، تاريخ احتفال شركة القناة بالعيد الثلاثين لافتتاح القناة وإزاحة الستار عن تمثال دى ليسبس الضخم، وبعد أن كان مجرد حاجز غير منتظم للأمواج صنع بالصخور التى استجلبت من المكس أو بتلك التى صنعها المقاول ديسو، أصبح ممشى للمتريضين، ومقاول إيطالى هو الذى قام بهذه العملية. وأوكلت الشركة للمثال الفرنسى عمانويل قريميه أن يصمم تمثالاً تخلد به الشركة دى ليسبس. وقد كان، فحسب دى ليسبس مرتدياً عباءة ورافعاً يده اليمنى داعياً السفن إلى المرور من القناة، ويبيده الأخرى يمسك وثيقة مشرع القناة. وجاء التمثال مفككاً داخل تسعة صناديق على ظهر الباخرة دوق باكنجهام Duc of Bueingham وقد وصل ارتفاع هذا التمثال من سطح البحر حتى نهاية قمته ١٩,٥٢ متر وطول الجسم البرونزى فيه ٧,٥٠ متر (٤٠ سم للقاعدة البرونزية، ٤,٣٠ متر للجزء الأسفل من التمثال، ٢,٨٠ متر للجزء الأعلى من التمثال).

أما القاعدة الحجرية فيبلغ ارتفاعها ١٢,٠٢ متر (٢,٦٢ متر ابتداء من سطح البحر، ٩,٤٠ متر للقاعدة الحجرية الموضوع عليها التمثال، وكان وجه التمثال يطل على الجنوب الشرقى للميناء وعلى القاعدة الحجرية المستديرة وضعت له لوحة برونزية كتب عليها باللاتينية *Aperire Terram Gentibus* ومعناها نفتح الأرض لجميع الدول (٢٧). وشهد حفل إزالة الستار من كبار رجال الحكم فى مصر: الخديو عباس حلمى الثانى والغازى مختار باشا، والبرنسان عمر طوسون وعزيز بك حسن، ومن النظار: رئيس النظار مصطفى فهمى باشا وحسين فخري ويطرس غالى - يطل مذبحه دنشواى ومؤيد مد الامتياز الذى أفرغ فيه الشاب المصرى إبراهيم ناصف الوردانى - سبع رصاصات فى ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠م. - وأحمد مظلوم ومحمد عباس وإبراهيم فؤاد، ومحافظ عموم القناة حسين واصف بك، وغالبية محافظى مصر، ومندوبى الصحافة المصرية، وكبار ضباط الجيش، وجميع أساقفة الكنائس : ومن الأجانب البرنس دارنيرج رئيس مجلس

إدارة شركة القناة السابق وحرمه، وجي. بزيه G.Pzeit رئيس شركة اللويدز، واللورد كرومر المعتمد البريطاني في القطر المصري، ورجال السلك الدبلوماسي، وجميع قناصل الدول الأجنبية في بورسعيد، وكبار ضباط الجيش البريطاني في مصر ومندوبي الصحف الأجنبية (٣٨) .

وفي أوائل ١٩٢٣م، قامت شركة القتال بسد الفتحات أسفل رصيف دي ليسبس بسبب انتقال طمي النيل إلى مجرى قناة السويس عبر موج البحر مما أدى إلى إبطاء أجزاء من القناة خصوصاً تلك المجاورة للرصيف . ولأسباب اقتصادية، حيث أن التكريك المستمر كان يكلف الشركة مالا وجهداً، قامت بسد هذه الفتحات.

ومما يذكر - عزيزي القارئ - أن عملية إنزال جنود ومركبات القوات البريطانية والفرنسية، الآتية من البحر، الغازية لمدينة بورسعيد في حرب ١٩٥٦م، تلك التي عرفت بحرب السويس تمت عند هذا التمثال، وكذلك انسحابهم المخز.

وقدور اندحار القوات المعتدية على بورسعيد " طافت بشوارع بورسعيد مظاهر ضخمة قوامها ١٠ آلاف مواطن وانطلقت إلى ميدان المحطة للاحتفال بيوم النصر يتقدمها السيد/ خالد محيي الدين ومرت بتمثال دي ليسبس ونزعت الأعلام البريطانية والفرنسية وأحرقتها وسط الهتاف بحياة مصر والأحرار " (٣٩). وكان المعتدون قد وضعوا في يد التمثال العلمين الفرنسي والبريطاني، وقاموا بتثبيتهما بلحام الأكسجين، فصعد عدد من المواطنين على سلم وأحرقوا العلمين (٤٠). بعدها اندفعت الجماهير المنتصرة إلى التمثال الذي ظل جاثماً على المدخل الشمالي لقناة السويس ٥٨ عاماً رمزاً للاحتكار والاستغلال والسيطرة الأجنبية، وحاولوا تحطيمه عن طريق سحبه بالحيال، فتقدم من الفدائيين كل من يحيى الشاعر وشقيقه عبد المنعم وحسنى عوض وآخرون والرائد سمير غانم وبدأوا عملية هدم التمثال هائل الضخامة، ونسفوه على ثلاث دفعات في الأولى استعملوا عشرة قوالب من الديناميت، وفي الثانية استعملوا ثمانية عشر قالباً، ولما لم يسقط وضعوا تحته ١٨ قالباً لتسقط الغطسة الأجنبية المجسدة في تمثال دي ليسبس في " صال " ضخم - ماعون عائم يستخدم في شحن وتفريغ السفن بالحمولات المختلفة من البضائع - كان متروكاً بالمصادفة بضفة القناة إلى جوار قاعدة التمثال (٤١)، ومن فورهم اندفع الفدائيون والمواطنون إلى " الصال " قفزاً ووطأوا الحطام بالأقدام . ومن الأمور التي تلفت الانتباه ما قاله لى أحد الذين اشتركوا في تدمير التمثال، هو عبد المنعم الشاعر، وأكد في شهادته أمام المؤتمر العاشر لأدباء إقليم القناة وسيناء الثقافي الذي عقد ببورسعيد احتفالاً باليوبيل الذهبي لانتصارها، من أن القيادة المركزية بالقاهرة وجهت - فيما كان هو ورفاقه

فى طريقهم إلى هدم التمثال - بعدم الهمد لاعتبارات سياسية، ومع هذا واصل الغدانيون سيرهم وهدموا التمثال (٤٢).

وحدث بعد مرور ثلاثين سنة على هذه الواقعة أن التقى بالإسكندرية فى صيف سنة ١٩٨٦م، كل من السفير الفرنسى ويطرس بطرس غالى ومحمد سامى خضير الذى كان يستعد لحلف اليمين الدستورية قبل توليه منصب محافظ بورسعيد، وأصبح السفير الفرنسى فى هذا اللقاء عن رغبة بلاده فى إعادة التمثال، فلما أجابه خضير بأن ما رفع نتيجة فورة شعبية لا يُعاد لموقعه، فأظهر السفير قناعته، إلا أنه ناور وطلب عرض نصفه العلوى على الأقل (!!) أو ليأخذه إلى قرية صاحبه. ورفع خضير تقريراً بهذه الرغبة إلى مؤسسة الرئاسة، ولما كنت حاضراً الاجتماع الذى أثار فيه خضير هذا الموضوع بصفتى الإعلامية صحفياً بجريدة الأهرام المعارضة، وكانت الكتابات المشبوهة الداعية لعودة التمثال إلى قاعدته قد واكبت هذا الاجتماع، فقد نشرت الحقائق التى سردها محافظ المدينة كاملة، ولم أترك مناسبة (مؤتمرات انتخابية، ندوات، أمسيات، ملتقيات) إلا أثرت فيها الأمر، وكان أن ثار جدل كبير، وتدخل كتاب كبار فى القضية منهم على سبيل المثال : رجاء النقاش، كامل زهيرى، د. عبد المغنى سعيد وغيرهم.

وكان عظيمياً يا عزيزى أن التفت كل القوى الوطنية وكثير من أحزاب المعارضة حول الحملة - التى أزعمت أننى كنت أول من أثارها فى بورسعيد - ضد إعادة التمثال إلى قاعدته، مما دفع بمحافظ بورسعيد محمد سامى خضير لأن يعلن فى ديسمبر من نفس العام عن عدم الموافقة على إعادة تمثال دى ليسيس إلى قاعدته : غير أن الكتابات المشبوهة عاودت الظهور سنة ١٩٨٧م. لتخمدتها مواجهات الرافضين، أو هكذا ظننا، لتفاجأ فى سنة ١٩٨٩م. وبعد مرور نحو ٢٣ عاماً على تدميره بمجموعة من الإجراءات العلية المتسارعة أخرجت حطامه من إحدى صالات البضائع حيث كان مرسوياً، وأدخلته ترسانة بورفؤاد البحرية، لتبدأ على الفور عمليات ترميمه تحت إشراف الفرنسى " ديفيد بوجوان " المتخصص فى الآثار المعدنية، وإذا بالشدائد تُرفع حول القاعدة الخالية، وبدأت الاستعدادات لجعل إعادة التمثال إلى قاعدته أمراً واقعاً، وقيل وقتها إن التكاليف بلغت ٢٠ ألف دولار ساهمت فيها بعض الشركات الفرنسية مع المركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة وهيئة قناة السويس وبعض البنوك . حُدد للانتهاء من عملية الترميم ١٤ شهراً ، لكن جهة ما غير معلومة قررت إعادته فى أقل من ذلك وخفضت المدة إلى ٩ أو ١٠ شهور على الأكثر(٤٣).

وإزاء غضبة القوى الوطنية أكد محمد عزت عادل رئيس هيئة قناة السويس وقتها نفيه

لآية علاقة بين الهيئة والتمثال وقال إنه ليس للهيئة دخل بالأمر سوى أن بقاياه موجودة في مخازنها، وألقى بالمسئولية على المحافظة. وبلغ من قوة الموقف الوطني في هذه السنة أن صرح دبلوماسي فرنسي بأنه يخشى من إعادة التمثال إلى مكانه، ويخشى على العلاقات بين مصر وفرنسا، ويخشى أن يوضع التمثال على الرغم من إرادة الشعب فيقوم بعض الوطنيين بهدمه مره أخرى (٤٤).

وبالفعل كان السيد عسران، أحد أشهر فدائيي بورسعيد سنة ١٩٥٦م، قد أعلن أنه وبعض الوطنيين سوف يقومون بتدمير التمثال إن أعيد إلى مدخل قناة السويس.

عندئذ مارست فرنسا بعض أساليب الضغط المعتادة عليها تنفع، فربطت بين إعادة التمثال وتمويل مَجْمَع الإبداع الدولي داخل المدينة، لكن الرفض الوطني من متقفي المدينة لعودة التمثال كان قاطعاً فأعيد التمثال إلى مخازن هيئة قناة السويس وأزيلت الشدات التي أقيمت حول القاعدة، ومن ثم سحبت فرنسا اقتراحها بالتمويل.

ولعله أطول سيناريو يمكن كتابته لقضية ما، ففي عام ١٩٩٦م. أتى بعد نحو أربعين عاماً عاد دعاة التبعية ومعهم ذريعة جديدة بعدما فشلت الزرائع التاريخية والسياحية، فهدم التمثال يعد هو أيضاً تاريخاً، واختزال مقومات السياحة في تمثال هو نوع من الاستهانة بقدرات رجل الشارع قبل المثقف . والذريعة الجديدة هي التجميل في إطار التجديدات التي شملت كل ما هو قريب من رصيف دى ليسبس وقاعدته . هذه المرة تشكلت لأول مرة " اللجنة الوطنية لمقاومة إعادة تمثال دى ليسبس عند مدخل القناة "؛ وأثيرت القضية تحت قبة البرلمان وكان أن أعلن مصطفى صادق محافظ بورسعيد براءته من الموضوع، وأنه لا يفكر في إعادة التمثال إلى القاعدة الخالية. أكثر من هذا أصدر توجيهاً بتصميم تمثال مصري لوضعه على القاعدة الخالية، وأخطر مدير أشغال هيئة قناة السويس بهذا التوجيه مرتين أولاهما بتاريخ ٢٤ يناير ١٩٩٦م. والثانية بتاريخ ٩ ديسمبر ١٩٩٦م.

وراء هذا وفي سنة ١٩٩٨م. قدّمت الحكومة الفرنسية طلباً رسمياً للحكومة المصرية طالبت فيه باسترداد التمثال الحائر طالما لم تتم إعادته إلى موضعه الأصلي بمدخل القناة، وبما أنه أحد مواطنيها فمن ثم من حقها استرداده، إلا أن الحكومة المصرية ردت على هذا الطلب برفض رد التمثال لأنه يمثل أثراً تاريخياً مصرياً لا يجوز لأي دولة المطالبة به لأي سبب، وكان هذا القرار ثمرة جدل ثار بالمدينة حول هذا الطلب (٤٥).

وفي سنة ١٩٩٩م. وبمناسبة تسليم مكتبة الإسكندرية صور وثائق شركة قناة السويس قبل وبعد الحفر، زار بورسعيد وفد من جمعية أصدقاء دى ليسبس الفرنسية، ضمن

زيارتها لمحافظة أخرى، وأثار رئيس الجمعية " جان بول كالون " في الحوار الذي أجرتة " جريدة أخبار اليوم " وكان موضوعه تمثال دى ليسبس، وقد أيدت الجريدة في هذا الحوار تعاطفاً غريباً بهذا الخصوص وأفردت للحوار صفحة كاملة ووضعت له عناوين مريحة لفرنسا، من نوع " كان دى ليسبس يعشق مصر . وفرنسا تتمنى عودة تمثاله لمكان لائق " وفي هذا الحوار عبر " كالون " عن تفهم رفض أهالي بورسعيد لإعادة التمثال بعد تحطيمه وقال بالحرف " نحن نعرف أن عودته إلى قاعدته في بورسعيد ربما تكون استفزازاً بعد تحطيمه بعد التأميم " ؛ والصحيح هو أن التحطيم تم نتيجة العدوان الفرنسي الإنجليزي وليس عقب التأميم، ولم يفت كالون أن يطالب بوضع التمثال في مكان يليق به وليكن بالإسماعيلية (!!). وكأنه الكيوسين يسكب على نار هى متأججة أصلاً نشط المثقفون للرد على " كالون " والجريدة ومن لف لفهما(٤٦).

وفي سنة ٢٠٠١م. حدثت حركة الثقافة جديدة أسبغ عليها رداء العلم باستقصاء قام به المعهد العالي للخدمة الاجتماعية ببورسعيد وحرس المعهد على تدوين ما يفيد أن هذا الاستقصاء إنما يتم بالتعاون مع محافظة بورسعيد، وذلك على استمارة الاستقصاء. وتضمنت الاستمارة عدداً من الأسئلة أبسط ما يقال بشأنها أنها أسئلة موجبة ومنحازة لعودة التمثال صيغت بطريقة مراوغة تستهدف خداع المستقصى منهم بربطها إعادة التمثال بالسياحة وبمعاني الوفاء، باعتبار أن دى ليسبس هو صاحب فكرة شق قناة السويس ؛ وقمت بنقد هذه المحاولة فاضحاً اختيار القائمين عليها واقتادها لأبسط قواعد العلمية، وأزعم أن ما نشرته بهذا الخصوص قد ساهم في إبطال هذه المحاولة(٤٧). وما يذكر مشفوعاً بالاحترام رفض رئيس جمعية تنمية الثقافة المصرية الفرنسية، الدكتور ريمون الطويل، لإعادة التمثال إلى القاعدة وإعلانه لهذا الرفض أمام اجتماع حاشد انعقد خصيصاً ببنى المجلس الشعبى المحلى للمحافظة لمناقشة هذه القضية - ونقله تليفزيون القناة الرابعة يوم الاثنين ٢ يوليو ١٠٠٢م. عبر برنامج (تحت الأضواء) - وقوله إننا إذا كنا نشجع الثقافة الفرنسية فنحن لسنا عملاء لفرنسا، وإنه لا يعلم عن تمثال أسقط عن قاعدته فى أى مكان بالعالم وأعيد إلى القاعدة التى كان يرتكز عليها، وإن إعادة هذا التمثال لا تمثل أية أهمية سياحية، وإذا كنا نريد أن نفتخر بالشخص الذى حفر القناة فلا بد من وضع تمثال الفلاح المصرى مكان التمثال المدمر، وأشار إلى مشروع بارتولدى ورفض أسرة محمد على له لأنهم لم يتصوروا وضع تمثال فلاح عند مدخل القناة.

وعادت جريدة أخبار اليوم - بإصرار غريب - فاثارت موضوع إعادة التمثال مرات

أخرى في أكثر من عدد بمائتين عريضة تتصدر ليس فقط الصفحات الكاملة التي خصصتها لحملتها داخل الجريدة، وإنما تصدرت أيضاً صفحتها الأولى ومن هذه المانشات: "دى ليسبس يحلم بالعودة إلى بورسعيد"، "ديليسبس صانع شريان الحياة في مصر يحلم بالعودة لقناة السويس"، و"المحافظ: ديليسبس يستحق التكريم لأنه حقق حلمًا عظيمًا للمصريين"، "أبناء المدينة الحرة: التمثال رمز حضارى وعودته يؤدى لرواج اقتصادى وسياسى"، "المثقفون: يجب احترام التاريخ وإعادة التمثال ليست دعوة للاحتلال"، و"احتلال الشعب يكون بالجنود وليس بالتماثيل". وأُفردت للموضوع الصفحتين المتقابلتين بالجريدة (الذيل) - داخل العدد الصادر في يوليو ٢٠٠٣م. - ولاحظ كثيرون أنها قرّمت في المقابل آراء المعارضين - ومنهم محدثك يا عزيزي - واختزلتها إلى أدنى حد ممكن، وكان ترتيب الحقيقة هو ديين ما نشرته الجريدة لتطابق هوى رئيس تحرير الجريدة وقتها (٤٨).

ولا تزال قاعدة التمثال الحجرية الخالية تثير الجدل على الرغم من مرور نحو ٥٠ عاماً على تحطيم التمثال الذي كان يعلوها . وعلى الرغم من الأصوات التي تنادى بإقامة تمثال للفلاح المصرى الذى حفرها، أو الجندي المصرى الذى دافع عنها، أو المواطن المصرى الذى احتضنها بين جوانحه، أو الزعيم الراحل جمال عبد الناصر الذى أعادها للمصريين فوق هذه القاعدة، فإن أى من المؤسسات المعنية، ومنها مؤسسة الرئاسة، لم تحسم هذا الأمر بما يدعم مطالب الوطنيين.

وأذكر أنه في النصف الثانى من سبعينيات القرن الماضى افتتح السادات معرضاً لتخطيط بورسعيد عام ٢٠٠٠ ضم تصميماً للنصب تجريدى أنشأه عيسى، يوضع فوق القاعدة الخالية، وكان من تصميم المثال صلاح عبد الكريم . وبعد هذا المعرض أعلنت وزارة الثقافة المصرية أكثر من مرة عن اتجاهها نحو شغل القاعدة بتمثال تمجد الروح الوطنى يصممها فنانون مصريون وأجانب. وفي صيف عام ١٩٨٩م. نشرت صحيفة الأهرام خبراً تحت عنوان "أكبر تمثال للمواطن المصرى يمدخل قناة السويس"، وأوضحت من خلاله أن اتفاقاً تم بوزارة الثقافة على إنشاء نصب من تصميم المثال المصرى آدم حنين بارتفاع ثمانية أمتار يمثل المواطن المصرى حاملاً الدرع تعبيراً عن دفاعه عن منجزاته الحضارية(٤٩).

وحدث أيضاً أن حضر المثال الروسى الشهير (سادوفكى أوليج) من مدينة فولجوجراد إلى بورسعيد أكثر من مرة، في آخرها عرض مجموعة من اللوحات ومجسماً للنصب الذى اقترح أن يوضع على بعد كيلو ونصف الكيلو متر شمالى القاعدة الحالية، أى بالقرب من

بداية حاجز الأمواج الغربي، وقد راعى فى تصميمه أن يكون النُصْب ذا وظيفة ورامراً فى نفس الآن، فارتفاعه يبلغ ٧٣ متراً وموقعه المتقدم نحو الشمال يجعل منه أول شىء يراه القادم من البحر، ليبرهن على أن أبناء مصر هم من حفروا القناة وهم حراسها أيضاً. ويتضمن النُصْب فى الدور الأرضى كافيتيريا ومجموعة من المحلات التى تتبع الهدايا وغيرها، وعلى ارتفاع ٥٦ متراً قاعة معركة ١٩٥٦م. تروى قصة البطولة وتلاحم الشعب والجيش معاً فى مواجهة غارات الدول الثلاث، ثم يرتفع البناء إلى ٦٧ متراً ليروى قصة معركة ١٩٦٧م.، التى - على مرارة نتائجها - لا ينبغي أن تسقط من الذاكرة، وعبر المصعد ينتقل الزوار إلى صالة ١٩٧٣م. (قمة النُصْب) لتكون شاهدة على نصر أكتوبر ١٩٧٣م. ومن خلالها تُروى قصص البطولة الرائعة لحرب الست ساعات، وفى أقصى ارتفاع يثبت رمز صغير يعبر عن السلام (٥٠).

وفى مقابل هذه المقترحات والتصميمات ارتفعت أصوات تطالب بالإبقاء على قاعدة التمثال خالية كما هى باعتبارها الأثر الوحيد الباقى، الذى يدل على فترة هى بكل المقاييس من أهم فترات الكفاح الوطنى فى مصر، وباعتبار أن الجدل الذى يثيره بقائها خالية يجعل الذاكرة الوطنية متقدة فلا تخدم، وتنتج للقادمين الذين يثيرون مشهد القاعدة الخالية فرصة للتساؤل عن سر خلوها، فإذا ما حصلوا على الإجابة انطبعت فى أذهانهم صورة ما حدث فى مدينة كانت وظلت مدينة مقاومة.

لكن أين نذهب بالتمثال ؟ .. هل نتركه هكذا فى مخزن من مخازن هيئة قناة السويس؟

أيضاً هذا التخزين أو التشوين ليس فى صالح الذاكرة الوطنية.

لهذا يطالب المعتدلون - واعتبرنى يا عزيزى منهم - بوضع التمثال فى متحف المدينة القومى الملاصق لرصيف دى ليسبس، مع ذكر لظروف إقامته وظروف تخطيطه، و التأكيد على أن دى ليسبس لا ينتمى إلى فرنسا الثقافية وإنما إلى فرنسا الاستعمارية.

وإننى لدهش من أولئك الذين يستهجنون وضع التمثال (أو حطامه) فى متحف المدينة فى حين أن فرنسا تحفظ تمثالين شديدي الضلالة والقصر لفردينان دى ليسبس بمتحفى فرنسا وفرساي، أحدهما، حسبما روى ديفيد بورجوان، طوله ٦٣ سم وهو المحفوظ فى متحف فرنسا، والآخر طوله ٢٠٠ سم وموجود فى متحف فرساي (٥١). ويحضرنى هنا أن ثلاثة من أعضاء المجلس البلدى بباريس طلبوا عقب هدم تمثال فردينان دى ليسبس إقامة تمثال بديل يقام فى باريس عوضاً عن تمثاله المحطم ببورسعيد (٥٢)، إلا أن شوارع باريس خلت لأن من أى تمثال له . إذن فلا توجد فى شوارع وميادين ومداخل قرى ومدن فرنسا كلها تمثال واحد لهذا الفردينان، فلماذا يستصغر الفرنسيون - هم وأشياهم من

المصريين - وضع التمثال أو خطامه داخل متحف المدينة ؟.. ولماذا نكرمه في بلادنا وقد فعل بها الأفاعيل خداعاً، ومماطلة، ونهباً، واستنزافاً، وخيانة؟ .. وبأي منطق نطالب بتجييله وتوقيره واتخاذهُ رمزاً للمدينة التي سام أوائل من سكنوها سوء العذاب؟.. وكيف نكرمه وقد جرده أبناء جلدته من صفته الدبلوماسية، وحكموا عليه في فبراير من سنة ١٨٩٢م. هو وابنه شارل بالسجن والغرامة لقاء ما ارتكباه من جرائم نصب واحتيال وتقديم رشاً ؟(٥٢). ولماذا نذهب بعيداً ؟.. ألم يصفه نائبيهم العام بأنه أكبر محتال في التاريخ؟..

الأسئلة الاستهجانة كثيرة، لكن السؤال الأكثر إلحاحاً، الذي لم نجد إجابة له حتى الآن، يدور حول الأسباب التي تمنع أهل العقد والحل في مصر من ترجمة أمانى الشعب المصرى وحسم قضية القاعدة الخالية والتمثال المحطم لصالح تحقيق هذه الأمانى ؟..

البيت الأبيض الأمريكى:

لا أعرف كيف نسيت أن أريك البيت الأبيض الكائن في ذات الشارع وفي نفس الصف الموجود به الفنار، بل في أقرب منطقته منه . ملامحك توحى بأنك تستوحى صورة البيت الأبيض الأمريكى القائم في واشنطن . D.C. وتحاول الربط بين بياض كل من البيتين. وأراك قد أفلحت. صحيح أنه شتان بين البيتين، لكن البيت الذى يجاورنا أمريكى أيضاً، وكان فيما مضى مقراً لقنصلية الولايات المتحدة الأمريكية في بورسعيد. هو مهجور الآن، لكنه كان فيما مضى يعج بالحركة . وكانت انعكاسات الأحداث البغيضة التي تتسبب فيه سياسات الولايات المتحدة الأمريكية المعادية للعرب تجد صداها هنا أمام وحول هذا البيت، فكم من مظاهرة شاركت فيها، وأنا بعد فتى يافع، أمام هذا المبنى ومن حوله، وكذا أمام وحول القنصلية البريطانية الواقعة أمام حديقة فريال . وحدث ذات مظاهرة اندلعت في الستينيات من القرن الفائت - ولا أذكر سبباً لعدم مشاركتى فيها - أن غضب المتظاهرين ووصل غضبهم إلى مداه فاقتحموا القنصليتين ودمروا وأحرقوا ما فيهما . وعلى الرغم من إزالة آثار حريق البيت الأبيض، فقد انتقلت القنصلية إلى مكان آخر وظل هذا البيت مهجوراً حتى الآن .

الممشى السياحى ومحطة استقبال ركاب السفن:

ولعلك تذكر، قبل أن نستدير ونغادر الشارع والقناة بإبصارنا، ما سبق أن أخبرتك به عن السور الحديدى للميناء الذى أقيم سنة ١٨٩١م.. والكبارى العائمة المكونة من مجموعة من البراطيم التي استخدمت سنة ١٩٢٧م. وعن المظلة التي امتدت بطول الميناء سنة ١٩٥٢م. هذه المعالم اختفت ولم يعد لها وجود كما ترى، فالسور هُدم في نهاية القرن

العشرين، وبالتحديد سنة ١٩٩٧م. وأنشئ بدلاً منه الجسر أو المشى السياحي الذي تراه ممتداً أمامك بامتداد الميناء لأهداف ثلاثة، أولها تجميل المنطقة باعتبارها الواجهة السياحية للمدينة وأول ما يشاهده القادمون من مدخل القناة الشمالى إلى مصر، وثانيها استغلاله كمتنزه للمشاة يتيح لهم رؤية القناة وحركة السفن فيها من منظور علوى، وثالثها إنشاء سوق تجارية محاذية للقناة .

صمم هذا المشى المهندس البارح ابن بورسعيد الدكتور جمال بكري بتمويل محلى من الجهاز التنقيضى للمنطقة الحرة القائم بالمدينة، وقام بتنفيذه جهاز مشروعات الخدمة المدنية بالقوات المسلحة عن طريق الشركة الوطنية للمقاولات العامة والتوريد التابعة له. وقد تم هذا فى إطار خطة جريئة لتطوير الجانب الشمالى من الميناء وشارع فلسطين الملاصق له . والمشى كما ترى يضم عدداً كبيراً من المحلات ليس فقط بالاتجاه الغربى، المثل على شارع فلسطين، ونراه أنا وأنت بوضوح، ولكن أيضاً بالاتجاه الشرقى الذى يدخل فى صميم تكوين الميناء. وقد حُصصت غالبية المحلات المطلة على الميناء وعددها ٢٠٠ محل لتجار البحر والبموطية، بعدما أزيلت صناديقهم التى كانت تزحم رصيف الميناء ومراسى اللنشآت بطريقة قبيحة وفجة، وتقليلها خصص لشرطة الميناء وشرطة السياحة، أما المحلات المطلة على شارع فلسطين وعددها ١٠٠ محل فقد تم شغلها كما ترى بالمطاعم ومحلات بيع الأنتيكات والمطبات والعطور والتليفونات المحمولة وغيرها.

وكما ترى، فإن المشى يحاذى قناة السويس ويمتد بامتداد شارع فلسطين (فرنسوا جوزيف قديماً) ويبدأ من رصيف دى ليسبس شمالاً وينتهى بمرسى معديات بورفؤاد جنوباً ؛ ويبلغ طوله ٨٥٠ متراً، وعرضه ٦ أمتار.

ولأن المشى يضم هذه المحلات لذا فهو مرتفع عن مستوى الشارع وعن سطح القناة بما مقداره أربعة أمتار ونصف المتر . ويقتضى التنزه فوقه صعود سلالم وهبوط سلالم لأنه ليس مشى واحداً، وإنما هو مجموعة من الماشى المنفصلة عن بعضها البعض بسبب ضرورة وجود أبواب الميناء . وقد حافظ مصمم المشى على أماكن الأبواب القديمة للميناء وكذا أرقامها .

وعلى الرغم من جمال المشى المصنوعة وإجهاته من الجرانيت الرمادى إلا أننا نأخذ على مصممه- رحمه الله - عدم توافق طراز وخامات ممشاه وطراز وخامات مشى أو رصيف دى ليسبس، الذى بدأ شديد الانخفاض، مختلف اللون، وتكون من جراء هذا مشهد بصرى يفقد للتجانس. يُضاف إلى هذا أن ارتفاعه متضافراً مع ارتفاع الأبراج السكنية أدى إلى حجب رؤية القناة والسفن - الراسية فيه أو العابرة له - عن المشاة فى

الطريق الملاصقة للميناء أو الطرق القريبة منه أو المؤدية إليه . في حين أن السور القديم ما كان ليحرك من رؤية القناة والسفن الراسية في الميناء والحركة التي تشغو حولها، سواء كنت في أقصى غرب أو جنوب أو شمال المدينة، طالما وجهت بصرك تجاه الشرق ؛ أما الآن فهذا أمر غير ممكن . وأخذ عليه أيضاً أنه مع ارتفاع المشى وتعدد مرات الصعود والهبوط لم يراع ظروف المعاقين بدنياً وكبار السن، فلم يُصمّن تصميمه مصاعد أو حتى زلاجات تمكن الجالسين فوق المقاعد المتحركة الصعود إلى المشى والهبوط منه، وأعجب كيف فاته – وهو المهندس الخبير ذائع الصيت – هذا الأمر . وتأتي جهة الإدارة بعد ذلك فتتمنع لأسباب أمنية وجمركية الصعود إلى المشى في الفترة المسائية لتحرم المواطنين من التمتع بعشدهم القناة وأضوائها التي تتلألأ كل ليلة.

أما المظلة - مظلة اللنشات وقوارب البمبوية - فقد بلغت من الرثاثة حداً ما كان ينبغي أبدأ الصبر عليه، لا سيما أن سقفها صار مونيلاً لنفايات أصحاب اللنشات والقوارب، فكثير فوقه الركاب، وأكل الزمان أجزاء كثيرة منه وشرب، مما أوجب إزالته تماماً . ولتطوير الأداء في الميناء كان ينبغي أن تُرفع الكبارى العائمة وبراطيمها من الخدمة، وأن تستعوض بمراسي خرسانية لتتراكى سفن الركاب عليها مباشرة، وهذا ما حدث، إن مَوَّل الجهاز التنفيذي للمنطقة الحرة إنشاء عدد منها بإشراف الهيئة العامة لميناء بورسعيد، واستتبع هذا التطوير تطويراً آخر في مستوى الخدمة التي تقدم للسياح وركاب السفن الهابطين إلى المدينة، فتم مد رصيف الميناء الشرقي بموازة مشى أو رصيف دي ليسبس حتى قاعدة التمثال الخالية، وتم سنة ٢٠٠٢م، بناء عدد من الوحدات الجمركية والأمنية والسياحية ضمن مشروع عُرف باسم مباني الخدمات السياحية، وقد مثلت هذه المباني في مجموعها محطة لاستقبال ركاب السفن ؛ ومن ثم تغيرت التضاريس الشمالية للميناء فأطلقت عليه جهة الإدارة اسم الميناء السياحي.

في شارع محمود صدقي (أمريكا):

مدرسة العصفوري الإعدادية:

إذا التقطنا من مكاننا فوق الفنار صوب الغرب، فإن أول شارع نراه هو شارع محمود صدقي (أمريكا سابقاً) ومن موقفنا الآن تجده أسفل منا بالضبط . وأمامنا عند تقاطع شارع الطائف شارع محمود صدقي تجد مبنى صغيراً له فناء أيضاً صغير وعلى بوابته لافتة مكتوب عليها مدرسة العصفوري الجديدة هذه المدرسة لها مكانة خاصة عندي فقد تلقيتُ فيها جزءاً من تعليمي الإعدادي في سنوات ما بعد حرب ١٩٥٦ لذا كانت الصداقة بيني وبين الفنار الذي نعتليه عميقة ووطيدة، كنا وقتها نعيش فترة مليئة بالأحداث الجسام،

منها المفصلي، ومنها غير المفصلي، سواء على مستوى العالم أو الأمة العربية أو مصر أو حتى مستوى أنا الشخصى؛ فقد كنتُ في أوج مراهقتي، ويتحنان بالغ تغمرنى الآن ذكريات هذه المرحلة، منها مثلاً تصرفات ناظر مدرستنا الشيخ الطلجي، رجل دين طيب وودود، لكنه كان يفتاظ - ربما لأسباب دينية - كلما رأى شعري الناعم طويلاً ومنسدلاً على جبهتي فينادي على ساعي المدرسة ليأتى بالمقص بئداء صار شهيراً به "أسرع يا بكر أسرع"، ولم يكن بكر يأتى، ولم يحدث أن قص شعري أبداً، وإذا ما شاهد خدوشاً أو قلوباً محفورة تخترقها سهام المحبين في خشب المدرج الذى اجلس إليه في الفصل هتف "هو مال مجوس؟"، ثم يتأدى بكر ليأتى بالخيزرانة، ويتبعها بالعبارة العلامة "أسرع يا بكر أسرع"، وكالعادة لم يكن بكر ليأتى. ولم يحدث أن ضربنى أبداً.

في هذه السن الباكرة كنتُ أكتب لمجلة الحائط، قصصاً مسلسلّة ساذجة، وكان الفنان أحد أبطالى، أدخله في مغامرات عجيبة وأنسج حوله حكايات أعجب، وكان زميلى خالد حجازى يبهجنى بترجمته هذه القصص إلى رسوم كتلك التى تزخر بها مجلات الأطفال المصورة. ومازلت أذكر الأثرع والسيقان والعيون والأفواه التى يضيفها إلى الفنان، فيحول عضو العون هذا إلى كائن يحاكى البشر فى تصرفاتهم؛ ويجعلنى بل يدفعنى إلى أن أوغل فى كتاباتى العجيبة الساذجة عنه.

ومن الحوادث التى يمكن اعتبارها حوادث مفصلية فى حياتى، حادثة كنتُ أنا بطلها فى هذه الفترة وكان عمري وقتها ثلاثة عشر عاماً. حينها كان الخلاف على أشده بين عبد الناصر وعبد الكريم قاسم بسبب موقف الأخير من الكويت، وغيرها من الأسباب، وكان عبد الناصر يُشهرُ بعبد الكريم قاسم تشهيراً عنيفاً، ويصفه بـ "الزعيم الأوحّد" و "قاسم العراق" أو "قاسم العراق". ووقتها لم أكن قد انفتحت على المذاهب والتيارات السياسية انفتاحاً كاملاً، لكن الإعلام المصرى المتمثل فى الراديو والصحف والمجلات كان يهزنى بالحديث عن المصاحف التى يمزّقها عبد الكريم قاسم ويحرقها فى العراق، وكان صوت المذيع أحمد سعيد يجلجل عبر إذاعة صوت العرب وبرنامجهِ الشهير وقتها "أكاذيب وحقائق" مندداً بقاسم العراق؛ ولأن اسمى هو قاسم فقد بدأ الأولاد فى المدرسة يعاكسوننى ولا يتأدوننى بغير قاسم العراق ويستفزوننى بعبارات من نوع "عبد الناصر حايموك".." عبد الناصر حايشفك".." اسكت يا قاسم العراق".." ابعِد يا قاسم العراق".." ولأن عبد الناصر كان معشوقى مثملاً كان معشوق كل الصبيان، ولدرء معاكسات الأولاد قمتُ، لا أعرف كيف، بقيادة أول مظاهرة فى بورسعيد للتدبير بعد الكريم قاسم، فمن هذه المدرسة الصغيرة التى تقع أسفل منا هتفت أثناء الفسحة "يسقط قاسم

العراق " .. يسقط الزعيم الأوحـد " ومن خلفى هتف الأولاد.. وأزحنا عم بكر الساعى عن باب المدرسة وخرجنا نطوف بشوارع المدينة ونُخرج التلاميذ من المدارس التى تواجهنا أثناء مسيرتنا، وعثرنا على نعش فارغ بجوار أحد المنازل فحملناه، وصبرنا نترابـد فى العدد كلما مشينا حتى وصلنا إلى المدرسة الثانوية فرحنا نهتف " أين رجالك يا ثانوية " وخرج رجال الثانوية وصار الحشد رهيباً حتى غطى ميدان الشهداء أمام المحافظة فخرج إلينا المحافظ ومعه رجال كبار خطبوا فينا خطباً حماسية أججت فينا المشاعر فرحنا نهتف بسقوط قاسم العراق وبجياة جمال عبد الناصر . وفى صباح اليوم التالى طلعت علينا الصحف بعناوين مثيرة عن هذه المظاهرة وما أثار دهشتى أن إحدى الصحف كتبت تقول إن بورسعيد مشت فى جنازة صامته احتجاجاً على مواقف عبد الكريم قاسم فى حين أن الصمت كان أبعد ما يكون فى مظاهراتنا .. أقصد مظاهراتى . وفى خريف العمر وقفت أحاسب نفسى .. هل كنت محقاً فيما فعلت وقتها ؟

نادى المسرح:

وعلى مقربة، عند تقاطع شارع النصر بشارع محمود صدقى فى ذات الصف الذى نحن فيه يقع مبنى نادى المسرح ولشاشة هذا المبنى قصة، شأن الكثير من مباني المدينة، ففي سنة ١٩٢٧ تأسست فرقة رمسيس المسرحية، وأزعم أنها من أقدم الفرق المسرحية إن لم تكن الأقدم، وعلى العموم هى ثاني فرقة مسرحية تحمل اسم رمسيس بعد فرقة يوسف بك وهبى الشهيرة وقد ضم هذه الفرقة ناد اسمه النادى الأهلى الذى غير اسمه فيما بعد إلى رمسيس . وحدث أن استقال منها فى سنة ١٩٤٠م. عدد من الأعضاء المنتمين إلى الحزب السعدى وكونوا فريقاً مستقلاً تحت اسم نادى المسرح سنة ١٩٤٠م. وذلك حسب رواية ضياء الدين القاضى عن سنده . وهنا تحضرنى ملحوظة لافتة للانتباه مؤداها أن النادى كان يذكر فى مطبوعاته أنه تأسس سنة ١٩٣٠م. وأحياناً سنة ١٩٣١م. وأخرى سنة ١٩٣٦م. وعلى الرغم من أننى أميل إلى رواية ضياء الدين القاضى فالأمر يقتضى المراجعة الدقيقة التى تتطلب وقتاً.

وقد اتخذ هذا الفريق من مسرح الليرا، الكائن عند تقاطع شارع بنما وفؤاد الأول الجمهورية الآن مقراً له. وفى عام ١٩٥٠م. تمكن الفريق من الحصول على قطعة أرض لإقامة مقر ثابت له، هو هذا المقر، وقد ساهم فى تمويل أعمال البناء المجلس البلدى بعد مناقشته بجلسته المتعقدة الثلاث ٢٣ مايو ١٩٥٠م. كما ساهمت شركة قناة السويس فى التمويل بمقدار الثلث، وهى نسبة أعضاء النادى من العاملين بالشركة. وقد تم الاحتفال بوضع حجر الأساس فى أول أبريل ١٩٥١م. بحضور المحافظ عبد الهادى غزال بك وفى

٢٠ أكتوبر ١٩٥١م. في عنفوان المد الوطني بمنطقة القناة بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦م. تم الاحتفال بافتتاح المبنى . وبسبب تصاعد الأعمال القذائية لم يتمكن المحافظ وحكمदार البوليس من حضور حفل افتتاح فئات المحافظ القائم مقام محمد حسن يحيى وكيل حكمدار البوليس لينوب عنه(٥٤).

وقد ظل هذا المبنى مركز نشاط وإشعاع للثقافة والفن المسرحيين لفترة طويلة، لكن فترات كمنه كانت طويلة أيضاً : وفي أواخر السبعينيات، وبقرار من السيد سرحان محافظ بورسعيد، تم تعيين مجلس إدارة جديد، وقامت المحافظة بتطوير النادي وتأثيثه بعد تجديده تجديداً شاملاً ليستأنف النادي نشاطه المسرحي والثقافي، وفي سنة ١٩٩٤م. تم تجديد المسرح مرة أخرى وافتتحه بعد التجديدات فخر الدين خالد عيده محافظ بورسعيد في الخميس ١٩٩٤/١٢/٢٩ وما لبث النادي أن أنشأ مسرحاً مكشوقاً في حديقته قدمت عليه العروض المسرحية، لكن حدث انقلاب في النادي مضاد للثقافة وتبعته مطالبة مالك قطعة الأرض المجاورة بجزء من حديقة النادي باعتبار أن هذا الجزء يدخل في زمام أرضه وحكمت له المحكمة بأحقاقه فيها ويعددها وربما قبلها أيضاً - توقف النادي عن ممارسة نشاطه المسرحي وانصرف الأعضاء إلى ممارسة أنشطة أخرى كلعب البلياردو وتنس الطاولة والبريدج والشطرنج . ولما حُدث ضاف معاً عن المسرح في بورسعيد، وسيكون لنشاط فرقتي رمسيس ونادى المسرح نصيباً فيما سَأحدثك به.

الكارزا إيتاليا:

والى الشمال من نادى المسرح، حيث يتقاطع شارع عبد السلام سابقاً (عادل طه حالياً) مع شارع محمود صدقى، يقع مبنى كارزا إيتاليا التابع للقنصلية الإيطالية. وهو مبنى عريق حضر افتتاحه سنة ١٩٣٨م. القائد الإيطالى موسوليني، وكان مركزاً إشعاعياً للثقافة الغربية، وكانت تشغل صالته الكبيرة سينما ديانا، وجناحه الغربى كانت تشغله المكتبة الأمريكية، وفي زمن ما بعد الثورة، فى أوقات التوتر السياسى - وما أكثرها - كان ببورسعيد موقعان ثقافيان إذا ما ارتادهما المواطن المصرى كان موضعاً للمراقبة، هذان الموقعان هما سينما ريو التى تعرض الأفلام السوفيتية بالعقار رقم ٦ بشارع الجمهورية، والمكتبة الأمريكية بمبنى كارزا إيتاليا وما لبثت المكتبة الأمريكية أن أغلقت وسينما ديانا أن تعطلت. وطرأت على المبنى حالة من التدهور كبيرة ،لاسيما فى الفترة الممتدة من نسكة ١٩٦٧م. حتى أواسط الثمانيات : إلى أن تم ترميمه وأعيد تخصيصه للعاملين الإيطاليين فى جمهورية مصر العربية، وحضر حفل تدشينه بعد الترميم كل من محمد سامى خضير محافظ بورسعيد وچيوفانى ميلولو سفير إيطاليا لدى مصر، وكان ذلك فى ٢٤ ديسمبر

١٩٨٧م..، فى إطار احتفالات بورسعيد بعيدها القومى الحادى والثلاثين . بعدها استغلت قاعات المبنى كمعارض للفنون التشكيلية والبيئيات، كما عُرض على خشبته مجموعة من المسرحيات، واستضافت هذه الخشبة بعض الفرق المشاركة بالمهرجان المصرى للمسرح التجريبى، إلا أن ارتفاع البرج السكنى الضخم الذى أقيم إلى يمينه أدى إلى تصدعات عطلت العمل به مرة أخرى، ومن وقتها لا يزال المبنى مهجوراً، ولا يملك الناظر إليه إلا أن يتحسر على ما كان يزخر به هذا المبنى من نشاط .

فى شارع الجمهورية (النيل والسلطان عثمان - فؤاد):

عمارة لويس كولوفيتش:

أرسل بصرك إلى الغرب قليلاً وتوقف به عند تقاطع شارعى الجمهورية ٢٢ يوليو أو - على قديمة - شارعى النيل وكثشتر. ها هي تلوح أمامك عمارة من أفضل عمائر المدينة . إنها العمارة رقم ٧٦، عمارة المهندس لويس كولوفيتش المبنية فى أوائل القرن العشرين، تزهو لا تزال بجمال تصميمها وبالناصية المتميزة التى تحطها، وبطوابقها الخمسة وأعمدتها الفخيمة، ويلون جدرانها الأحمر، الأحمر الداكن، لون محتشم يوحى بالرقى والاحترام . انظر إلى تلك الاستدارة الخفيفة عند التقاء واجهتيها .. استدارة رشيقة تزيد المبنى جمالاً، وتضفى عليه انسيابية غير مبالغ فيها. أمامها على الضفة الأخرى من شارع الجمهورية عمارة حديثة البناء، هي عمارة " فلا " بُنيت بعد حرب ١٩٧٣م. بعدة أعوام، فى مكان المحطة العسكرية والقيادة البحرية بعدما نقل منه، ومن قبلهما كان هذا المكان معسكراً للطوبجية . قارن بين العمارتين تجد أن القديمة تبرز الحديثة جمالاً ودقة، وربما متانة .

مبنى البوستان:

وهذا البرج الأبيض الضخم مساحة وعلو الذى تراه بعدما تسحب بصرك باتجاه الجنوب هو البرج الذى شاركت البريد فيه مكاتب التأمينات والمعاشات وجمعية تمويل المشروعات الصغيرة وبعض الشركات والمحلات التجارية . شغل هذا المكان الذى كان يشغله مبنى البوستان القديم الذى وُضع أساسه عام ١٩٠٢م. بحضور محافظ القناة حسين ناصف باشا . كان مبنى حجرى كلاًسيكياً بلون الحجر الجيرى ؛ ولم يكن يرتفع لأكثر من طابق واحد يعلو طابقه الأرضى، ونوافذ الطابق الأول العلوى رأسيه مستطيلة، بينما نوافذ الطابق الأرضى وإن كانت تساوى التى تعلوها فى الاتقاء، إلا أن حدودها العلوية تأخذ شكل العقود ؛ وجميعها متساوq، مع ارتفاع الطابقين، فى هندسة بدبعة تريح البصر وتوحى بالجلال . إن تجاوزت بوابته التى تتوسط واجهته المطلة على شارع

الجمهورية ومررت من بين أعمدتها الضخمة رأيت في الداخل الغناء الجميل النظيف المفتوح على السماء، وطالعك نوافذ تقديم الخدمات البريدية من استلام وتسليم الرسائل والطرد وبيع الطوابع والاستمارات وغيرها من الأنشطة البريدية. ولا أعرف لماذا كنت أستشعر الرهبة كلما دخلت هذا المبنى في صباي وشبابي . ربما عاد الأمر إلى الجلال الذي كان يشع من عمارته . أول مرة دخلت فيها هذا المبنى أحسست بأنني إنما أدخل إلى محكمة . هذا المبنى دمره القصف الإسرائيلي في حرب أكتوبر ١٩٧٣م. وإلى جنوبيه من ناحية شارع بنما الذي أصبح شارع المرحوم محمد موسى فندق " دى لا بوست " بأعمدته وتفاصيله الخشبية الرشيقة ولونه الأبيض الزاهي وطوابقه الثلاثة، بخلاف غرف السطح والمقهى الذي كان يحمل اسم الفندق ثم تحول إلى حلواني طمه. وقد سيطر مبنى البوستان على الشارع فظل لفترة طويلة لا يعرف إلا بشارع البوستان.

البيت الحديد:

استمر في الاتجاه ببصرك جنوباً ستستوقفك قمم مجموعة من الأبراج السكنية المتلاصقة . أرجو أن تتوقف عندها قليلاً .. هنا عند شارع أوجيني ينتهي شارع النيل وبيتدي شارع السلطان عثمان الذي أصبح أيضاً شارع الجمهورية . هذه الأبراج التي تقع إلى الجنوب الغربي من تقاطع شارع الجمهورية بشارع صافية زغول (أوجيني)، بالكاد تم الانتهاء من أعمال تشييدها، تقع جميعها في المربع الذي كان يشغله فندق إيسترن إكسپتشيونج، وما أدراك ما فندق إيسترن إكسپتشيونج. في قناعتى وقناة كثيرين غبرى كان هذا مبنى هذا الفندق تحفة معمارية ذات طابع هندسي فريد، فمادة بنائه الأصلية هي الحديد ومعدن الزهر، أعمدته وكمراته وأقاربه فونداته وشبابيكه - المغطاة بالزجاج - كلها من الحديد ومعدن الزهر. لذلك لم تكن نعرفه بغير اسم واحد لا يتغير هو " البيت الحديد ".

عدد طوابقه ستة طوابق بخلاف الطابق الأرضي والروف . بناه الإنجليز عام ١٨٨٤م. ليكون مركزاً اقتصادياً وتجارياً، لكنه تحول إلى فندق . بالطابق الأرضي من الفندق كنت تجد مقهى راقياً وصالة للموسيقى والرقص وبار وقاعة استقبال وصالة للشاي، ولم يكن يرتاد هذا الفندق سوى عليّة القوم والأشخاص البارزين . في الحرب العالمية الأولى - حسب ضياء الدين القاضى نقلًا عن اليوناني ديمتري خاندوبيس - استولت على المبنى القوات البريطانية، ولم يكن قد صار فندقاً بعد ونُصبت على سطحه مدافع مضادة للطائرات ووضعت فيه محطة راديو لاسلكية لمقاومة الغارات الألمانية التي استهدفت المدينة والميناء .

بعد انتهاء الحرب استأجره المسيو سيلفيو سيمونيني، الإيطالي عمدة أعمال الفندق في بورسعيد، وأدخل عليه عدة تعديلات وصار به حتى جعل له شهرة واسعة، لدرجة أن الفيلك مارشال مونتهجرى حل ضيفاً على هذا الفندق عندما جاء إلى المدينة لينهى حكمدار بوليس القتال ابن بلدته (أُبلت بك) بانتصار الحلفاء على قوات المحور في معركة العلمين (٥٥). وفي الحديقة الخلفية للفندق تأسست سينما إيسترن الصيفية . وكنت أهدى عند مروري بهذا الفندق، وبالسنيما الملحقة به، قراءة الكلمات الإنجليزية الضخمة المثبتة عند الروف أو فوق الفريزات أو فوق الباب الذي يؤدي إلى السينما وتحريك لسانى - . تمتعاً - بما أقرأه، في محاولة منى لتعلم الإنجليزية بمفردات تخرج عن المقرر المدرسى، وكان هذا يسعدنى فإنجليزية المدرسة ليست فيها كلمة ويسكى whisky التي تتضمنها عبارة إعلانية تعلق سطح الفندق، ولا كلمات مماثلة لأسماء الفرق التي ستجنى سهرات الفندق المكتوبة على البانوهات الموجودة أمام الواجهة وفوق الرصيف، لكننى ما لبثت بعد حرب ١٩٥٦م. أن كرهت الإنجليزية ومن يتحدثون بها، كما كرهت بائع التذاكر حينما عزمّت على الدخول إلى سينما إيسترن وجمعت قروشى كلها وقدمتها له، فإذا به يدفعنى بازدياء عن شياكه ويصيح فى " إمش يا شاطر " . كان المبلغ يكفى ثمن التذكرة، وكنت ارتدى ثياباً أنيقة تضارع ثياب أولاد الخواجات وعلية القوم، ومع ذلك صرفنى هذا الرجل بتلك الطريقة المهينة. وفيما كنت أراجع عن الشباك مغتافاً سيطر على إحساس جارف بأن سبب حرمانى من دخول هذه السينما هو كونى من سكان حى العرب، وأن بائع التذاكر اكتشف هذا فخشى على الأجانب والمتفرجين منى . كان هذا قبيل حرب ١٩٥٦م. بأسابيع، وقت أن كان الحضور الأجنبى لا يزال قوياً فى بورسعيد، وكنت قد تجاوزت الحادية عشرة من عمرى بشهور.

أتذكر هذه الحادثة الآن وأعجب من تصرف ذلك الذى طردنى وازدراى لأننى رأيتة فيما بعد يسكن فى عشة صفيحية بواحدة من أفقر المناطق العشوائية بالمدينة وأقصد بها عزبة فاروق التي كانت تقع، هي ومناطق عشوائية أخرى كعزبة النحاس وعزبة الحرية، على مشارف شارع رقم ١٠٠ (البحيرة سابقاً) هذا الشارع الذى كان يحد حى العرب وحى المناخ القديم من ناحية الجنوب . وأرجو أن نتاح لى فرصة الحديث عن هذه العشوائيات فيما بعد.

المهم تم تهشيم هذه التحفة المعمارية الفريدة لصالح نشاط المضاربة، وقامت على الأرض التي كانت عليها هذه الأبراج الأسمنتية، التي تحاول أن تكون جميلة وما هي كذلك. ويقال إن المقاول الذى هدم البيت الحديد وقع على كنز ثمين تمثل فى كمية هائلة من

الكونتنتال الذى كان:

وشمة تحفة معمارية أخرى كانت قائمة فى ذات الشارع وكانت تُستغل أيضاً كفندق راق، وكان يديره كذلك مسيو سيمونيني، واقصد به فندق الكونتنتال الكبير ذا الملامح الكلاسيكية المستقرة . كان هذا الفندق يتكون من ثلاثة طوابق لا غير ويتميز بفرداته المكشوفة الممتدة الاتساع ولم يكن يغرقها نوافذ، وإنما أبواب تؤدي إلى الفردنات وجميع هذه الفردنات سور من الحديد المزركش . وكان هذا الفندق يموج بالحركة الدائمة والزوار من مختلف الجنسيات.

لا وجود لهذا الفندق الآن، ولكن يوجد فندق آخر أخذ منه اسمه وإن الحق صاحبه به صفة تدل على حداثة. إنه فندق الكونتنتال الجديد، وشتان بين طراز معمارى كلاسيكى لمبنى أقيم فى بدايات القرن المنصرم، وآخر حديث لمبنى أقيم فى أخريات ذات القرن . المقارنة بكل أسف لصالح البناء القديم.

فندق أكرى:

لو استمررت فى الاتجاه ببصرك جنوباً حتى نقطة التقاء شارع الجمهورية بشارع الشهيد فريق أول عبد المنعم رياض ستجد مبنى هادئاً رزيناً يمتد جنوباً حتى شارع دجلة يتكون هذا المبنى من أربعة طوابق لا أكثر، ولونه كما ترى أصفر كزهرة عباد الشمس . هذا المبنى الذى يحمل رقم ٢٤ هو مبنى فندق أكرى لأصحابه أخوان نيقولا نديسن . لكنهم لم يعودوا أصحابه، فقد ألت ملكيته لإحدى شركات الاستثمار السياحى، وهى شركة قاهرية وغير معروف تحديداً كيف كان ستستغل الفندق المعطل فى الوقت الحالى .

بنوك ومقام وبارات وملاهي:

وبالشارع كثير من البنوك والمصارف، بل هو شارع البنوك والمصارف، وهو أيضاً شارع التزهات الليلية والمقاهى الراقية والملاهي الليلية الصاخبة .

من البنوك التى زالت ومُحيت: البنك العثمانى (وهو أقدم بنك أقيم فى ببورسعيد إذا أنشئ فرعها بها فى سنة ١٨٦٢م)، بنك كوريلات، بنك الكريدى ليونيه، بنك باركليز، بنك الأنجلو إيجيپشيان، بنك كنتوار ناشيونال دى إسكوت دى باريس، البنك البلجيكي للخارج، بنك دى روما، وبنك يونيان . والموجود حالياً فى هذا الشارع من البنوك : مصر، القاهرة، بيريوس مصر، الأهلى سوسيتيه، الأهلى، المركزى والمصرف العربى الدولى . ومن المقاهى : جيانولا (وهو اسم أول ملاكه وكان سويسرياً إيطالياً) ودى لايبوست وايزاكش (جلال حالياً / مطعم). ومن المقاهى الحديثة التى أقيمت فى هذا الشارع وثالث

شهرة: پاڤاى، وبيتزا بينو.
ومن البارات والملاهى : اسبلنده وسيسل ويلويبرد الذى حل محل مقهى وبار ريتش،
وبعدها بمدة ملهى شهرزاد، وجميعها زال باستثناء سيسل . والبارات كانت كثيرة منها :
نيويار، ماجيستك (بار وكافيه)، بار براديس، التريانون، وغيرها . ولا يوجد منها الآن
سوى سيسل .

الفصل الثالث

وصف المعمار

أنا رهن إشارتك عزيزي القارئ.

صحيح أن ما تطليه قد يبدو عسيراً على غير المتخصص، لكن لدى فيما أزعج ما يمكنني من القيام بالمهمة .

أنت تستفهم عما شاهدته وتشاهده من آيات معمارية ما عادت تتكرر، وتساءل عن التشعب الهائل في الطرز والنماذج التي أمتعت باصريك، وتستفسر عن سر التناغم بين ما يحيط بك من عمائر والبيئة التي زرعت فيها، وكذا حالات التشوُّز العمراني التي أخذت تستشري في ثنايا هذا الجمال، وتريد أن تحصل - فوق الإجابات التي تتوقعها مني - على أفكار أدق وأعمق، وأن تتال شروحاً أكثر وأشمل.

حسناً.

إن أطلب منك إلا أن تتابعني . وإن شئت حدد أنت نقطة البدء، فأجيبك.

حسناً .. ما دمت قد تركت الأمر لي فأسمح لي بأن أبدأ بالعام غير المخصص . ولعلك لا تخالفني الرأي إذا ما حددت الاتجاهات المعمارية الموجودة في بلادنا بأربعة اتجاهات:

* أولها: يحافظ على العناصر المعمارية المحلية ولا يبغي عنها حوّلًا.

* وثانيها: يعيد تشكيل العناصر المعمارية المحلية بتطعيمها بعناصر معمارية غريبة حديثة.

* وشالنها: يبدأ بالعناصر المعمارية الغربية الحديثة ويُطعمها بعناصر تراثية محلية.
* أما رابعها: فيتجاهل كل ما هو محلي ويتبنى النموذج العالمى باعتباره محصلة التقدم المعماري .

ويُفترض في هذه الاتجاهات جميعاً أنها تبنى على أن العمارة هي المأوى أو المُغلف البنائي أو السياج المُشيد من قبل فرد أو مجموعة، وأن المعماري هو كل من شيد مأوى أو مغلفاً بنائياً أو سياجاً يسد حاجة فرد أو جماعة في أى مكان وأى زمان(٥٦).
وطبعاً لن أخوض معك بحور التعريفات التي لا نهاية لها، لكن لتتفق بأن العمارة هي فن وعلم تشييد المباني التي تغطي احتياجات الإنسان المادية (كالسكن والعمل)، والمعنوية (كالراحة والأمان)، وذلك باستخدام مواد وأساليب إنشائية مناسبة.

لن أزيد على هذا إلا في الربط بين العمارة والحضارة باعتبارها ذات تأثير فعال ومستمر ما بقى المبنى المعماري، وأنها - أى العمارة - بهذا المفهوم تشرح تاريخ الأمم، وتعبّر عنه، وتعكس صورة المجتمع عبر مراحلها المختلف، مثلما تعكس صور التغير الذي يطرأ عليه في كل مرحلة من هذه المراحل .

وهذا ما يمكن تبيينه في أنماط وطرز العمارة ببورسعيد.

لا .. لا تتعجل وتقول إنك إنما ترى قطعة خالصة من أوروبا، فيبورسعيد ليست قطعة من أوروبا، وبالمثل هي ليست مدينة مصرية نقية، لأنه - ببساطة - لا عمارة نقية على الإطلاق، هذا هو رأيي : حتى حينما كان البناء يتم بأوراق وجذوع الأشجار، لم يكن هناك - أيضاً - بناء نقى، لأن البناء كان - وما زال وسيظل - معتمداً على الخبرات المتبادلة بين البشر سواء كانوا أفراداً أم شعوباً وأممأ .

وهذا هو حال العمارة في بورسعيد . لذا فهي تعتبر بحق مرآة صادقة لصور الحياة الموجودة بالمدينة منذ نشأتها حتى الآن .

أتعرف لماذا ؟

* أولاً: لأنها ترجمت أفكار المصممين المعماريين ترجمة عملية ملموسة ومرئية.

* ثانياً: لأنها لاقت قبولاً واستيعاباً من المجتمع الذي منحها وطناً للتواجد فيه، وشرفها أفرادها باستخدامهم لها والعيش فيها ومن حولها.

إنه التنوع المعماري إذن الذي يستبعد الاتجاهين الأول والرابع من الاتجاهات التي ذكرتها لك آنفاً، فالمعمار ببورسعيد لا هو محلي خالص ولا هو عالمي - أو أوروبي - خالص، وإنما هو عَوانٌ بينهما، لكن بأي اتجاه؟... هل سار بالاتجاه الثاني الذي أعاد تشكيل العناصر المعمارية المحلية بعد تطعيمها بعناصر معمارية غربية حديثة، أم هو اتجه الاتجاه

الثالث - العكسى - الذى تبني العناصر المعمارية الغربية الحديثة بعد تطعيمها بعناصر معمارية محلية ؟

أنا شخصياً أميل إلى الاتجاه الثانى، لكن متى كان ما يتمناه المرء يدركه ؟ بكل أسف، وأقولها دون حسرة كبيرة، لأن حتميات الجغرافيا والتاريخ لا مهرب منها، ساد الاتجاه الثالث على ما عداه ؛ وأصبحت العناصر المعمارية الغربية - بلغة الإحصاء - هى المتغير المستقل، والعناصر المعمارية المحلية هى المتغير التابع . وهذا أمر لا يتجافى والسياقات السياسية والثقافية والاجتماعية المصرية من قبل نشأة بورسعيد حتى الآن، فلماذا تنبو عمارة المدينة عن هذه السياقات، ونشأة المدينة ذاتها ما جاءت إلا فى كنف هذه التبعية، بل كان نشؤها - كما هو معروف - أحد أبرز تجليات هذه التبعية؟

من هنا فإننى أرى أن مجرد تظلل العناصر المعمارية المحلية إلى تصميمات العمارن الغربية التى أقيمت فى المدينة لهو دليل كاف على حيوية الثقافة المصرية، وعلى أنها لم تستسلم تماماً للغربيين، وقد مثلهم الفرنسيون فى البداية ثم زاحمهم الإنجليز فشعوب دول أوروبا المتوسطة وغير المتوسطة. ولعل ابن خلدون ما كان يتوقع أن تظهر بعد موته يعقود وعقود مدينة اسمها بورسعيد تتمرد على مقولته عن ولع المظلوب بتقليد الغالب فى شعاره وزيه ومعمارهِ وسائر أحواله، ولا تطبقها التطبيق الكامل . وسوف ترى بنفسك الدليل فى عمارن المدينة إن لم تكن قد رأيتها بالفعل . سوف ترى أنني لا أحاول بهذا تجميل واقع المعمار المحلى من منطلق التعصب الوطنى، لأن الحقائق الموجودة بين الشوارع وفوق الأفاريز سوف تثبت لك هذا.

وفى نفس الوقت أنا لا أتشيع لأنماط البناء المحلى، ولا أعتبرها أنماطاً مثلى .. مطلقاً... فقد ران عليها الجمود لأمد طالت، ونالها من القبح وفساد الذوق الكثير.

لا مندوحة إذن من الالتقاء بين الطرز المحلية والأجنبية.

المؤلم فى الأمر أن هذا الالتقاء لم يأت عبر منافذ الاتصال المعتادة من تجارة وترحال وتبادل سلمى للأفكار والمنافع، وإنما جاء مصحوباً بممارسات هى مزيج من القهر والجبر والخديعة والاستعلاء.

هو أمر مؤلم حقاً وجارح للشعور الوطنى.

وقد يُخفف من هذا الألم ويُرطب من ذاك الجرح - ولو مؤقتاً - إدراك أن أوروبا نفسها أفادت بالمنجز المعمارى المصرى - تحديداً - فى العهود السحيقة وأن الحضارتين اليونانية والرومانية فيهما من المعمار المصرى الكثير، كما أفادت من المعمار العربى من خلال دولة الأندلس إقاداتها من الأثرak عبر دول البلقان . معنى هذا أن أوروبا استتبعت طرزها

المعمارية من هجين ما تجمع لديها من إنجازاتها وإنجازات الغير، ومن هذا الغير العرب بطبيعة الحال . فلماذا لا نقبل النقاء الطرز المعمارية والمحلية على أرض بورسعيد، ليس باعتبار هذا الالتقاء أمراً واقعاً، ولا باعتبار أنه يعنى رد بعض بضاعتنا إلينا، وإنما باعتباره أمراً حتمياً لا غنى للثقافة المعمارية عنه إذا ما أريد لها أن تنمو وتتطور؟ إن الاستيعاد سهل، والاحتواء صعب.

والصعوبة تكمن فى تعدد مستويات المعانى التى يطرحها المبنى، لاشتماله فى حالة الاحتواء على يؤثر متعددة للتركيز البصرى، ومن ثم فإن قراءة عناصره تتطلب طرقات شتى. ومثل هذه الصعوبة أصبحت فى بورسعيد سلسلة ميسورة.

يعود السبب، فى رأى، إلى كون العمارة الموجودة بها عمارة عضوية، فقد راعى المصممون المعماريون القدامى البيئة الطبيعية، واجتهدوا ما أمكنهم الجهد حتى لا يدمروا هذه البيئة، وجعلوا من عمارتهم مكمالات لها . ربما بدا التكامل مع الطبيعة جنوباً مثالياً، لكنه شهد تطبيقاً معقولاً فى بورسعيد .. القديمة بالطبع .. فقد أظهر هذا التطبيق قدراً من التوافق والانسجام بين الطبيعة والعمارة على الرغم من أن هذه العمارة قامت على أجزاءا مقتصبة من بحيرة المنزلة (بالردم) وموهوبة من البحر المتوسط (بالطرح). ويتبدى هذا فى عدد من الصور منها:

* اتفاق العمارات مع طبيعة الساحل.

* إقامة العمارات القريبة من البحر والبحيرة على أعمدة.

* إتاحة رؤية البحر والبحيرة للسان فى شوارع المدينة.

* السماء المفتوحة.

لقد كانت بورسعيد فى هذه الفترة موطناً للتجارب المعمارية، التى أرى أن أقل ما توصف به أنها كانت تجارب ناجحة، لما قدمته لبورسعيد من ثراء وتنوع معمارى من ناحية، وألفة وانسجام بيئيين من ناحية أخرى.

طبعاً حدثت تغيرات كثيرة، وما عاد ممكناً ما كان متاحاً، فقد ظهرت عمارات تختلف ملامحها عن ملامح البيئة المائية التى تحيط بالمدينة من كل جانب، وبعد أن دمر المعتدون فى حرب ١٩٥٦م. الكباشن الخشبية ذوات الأعمدة أنشئت مبان خرسانية متنافرة الطرز، واختفى البحر واختفت البحيرة حتى عن السائرين بمحاذاتها، وأغلقت السماء بالعمائر التى وصلت ارتفاعاتها إلى اثني عشر طابقاً بعدما كان أقصى ارتفاع لا يزيد حتى النصف الأول من سبعينيات القرن الفائت عن خمسة طوابق.

وللحقيقة فإن هذا التبدل لم يحدث بين يوم وليلة، ومنه أيضاً ما هو حميد، لكن الخبيث

أكثر عدداً وانتشاراً . وقد حدث التبدل الحميد قبل انتهاء القرن التاسع عشر، بنحو خمس عشرة سنة، وفي أوائل القرن العشرين . وعلى العموم فإننا لا نستطيع الحديث كثيراً عن الطرز المعمارية لما أنشئ منذ بداية الحفر سنة ١٨٥٩م. والافتتاح سنة ١٨٦٩م.، لأنه لم يتبق من هذه الإنشاءات سوى الفئار الحجري الذي تعطل استخدامه لابتعاده عن مدخل القناة بسبب طرح البحر، ولعلو العمارات التي طاولته وتجاوزته في الارتفاع.

ولا مرجعية للحديث عن هذه الفترة سوى قراءة التاريخ والصور التي كانت في البداية رسوماً. وكانت البدايات الأولى مع الخيام المصنوعة من القماش المشمع الثقيل، وكانت خياماً مربعة ولها قمم هرمية، ثم ظهرت الأكشاك التي استجلبت من حرب القرم وكانت خشبية ، مستطيلة، من طابق واحد، مساحات الأطراف أكبر من مساحات الأجزاء الوسطى، لها نوافذ طولها رأسى، وشرفات تعلو عن سطح الأرض بنحو المتر، وأسقفها المائلة متعددة الأضلاع بسبب كبر مساحات الأطراف، وهي أسقف ممتدة إلى ما دون الأسطح بنحو نصف المتر من ناحية الواجهات التي بها الشرفات لتوفير الظل لمن يجلس فيها، أما الواجهات التي ليس بها شرفات فتمتد الأسقف من ناحيتها لستيمترات قليلة، وكانت هذه الأكشاك على قدر من الجمال معقول، فللشرفات أسيجة نوات حليات متكررة من الخشب المفرغ، وللأسقف المصنوعة أيضاً من الخشب كرائش من نفس الخامة . كذلك كانت أسقف الورش التي بُنيت أيضاً من الخشب، وكان منها المستطيل وما يتخذ شكل حرف الـ (L) أو شكل (مربع ناقص ضلع)، ولأنها لم تعد عن كونها مجرد عنابر عمل فقد اتعدمت فيها الزخارف وقلت النوافذ وبدت على قدر من التقشف كبير . أما مساكن الوطنيين بقرية العرب فكانت غاية في البؤس، ولم تخرج عن كونها أكواخاً مصنوعة من كل ما يمكن إقامته أو فرده من مخلفات العمل وبعض الخيام والهلهيل، وربما ظهر بالقرية بيت هنا وآخر هناك.

وحسب " ماري - لور كورنييه - لو كونت " فإن بورسعيد التي، نعرفها اليوم لا ترجع مبانيتها إلى ما قبل سنة ١٨٨٥م. إذ أنه في الحقبة التي تلت هذه السنة أخذت العمارات متعددة الطوابق، المشيدة من الطوب تحل شيئاً فشيئاً محل المنازل الخشبية . ويبدو لي، وهذا ما استشففته مما كتبه ماري - لور، أنها ارتكزت فيما ذكرته على ما ورد بدليل " بيدوكير " الألماني في طبعته لسنة ١٨٨٥م بشأن وجود اثنتي عشرة قنصلية أوروبية، وثلاثة بنوك (البنك الإنجليزي - المصري، والكريدي ليونيه، والبنك العثماني)، وفندقين (فندق هولندا، وفندق فرنسا، وكذا اللوفر)، وبعض أماكن اللهو: مثل مسرح إلدراو، الجرائد كازينو، ومقهى البارادي(٥٧). وأرجو أن تكون قد لاحظت الفرق بين التاريخ الذي ذكره

ضياء الدين القاضى، ونقلته لك عنه، بشأن نشأة مسرح الألدرايو والتاريخ الذى نقلته لنا مارى- لور عن دليل "بيدوكير"، فقد ذكر ضياء أن هذا المسرح أنشئ سنة ١٨٩٦م. فى حين ذكرت مارى- لو أنه أنشئ قبل سنة ١٨٨٥م. والفرق هنا كبير، ويحتاج إلى استقصاء.

على أية حال فإن العمائر الموجودة ببورسعيد الآن، ويمكن وصفها بالتاريخية، إنما تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . فى هذه الحقبة ظهرت العمائر ذوات البواكى التى تتيح للمتجولين محاذاة الشوارع بطول امتداداتها فوق الأرضة ويمتد عن لفحة الشمس ويلل الأمطار، ليس هذا فقط وإنما أتاحت لهم أيضاً فرص التسوق من المحلات التى تشغل الطوابق الأرضية فى العمائر ذوات البواكى دون التعرض لمضايقات الطقس والمركبات بأنواعها وأكثرها كانت تجره خيول .

وأساس البواكى هو الأعمدة التى ترفعها، وهى أعمدة مرتفعة عن سطح الأرض بحوالى ستة أمتار فى المتوسط . وتتنوع الخامات المصنوعة منها هذه الأعمدة ما بين الأخشاب والأحجار والخرسانة، كما تتنوع أشكالها وحلياتها.

وكانت الجدران تبني من الحجر الجيري وقواب الطوب الأحمر (الطوب المحروق)، وتقام على هياكل خشبية رأسية تأخذ شكل المربع أو المستطيل، وبخلاف القوائم كانت عروق خشبية تقسم المربع أو المستطيل إلى مثلثين، وتتقابل أحياناً هذه العروق فتتكون فى المربع أو المستطيل الواحد أربعة مثلثات، وبأدراك ما كانت تُصَف هذه العروق أفقياً داخل هذه المربعات والمستطيلات، أما الطوب المحروق والملاط فكانت تملأ بهما الفراغات بين الهياكل . وإن أردتَ رأى كانت هذه العروق الخشبية أكثر صلابة وعمرأ من الأسياخ الحديدية التى أصبحت من أهم عناصر عمائر فى عصرنا الحديث .

والشرفات، التى تعرف فى المدينة باسم التراسينات، تبدأ من الطابق الأول ولها أسبجة من الخشب، أو الحديد المشغول، أو من الطوب أو الخرسانة . الخالصة أو المفرغة مع تزويدها بحليات من الجص - وتحمل هذه الشرفات على كوابيل خشبية أو حديدية أو خرسانية، إن لم تكن تحملها أعمدة البواكى، وعادة ما لا تزيد المسافة بين كل كابولين خشبيين عن نصف المتر أو المتر كحد أقصى، ومع الكوابيل الخرسانية تزيد هذه المسافة عن المتر بكثير، وقد تصل فى بعض الحالات إلى أربعة أمتار، وفى بعض العمائر قد يُكتفى بكابولين اثنين فقط يحمالن الشرفة من ركنيها، اقتراباً أو بعداً، أما الكوابيل الحديدية فتأخذ شكل الحلية عادة وتستخدم فى المنازل الخشبية ذوات الشرفات المسيجة بالحديد المشغول بنفس الطريقة، وهذا النوع من الكوابيل يُنبت عادة بالأعمدة الخشبية والكم

الخارجي للشرقة، وسوف أحدثك عنها فيما بعد .
وأرضيات العماثر الخشبية تكون أيضاً من الخشب، وتتكون من ألواح طويلة ملتحمة بعضها ببعض بتلييس اللوح منها في الآخر المجاور له بعد إعداد الألواح بالطريقة المعروفة بـ " الدكر والنتاية "، وتثبت فوق القواطع الخشبية السميكة المتقاطعة مع بعضها البعض مكونة لأساس الأرضية أو " العضم " الذي ستلتصق به هذه الألواح ؛ ولأن هذه القواطع تمثل أسقفاً لما هو دونها، وحتى لا تظهر للناظر، ولإضفاء لمسة جمالية، فقد كانت تغطي بحصائر من عيدان الغاب الرفيع المشدود إلى بعضه البعض ثم تغطي بالجبس، وهذه الطريقة تعرف بـ " السدة واللباسة " .
والأسقف في ذلك الوقت كانت مرتفعة وعدد الحجرات في الشقة السكنية الواحدة بحى الإفرنج كان يتراوح بين ثلاث حجرات وخمس، على العكس من عماثر حى العرب فقد كان أغلبها شديد الضيق، حتى أن منها ما لا يسع سوى حجرة واحدة شديدة الضيق . والحجرات مضاعة بالشمس بفضل النوافذ الكبيرة وأبواب الشرفات إلا من بعضها، وكان يطلق على الواحدة من هذا البعض وصف " خزنة "، ومن السكان من كان يستخدمها بالفعل لتخزين المتعلقات المنزلية من أطعمة ومنقولات لا تستعمل، وفي هذه الحالة تعرف بـ " أوضة الخزين " . وكل نافذة كانت - وما زال كثيرها كذلك - مزودة بشيش خشبي يخفف الضوء ويكفل التهوية، وكذلك أبواب الشرفات . والشيش مؤلف - في العادة - من مصراعين وأحياناً من ثلاثة أو أربعة مصاريع، ويتم فتحها بالسحب إلى داخل الحجرة، والإغلاق يتم بدفعها إلى النافذة، و يسمى الرجاج الذي يُحكم به إغلاق الشيش " سبيونة " : غير أن أشياش بعض النوافذ كانت من نوع مغاير، نوع مثبت في أعلى حلق النافذة وينسدل إلى أسفل، وكانت هذه الأشياش مصنوعة من الخشب الخفيف ولها إطارات صلبة وتفتح بالدفع إلى الأمام باتجاه فضاء الشارع ويسند كل شيش بقائمين حديدین مفصلیین مثبتین إلى جانبی قاعدة النافذة ، فيصنع مع حلق الشباك شكل المثلث قائم الزاوية، أما غلقه فيتم بثني مفاصل القائمين.
ومن عماثر المدينة القديمة ما كان لكل نافذة بواجهاتها مظلة قصيرة لا تزيد علي سنتيمترات قليلة، لتقي الناظرين عبرها من وقدة الشمس، وتكون إما مائلة ومغطاة بالقرميد أو مستوية ومصنوعة من الخرسانة الخالصة . وشرقات الطوابق العليا تغطيها مثل هذه المظلات، لكنها تكون ممتدة في الفضاء الذي يعلو الشرقة لمسافة أطول لتوفير ظل أطول وحماية من الأمطار أكبر بالمدى الذي يتناسب ومساحة الشرقة.
ولكل مدخل عمارة باب عال من الخشب أو الحديد تعلوه " شمسية "، وكذا أبواب

الشقق السكنية في البيوت القديمة . والشمسية إما مربعة أو مستطيلة أو نصف دائرية، وتُزخرف عادة بالحديد المشغول، ووظيفتها إدخال الشمس بالنهار وأضواء الشارع بالليل عبر الزجاج الملون . ودرجات السلالم إما من الرخام الخالص أو الموزايكو الذي كانت تدخل في صناعته الأصداف المستخرجة من البحر . وكانت أسيجة السلالم - الدرابزينات - تصنع في الغالب من الزهر المصبوب في أشكال زخرفية أو من الحديد المشغول (الكريتنال) ولها مساند خشبية، وأحياناً ما تصنع من الطوب، وكانت الشقق السكنية متماثلة وأبوابها متلاصقة أو متواجهه، وأعلى السلم عند السطح كانت (اللقافة) أو (الشخشيخة)، ووظيفتها هي تهوية السلم بـ "لقف الهواء" في الصيف ودرء الأمطار عنه في الشتاء، وكذا توفير الضوء والتحكم فيه بـ "شخشيخته" في أوقات النهار، لذا فقد كانت تصنع من الزجاج الملون بالأصفر والأزرق والأخضر والأحمر، وأغلبها كان بلون واحد، وتنوعت أشكالها ما بين المربع والمستطيل والدائرة والمسدس أو المثلث، ومنها أيضاً ما كان يأخذ الشكل الهرمي.

وثمة أمران تميزت بهما عمائر حي الإفرنج ويندر وجودهما في عمائر حي العرب هما :
* الطوابق " المسحورة " أو كما تسمى أحياناً " المسروقة " وهي الطوابق التي تكون دون الطوابق الأولى وأعلى من الطوابق الأرضية، وكثيرة هي العمائر المشتملة على هذه الطوابق، وهي بلا شرفات ونوافذها كبيرة وقد تكون لها بروزات تمتد لستيمترات قليلة ولها سياج من الحديد الكريتنال يعطى المظهر الرمزي للشرفة.

* الجرايبين التي تكون أسفل العمائر ولها أغراض منها التخفيف من آثار الرطوبة على الشقق السكنية التي تعلوها، وجعلها مستودعات للأشياء غير المستعملة، وأحياناً ما تخصص للبوابين أو تُوَجَّر لمن يريدونها ومع ارتفاع مستويات الطرق والأرصفة تبدو هذه الجرايبين الآن دون مستوى الأرض، وكثيراً ما تعرضت لمياه الأمطار والطفح.

وفي مجال رصد الملامح المفارقة بين عمائر الحيين ، وليكن الرصد هذه المرة من زاوية حي العرب، الفلقة الثانية للمدينة القديمة، نجد ما يلي :

* المربع السكني في حي العرب يضم عدداً من العمائر أكبر من نظيره بحي الإفرنج بسبب ضيق مساحات العمائر بالحي الفقير.

* لم تكن عمارات هذا الحي - المشيدة من الخشب في الغالب - تخلو من " الصندرة " وهي مكان كان يتصدر بئر السلم ويستخدم في تخزين المتروكات.

* ما من شقة سكنية بالعمائر القديمة بهذا الحي كانت تخلو من " مَقْعَد " - إذا كان سكانها من أصل صعيدي - أو " مندرة " - إذا كان أصلهم يعود إلى ريف الوجه البحري -

ويكون هذا " المقعد " أو تكون هذه " المنذرة " بمعزل عن الشقة ومفصولة عنها ولها بابها المستقل لأنها المكان الذي يستقبل فيه رب الأسرة ضيوفه الأغراب.

* تكثر بأسطح بيوت هذا الحي " دواير " تربية الحمام شاهقة الارتفاع حتى باتت كأنها مكملات معمارية لها.

* تكثر المحلات والحوانيت بالطوايق الأرضية في أغلب عمائر هذا الحي الأمر الذي جعل شوارعها أكثر حركة وازدحاماً وضجيجاً من حي الإفرنج الذي نعم بالهدوء، لأن أغلب عمائره بدون محلات، ولأنه خصص مكانين مخصوصين ومتقاربين للتسوق.

* انتظام الشوارع والحارات بهذا الحي أدق وأكثر صرامة منه بحي الإفرنج، وكما سبق أن ذكرنا فقد شقت هذه الطرق على النحو التالي : شارع عرضه ١٥ متراً ثم شارع عرضه ١٠ أمتار ثم حارة عرضها ٤ أمتار، ويحدث هذا في الاتجاهين الأفقي والرأسي، الأمر الذي لا يسهل فقط الاستدلال على عناوين العمائر، وإنما يوفر أيضاً - إضاءة وتهوية سليمة، ويسر إدارة شئون المرافق والمروور وغيرها من الأمور التي تخص المدن.

نعود إلى الطرز المعمارية .

لعلك رأيت أثناء تجوالك في مدينتنا تنوع الطرز المعمارية وتعدد مصادرها والتجانس فيما بينها . وكنت قد أخبرتك عن الجاليات الأجنبية التي عاشت هنا ربحاً طويلاً من الزمن.

لكل جالية كانت عمائرها، ومن ثم طرزها، لكنها توافقت مع بعضها البعض من ناحية، ومع الطرز المعمارية المحلية من ناحية أخرى، حتى أن الفصل بينها بات مهمة لا يصلح لها إلا الضيق؛ إلا أنه ما زال ممكناً الربط بين بعض العمائر - ومن ثم طرزها - وبعض أبرز الجاليات التي كانت موجودة بالمدينة كالجاليات الفرنسية، الإنجليزية، اليونانية والإيطالية.

فمنطقة إيالات عمال ومستخدمى شركة القناة الموجودة على حدود حي الإفرنج مع حي العرب بطابعها وشرقاتها الخشبية المحمولة على كوابيل خشبية وحدائقها الخاصة وأسقفها المائلة المصنوعة من القرميد والتصاقها ببعضها البعض داخل مربعات تحدها الطرق المرصوفة، وبخلوها من الزخارف هي منطقة فرنسية خالصة و هي منطقة ذات طابع وظيفي بحت وكذا بعض المباني الأخرى كالقنار الحجري القديم ومشمولاته بشارع فلسطين والمبنى الملاصق لإدارة الإطفاء المطل على شارع صافية زغلول ومباني شارع مصطفى كامل ومبنى " الفارماشية " بالقرب من ميدان السكة الحديد ومبنى مستشفى " الدافراند "، كلها يمكن الربط بينها وبين التواجد الفرنسي بالمدينة. ويمكن تلمس طرز

العمارة الإنجليزية في مبان مثل مدرسة بورسعيد الثانوية العسكرية بميدان الشهداء فقد بنيت على طراز تكتات قصر النيل، ومستشفى بورسعيد الأميرى بشارع صغية زغلول ومستشفى المبرة بشارع ٢٢ يوليو، فعلى الرغم من الإضافات والتطويرات التي لحقت بها إلا أنها لا تزال مميزة بالطابع الإنجليزي . والعمارة اليونانية لها أكثر من شكل وأكثر من مكان منها مثلاً شكل العمارات المكونة من عدة طوابق كما هو الحال في حارة " الكاشوتية " - نسبة إلى جزيرة كاسوس - ومنها الخشبية محدودة الطوابق كما هو الحال بالجزء الشرقي من شارع الشهيد فريق أول عبد المنعم رياض. أما العمارة الإيطالية فتبدو واضحة في مبنى مسرح الليرا بشارع المرحوم محمد موسى أفندي، ومبنى كازا إيطاليا عند تقاطع شارعى محمود صدقى وعادل طه، ومبنى القنصلية الإيطالية وغيرها من المباني الكائنة بشارع الجمهورية وشارع عبد السلام عارف. وجميعها يقع بحى الإفرنج. وطبعاً لم أحدثك عن دور العبادة الخاصة بكل جالية على توفر السمات المعمارية الدالة عليها لأننى سأخصص حديثاً منفصلاً لها.

لقد استخلصت بورسعيد من هذا كله ما رأت أنه يخصها وأضافته إليه من عندها لتكوّن ما يمكن وصفه بملامح شخصيتها المعمارية المميزة .. ملامح كوزموبوليتانية فيها من الوطنية الكثير.

وإذا نظرنا إلى معمار المدينة من الزاوية المدرسية فاسمح لى يا عزيزى بأن أخبرك من البداية بأن " الباروكية " بزخارفها والحليات المبالغ فيها ليس لها وجود ملموس في عمارات المدينة، ربما لطابع العملية الذى طبع المدينة منذ نشأتها، والوظيفية التى حكمت تنظيمها التخطيطي، وربما لأنها بحكم جغرافيتها لم تعرف صور الإقطاع الريفى، أو لأن جل أثريائها إن لم يكن كلهم رجال أعمال ارتبطوا بالعمل فى الميناء وما يتصل به من صناعات وخدمات . ولعل غياب الباروكية أفضل من وجودها لأن وجودها ومن تقليدها ربما أصاب العمارة في بورسعيد فى مقتل أو نالها " اسفكسيا الزخرف " (٥٨).

لكن هناك تأثيرات أو قل نقل استعارات هامة استعارها المعمارىون وهم يصممون عمارات المدينة . من هذه الاستعارات ما هو يونانى ورومانى وقوطى ومصرى قديم وإسلامى. وكما قلت لك من قبل فإن الاستعارات المحلية جاءت محتواة فيما هو أوروبى، وقد لجأ إليها المعمارىون الأوروبىون لأنها فرضت نفسها عليهم فرضاً من مداخل عدة أوجزها فى : جماليتها، وظيفيتها، روحانيتها، واتفاقها مع البيئة الاجتماعية للوطنيين من سكان المدينة وكانوا قد بدأوا يشكون فريقاً هائلاً له متطلباته. ويضاف إلى ما سبق عاملان أحدهما جغرافى والآخر سياسى، فمن الناحية الجغرافية فإن هذه العمارات ستقام فى مدينة تلتقى

مع ثلاث قارات ومن ثم يجب ألا يغفل المعماريون الأوروبيون بعضاً من عناصر العمارتين الإفريقية والآسيوية. وبما أن العمارة في منطقة الالتقاء هذه إسلامية إذن فلا ينبغي السهو عن دمج بعض عناصرها في تصميماتهم، ومن الناحية السياسية فإن هذه المدينة خاضعة لسياسة دولة هي مصر، لذا فمن الواجب مراعاة العمارة المصرية ومن هنا كانت بعض اللمسات المحلية التي قد تعود أحياناً إلى العمارة المصرية القديمة.

إنه إذن الطابع الانتعاشي الذي ميز ويميز معمار المدينة.

ويمكن تلمس طرز البناء اليوناني الحديث في أكثر من مبنى منها على سبيل المثال المبنى الإداري التابع لهيئة قناة السويس الكائن عند تقاطع شارعى فرعون وصفية زغول وفي المنزل الكائن عند تقاطع شارعى ممفيس وسعد زغول، كما تظهر في عدد من الأعمدة الكورنثية والأعمدة ذات التيجان الحلزونية المتضمنة زهرة الانتيمون اليونانية التي لها وجود واضح في معبد البارثينون كما رصدتها إحدى الباحثات (٥٩).

ويمكن الوقوف على التأثيرات الرومانية في الواجهة الرائعة لمبنى مسرح الليرا على من التشوهات التي طرأت عليها بتعليقها من بعد السطح بقوالب من الطوب الأحمر التي رصت فوق بعضها البعض بطريقة غاية في البدائية والقبح، كما يتبدى هذا التأثير في الأيونية والرؤوس الأدمية المنحوتة في تيجانها (٦٠).

أما الطراز القوطى الرفيع الرشيق بزواياه المدببة فموجود وبارز ويعلن عن نفسه صراحة، ليس فقط في مبنى الكنيسة الإيطالية، وإنما أيضاً من خلال فيلا " فرناند " بشارع عبد السلام عارف، تلك الفيلا التي بنيت عام ١٩٤٠م، لتكون باسم فرناند روز مارى اسبييه ابنة مالكها . وفي هذه الفيلا حشد من عناصر الطراز القوطى من حيث العقود المدببة والمخروطات ذوات الرؤوس المدببة والنوافذ المستطيلة الضيقة والسقف المائل وغيرها (٦١).

لقد أدت أفكار المعماريين الغربيين بعمقها التاريخي، الذي أوضحت لك بعضاً من تجلياته فيما شرحته لك آنفاً، إلى مجموعة من التغييرات في أنماط البناء المحلي لا يصلح لوصفها نعت سوى الهيكلية . من هذه التغييرات :

* الانفتاح على الخارج بدلاً من الإطلال على الداخل، ومن ثم تلاشت الشرفات والنوافذ التي كانت تطل على الأحواش في النمط البنائى المصرى.

* الأخذ بنظام البواكى بدلاً عن الشوارع المغطاة.

* استحداث الشرفات العريضة المفتوحة على الشارع.

* استبدال الأسطح المائلة بالأسطح المستوية.

* استخدام خامات جديدة في عمليات البناء مثل القرميد.

* الاستفادة من أساليب الزخرفة الأوربية.

ومع فيما يتعلق بالطراز المصرى القديم (الفرعونى) نجد بعضاً من ملامحه في واجهة المسرح الإيطالي متآلفاً مع طرز أخرى وممثلاً على هيئة عمود عند الزاوية اليمنى للواجهة، كما نجد هذه الملامح في تيجان الأعمدة النخيلية التي تحمل شرفات بعض العمارات (٦٣)، ونجده أيضاً في مبنى الترسانة البحرية ببورفؤاد وسوف أريكه.

أما النمط الإسلامى فمظاهره واضحة في أغلب عمارات بورسعيد سواء كانت تستخدم للسكنى أو للعمل أو للترفيه، مثال ذلك المبنى الإدارى لهيئة قناة السويس الذى أضفى رمزاً لقناة السويس وبورسعيد إنه المبنى الذى شبهته بقصر تاج محل - مع الفارق طبعاً - وكذلك مبنى محكمة الاستئناف عند مدخل بورفؤاد وهو مبنى ذو طابع إسلامى مراكشى وسوف أريك إياه عندما آخذك إلى بورفؤاد، والواجهة الثرية بتشكيلاتها الجمالية .. واجهة المسرح الإيطالى .. فكما أن هذه الواجهة زاخرة بعناصر رومانية وقرعونية بها أيضاً زخارف إسلامية تمثلها الأقاريز التى تأخذ شكل أطر أفق رأسية وأفقية، وهى أقاريز من نوع الميم المستخدم فى الزخرفة الإسلامية. وكثيرة هى العناصر الإسلامية المستخدمة فى عمارات المدينة سواء تلك التى سكنها الأجانب أو سكنها الوطنيون لاسيما فى الشرفات (التراسينات) والأعمدة والكوابيل والأبواب وأسيجة السلالم (الدرازينات).

فالشرفات رُكِّت فيها السواتر الخشبية لتحقيق الخصوصية، وهذه السواتر ما هى إلا المشربيات أو (المشربيات) وهى من نوع السواتر (البغدادلى) ومهمتها مزدوجة : إدخال الضوء وحجب نظرات الفضول إلى نساء البيت، وأسيجة الشرفات متنوعة الخامات والأساليب فمثلاً قد تكون من الخرسانة المسلحة قد تكون من الحديد أو من الخشب، وإذا كان السياج من الخرسانة المفرغة فإنه يتم شغل هذا الفراغ بالبراق الجصية، وإذا كانت من الحديد فإن الفراغ يشغل بتكوينات من معدن الزهر أو الكريстал تأخذ أشكالاً هندسية أو نباتية، أما إذا كانت من الخشب فيما أن يغطى الخشب سائر السياج أو تشغل فراغ السياج بعرائس خشبية كذلك تتواجد بكثرة على أقاريز أسطح المساجد. وعادة ما يكون فوق كل باب من الأبواب القديمة شمسية.

والمقرنصات هى أهم ما يميز الأعمدة من العناصر الإسلامية الداخلة فيه وقد تم رصد هذه المقرنصات فوق تيجان أعمدة أكثر من مبنى (٦٣).

أما الكوابيل ، تلك الدعائم التى تقوم عليها الكتل المعمارية وتستخدم لحمل الشرفات، وكنت قد حدثك عنها من قبل، فقد تنوعت زخارفها الإسلامية تنوعاً كبيراً سواء كانت من

الخشب أو الحديد أو الخرسانة، وتجاوزت في تنوعها الخطوط الهندسية المجردة والتشكيلات النباتية إلى معطيات البيئة فخرجت بعض كوابيل الشرفات على الشكل (القرموطى)، ولأن الطراز إسلامي فهي لم تأخذ من سمكة القرموط شكلها وإنما أخذت التواءاتها فقط.

ومن الأبواب ما تحول إلى لوحات إسلامية ومنها أيضا ما يدل على أن شاغلي الوحدة السكنية من القبط، ويبدو هذا من زخرفات الباب فبالنسبة لأبواب المسلمين فالنقوش المحفورة أو البارزة للأشكال الهندسية والنباتية من الغنى بحيث تغطيها، أما القبط ولا يكون هذا إلا في البيوت التي يكون مالكوها وشاغلوها من الأقباط فتنقش عليها الأيقونات والصلبان بكيفية فنية تميزها عن أبواب الإنجلييين . ومع هذا تواجدت أبواب تغلق وتفتح على أسر مسلمة وقبطية لا يوجد فيها هذا التمايز.

وقد سبق أن حدثك عن (الشمسيات) والصلالام و(الدرايزينات)، وبعد إضافة واحدة هي أن حلياتها كانت إسلامية، لا داعي لتكرار الحديث.

من هم معماريو بورسعيد ؟

طرحنا ماري - لور هذا السؤال، وكنت أود لو أضفنا وصف (القديمة) إلى سؤالها لأن هذا هو ما كانت تقصده بالفعل. على كل حال أجابت هي على سؤالها بوضوح، وقالت إن هويتهم ستظل لغزاً، وأن الزعم بأن المهندسين الفرنسيين أو مهندسي شركة القناة الفرنسية هم بناء بورسعيد، مردود عليه بأنه لا يوجد دليل يؤدي إلى الافتراض بأن المعمارين غير المرتبطين بهيئات فرنسية معينة ممن كان يُعهد إليهم بتصميم المنشآت التي لم تشيد بمبادرة من الشركة هم من الفرنسيين، فالهنة - مهنة التصميم المعماري - تضم بالضرورة تنويعات متعددة الجنسيات لاسيما اليونانية والإيطالية. وقالت إنه باستثناء المنشآت التي قامت شركة القناة بتولي العمل فيها كمسئول عن التنفيذ، لا يوجد دليل على أن الفرنسيين هم منشئوه، وقالت أيضاً إن أسماء المعمارين الذين بنوا بورسعيد غير معروفة باستثناء لوي - جان - هولو (١٨٧١ - ١٩٥٩م) Louis-Jean Hulot مصمم كاتدرائية بورسعيد وكان مهندساً معمارياً بالحكومة الفرنسية وعمل مهندساً معمارياً لشركة القناة(٦٤).

نعم .. زحفت بعد ذلك العماثر التي شوهت المشهد المعماري القديم، وعانت المدينة من التصميمات المشوشة، و الرؤى المرتبكة، والاتجاهات المعمارية المتعارضة حتى اقتربت أو كادت من حافة الكارثة، وظل المبرر هو الاقتصاد والوظيفة، لكن متى كان الجمال يتعارض مع الاقتصاد والوظيفة ؟.. بل متى لم يكن الجمال داعماً للاقتصاد والوظيفة؟.. إن اتجاه

العمارة لأن تكون ذات نفع لا يخرجها عن نطاق الفن وجمالياته، لكن ما حدث هو أن المالك والمقاول اتفقا على المعماري وانتصرا عليه . حدث هذا منذ الستينيات من القرن الماضي حتى الآن.

والمُلاك في الحالة البورسعيدية هم الحكومة والجمعيات التعاونية الإسكانية والمصالح التي توفر المسكن لبعض عمالها وتتصدرها هيئة قناة السويس . وكلهم تبني النماذج الاقتصادية والوظيفية فغاب الجمال وانزوى الابتكار وتشوه المشهد المعماري بكتل خرسانية هي القمامة بعينها.

وبالإضافة إلى التشوهات التي اعترت المشهد العمراني ببورسعيد بفعل الكتل الخرسانية التي أطلق عليه المناطق السكنية الشعبية، اتجه تفكير المستثمرين إلى إنشاء منتجعات للأثرياء تحت مسمى " القرى السياحية "، وأغلب قاطنيتها ومرتاديها ما قطنوها ولا ارتادوها إلا بغرض النظرة وبيان مستوى الثراء . واحتلت هذه القرى المساحات الساحلية دون الالتزام عند تخطيطها بالذوق ومتطلبات البيئة . ويفرض أنه قد توفرت في هذه القرى بعض سمات من جمال - على الرغم من مجافاتها للمعايير البيئية - فهو جمال مقلد، ليس هذا فقط لكنه أيضاً مُسَوَّر، أي مشوه بالحجب، فأى جمال يمكن أن يضيفه سور هو أيضاً يؤدي وظيفة الإخفاء وتصدير الإحساس بمرارة التفاوت الطبقي . فلكأن الفقر والغنى قد اجتمعا على تشويه المدينة إذن.

لكن لأن من المعماريين المحليين من استهول بشاعة الحال التي آل إليه المشهد المعماري في المدينة، ورأى أن التخلص من حصار القبح لا يكون إلا باستشراف المستقبل، فقد انبرى هذا الفر لتصميم مبان مغايرة، ومنهم المعماري - ابن المدينة - د.م. جمال بكرى الذي قام بتصميم : ميني نقابة المهندسين والغرفة التجارية ، والسور الجديد للإستاذ الرياضي، والمشى السياحي بشارع فلسطين . ومع الإقرار بحدائية هذه التصميمات التي أعرضت تماماً عن جميع أنواع الزخرفة، ويتميزها بنوع من الحساسية المتصلة بروح العصر ؛ مع الإقرار بهذا، إلا أنها - من وجهة نظري - ليست بتصميمات ابتكارية خالصة، وإنما هي بعض من تجليات مدرسة " الباو هاوس " الألمانية . ومعروف أن نشأة مدرسة " الباو هاوس " المعمارية إنما ظهرت سنة ١٩١٩م. على يد المعماري الألماني فالتر غروبيوس، وانتشرت ولها أشياءها. وهذا ليس ممكن المشكلة، فممكنها الحقيقي في عدم تجانسها مع ما يحيط بها، الأمر الذي يبدو أنه ترجمة عملية للمقولة - الحدائية - التي تؤكد على أننا نعيش عصر العمارة التي لا يمكن التكهن بشكلها. وكأنما تأثيرات الثورة التكنولوجية على فنون العمارة قد طالت بورسعيد، وأنه قد أُرِف الوقت الذي

يجب أن نتوقف فيه عن البكاء على الطرز والمدارس المعمارية، لأن عمارة الألفية الثالثة أصبحت خارج الطراز، ولأن الثورة التكنولوجية جعلت من الصيغة المدرسية مسألة غير صالحة للتطبيق في مجال العمارة.

وهنا يحضرني سؤال أطرحه عليك عزيزي القارئ، وعلى الممارسين المصريين.

أيهما الأجدى في مجال المعمار.. أن نفكر كونياً ونعمل محلياً، أم نفكر محلياً ونعمل كونياً؟.. ولا أتعجل الرد.

الآن وقد أجبتك لمطلبك، فاسمح لي بأن أصطحبك في "حنطور" نستأجره ونتجول به في أرجاء المدينة لأريك ما شرحت لك وأقف بك أمامه.

هوامش الباب الثالث

الفصل الأول:

- (١) ضياء الدين حسن القاضي، موسوعة تاريخ بورسعيد، الجزء الأول، المستقبل للطباعة، بورسعيد، ١٩٩٧م، ص ١٢٢ .
- (٢) فؤاد فرج، المدن المصرية وتطوراتها مع العصور، مجلد ٢، منطقة قناة السويس، مكتبة ومطبعة المعارف، القاهرة، ص ٢٢١ .
- (٣) المرجع السابق، ص ٢٢٢ .
- (٤) زين العابدين شمس الدين نجم، بورسعيد : تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩ حتى عام ١٨٨٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٢٣-٢٤ .
- (٥) المرجع السابق، ص ٣٠ .
- (٦) المرجع السابق.
- (٧) المرجع السابق.
- (٨) المرجع السابق، ص ٣٠ - ٣١ .
- (٩) المرجع السابق، ص ٣١ .
- (١٠) المرجع السابق، ص ٣١-٣٢ .
- (١١) المرجع السابق، ص ٣٢ - ٣٣ .
- (١٢) المرجع السابق، ص ٢٨-٢٩ .
- (١٣) عبد المتعم حنفى، القوامات الجغرافية لتنمية بورسعيد، بدون ناشر، ٢٠٠٥م، ص ٢٦-٣١ .
- (١٤) زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٩ - ١٨١ .
- (١٥) مصطفى محمد البغدادي، مدينة بورسعيد: دراسة في جغرافية المدن، رسالة ماجستير، قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٥، ص ٥٢-٥٣ .
- (١٦) المرجع السابق، ص ٥٢ .
- (١٧) المرجع السابق، ص ٥٣ .
- (١٨) د.عبد المتعم حنفى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣ - ٢٤ .
- (١٩) مصطفى محمد البغدادي ، مرجع سبق ذكره، ص ٥٤ .
- (٢٠) المرجع السابق، ص ٥٤-٥٥ .
- (٢١) د.عبد المتعم حنفى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤ .
- الفصل الثاني :**
- (٢٢) المرجع السابق، ص ٢٤ .
- (٢٣) ضياء الدين حسن القاضي، مرجع سبق ذكره، ص ١٢١ .
- (٢٤) المرجع السابق، ص ١١١ .

- (٢٥) أقيم المتحف في مبنى سبق أن أصيب بعدة قذائف في الحرب الأخيرة.
- (٢٦) جريدة القاهرة وزارة الثقافة، القاهرة، ٦ مايو ٢٠٠٦م.
- (٢٧) عبد الحميد أبو بكر، قناة السويس والأيام التي هزت الدنيا، (مذكرات)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ١١٤ .
- (٢٨) فؤاد فرج، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .
- (٢٩) ضياء الدين، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٧ .
- (٣٠) المرجع السابق.
- (٣١) جريدة الجمهورية، القاهرة، ٢٧ ديسمبر ١٩٥٦م.
- (٣٢) جريدة الشعب، القاهرة، ٢٩ ديسمبر ١٩٥٦م.
- (٣٣) ضياء الدين القاضي، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٩ .
- (٣٤) محافظة بورسعيد، الخريطة الاقتصادية لمحافظة بورسعيد، بورسعيد، يونيو ١٩٨٦م، ص ١١٢ .
- (٣٥) محافظة بورسعيد، بورسعيد جوهرة مصر، مطبعة بورفؤاد، بورسعيد، ديسمبر ١٩٩٧م، ص ٧٥ .
- (٣٦) قاسم مسعد عليوة، مارينا أهل الكافيار ومارينا عم أحمد، جريدة بورسعيد الوطنية، حزب التجمع الوطني التقدمي، بورسعيد، العدد الأول، ١ يونيو ١٩٩٢م، ص ٥ .
- (٣٧) ضياء الدين القاضي، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٣-١٤٤ .
- (٣٨) المرجع السابق، ص ١٤٤ . ١٤٥ .
- (٣٩) مجلة المصور، دار الهلال، القاهرة، ٢٧ ديسمبر ١٩٥٦م.
- (٤٠) جريدة الشعب، القاهرة، ٢٤ ديسمبر ١٩٥٦م.
- (٤١) أبو الصجاج حافظ، صفحات من التاريخ السرى لمعركة بورسعيد، دار الميثاق للطباعة، القاهرة، بدون تاريخ نشر، ص ١٣٩ .
- (٤٢) مؤتمر أبناء إقليم القناة وسيناء الثقافي، النورة العاشرة، بورسعيد، ٢٢-٢٠ ديسمبر ٢٠٠٦م.
- (٤٣) جريدة الوفد، حزب الوفد، بورسعيد، أكتوبر ١٩٨٩م.
- (٤٤) جريد الأهرام، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ٢ سبتمبر ١٩٨٩م.
- (٤٥) للوقوف على بعض التفاصيل يمكن الرجوع إلى :
- طارق حسن وآخرون، استطلاع حول تمثال ديليسبس، جريدة المدينة الحرة، بورسعيد العدد ١٦، أول مارس ١٩٩٨م، ص ٥ .
 - جريدة المدينة الحرة، بورسعيد، منتصف مايو ١٩٩٨م.
 - (٤٦) للوقوف على بعض التفاصيل يمكن الرجوع إلى :
 - جريدة أخبار اليوم، مؤسسة الأخبار، القاهرة، ١٢ يونيو ١٩٩٩م.
 - السعيد السويركي، دعوات خبيثة لنقل تمثال المختال ديليسبس للإسماعيلية، جريدة العربي، القاهرة، العدد ٤٠١ يوليو ١٩٩٩م.
 - قاسم مسعد عليوة، بعض الخجل يا أتياع ديليسبس : فضائح بالجملة، جريدة العربي، القاهرة، العدد ٤٠٢، ١٦ يوليو ١٩٩٩م.
 - جريدة الرأي البورسعيدى، بورسعيد، ديسمبر ٢٠٠٠م.

(٤٧) قاسم مسعد عليوة، إعادة تمثال دى ليسبس على استمارة، جريدة القاهرة، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠ مارس ٢٠٠١م.

(٤٨) جريدة أخبار اليوم، مؤسسة الأخبار، القاهرة، ١٢ يوليو ٢٠٠٣م.

(٤٩) جريدة الأهرام، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ٩ أغسطس ١٩٨٩م.

(٥٠) جريدة الحدث اليورسعيدى، بورسعيد، يناير ١٩٩٩م.

(٥١) جريدة الوفد، حزب الوفد، بورسعيد، أكتوبر ١٩٨٩م.

(٥٢) جريدة الشعب، القاهرة، ٢٩ ديسمبر ١٩٥٦م.

(٥٣) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى:

http://en.wikipedia.org/wiki/Ferdinand_de_Lesseps

http://www.bbc.com.uk/historic_figures/Lesseps_Ferdinand_de.shtml

(٥٤) ضياء الدين حسن القاضى، موسوعة تاريخ بورسعيد، الجزء الثانى، المستقبل للطباعة، بورسعيد، ٢٠٠٠م، ص ٨٦.

(٥٥) ضياء الدين حسن القاضى، مرجع سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٢٦.

الفصل الثالث:

(٥٦) رفعة الجانرجى، حوار بنيوية الفن والعمارة، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت - لندن، ١٩٩٥م، ص ٢٢-٢٣.

(٥٧) مارى - لور كوييه وآخرون، بورسعيد: عمارة القرن التاسع عشر والقرن العشرين، التاريخ والمعمار، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٢٠ - ٢١.

(٥٨) التعبير مأخوذ عن المهندس / الشاعرة فاطمة ناعوت فى معرض تناولها العمارة الملوكية، العمارة والشعر، الثقافة الجديدة، القاهرة، يناير ٢٠٠٥م.

(٥٩) عيبر الحسينى أحمد موافى، الوحدة الفنية ذات التعددية فى عمارة بورسعيد القديمة كمصدر لاستلهام أعمال تصوير، رسالة ماجستير، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ١٠٠.

(٦٠) المرجع السابق، ص ٩٩.

(٦١) أثر حول هذه القيللا فى عام ١٩٩٢م، لفظ أثارته تكتهات خاطئة تماماً تنسب إقامتها إلى فردينان دى ليسبس بسبب تشابه الاسمين الأولين فى بعض الحروف، وتكرر هذا اللفظ فى مستهل الألفية الثالثة، وكان للباحث إسهام فى إعادة الحقيقة إلى نصابها بمقال نشرته إحدى الصحف المحلية. (الباحث)

(٦٢) عيبر الصينى أحمد موافى، مرجع سبق ذكره، ص ٩٨.

(٦٣) المرجع السابق، ص ١٠١.

(٦٤) مارى - لور كوييه، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢ - ٤٦.

ما لم يرد بشأنه هامش فالعمدة فيه هو الباحث اعتماداً على دراساته السابقة ورصده الميدانى وخبرته بالموضوع.

الباب الرابع

الفصل الأول

فى المجون وأساليبه

ما دمنا قد تطرقنا إلى الملاهي، وبما أن المباني المرتفعة بدأت تُخفى عنا - متضافرة مع بعد المسافات - الكثير من معالم المدينة فهيا بنا نهبط السلم الحزوني الذي صعدناه، وخلال هبوطنا وربما لمسافة أمتار نمشيها في الشوارع ساحكى لك شيئاً عن أساليب التسرى والتلهي التي كانت تمارس في المدينة .

بداية أقول لك إن الأجانب كانوا يحتفلون بجميع مناسباتهم ويتمتعون بأوقات راحتهم ويستمعون إلى الموسيقى والرقص، لاسيما في أعيادهم وكان (البالو) علامة من علامات تواجدهم في المدينة، وشكلت شركة القناة فرقة موسيقية قوامها مجموعة من عمالها، وكانوا يرتدون ملابس على هيئة ملابس الجنود، واحتفالاتهم كانت تقام في أماكن مخصصة بالإضافة إلى الأماكن المفتوحة على الهواء الطلق، كمسابقات القوارب نوات المجاديف والأشعة، ومسابقات العدو والجري والسير على عمود أفقى مطلى بالشحم، وغيرها من الألعاب والمسابقات والحركات البهلوانية، وكذا الاحتفال بتشغيل الدهبيات . وكانت ترفع الأعلام العثمانية والفرنسية، وتضاء المدينة بالمصابيح الساطعة، وتطلق الصواريخ النارية . وكان هذا يحدث في مناسبات متعددة كاحتفال الشركة مثلاً بعيد الروبويلك، أو بعيد ميلاد إمبراطورة فرنسا، أو بمناسبة استقبال الخديو إسماعيل عند زيارته للمدينة . وفي المناسبة الأخيرة أقامت شركة القناة (بالو) رائعاً حفل بمختلف الأشكال والألوان والملابس (١) .

وكان الأجانب مغرمين بإقامة (البالو) في مختلف المناسبات، حتى إنهم كانوا يحتفلون بمناسبة بداية فصل الخريف الذي كان يعد عطلة وعيداً عند سكان ضاحية شارنتون الباريسية، وهي ضاحية كانت توجد بها مصحة للأمراض العقلية وباسمها سمو إحدى المناطق ببورسعيد ؛ وإن كُنْتُ من هواة المسرح منطى فسوف تتذكر مسرحية الكاتب الألماني بيتر فايس التسجيلية الشهيرة بعنوانها مفرط الطول " اضطهاد واغتيال جان بول مارا كما قدمته فرقة تمثيل مصحة شارنتون تحت إشراف السيد دى صاد " (٢) .

لعلك تسأل نفسك الآن عن العلاقة بين بورسعيد وضاحية شارنتون هذه حتى تتسمى إحدى مناطق مدينتنا الوليدة باسمها ؟.. هل هي حالة الزعماء الثوري التي اعترت حكام مصر قبل الحفر وأثنائه وبعده، أم هي حالة الفوبيا التي أصابت الأكثرية ممن تم تسخيرهم في أعمال الحفر والإنشاء من فلاحى مصر البسطاء ؟ أم هو الإيغال في فرنسا المدينة لا أكثر ؟.. أياً ما كان فقد كان الفرنسيون في عطلة الخريف الشارنتونية يقومون بأنواع مختلفة من الألعاب والمسابقات والحركات البهلوانية، وفي المساء كانت تقام ألعاب ضخمة ويرقص الرجال والنساء على أنغام الموسيقى (٣) .

وقد وجدت بالمدينة فرقاً أجنبية للعرزف الموسيقى لعل من أشهرها فرق " الإيترناسيونال " و " الإفترا " و " الليرا "، وكانت تعزف موسيقاها في الأماكن العامة والمحلات المخصصة . كما وجدت بالمدينة محلات للتمثيل الهزلى والغناء والبلغاء، ولعل أول كباريه أنشأه الأجانب ببورسعيد هو كباريه [Cabaret La Cigale لاسيغال]، ومعنى الكلمة هو الخنفسة . وأنشئ عام ١٨٦٨م أى قبل افتتاح القناة (٤) . وكان يقع عند تقاطع شارعى أوجيني وأمريكا (صغية زغلول ومحمود صدقى حالياً) فى المبنى الذى أصبح فيما بعد مقراً للبوستة الفرنسية قبل إلغاء البريد الخاص . ثم شغلته شركة النصر للتليفزيون، والآن هو طلل خرب.

ولم تكن معظم احتفالات الأجانب تمر دون حوادث شغب أو مشاجرات ومعارك فيما بين بعضهم البعض أو بينهم وبين الأهالى وكان بعض الأجانب وخاصة الأروام والفرنسيين يقومون بالاعتداء على النساء البغايا بمحلاتهم أو بالمقاهى . وقد كثرت شكوى هاتيك النسوة من كثرة الاعتداء عليهن، وعندما كان يتم القبض على مرتكبى هذه الاعتداءات وإحالتهم إلى قناصلهم لمعاقبتهم فإنه كان يفرج عنهم فوراً (٥).

وفى عهد الاحتلال بات البغاء رسمياً، تصرح به الحكومة، وتحمى ممارسيه والقائمين به، وقد ازداد خطر البغاء أثناء الحرب العالمية الأولى وتعاضلت ظاهرة سكير سكارى الأجانب وهم يتوجهون إلى محلات الدعارة، وتزايدت مع تعاظم هذه الظاهرة شكوى

الوطنيين، لاسيما أن من هؤلاء السكارى من كانوا يخطئون الدق على الأبواب، وحدث أن قامت السلطات البريطانية بإصدار في يونيو ١٩١٦م قراراً بإنشاء محكمة للنظر في الجرائم المخلة بالأداب التي تصدر من القوادين أو الشبان الذين يعاكسون النساء في الطرقات وغيرها من الجرائم، إلا أن السلطات المحلية عجزت عن وضع حد لها، لأن قرار تشكيل هذه المحكمة نص على أنها غير مختصة بالنظر في الجرائم التي تقع من الأجانب، وكان هذا الاستثناء أول وأهم عائق أمام الأمانى الوطنية، فالأجانب كانوا يتخذون من الامتيازات سِتاراً يرتكبون من ورائه العديد من الجرائم، ومن الوطنيين المفتونين بسلوكيات هؤلاء الأجانب وأنماط معيشتهم من كانوا يحتمون بهم ليلفتوا من العقاب. وتُرِدُّ ظاهرة البغاء ببورسعيد إلى كثرة أعداد الأجانب بها، وتمتعهم بحرية إقامة المحلات العامة والملاهي والخمارات والمقاهي، وتشبُّه بورسعيد بالمدن الأوروبية. والبخايا كن من جنسيات مختلفة فمتهن الإيطاليات والرومانيات والتركيات والحشيشيات ومنهم أيضاً العربيات القادمات من الشام والسودان؛ والمصريات كن في الغالب من دمياط إلا أن إحداهن كانت من القاهرة وكن يعملن طرف بعض النساء أو في الأماكن التي يديرها الأجانب - رجالاً أو نساءً - وبخاصة من النمساويين والإيطاليين(٦). وقد طالب الوطنيون بقرية العرب بإبعادهم عن القرية، وبالفعل تم نقلهن إلى مكان أعد خصيصاً لهذا وغرف هذا المكان باسم (محطة النساء الفواحش)، وعين على هذا المكان أحد الخفراء، وكان يتم الكشف عليهن بواسطة طبيب صحة ببورسعيد للتأكد من خلوهن من الأمراض(٧). واشتهرت هذه المحطة لدى العامة حتى قبيل إلغاء البغاء بكرخانات الفجالة. وبالإضافة إلى المشاجرات وحوادث الاعتداء التي كانت تقوم في هذه المحطة بين الأجانب والوطنيين، أو بين الأجانب وبعضهم البعض، أو بين الوطنيين بعضهم البعض بسبب هاتيك البغايا، فإنهن كن يتعرضن أحياناً للقتل أو لسرقة ما يملكنه من مجوهرات وأموال.

ولما تعددت هذه الحوادث وزادت خطورتها حُظر عليهن مغادرة محلاتهم أو المرور ليلاً، وإلا أودعن السجن. وقد تم إبعاد عدد منهن عن المدينة، إلا أن بعضهن عدن ثانية إليها. ولأن منهن من كن يرغب في ترك هذه المهنة، فقد كان عليهن تقديم (ضمانة) بأنهن صرن من النساء ذوات الغرض مع مراقبة سلوكهن. وقد أدى وجود ظاهرة البغاء ببورسعيد إلى انتشار بعض الأمراض السرية مثل الزهري، وقد أصيب به عدد من القواصة (٨).

وكان جنود الإنجليز يكثرّون من التردد على أماكن ومحلات البغاء.

وحكّت لى أمى أن أخى الأكبر (يكرنى بنحو خمس سنوات) اختفى ذات مرة من أمام البيت، فلما سأل أبى عنه، أخبره الأولاد بأنهم رأوه يمشى وراء دورية من الجنود الإنجليز،

وأنته اتجه معهم إلى الفجالة فاشتعل يافوخ أبي وتنابط شمروخاً، وجاراه عدد من شباب الشارع، وانطلقوا صوب محطة البغايا ليشاهدوا أخى واقفاً بينهن والجنود الانجليز، وفي يده لوح شيكولاته أعطاه الإنجليز إياه.

ولم يتوقف الأمر عند حدود البغاء، وإنما امتد إلى الاتجار وشرب الخمر فانتشرت الخمرات في المدينة، حتى الشرق كان مقراً للخمرات التي تباع الويسكي والكونياك والبراندى والجن والشمبانيا والفودكا وما شابه، في حين كان كل من حي العرب والمناخ مكاناً للمخانات والغرز التي تتعامل بـخمر مثل: الويسكي والكونياك والبراندى ومعها الزبيب والعرق، ولعل أشهرها مخانة السبع حصون التي كانت موجودة بالمناخ الفوقاني، إلا أن بيع البوظة كان أكثر تداولاً باعتباره الخمر الشعبي الأرخص والأكثر ألفة.

وكانت الخمرات ميداناً للمشاحنات بين الأجانب وبعضهم البعض، وبين الأجانب والقواصة، وبين الوطنيين وبعضهم البعض، وبين الأجانب والوطنيين، وبين الأجانب والوطنيين والقواصة؛ وكانت هذه المشاحنات تنتشب لأوهي الأسباب؛ ولم يكن التبل من الأجانب أمراً ممكناً، وغالباً ما كانت تثار المحافظين، سواء كانوا محافظين لعموم القتال أو محافظين للمدينة وحدها، الإهانة تلو الإهانة من قناصل الدول الأجنبية - أو من وكلائهم - إذا ما تجرأوا على التحقيق مع مثريي الشعب في الخمرات من الأجانب.

وبات تداول الخمر أمراً معتاداً على مقاهي المدينة وفي النواصي، وجارى كثيرون من الوطنيين الأجانب في إقبالهم على تعااطي الخمر حتى لم تخل منها احتفالات الوهم بالأعياد والأعراس، ولم تخل منها الولائم وجلسات السهر. وإلى جوار الخمر المستوردة كانت هناك خمر يتم تصنيعها محلياً ولها محلات للتوزيع، أذكر واحداً منها ظل مفتوحاً حتى بداية الستينيات بشارع النهضة (الشهيد فريق أول عبد المنعم رياض) بالقرب من بازار حي الإفرنج، وكان يبيع الخمر معبأة وسائبة وانتقل - قبل أن يغلّق أبوابه - إلى بيع الخل.

وكان البعض من الوطنيين ينافس باعة الأنتيكات على العملات الأجنبية ببيع زجاجات الخمر للبحارة والسياح، ومن هذه الزجاجات ما هو مغشوش، وصانعو الخمر المغشوش كانوا منتشرين بكل من حي العرب والمناخ، ومن بقايا هؤلاء في الخمسينيات من القرن الفائت " السيد سبرتو " الذي كان يقيم بالدور الأرضي ببيت متهاك يقع عند التقاء حارتي الورشة والعروسي بدائرة حي العرب، وكنا نراه - ونحن صبية - إذ يصنعها ويبرشمها ويغلفها حتى تصبح بهجة للناظرين من شاربى الخمر، فيما صنعها صنعاً من

السبريتو وعصير البصل وبعض الصبغات والسوائل التي لم تكن نعرفها فَنُطْلَق عليه وصف منقوع البراطيش أحياناً، وأحياناً نسد أنوفنا ونَظْهر علامات الإشمئزاز على وجوهنا وتنصايح: " أف .. دى صنَّة " !!

بعد افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية بنحو عشر سنوات، وبالتحديد في سنة ١٨٧٩م، صدر أمر عال بتحريم استيراد الحشيش وزراعته في مصر. وفي تشريع سنة ١٨٩١م، وصلت عقوبة زراعة القُدان - أو جزء منه - إلى خمسين جنيتهاً، لكن تجارة الحشيش في مصر، ومن ثم في بورسعيد، ظلت رائجة، وأقدم الأجانب على الاتجار بالحشيش والأفيون ونشرهما بين الوطنيين محتمين بمظلة الحماية العريضة المفروضة فوقهم، وكان اليونانيون هم أكثر المهربين نشاطاً، ليس إلى بورسعيد فقط، ولكن إلى غيرها من المدن المصرية الواقعة على شاطئ المتوسط. وأغلب ما ضبطته مصلحة خفر السواحل - بتواتر شبه يومي - من سفن هؤلاء المهربين كان أمام ساحل بورسعيد، وكانت القنصلية اليونانية - شأنها شأن سائر القنصليات - تتدخل بالاحتجاج على تعطيل السفن التي تحمل أعلامها، وتقدم تبريرات بطلان دعوى التهريب لينجو المهربون من العقاب (٩).

ومن المشاهد التي ظلت مألوفة حتى منتصف الستينيات مشهد صبية وشباب المدينة وهم يهرولون صوب البحر لمشاهدة إطارات الكاوتشوك أو الصفائح المشوشة بطُرب الحشيش وكميات الأفيون، التي رمت بها الأمواج إلى الساحل قبل أن يتلقفها الذين ينتظرونها من التجار. وقد شاهدت بنفسى العديد من هذه الحالات . وحتى تلك الفترة كانت تجارة الحشيش والأفيون أكثر من رائجة في المدينة، وتجارهما كانوا معروفين سواء كانوا تجاراً للجملة أو للتجزئة ؛ وإذا ما كان تجار الجملة متركزين في أماكن بعينها، فإن تجار التجزئة كانوا موزعين على كل ناصية من نواصي شوارع وحارات حيي العرب والمناخ، ومتغلغلين في عزب فاروق والنحاس والحرية ؛ وانتشرت بين أعشاش هذه العُزب وفي شوارع وحارات كل من الحيين الشعبيين أماكن تدخين الحشيش والأفيون، تلك التي عُرِفَت بمسميات متنوعة مثل : الغُرزة، العُرْق، النُصْبَة، والمخانة. وكان " ناصورجية "

كثيرون يراقبون ويؤمنون عمليات التوزيع والتدخين.

. ونادراً ما كان يمر أسبوع دون أن تتداول المدينة قصة من قصص المطاردات والصدام بين رجال الشرطة وتجار المخدرات . وفي الخمسينيات ذاعت شهرة ضابط شرطة يدعى "عبد الحليم بركات "، وكانت تحكى عما يفعله حكايات أقرب إلى الأساطير، سواء وهو يرتدى يزرته الرسمية أو يتنكر في ملابس الصعابدة أو الفلاحين أو يرتدى ملابس النساء . شيء يشبه ما نشاهده في أفلامنا المصرية الآن . وكان يُحكى عنه أنه لا يخشى جبروت

تجار المخدرات الكبار، وأنه لا يستتف أن يتنكر في هيئة زبال أو شحاذ أو ثأم سبارس، ولم يحدث أن رأينا غير مهتم أو في هيئة تنكرية، وكنا إذا ما شاهدناه - نحن الأولاد - يمر بعربة البوليس الصغيرة ذات الصالون الخشبي الأنيق في شوارع المدينة، تُفسح له الطريق وتلوح له محيين، لأننا كنا نوقن أنه إنما ذاهب إلى مغامرة جديدة سنستمع إلى تفاصيلها في المساء . في مرات غير قليلة رأينا بهجم شاهراً مسدسه على أوكار الأشرار، وإذا ما شهر مسدسه فهذا يعني أنه إنما يقود حرباً حقيقية، فنحبس أنفسنا وتتابع جنود الشرطة الحذرين وهم يتحركون وراءه، بخوذاتهم وصداداتهم وبنادقهم الطويلة المشهورة، وفي مواجهته تجار المخدرات وصبيانهم يقذفونه هو وجنوده بكل ما تطلوه أيديهم من الأحجار والأخشاب وزجاجات المياه الغازية، وقد يصل الأمر بهم إلى القذف بكريات القماش المشتعلة وزجاجات المولوتوف. وقد شاهدت عدداً من هذه المعارك وهي تصل إلى درجة الالتحام، منها ما كانت ميادينها شوارع : " الجيزة " - تحت منزلنا بالتصام - و" الشرقية " و" الغوري " بدائرة حي العرب، أو في شارع " عدلي " و" السوق السودا " و" سوق العصر " بدائرة حي المناخ، وذلك بخلاف معارك أوكار المناطق العشوائية التي كانت تنصدها أوكار عزب " فاروق " و" النحاس " و" الحرية " . وكدت أضيع ذات مرة في واحدة من هذه المعارك، وهي معركة سوق العصر بشارع السواحل بضى المناخ، ووجدتني - مدفوعاً لانتفاذ نفسي - أطلوح بالحجارة في كل اتجاه، ومن أول فرجة بين الأجساد فررت إلى منزلي ولو لم أفعل هذا لأصابني أذى كثير.

ومن كثرة ما ضيق " عبد الحليم بركات " هذا خناقه على تجار المخدرات والحشاشين انتشر دور غنائى يشكو فيه الحشاشون الحال الذى ألو إليه، وتغنى به الصحبجية على آلة السمسمية، منه :

" يلعن ميتينك يا جُوزة
شُرِّيك ما عدش له عوزه
حا نحشش فين؟ "

وانتشرت المقامرات في المدينة، وكان للأجانب دور كبير في هذا، واستخدمت بعض المقاهى أوكاراً للعب القمار، وكثيراً ما تحولت هذه المقاهى إلى ميادين للشجار بسبب غضب هذا أو ذاك من القامرين . البداية كانت مع الأجانب ثم انتقلت إلى الوطنيين . وكانت أوكار الفقراء أكثر عمومية من أوكار مقامرى الطبقة الوسطى أو القامرين من الأعيان، فهي تقع إما عند مداخل البيوت أو على رؤوس نواصى الشوارع والحارات أو بداخل الخرائب، وفي حارات العيد كانت مشاهد حلقات المقامرة أمراً مألوفاً، وكانت لعبة

" الثلاث ورفات " هي الأبسط من أشكال القمار، وكذا لعبة " الطسّة " وهي التسمية المحلية للعبة " ملك والا كتابة " التي كانت تُجرى بقطعة عملة معدنية، لكن لعب الورق ذاته هو الذى كان يستهلك أوقات المقامرين، ومن أشهر مقامرات الورق: " الكومى "، " السويسية"، " الجوكر "، " البوكر "، " سيف " . واستخدم النرد - " الزهر " - فى لعب القمار مجرداً، ومن خلال ألعاب الطاولة بتسمياتها المختلفة . وكما دخلت ألعاب "الدومينو" حلقات القمار هي و" الشطرنج " و" الضامة " دوائر المقامرة دخلت أيضاً المباريات الرياضية، لاسيما مباريات كرة القدم، وكان من الأمور شبه المألوفة رؤية مجموعات من المتراهنين على الفرق المتنافسة وهم يحتنون فى النقاش وإبراز أوراقهم النقدية قبيل مباريات النادى المصرى، أو وهم يتشاجنون على ذات النقود بعدها . إن كل ما هو برئء بات مادة للمقامرة، وباتت من المشاهد المتكررة كيسات البوليس على المقاهى ورؤوس الشوارع والحارات، إن لم يكن بغرض القبض على تجار ومدخنى المخدرات فيغرض القبض على المقامرين.

وفى وقت شاعت أوراق البانصيب " أو " اللوتارية "، وكان مستهلكوها من الكثرة والانتشار بحيث لم يخل منهم مقهى أو محل أو مكتب أو ورشة أو بيت، والحجة جاهزة على ألسنة مكاتب الإصدار، وإن لم تصدقها أفئدة المستهلكين، دعم التعليم والعمل الاجتماعى، ومع هذا فلم يمنع التيقن من زيف هذه الحجة من الإيمان هذا الأسلوب ذى المسحة الرسمية إلى مدى استمر حتى الربع الأول من عقد الستينيات من القرن الفائت.

أما مقامرات النخب من طبقة الأعيان وكبار الموظفين، أولئك المتصلين بالأجانب فى الغالب، فكانت تتم داخل الملاهى، وفى بعض أندية الجاليات الأجنبية الموصوفة بالاجتماعية، وبالخلوات الخاصة : ولم يكن البوليس يجرؤ على المساس بهم . بل إن بعض ضباط البوليس كانوا يرتادون هذه الأماكن .

الفصل الثانى

فى مديح المقاهى

ها أنت قد نطقتها.

تريد أن تتعرف على مقاهي المدينة.

أنت قارئ أريب . تريد أن تتعرف على مجتمع المدينة من خلال مقاهيه، لأنك تدرك تمام الإدراك أنها الأماكن المثلّية لمعايشة الناس ومتابعة أحوالهم.

أنا معك، فالمقهى لا يختزل المدينة والوطن - الذى هو مصر - فحسب، وإنما يختزل العالم كله.

أينما وليت وجهك فى بورسعيد ستجد بدل المقهى اثنين وثلاثة وأربعة. وكما ترى، فإن المقاهى حولنا كثيرة . وهى منتشرة فى جميع أحياء المدينة، قديمها وجديدها، غنيها وفقيرها . إنه الانتشار الذى يجعلها قاسماً مشتركاً لكثير من مظاهر الحياة بها.

فيها يتم إزجاء أوقات الفراغ، وفيها يصنع الكسل ويستثمر إدرار أكبر وأكثر متع ممكنة. منها متعة الراحة بعد الكد، والصفاء بعد الكدر، والتحرر بعد الكبت ؛ لكنها أيضاً أماكن لعقد الصفقات وإبرام الاتفاقات، فيها يلتقى أصحاب المهن والعاملون عن العمل والمتربون والثوريون والبصاصون وأذناب كل سلطة.

ومن مقاهى مدينتنا - مثلكم هو الحال مع مقاهى المدن الأخرى - ما تحول إلى مراتع للصوص والخارجين على قوانين وأعراف وعادات وتقاليد، ففى زواياها توضع خطط

سرقات البيوت والمحلات، وفيها توزع الأسلاب، ويأركانها يُدخن الحشيش ويحتسى الخمر، وعلى مواعيدها تمارس ألعاب القمار، وعلى الجالسين فوق كراسيها يبصصون للماشيات والواقفات في الشرفات والنوافذ توزع أوراق اليانصيب وأمامها وداخلها تنتشب المشاجرات. لذا، فهي هدف دائم لمهامات الشرطة، وهي أماكن تجتهد الحرائر في الازورار عنه، وهن يمشين في الطرقات، تجنباً لمعاكسات قد تصل إلى حد ترك الكراسي والمشي ورائهن.

لكن المقاهي ليست دائماً من هذا النوع، بل كثيرها ليس من هذا النوع، ورواد هذا الكثير أبرياء في ممارساتهم لكسلهم اللذيذ، مخلصون في قتلهم الوقت، يحتسون القهوة والشاي والطبة والأيسون والتنعناع والزنجبيل والسحلب والقرقة والكركيه والعصائر والمشروبات الغازية، ويلعبون بالورق والطاولة والدومينو والشطرنج بحمية وجد ودرنما مقامرة . يقهقهون ويسعلون ويتقلون ويشعلون السجاجة من عقب السجاجة مع كل فُتَّة " ولد " أو جُتَّة " كومي " أو رمية " زهر " أو الإطاحة " بخصان " أو إزاحة " طابية " أو ككشة " ملك " . يفعلون كل هذا وهم يشاهدون أفلام الفيديو أو ما تبثه شاشات التلفزيون ويتبادلون مع بعضهم البعض التعليقات الفجة والعفيفة.

هذا هو حال رواد المقاهي في بورسعيد . هكذا هو غالباً، سواء كانوا من الموظفين أو من الطلبة أو من العيال " الصنيع " أو ممن أصبحوا حكماً بحكم بلوغهم سن الإحالة إلى المعاش . ومع هؤلاء وأولئك يتعايش المنتمون للأحزاب السياسية السرية والعلنية والدعاة الدينيون والمهوسون بسرد أسرار وجهاء المدينة وتحليل تصريحات رجال الدول والتنبؤ بالفائزين في مباريات كرة القدم محلياً والدولية ومن يمتلكون - ادعاءً بالطبع - المفاتيح الضرورية لحل مشكلات العالم . ووسط هؤلاء جميعاً يندس المرشدون والمخبرون، فليس أدهم ولا أشبهى من رواد المقاهي طعاماً يمكنهم تقديمه لضباطهم وأمريهم.

هذه هي مقاهينا ملتقيات للغرباء من الكادحين والمتقنين والغاضبين والمغضوب عليهم في مخادع البيوت، أو في الورش ومكاتب العمل، أو في ميادين الدين والثقافة والسياسة . هي ملتقيات تجدل فيها وتضفر معطيات إيجابية وسلبية كثيرة، معطيات أغلبها ثنائى ضدى، فقد تكون مفرحة أو محزنة، منتمية أو لا منتمية، عظيمة أو تافهة، جليلة أو حقيرة، جميعها يضفر في بعضه البعض ليخرج معطى جديداً في هيئة مغايرة لازمة لبداية نشاط إنسانى فعال.

نعم ... أعرف يا عزيزي أنك تعرف هذا، مثلما أعرف أنك ستصدقني إن قلت لك إن المقاهي في مدينتنا ليست فقط أماكن لصناعة الكسل اللذيذ وكل ما قلته لك عنها، لكنها

أيضاً مستودعات بشرية لأنماط متعددة من الشخصيات والأفكار . وأعجبُ لمن يتعرض لمؤسسات المجتمع المدني ويتجاهل المقاهي، لكان ما يدور فيها لا يوازن بين الحكام والمحكومين، ولكنها بما تحتويه من بشر وما يصطبغ بها من أفكار لا توازي الأحزاب السياسية والجمعيات الأهلية والنقابات العمالية والمهنية في الأهمية.

وإن أردت وصفاً خاصاً بي للمقاهي فأبني سأسوقه لك في ثلاث جمل مبنية على بعضها البعض، ثلاث جمل تؤكد على بلاغة المعنى لا بلاغة اللفظ، اثنتان منها خبريتان أما الثالثة فاستفهامية . هل توافق؟ .. حسناً..

" المقاهي عندي هي مراكز لحرية التعبير".

" .. لذا، فهي يؤر اهتمام قامعي هذه الحرية".

" .. فأين نحن دعاء الحرية من المقاهي ؟".

ثم إن المقاهي هي الميادين التي ينسحب عبرها الأفراد من الخاص إلى العام، فهي نقاط انطلاق إلى دوائر اهتمام مغايرة لدائرة الاهتمام بالأسرة والمهنة شديدي الضيق، وهي أماكن يفتح الوعي فيها على العديد من الآفاق التي ربما بدت بعيدة وقصية، فإذا بها في المقهى تقترب وتدنو، وهي أيضاً مناط نشوء واتصال علاقات إنسانية متشابكة ومتراكبة تنتقل بمرتابديها من الطرف والهامش إلى القلب والمركز، ثم هي تبتدع الندماء وتخلق شركاء الناس وتبتكر أشكالاً من التواد وتهيب الظروف للارتفاق في المصير الإنساني.

وإذا كنت قد قلتُ لك أنفاً إن المقاهي هي مستودعات بشرية للشخصيات والأفكار، فهي أيضاً أماكن تبرهن على صيرورة الزمن، ليس بوصفه تاريخاً ماضوياً، ولكن بوصفه حركة كونية مطردة ومنظمة. وهذا موضوع يطول شرحه، ألا ترى معي أن المقهى بالنسبة لرواده - أو لبعضهم على الأقل - يكاد يكون هو مركز الكون كله ؟

انهض بنا الآن وهيا أريك مقاهي مدينتنا . وبداية أقول لك إنني لن أريك كل المقاهي، فهي جد كثيرة ومتنوعة . منها الشهير والمغمور، ومنها الكبير والصغير، ومنها القديم والحديث . وكان يودى لو استأجرتُ لك ولي دراجتين تطوف بهما على المقاهي الموزعة داخل وعلى أطراف أحياء المدينة السبعة، لكن الدراجة ما عادت تصلح لمثل هذه المهمة بعدما اتسعت المدينة اتساعاً كبيراً. فلنستقل تاكسيّاً إذن، ولنطف به الأحياء القريبة منا، واسمح لي سنترك بورفؤاد إلى وقت لاحق، لأن الوصول إليها يقتضى عبور قناة السويس، وكذا سنترك حي الجنوب - أحدث أحياء المدينة - لأنه ريفي الطابع ويقع خارج المنافذ الجنوبية للمدينة حتى حدودها مع محافظة الإسماعيلية.

حى الشرق (الإفرنج):

ابداً بنا أيها السائق الطيب من حى الشرق : لكن قبل أن تبدأ طوافنا على مقاهى هذا الحى الذى كان يشكل قوام بورسعيد / النواة، أخبرك- عزيزى القارئ- أن عدداً من مقاهيه قد زال إما بجواريف الزمن أو أزاميل التجارة التى استوحشت بعد تحويل المدينة إلى قاعدة لما يسمى الانفتاح الاقتصادى- على سبيل المثال أزيل مقهى البسفور الذى كان يقع على حدود هذا الحى فى مواجهة حى العرب عند تقاطع شارعى صفية زغلول ومحمد على بفعل الزمن مثله مثل الكثير من مقاهى بورسعيد / النواة، وتحول مقهى دى لا بوست الذى كان يقع عند تقاطع شارعى الجمهورية وبينما (المرحوم محمد موسى) إلى محل للحلويات، وتحول مقهى اللوفر إلى محل لبيع الملابس الجاهزة ثم ساعات حالته وأُغلق بالضربة والمفتاح، ومقهى فريال الذى كان يقع عند تقاطع شارعى سعد زغلول ومحمد على تحول إلى محل للعب الأطفال، ومقهى أطلانتا الواقع عند ميدان المنشية تحول إلى بوتيك، ومقهى الغزل الذى كان يقع بشارع ٢٢ يوليو أمام مسجد عبد الرحمن لطفى هدم وأنشئ بدلاً منه برج سكنى، ومقهى الضطوى الذى كان يقع عند تقاطع شارعى سعد زغلول والمغرب أصبح طلاً بعد عين.

أه .. أيها السائق أنت بدأت بشارع الجمهورية .. إنه الشارع الذى حكيت لك قارئى الكريم عن بعض مقاهيه .. لقد مضت أيام معظم هذه المقاهى .. وعلى كل حال سأريك الموجود منها .. مرّ بنا أيها السائق الكريم على مقاهى:

جيانولا	عند التقاطع مع شارع دمياط
باباى	عند التقاطع مع شارع سعد زغلول
بيتزاينو	عند التقاطع مع شارع ٢٢ يوليو
ثم مل بنا إلى مقاهى الحى الأخرى، ومن أهمها :	
العروسة	بشارع ٢٢ يوليو
زيزينيا	بشارع حافظ إبراهيم
براديس (اللياردو سابقاً)	عند تقاطع شارعى رمسيس وبابل
البرنيسية (الجلاب سابقاً)	عند تقاطع شارعى صفية زغلول وفرعون
سمارة	عند تقاطع شارعى صفية زغلول وإفريقيا
أبو طرية	بميدان المنشية
عبد التواب	بميدان السكة الحديد

وطبعاً ما يحيط بها أو يسبقها من مقام يصعب على تذكر أسمائها.

حي العرب:

ما دمنّا قد وصلنا إلى مشارف حي العرب فاسمع لي بأن أنكر لك عزيزي القارئ أنه من المقاهي التي أزالته جواريف الزمن وأزامل الانفتاح الاقتصادي مقهى الشاعر وكان يقع عند تقاطع شارعى محمد فريد (كسرى) والغورى وكان ملتقى " سَمِيعة " السير الشعبية التى يلقيها عليهم شعراء الربابة، ومقهى الاتحاد وكان يقع عند تقاطع شارعى سعد زغلول والهلالية وقد تحول إلى عدة محال، ومقهى ترك وكان يقع بالقرب من تقاطع شارعى سعد زغلول والمنيا وتحول إلى محل تجارى، ومقهى اللش وكان يقع عند تقاطع شارعى الحميدى والغورى وقد قصف فى حرب أكتوبر ١٩٧٣م. وتباع فى مكانه الملابس الجاهزة .

الآن طف بنا أيها السائق الخبير بما تعرف من مقاهي هذا الحي، ولا يفُتكَ الطواف بنا على المقاهي التى سأتذكرها لك مثل :

المصحافة	عند تقاطع شارع محمد على وحارة البنا
الفلاح	عند تقاطع شارعى محمد على وصفية زغلول
الصاوى	عند تقاطع شارعى سعد زغلول وأبو الحسن
أحمد عبد الله	عند تقاطع شارعى سعد زغلول ودمنهوور
الروضة (الفقهاء)	عند تقاطع شارع شهداء القتال وحارة البوصيرى
الجبالي	عند تقاطع شارعى محمد فريد وإبراهيم توفيق
يعقوب	عند تقاطع شارع السواحل وحارة العروسى
البذرة	عند تقاطع شارعى السواحل والمنيا
زهرة الشاي	بشارع الناصر بأرض العرب
ليلي زمان	بشارع نهضة مصر بأرض العرب
بصلة	عند تقاطع شارعى نهضة مصر والصباح
أبو ريان	عند تقاطع شارعى الناصر وتونس
الفوال	طرح البحر

حي المناخ:

وعندما تصل بنا أيها السائق الماهر إلى حي المناخ، مرّ بنا على أبرز مقاهيه لاسيما المقاهي التى أعرفها مثل:

السعيدية	عند تقاطع شارعى المنيا وسعد زغلول
رأس البر	عند التقاء شارعى أحمد عرابى وسعد زغلول
الحماصى	عند التقاء شارعى عدلى وسعد زغلول
النزهة	عند التقاء شارعى الأمين وسعد زغلول
الجزيرى	بشارع سعد زغلول (عمارات ١٥ مايو)
قافوط	عند تقاطع شارعى بنى سويف محمد فريد
وادي النيل	عند تقاطع شارعى المنيا ومحمد فريد
الفيشاوى (البارودى سابقاً)	عند تقاطع شارعى الجعفرية والسواحل
العزب	عند تقاطع شارعى أسوان والسواحل
أبو طارق	بشارع أسوان (منطقة الكويت)

حى الزهور:

لن أتعبك أبها السائق الكريم فى هذا الحى . هي منطقة واحدة ستمر ببعض مقاهيها، ثم شارع واحد سنقطعه لأنه يمر بأكثر من منطقة سكنية . فأما المنطقة فهي منطقة التعاونيات، وأما الشارع فهو شارع عبد الحليم محمود الذى يمر بمناطق سكنية كثيرة اخترت لضيفنا القارئ العزيز بعضاً من مقاهيها .

لنبدأ بمقاهى منطقة التعاونيات، وما اخترته منها هو المقاهى الآتية:

أبو رياض	ميدان بنزرت
الزهور	شارع الأمل
الإسراء	شارع بدر
الخدوي	شارع طيبة
دوار العدة	شارع طيبة

ومن مقاهى شارع عبد الحليم محمود مٌ بنا على المقاهى الآتية:

الباشا	منطقة المروة
الفردوس	منطقة المروة
وادي الملوك	منطقة خالد بن الوليد
أبو طارق	منطقة أبو طالب

حى الضواحي:

اعلم أن حى الضواحي يقع أقصى جنوب المدينة، واعلم أيضاً أن سائقين كثيرين يضجرهم الذهاب إلى هذا الحى إذا كانوا فى قلب المدينة أو فى أطرافها، لكننا الآن فى

حتى الزهور وهو لصيق لحي الضواحي من ناحية حدوده الشرقية، ثم إن مقاهي هذا الحي قليلة بحكم أنه حي حديث النشأة، وأغلب هذه المقاهي متركز في منطقة مساكن بنك الإسكان حيث سوق قطع غيار السيارات المستعملة المشهورة بلغة أهل الكار بـ (المديوح) . فلنتوجه إلى هناك، ولنيسر لقارئنا الضيف مشاهدة مقاهي هذا الحي ومنها:

– هابي – نور الصباح – سميل – العمدة – هاني – ليالي الحليمية

وإن كان لدينا وقت فاعرج بنا إلى منطقة تعاونيات الشباب وأره مقهى الجوهرة السمراء ثم اتجه إلى منطقة الصفا وأره مقهى أبو حشيش.

شكراً لك أيها السائق الطيب، أنزلنا هنا عند هذا المقهى، وتفضل مشكوراً أجرة التوصيلة، وكما ترى هي أكثر مما نصت عليه تعريفة المرور داخل المدينة، وأرجو أن أكون قد عوضتك عما كيدتك إياه من مشقة.

أيها النادل .. لو سمحت .. ابتنى بكوب من الأيسون أو التعناع وانظر ماذا يطلب ضيفنا القارئ العزيز .

لعلك قد تيقنت الآن يا عزيزي من أن المقهى عنصر أساسي من عناصر بنية بورسعيد الحضارية . لقد أريتك نماذج من مقاهي المدينة .. المتبقى من التقليدي الطاعن في الزمن، والحديث الذي نشأ مع نشأة المناطق العمرانية الجديدة . وإذا كان الباحثون لا يملكون ما يحددون به تحديداً قاطعاً الزمن الذي ظهرت فيه المقاهي بمصر، فإن الأمر مختلف مع بورسعيد، فهي بالقطع ظهرت مع نشأة المدينة وخروجها إلى الوجود . وأنا لم أقطع بهذا، على الرغم من أنني لا أميل عادة إلى الصياغات اليقينية، إلا اتكأ على أمرين، أولهما أن مصر عرفت المقاهي قبل نشأة بورسعيد بأزمان وأزمان، ولعلك تعلم أن كتاب وصف مصر، الذي كان الثمرة الثقافية الأشهى والأنضج للحملة الفرنسية كثيرة المساوي، قد تضمن أوصافاً للمقاهي المصرية، وثانيها الرسوم والصور التي نقلت لنا جلسات المقاهي الشعبية بالمدينة منذ كانت في طور النشأة سواء كانت تفرش بالحصر أو ترص فيها الكراسي المصنوعة من الخشب والقش.

وهي دائماً عامرة بروادها، في الشتاء يفرد أصحابها المظلات المصنوعة من القماش المشمع الثقيل - أكثرها أصبح الآن من البلاستيك - وفي الصيف تُرص الكراسي فوق الرصيف وتهبط إلى أسفل الطريق المرشوش بالماء لترطيب الجو. وروادها يأتونها طوال اليوم، لكن الازدحام يبدأ عادة بعد المغرب وأوقات الذروة تكون بعد العشاء إلى ما بعد منتصف الليل بساعة أو ساعتين . ويتكاثر هذا الزحام أضعافاً مضاعفة في الليالي الرمضانية وفي المقابل يتعدم روادها تماماً نهارات هذا الشهر لدرجة أن الغالبية العظمى

منها تغلق أبوابها إلى وقت المغرب.

وكما رأيت، فإن من المقاهى ما لا يتسع إلا للقليل جداً من الكراسى ومنها ما يتسع لمائة كرسي مثلاً . وعادة ما ترص الكراسى والترابيزات على الأرضفة أمام المقاهى وفى أنهار الطرقات . وها أنت ذا قد رأيت أن مقاهى الموسرين والفقراء تتشابه فى أشياء كثيرة، فما من مقهى إلا له نصبة وبه كراس وترابيزات وطاقاطيق، والأكواب والصواني وصناديق المياه الغازية والتلاجات تحيط بكل نصبة، وركن العادة الشرقية التليدة .. عادة تخزين التمباك والمعدل وغيرهما مما يتم تخزينه .. موجودة بأغلب المقاهى، وتتجاور فيهما النرجيلة والشيشة والجوزة ومناقد الفحم وكراسى الدخان.

ومن هذه المقاهى ما يستخدم أصحابها الماركات لحاسبية صبيانه الذين يتعاملون نيابة عنه مع الزبائن، وبعضهم لا يستخدم الماركات وإنما يتعامل بالنقود مباشرة . الفرق الواضح بين مقاهى الموسرين ومقاهى الفقراء يتضح أكثر ما يتضح فى نوعية الديكورات والأثاث ومستويات النظافة وهيئات مقدمى الخدمات وملابسهم .. ففى مقاهى الموسرين ينادى على الواحد منهم بـ " المتر " اختصاراً لـ " المتروديل " أو بـ " الجرسون "، أما فى مقاهى الفقراء فينادى بالـ " واد " أو بـ " الصبى "؛ وتزيد مقاهى الموسرين على مقاهى الفقراء بأنها تقدم لروادها المشروبات التى يطلبونها مقترنة بقطع الجاتوه باعتبار أن المقهى لا يقدم " الطقم " إلا كاملاً، وهذا هو الحال مع مقاه كثيرة مثل: جيانولا وباباى والعروسة وأبو طرية، بل إن منها ما يقدم مأكولات أخرى مثل مقهى بيتزا بينو.

وأجهزة التليفزيون والفيديو والكاسيت أصبحت أكثر شيوعاً الآن أكثر من أى وقت مضى، وقد أسقطت هذه الأجهزة جهازى الراديو والجرامفون من فوق عرشيهما معظما اكتسحت المنشدين وشعراء الرماية، بل إن موضحة جديدة أخذت فى الانتشار السريع هى موضحة مقاهى الت، وهى تتزايد تزايد الذرة بفعل التسلسل الانشطارى. والجلوس فى المقاهى الشعبية لا يستتكون سماع مفردات قديمة لم تمت بعد من قبيل : البكرج (تطلق على البراد) والطويسى (تطلق على طبق الفنجال) والراكية أو الكانون والمنقد (تطلق على موقد الفحم) والمالشة (تطلق على ملقاط الفحم) والشفشق (تطلق على دورق المياه). والتعميرة كلمة برية تعنى إعداد النرجيلة أو الشيشة أو الجوزة للتخزين، لكن التعميرة "الغمسة" تعنى تطعيم التمباك أو المعدل بالحشيش والعياذ بالله. وطبعاً هناك مفردات أخرى متصلة بالسليم أو الشفرة التى يتفاهم بها القهوجية مع بعضهم البعض ومع عامل النصبة بما لا ينبغى أن يفهمه الزبون.

ومهما تنوعت مسمياتها - كما لاحظت بكل تأكيد - ما بين مقهى وكافنتيريا وكوفى شوب

وريستوران فهي جميعها مقاه، ولعلك لاحظت أنه لا يوجد ضابط لهذه التسميات وهي موجودة في المناطق الشعبية وجودها في غيرها . إنها الموضة لا أكثر . لكن المقاهي الأكثر أصالة، تلك التي تشعر بك بأنك في مكان يختزن خبرات وثقافات جديرة بالاحترام، فهي المقاهي التي تحمل لافتاتها مفردة (مقهى) أو مفردة (بورصة) : فالمقهى تعطي إحساساً بالبيئة العربية ثقافة وكرماً ودفئاً، أما البورصة فتبدو أليق بالأفنديا ممن تتصل حيواتهم بالتجارة وبمؤسسات الأعمال والمصالح الحكومية، ولا غرو فالكلمة نفسها تعني - كما تعلم - السوق الذي تعقد فيه صفقات بيع وشراء الأوراق المالية والقطن، وبما أنه لا سوق للأوراق المالية في بورسعيد ولا أقطان، فلا بأس من التمسح باللفظة على الأقل لإعطاء غطاء للصفقات والأعمال التي تتم بالمقهى . ومن تلك التي ما تزال تحمل اسم البورصة :

• حي الشرق :

بورصة براديس (البلياردو سابقاً)

بورصة الصحافة

بورصة أحمد عبدالله

• بحي العرب:

بورصة الصاوي

بورصة الروضة

بورصة الفلاح

• حي المناخ :

بورصة النزهة

بورصة رأس البر .

بورصة الحمامصي

بورصة وادي النيل

• حي القضاوي :

بورصة هابي

بورصة نور الصباح

بورصة سمبل

طبعاً لدى حكايات تحكى عن بعض هذه المقاهي، فمثلاً كانت هناك نية لإقامة مقهى في قلب ميدان دي ليسيس (المنشية) سنة ١٩١٦م، فقد نقل إلينا ضياء الدين القاضي أن أجنبياً اسمه مانولاكس - يوناني في الغالب - تقدم بتاريخ ١٣ مايو ١٩١٦م، بطلب إلى

المجلس البلدي لاستئجار حديقة الميدان بغرض إقامة مقهى لمدة خمس سنوات بإيجار سنوى ٣٦ جنيهًا، ولا أعرف إن كان هذا المقهى قد أقيم أم لا، فلا توجد أدلة تثبت هذا، فضلًا عن قيام البلدية بإعادة تنظيم الميدان عام ١٩١٨م.

وكثيرة هي المقاهى التي كان يجتمع فيها الأدباء منها على سبيل المثال مقهى البسفور الذى كان محلاً لالتقاء الأدباء من الرعيل الأول بالمدينة، وكذا خطباء ثورة ١٩١٩م، ومقهى الاتحاد وكان محلاً لالتقاء الوفديين منهم، ومقهى أطلانطا، ومقهى ترك . وكنت فى مقتبل عمرى أختلف إلى هذين المقهيين لألتقى بزمرة من أصدقائى الأدباء..

أما مقهى اللوفر فقد كان رواده من أبناء أعلى شرائح البرجوازية فى المدينة أولئك الذين يرتدون الجاكت والبايرون، والأجانب كانوا يتقبعون البرانيط أما أبناء المدينة فكانوا مطريشين، وجلهم كان يمسك بالجلة أو بالجريدة أو بالمشقة جلدية المقيض التى يذب بها ذباباً لم يكن يأتى إلى هذا المكان . وجلهم - أيضاً - كان يضع الساق فوق الساق ليبرز جوربه الأوروبى من تحت البنطلون المصنوع من الصوف الإنجليزى وفوق الحذاء الذى يجمع بين الأبيض المدهون بالإسبيداج والأسود أو البنى المورنث بنفس لونه. وفى الخمسينيات كنت أرى رجلاً ذا هيئة فولكلورية .. ملتأناً، نحيلاً، تخطى الأربعين، بوجهه وبالأجزاء الظاهرة من تحت كميه المشمورين باستمرار آثار ندوب وآثار جروح ... وكان يمسك دائماً بجريدة مطوية ويقف أمام رواد المقهى ويردد عبارة لا يغيرها أبداً نصها هو " على باشا الشافعى ضد كل شيوعى فى الأرض " . ولا أعرف السبب فى لؤثة هذا الرجل مثلاً لا أعرف مصيره، لكنه كان بانساً إلى حد كبير.

ومثلاً يحتشد مقهى سمارة فى الوقت الحالى بالسياسيين اليساريين اللتفين حول النائب السابق اليدرى فرغلى، كانت هناك مقاه قديمة تكتظ بالسياسيين . وعدد كبير من المشاركين فى المظاهرات التى اندلعت بالمدينة إبان ثورة ١٩١٩م، إنما شارك فيها انطلاقاً من المقاهى . ورواد مقهى البسفور والاتحاد كانوا من الوفديين المتحمسين فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الفائت، واليساريون اختاروا مقاهى قريال وأطلانطا والفلاح وترك فى الستينيات والسبعينيات من نفس القرن، ومن خلال المقهى الأخير (ترك) تأسس منبر اليسار فى بورسعيد الذى تحول إلى حزب التجمع، وفى الثمانينيات اشتهر مقهى الفوال باختلاف السياسيين إليه من كل التيارات .

ومثلاً كانت المقاهى مصايد للمرشدين والمخبرين كانت أيضاً ميادين للمعارك الانتخابية، إليها ينتقل المؤيدون للمرشحين فى الانتخابات المحلية والقومية فرادى ووزارات وحشوداً، وبها تلقى الخطب وتعقد المؤتمرات والندوات والمحاضرات، و بداخلها وأمامها

وحولها تنشب المشاجرات بين أشياخ هذا المرشح ومؤيدي ذلك. ومن أصحاب المقاهى من أصبح لا يقيم المؤتمرات الانتخابية أو توابعها إلا إذا قبض مقابلاً تقديماً من المرشح أو أحد وكلائه.

وكما أضحت مقاهى بورسعيد ساحات لالتقاء الأدباء والسياسيين، أضحت كذلك منتديات للمهتمين بالرياضة التى تختزل دائماً فى كرة القدم، وعلى الرغم من أنه توجد فى بورسعيد فرق تمارس هذه اللعبة فإن فريق النادى المصرى هو الوحيد ذو الشعبية داخل المدينة. ولا يخلو مقهى من هؤلاء المشجعين ومن المحاكمات التى يعقدونها للحكام واللاعبين والمدربين والمديرين الفنيين وأعضاء مجلس إدارة النادى ، بل لمشجعين من زملائهم، وصولاً إلى أعضاء مجلس إدارة الاتحاد الموجود بجبلية الزمالك بالقاهرة. وفى المقاهى يدبرون وسائل السفر خلف نادبيهم لتشجيعه فى ملاعب المدن الأخرى، وفيها يبتكرون عبارات التشجيع والتنديد ويرسمون الخطط التى تحقق الفوز وينتقدون الخطط التى أدت إلى الهزيمة. ومن المقاهى التى برزت من هذه الناحية مقهى الضيوطى (هلم) . والضيوطى كما تعرف عزيزى القارئ هو أشهر ثعالب كرة القدم المصرية ، وقد انتقل إلى النادى الأهلى بعد صولات وجولات فى النادى المصرى . ومنها أيضاً مقهى رأس البر ومقهى الحمامسى ومقهى النزهة لقربه من الاستاد الرياضى، وداخل هذه المقاهى وأمامها تباع تذاكر النادى بشروط السوق السوداء، كما تباع الرايات والطواقى والكوفيات الخضراء (لون فاناتل لاعبي النادى)، وكذا مستلزمات التشجيع من رتالات ومزامير وطراطين، والطبول أحياناً.

وحتى منتصف الستينيات تقريباً مثّلت المقاهى محطات تنقل يومية للحواة ولاعبى الأكروبات وعازفى آلة البيانولا، يؤدون ألعابهم ومعزوفاتهم ويتلقون ما يتعطف عليهم به رواد المقاهى من قروش قليلة . وما زالت سيرة " نوال كبريت " تتردد على ألسنة من شاهدها . وكانت امرأة غير جميلة بالمرّة، هزيلة شديدة الهزال، قصيرة أقصى ما يكون القصر، لكنها ليست قزّمة، ترتدى الملابس الزاهية على رخصها، ينظّون وأوسع ويلوذة أوسع، والسجائر لا تكاد تغادر شفتيها، وأمام المقاهى كانت تقذف من فمها أسنة الذهب تجاه أوجه الرواد وتقوم ببعض الحركات البهلوانية لتكسب قروشها القليلة. معها - وأحياناً بدونها - كان بعض الصبية والصبايا يؤدون بعض الحركات الصعبة التى تظهرهم كما لو كانت أجسامهم بدون عظام أو أن هذه الأجساد عصىة على الإحساس بلسع النار أو وخز المسامير. وغير عازفى البيانولا ما كان أحد من هؤلاء يجرؤ على المرور أمام المقاهى الموجودة بشارع الجمهورية بحى الإفرنج.

ومن الذين كانت - وما تزال - المقاهى المصدر الأساسى لأرزاقهم ماسحو الأحياء وبناتو القول السودانى والمتاديل الورقية والشحاذون.

ونادرة هى المقاهى التى تقتصر على فئات بعينها . فما من مقهى ترتاده فئة بعينها أو يتجمع فيه ممارسو مهنة محددة إلا استقبلت من هم من خارج هذه الفئة أو المهنة .. فى الماضى كانت هناك مقاهى للبرابرة والبحارة والبمبوطية وتجار سواقط البحر والصيادين والسماكين والعريجية وقارئى القرآن (الفقهاء) وموزعى الصحف وعمال التراحيل وعمال البناء، الآن اخطط الكل بالكل، ولا يكاد يتميز فى هذه الناحية من المقاهى إلا المقهى الذى يجتمع فيه قارئو القرآن (قهوة الفقهاء - الروضة) والمقاهى التى يرتادها تجار قطع غيار السيارات المستعملة (مقاهى المديوح بمنطقة بنك الإسكان). والسبب هو التغيرات التى طرأت على المدينة، فامتدادات النواة اتسعت بما كان بعيداً عن أى تصور، والتحويرات عميقة والواقفون إليها كثر والتفريعة الشرقية لقناة السويس استولت على جزء كبير من طاقة المجرى الرئيس والميناء المحورى أثر على حركة الميناء القديم، وحركة العمران شتت أصحاب المهنة الواحدة، ومهن اندثرت أو فى طريقها إلى الاندثار، ثم هناك الحروب والهجرات الإجبارية لسكان المدينة.

ولقد شهدت المقاهى من مأسى الحروب الكثير.

واسمع لى بأن أصف لك مشهدين اثنين من آخر الحروب التى شهدتها مقاهى المدينة، وأقصد بها - بالطبع - حرب - أكتوبر ١٩٧٣ م. : فقد قصفت الطائرات المغيرة المنطقة المحيطة بمقهى الاتحاد، وكان أن أمسكت النيران فى خيول الجر التى كانت مربوطة إلى عربات الكارو والحناطير على مقربة من المقهى فاندفعت باتجاه المقهى تصهل وترفع رؤوسها وأعناقها إلى أعلى وأعرافها تتطاير لها فى مشهد غاية فى الوحشية لا يولد غير الاضطراب والفوضى والأسى . ولم تفلح محاولات إنقاذها بإطفاء النيران الناشبة فيها، لا بالمياه - على ندرتها - ولا بالأتربة وهلهيل الأقمشة، لتنفق أمام المقهى وتظل روائح احتراق الشعر والجلد وشواء اللحم الحى فى أنوف من وقفوا على هذا المشهد حتى الآن.

وقعت أحداث المشهد الآخر فى مقهى اللنش، فقد قصفت الطائرات الإسرائيلية المنطقة الموجود بها المقهى قصفاً عنيفاً فدمرت عدداً من المنازل وزاوية للصلاة وقتلت الكثيرين من عمال تحسين البيئة بديوان عام المحافظة الذين كانوا قد تجمعوا فى المقهى ليصرفوا رواتبهم من مندوب الخزينة الذى اختار هذا المقهى مكاناً يؤدى فيه وظيفته لأن التعليمات كانت تقضى بالانتشار فى المدينة وترك المبنى المؤقت للمحافظة (مدرسة بورسعيد الثانوية العسكرية) الذى قصف هو الآخر.

وكما تعلم فإن المقاهى فى كل بلاد الشرق ظاهرة ذكورية، وهى كذلك فى بورسعيد، منذ النشأة الأولى وحتى الآن . وعبر كل ما طرأ عليها من تحولات ظلت كما هى، لكن ثمة ظاهرة ثانوية بدأت تظهر وتتغلغل داخل المدينة منذ النصف الثانى من سبعينيات القرن الماضى، أى بعد تحويل بورسعيد إلى منطقة حرة اقتصاديا، وتحويلها إلى سوق استهلاكى للبضائع المستوردة .. سوق جاذب للنشطاء من المسوقين الأجانب والمسوقين المصريين .. هذه الظاهرة تمثلت فى اعتياد المرأة على ارتياد المقاهى . البداية كانت من قبل الأسر الوافدة التى أتعب التجوال أفرادها من ذكور وإناث فالتهمت الراحة فى المقاهى . وبدأت النسوة المتعبات اللاتى يأتين إلى المدينة منفردات فى الجوس بتركان المقاهى . الأجنبيات من مندوبيات تسويق البضائع المستوردة فعن بالمثل، وما لبثت فتيات بورسعدييات أن قلدن ما رأينه وصرن من رواد المقاهى . لكن الظاهرة لم تستغل ولم تتجذر حتى الآن، وغير معروف ماذا عساه أن يحدث فى قابل الأيام.

لعلى أكون قد وفقتُ فى مهمتى، وتكون أنت قد كونت صورة ذهنية واضحة عن أوضاع مقاهى مدينتنا ومرتابيها.

أراك قد انتهيت من مشرويك، إن أردت أن نمكث فى المقهى ريثما نتناول مشروباً آخر فلا بأس، وإن أردت أن ننهض لمهمة أخرى فلا بأس أيضاً.

الفصل الثالث

صداح الموسيقى

فى سنة ١٨٧٣ صرّح بإقامة كشك للموسيقى فى حديقة المنشية (ميدان دى ليسبس) وتم توسيعها لهذا الغرض . وكانت فرق الموسيقى بالسفن الحربية مثل السفينة (دقلة) والسفينة (سير جهاد) وغيرهما من السفن التى تقيم فى الميناء على التى تتولى عزف الموسيقى فى يومى الجمعة والأحد من كل أسبوع للأجانب والوطنيين، وقد تم إنشاء هذا الكشك بالفعل سنة ١٨٧٨م. وكذلك فرق الجاليات الأجنبية، التى ذكرت ك بعض أسمائها أنفاً، ولم تكن الموسيقى تُمنع فى المدينة إلا لأسباب وظروف طارئة مثل وفاة كريمة الجناح العالى، أو وفاة طوسون باشا. وكان يعاد العزف فور انتهاء الحداد فى المحال والأماكن المعدة لذلك (١٠).

وقد نقل كشك الموسيقى هذا من ميدان المنشية (ميدان دى ليسبس) إلى حديقة التربية التى عُرفت لدى العامة بحديقة الباشا - نسبة إلى محمد محمود باشا محافظ القنال - وكانت على مسافة شديدة القرب من مبنى عموم المحافظة، ويطل عليها من ناحية الجنوب نادى العمال، ثم ما لبثت المباني الإسمنتية أن اقتحمت الحديقة ابتداء من مبنى مجمع المحاكم ثم مبنى السنترال فأحد المخازن ثم نادى العمال نفسه الذى تخلص من بنيانه الخشبي الجميل واتخذ هيئة إسمنتية جديدة، وأندثرت الحديقة التى لى فيها ولغيرى من أبناء جيلى و الأجيال الأسبق ذكريات لا تنسى .

وتعاقده المجلس البلدى مع فرق الجاليات الأجنبية الموسيقية ليستمر العزف بهذا الكشك كما كانت العادة معه فى مكانه القديم بميدان دى ليسبس، أى فى يومى الأحد والجمعة من كل أسبوع، وكذا فى أيام الأعياد، وطنية كانت أم أجنبية : لكن هذه الفرق لم تكن تنتظم فى مواعيدها، وحسب ضياء الدين القاضى فقد وصل عدم الانتظام هذا إلى حد أن المجلس البلدى لم ير حلاً لهذه الورطة سوى التعاقد مع الفرقة الموسيقية للأورطة البريطانية الماربطة فى بورسعيد، مما دفع بالمحافظ حسن فهمى بك رفعت إلى التفكير فى إنشاء أول فرقة موسيقية نظامية بالمدينة، واقترح هذا بالفعل على المجلس البلدى الذى رحب بالاقتراح ووافق عليه فى الثلاثينيات من القرن الفائت.

وفى بداية الخمسينيات كنتُ أستمع إلى فرقة موسيقى البوليس المصرى وهى تعرف، بشكل رسمى، فى هذا الكشك بحديقة الباشا مرة كل أسبوع على الأقل، بالإضافة إلى أيام المواسم والأعياد، وأشهر ما كانت تعزف فيه مواكب الرؤية والموكب النبوى والتشريفيتين الصغرى والكبرى، وشاركتها العزف فى هذه الحديقة وتلك المناسبات فرقة موسيقى ملجأ الأيتام، وكان أعضاء هذه الفرقة مهندمون يرتدون ملابس - قريبة من ملابس الضباط - غاية فى الأناقة، ولأنهم صغار السن وبارعون فى العزف ومهندمون فقد كانوا مصدر إبهار لكل من يشاهدهم أو يستمع إليهم، ومن ثم كانت الشرائح العليا والوسطى من سكان المدينة تحرص على استقدامهم لإحياء حفلاتهم فى مختلف المناسبات لاسيما فى حفلات الزواج.

وتميزت هاتان الفرقتان بأنهما كانتا تقدمان المعزوفات الآلية البحتة غير المصحوبة بالغناء أو الحركات الجسدية (الرقص) اللهم إلا حركة الديوس بفرقة موسيقى البوليس المصرى الذى كان يمسك به أحد الماهرين فى تحريكه بين أصابعه وحول ذراعيه وفوق رقبته ويحيط جسده به أو يقذف الهواء به ثم يتلقفه بمهارة ورشاقة، وقد ذكر لنا ضياء الدين القاضى فى الجزء الثانى من موسوعته أسماء بعض لاعبي الديوس وهم أحمد عبد الرحمن، محمد عبد المجيد، وعلى سويلم، والأول طعن بديوسه أحد الشباب فقتله.

لكن الموسيقى لا تكون دائماً عزفاً ألياً بحتاً، وإنما تصاحبها فى أحيان كثيرة نصوص شعرية غنائية وحركات جسدية راقصة، وهذا ما كان متوافراً دائماً فى الموسيقى الأجنبية والوطنية داخل المدينة سواءً بسواء، فكلهما صاحبه الغناء والرقص.

وإذا كانت للأجانب فرقهم الموسيقية التى رعوها وحرصوا على الاستماع إليها فى البارات والكباريات والصلوات ومن أشهرها: سيجال، بلو بيرد، نيويار، ماجيستك، بزديس، التريانون، اسيلند، مرجريتا، الليرا، الأولدرادو، سيسيل، كما قلتُ لك : فقد

تميزت صالة فندق وكازينو بالاس بميزة الانكشاف للمارة في شارعى كتشنر والسلطان حسين، فلم تكن ترتفع عن مستوى إسفلت الشارع بغير خمس درجات، وسورها الخشبي كان قصيراً ورمزياً مما يجعل التطلع إلى ما بداخلها أمراً ميسوراً للمتطلعين من الفتیان وغير الفتیان من الوطنيين.

وقد مثلت لنا هذه الصالة فرصة، طالما اغتنمناها، لمشاهدة كل مايدور فيها والاستماع إلى الموسيقىات الأجنبية، التي غالباً ما كان رواد الصالة ينهضون فور عزفها . وهذا النهوض لم يكن يعنى لنا سوى أننا سنشاهد الرجال الأنيقين - وأغلبهم بحارة - وهم يضمنون النسوة الحاضرات إلى صدورهم، ويدورون بهن كالفراشات أو يميلون إليهم ميل السكارى. وكان أعضاء الباند الغربى ينوعون ما يرتدونه ما بين الردنجات والقمصان المشجرة، وأحياناً كنا نراهم وقد ارتدوا الجلابيب الإفريقية، وأدوات الموسيقيين كانت تشدنى شداً، صحيح أن منها ما أعرفه مثل البيانو والكمان والإسكفون ؛ لكن منها أيضاً ما لم أكن أعرفه، ولم يكن بإمكانى أن أعرفه، لولا تلصصى على هذه الصالة، مثل آلات التشيلو والساكسفون والهارب، التي كنت أطلع صورته أحياناً فى بعض الكتب والمجلات دون أن أراه يعيئنى أو أستمتع إليه بأذننى، رؤية واستماعاً حقيقيين، وكم كان صوت هذه الآلة عذباً رخيماً ؛ لكن ما كان يهمنى وقتها ويشغل مساحات عريضة من نقاشاتنا هو أجساد الرجال والنساء المتلاصقة فى المرقص.

ولدى الوطنيين من العامة كانت هناك ثلاثة أنواع من الموسيقىات بخلاف الموسيقى الشعبية وما يصاحبها من غناء ورقص، وهذه الأنواع الثلاثة هى: موسيقى التخت، موسيقى الآلات النحاسية، والموسيقى الدينية . أهم أدوات النوع الأول كان العود والقانون والناى والرق والطبلة والصاجات، وأهم أشخاصه المطرب والراقصة التي تجيد إثارة غرائز الرجال وبغيرة النساء . وأبرز أدوات النوع الثانى آلات النفخ نوات الأيواق والنقرزان والصنوج النحاسية الضخمة التي كان يُطلق عليه الطاسات لتشابهها مع " طاسات حلل الطبخ " (أغطية أواني الطبخ)، وأهم الأشخاص كبير العازفين الذى غالباً ما يمسك بعصاه قصيرة تشبهاً بما يفعله المايسترو فى فرق الموسيقى الفلهارمونى الكلاسيكية، وهو لا يمسك فى الغالب بأية آلة ليكون حراً فى تلقى النقط ورفق العقيرة بأسماء مُقدميه . أما النوع الثالث فأبرز أدواته الطبل والكاسات والبيارق المكتوب عليها عبارات التوحيد وأسماء الخلفاء الراشدين وأسماء الطرق الصوفية، وأهم الأشخاص كبير المنشدین الذى غالباً ما يمسك بالصنوج ويقود عملية الإنشاد .

وأشتهر من مطربات ومطربي وراقصات النوع الأول - من الخمسينيات وما بعدها -

كثيرات وكثيرون منهم : زينب بغدادى والباتمة ونعيمة ولعة ولواظ وأختها محاسن والأسطى نبوية مصطفى، ونعمت مختار (اكتشفتها الأسطى نبوية قبل الانتقال إلى شارع محمد على بالقاهرة ومنه إلى شاشات السينما) وعزيزة بنت أم رجب وكريمة أبو زيتون وحسن صفرائه وعلي زوية ومحمد خلف وحسن الزجال وغريب أيوب والعربى سأساً ومحمد القطايرى، ومن المطربين من كان يؤدي أغنياته الخاصة به هو بالإضافة إلى أغنيات المطربات والمطربين المعروفين وأغنيات الأفراح المشهورة، ومنهم من كان يؤدي المونولوجات، ومن منظميهم اشتهر الدُّع ولطفى أبو زيتون وصلاح غازى، وانتشرت أغلب محلاتهم بشارع الشرقية في المنطقة المحصورة بين السرايا الصغرى وشارع الغورى وقليلها كان خارج هذا النطاق . ويكاد نشاط الفرق، التي تقدم هذا النوعية من نوعيات الموسيقى والغناء والرقص، يقتصر على إحياء الأفراح المتصلة بالخطوبة وعقد القران. وفي نفس المنطقة تقريباً كانت تتواجد محلات الالاتية، وفيها كان يتم الاتفاق مع فرق الموسيقى النحاسية التي كان أعضاؤها يرتدون الملابس الشبيهة بالملابس العسكرية بما فيها البيريجات ويتزينون بإكسسوارات ونياشين وهمية . وكان ميدان نشاط الفرق من هذه النوعية هو الشارع ويبدأ من زفة العروسين وحفلات افتتاح المحلات الجديدة والإعلان عن الأفلام التي تعرضها دور السينما ويمتد إلى الاحتفال ببراءات المتهمين والإفراج عن المسجونين وطهور الذكور. أما طبول وكاسات الموسيقى الدينية فقد كانت جكراً على جماعات الطرق الصوفية وأشهرها الطريقة الرفاعية والطريقة الشاذلية، كما هو حالهما في سائر البلاد. وكان لهاتين الطريقتين وجودهما البارز في موكبى المولد النبوى و ليلة الرؤية - رؤية هلال رمضان - وكذا عند استقبال الحجيج وفي حفلات الذكر والنذور، وكان الاتفاق مع من سيقوم بأداء طقوس المناسبة يتم في مقار الطرق الصوفية، أما الأدوات فكانت تجلب من أماكن تخزينها في محال عمل وإقامة مستخدميها.

وإذا كان وصف الرسمية هو الوصف الذي يليق بما ذكرنا من أنواع الموسيقى والغناء والرقص، باعتبار أن المجتمع بأغنيائه وفقرائه - والوطنين فيه والأجانب عنه - قد تواطى على قبولها وارتضاهاا للتعبير والتسرية عن قطاعات منه، فقد تزامنت الأنواع الشعبية من الغناء والموسيقى والرقص مع هذه الأنواع الرسمية داخل المدينة، وبالتحديد في حى العرب والمناخ. وواقع الأمر أنه لا يمكن مع الشعبيين الفصل بين هذه الضروب الثلاثة فكل ضرب منها مندمج بالآخر ومتسبب فيه ومتربط عليه، فعندما تُذكر الموسيقى الشعبية فإنما يُذكر الغناء والرقص الشعبيين، وعندما يُذكر الغناء الشعبي فإنما تُذكر الموسيقى والغناء الشعبيين، وبالمثل حينما يُذكر الغناء الشعبى .. ويمكن تصنيف الفنون الشعبية المتصلة

بالموسيقى والغناء والرقص - تلك المنصهرة في سبيكة واحدة - في تصنيفين اثنين أحدهما عام وافد، والآخر خاص أصيل : فأما العام الوافد فأتذكر منه : السَّير، التحطيط، ترقيص الخيول، الزار، العديد، وعروض الفرجة : وأما الخاص الأصيل فالضمة والسسمية. من العام الوافد شاهدتُ واستمعتُ بنفسى إبان الخمسينيات من القرن الفائت إلى كل ما ذكرته لك آنفاً، وما دمتُ تريد فيسعدني أن أسرد عليك بُدأً عن محتويات كل تصنيف بالقدر الذي يعطيك فكرة ولو يسيرة عنها:

عن العام الوافد:

السَّير:

وأعنى بها السير الشعبية من نوع : "أبو زيد الهلالي سلامة"، "عنترة"، "سيف بن ذي يزن"، "الظاهر بيبرس"، "الأميرة ذات الهمة" و "حمزة البهلوان". والأداء الذي استمعتُ إليه وشاهدته، وقت صباي، كان غناءً وموسيقى وإلقاءً للشعر وسرداً للقصص. ورواة السير أو منشدها كانوا يأتون من الريف وأغلبهم من الصعيد، إلى المدينة في كل وقت، ولم يرتبط قدومهم بأية مناسبات، وعرفوا بالشعراء، وكان بيورسعيد مقهى يعرف بمقهى الشاعر تخصص في استضافة شعراء الريف، وكان يطل على شارع كسرى (شارع محمد فريد) في منطقة تجمع الصعايدة بالقرب من حدود حي الإفرنج. وكما هو معروف فإن آلة العزف الموسيقى المصاحبة للسير هي الربابة المشهورة في الريف المصري، ولم أشاهد آلة أخرى إلى جوارها. وكنتُ أقف مشدوهاً، ضمن مشدوهين آخرين، وأتابع أنبهار جمهور المقهى بمهارات شاعر السيرة إذ يعرف ويغني وينظم الشعر ويسرد القصص - منفرداً - باقتدار ومكثّة، ولم أشاهد رقصاً مصاحباً لأدائه، اللهم إلا حركات المستمعين الجسدية وارتفاعات وامتدادات أذرعهم المعلقة عن بهجتهم وإعجابهم بأداء الشاعر.

التحطيط:

قلما كان الغناء يصاحب رقصة التحطيط، وكان الصعايدة يتبارون في استعراضهم لمهاراتهم في استخدام (النيابيت) من خلال هذه الرقصة، التي كانت تمتعنا كثيراً متابعي حلقاتها. وكان المزارم البلدي (الصعيدى) هو أبرز آلات العزف المصاحبة للرقصة هي والطبلة البلدى، وربما اقتصر آلات العزف عليها دون غيرها إذا ما استبعدنا التصفيق بالكفوف. وكانت هذه الرقصة منتشرة - بحدود - في حي العرب حتى نهاية الخمسينيات من القرن الفائت. وكنتُ مولعاً بمشاهدتها وتتبع حلقاتها في سنى الصبا. وقد شاهدتُ عدداً منها يؤدي في قلب نهر شارع محمد على الذي يفصل بين حيي العرب والإفرنج.

ترقيص الخيول:

قليلة هي رقصات الخيول التي كانت تؤدي داخل بورسعيد، وكانت مقصورة على الصعايدة، وشكها هو الأمر مع رقصة التحطيط فإن المزمار والطبلة البلديين كانا أهم آلات العزف والتوقيع لهذه الرقصات . ويمتطي صهوة الحصان كان يُسمى " الرُكَّيب "، وأحياناً ما كان يتم ترقيص حصانين معاً وسط الخلبة، وأثناء الترقيص يتم استعراض رشاقة أداء كل حصان وقدرة كل " رُكَّيب " على التحكم في حصانه، وأحياناً ما كان يشهر كل " رُكَّيب " نبوته في مواجهة منافسه، وينخرطان في استعراض مهارتهما على أداء رقصة التحطيط من فوق صهواتي الحصانين . ولم أكن أشاهد هذه الرقصات في غير أماكن رقصة التحطيط.

الزّار:

كانت هذه الرقصة الطقسية تُقام داخل البيوت في جميع أنحاء الحيين الشعبيين : العرب والمناخ، ولا تفرقة بين سكان هذه البيوت سواء كانوا من البحارة أو من الصعايدة: والهدف منها هو إخراج الجان من أجساد من يتلبسونهم أو فك الأعمال الشريرة وغيرهما من الأمور التي تنغص على بعض الأفراد من الشعبيين حيواتهم ؛ وأكثر الملبوسين بالجان كن من النساء . أما أبرز آلاتها فالطنبورة والطار والمثلث . و" الكودية " هي الراقصة الأولى وقائدة المحفل بأكمله ويعاونها عادة عدد من العازفين هم في الغالب من السودانيين أو النوبيين . وبالإضافة إلى وحشية الإيقاعات التي هي عماد هذه الرقصة، وحالات الهوس الجسدي والصوتي التي تعتري المشاركين فيها، كانت المطالب اللازمة لترضية الجان أو إخراجه عنوة من جسد من تتلبسه كثيرة ومتنوعة، فقد تبدأ بما هو في حجم النملة وتنتهي بما هو في حجم الجمل أو العجل السمين. وقد قلّت هذه الرقصات كثيراً ووصلت إلى حد الندرة.

المديح النبوي:

كان يقوم به " الصبيّة " القادمون من الوجه البحري في الغالب، وأسباب استقدامهم متعددة، منها ما يتعلق بإعلان مظاهر الابتهاج بذهاب أو عودة الحجيج من وإلى الأراضي الحجازية، أو احتفاء الأسر بالمولد النبوي أو بشفاء مريض وأحياناً ما يستدعى " الصبيّة " في حفلات الزفاف أو سبوح المولود أو ظهور الذكور أو لقضاء نذر . وأبرز الآلات التي كانت تصاحب " الصبيّة " الناي والسلامية والأرغول والدف، وأحياناً ما كانت تظهر مع العازفين ألّا الفيوولينا والأوركورديون من الأدوات الموسيقية الغربية . وغلب استجلاب "الصبيّة " في الأماكن التي يقيم فيها الدمايطلة والمطاروة والمنازلة - نسبة إلى القادمين من

دمياط والمطرية والمنزلة - داخل المدينة ومعظم هذه الأماكن كان محصوراً في المنطقة الواقعة غربى حى العرب وشرقى حى المناخ.

العديد:

كان العديد منتشراً في الحيين الشعبيين: العرب والمناخ، وإن ازدادت جلساته كثافة في أماكن إقامة الصعايدة بحى العرب . وكانت جلسات العديد تُعقد عقب حالة الوفاة، قبيل الدفن وبعده، أو عند حلول ذكرى الأربعين أو السنوية، أو في الأعياد والمواسم، وتُمارس طقوسها جلوساً في بيت الميت، أو في الشارع بجوار مدخل البيت إما بسفور وانتكشاف على المارة أو وراء " كُذْكَ " من القماش أو ملابذ تغرد على حوامل . و " الندابة " كانت واسطة العقد في جلسات العديد التي كُتت أشاهدها، واقتصرت هذه الجلسات على النساء المتشحات بالسواد، كلهن كن عجائز مغضنات الوجوه مجمعات الجباه منظرهن يؤلم من يراهن، وكثيراً ما اعتقدت وأنا أستمع إليهن وأشاهدهن أن نهاية العالم توشك أن تقع . " الندابة " هي قائدتهم تقول وتنغنى وتُعدّد مناقب الميت فيرددن وراءها بنفس بحة الصوت وينفس قوة وضعف ولوعة مستويات النواح التي يصدر عنها فأتخيل أن أمعاهن ستخرج من أفواههن . وكن مع " الندابة " يوقعن ما يقللنه أو يخرجنه من أجوافهن من تأوهات بالطم على خدودهن المطلية عادة بالنيلة الزرقاء والتصفيق بالأكف والضرب على الأقباض .

عروض الفُرجة :

واقصد بها عروض : الحواة والقردانية والبهلولانات. وأغلبهم كان يأتى إلى بورسعيد من ريف وعواصم محافظات الوجه البحرى، ومنهم من كان يأتى من أحياء القاهرة الشعبية، وجلهم جُوابو آفاق، جوالين، لم يتركوا شارعاً من شوارع حى العرب وحى المناخ إلا قدموا فيه عروضهم، أما حى الإفرنج فما كانوا يدخلونه إلا نادراً . " النقرزان " كان هو الأداة الرئيسة التي تصاحب الحواة ومعها " الرق "، وقد يلقي الحاروى ببعض الكلمات المنظومة أو المسجوعة بين فقراته : و " الطار " هو ما كان يوقع عليه القردانية لترقيص قرودهم ونسانيسهم ؛ وعلى إيقاعه كانوا يتغنون بالأغنيات المشهورة عنهم : أما البهلوانات فعلاوة على " الرق " - و " الطيلة " أحياناً - كانت آلة " البيانولا " هي البطل الرئيس في عروضهم القديمة، ثم ما لبثت هذه الآلة أن تلاشت واختفت تماماً من المدينة.

عن الخاص الأصيل:

مع الضمة والسम्मسمية الأمر مختلف ؛ صحيح أن البدايات عامة وافدة، إلا أنها ما لبثت أن تزاوجت واستولدت هذين النوعين من الفنون اللذين أصبحا من علامات الفنون

الشعبية المصرية : الأولى تنسب بصفة حصرية إلى مدينة بورسعيد دون غيرها من المدن، والثانية تُنسب إليها بصفة رئيسة وإلى عموم مدن منطقة قناة السويس بصفة ثانوية. وإلى في هذين النوعين من أنواع الفنون الشعبية بحوث ودراسات ومقالات منها ما هو منشور، ومنها ما هو في طور الاستكمال : فإن رغبنا في الرجوع إليها فإننا نغتنى عن ذكر تفاصيل كثيرة، وعلى النهج السابق ساذكر لك بُدأً أرجو أن تعطيك فكرة ولو يسيرة عنها.

الضمّة:

ثمّة خلط يسيطر على الكثير من الكتابات التي تتناول فنون الموسيقى والغناء والرقص الشعبي في مدينة بورسعيد بحيث تعرض لمصطلحي "الضمّة" و"السسمية" باعتبارهما مصطلحين مترادفين للتعبير عن نوعية واحدة من الفنون الشعبية، واقع الأمر أنهما وإن كانا متلازمين في كثير من المواقف، إلا أنهما مختلفان، فالضمّة هي مجموعة من الأفراد - من ذوي الأصول الشعبية - انضموا إلى بعضهم البعض بهدف السمر والغناء . ويعرف هؤلاء الأفراد بـ "الصحبيّة" نسبة إلى وجودهم في صحبة : وأحياناً ما تنسب هذه التسمية إلى كلمة "الضبيجة" المشتقة من الصهباء أي الخمر، لا سيما أن الشراب المُسكر (البوظة في الغالب) وتذخين الحشيش كانا أمرين شائعين في جلسات الضمة، وما أراه أنه ما دامت الصحبة شرطاً من شروط الأداء فإن رد التسمية إليها هو الأمر الأوفق . أما "السسمية" فهو اسم الآلة التي جابت سمعتها الأفاق، وأصبحت تُدرّس في أكاديميات البحث العلمي المختصة بالفنون الشعبية، ليس في مصر وحدها وإنما في الوطن العربي والدول الأجنبية أيضاً . وقد تستعين "الضمّة" بـ "السسمية" وقد لا تستعين، فإن استعانت بها غلب عليها اسم الآلة فتسمى "سسمية"، وإن لم تستعن بها ظلت كما هي "ضمّة". وقد تستخدم آلة السسمية في العزف المنفرد باعتبارها آلة للعزف الموسيقى البحت، وقد تصاحب الغناء أو الرقص، أو تصاحبهما معاً، مثلما قد تصاحب أنواعاً من السرد القصصي، باعتبار أنغامها موفقة فنية مكملّة للأداء السردى .

وارتبطت الضمة بالأيام الأولى لحفر القناة، بالسخرة وبإعمار المدينة وبالعَمَل في الميناء وداخل المدينة الناشئة . أي أنها ارتبطت بالعمل، وبتعبير أدق بأنوقات الراحة من العمل . تحت هذه الشروط التقى الغريب، سواء كانوا من المصريين أو العرب أو الأفارقة أو الآسيويين أو الأوربيين . المصريون كانوا من الفلاحين (بحاروة وصعايدة) والعربان والمهنيين والقواصة والطوبجية وبعض الصقوة : والعرب كانوا شواماً ومغاربة وبمانيين في الغالب : وكان يُطلق على الأفارقة لفظ البرابرة ، وهم إما من السودانيين والنوبة السفلى أو من العبيد المستجلبين من دول إفريقية متنوعة : والأتراك والإيرانيين والهنود

مثلوا قوام الأسبويين : أما الأوربيون فكانوا يتبعون دولاً غير قليلة كفرنسا واليونان والنمسا وإيطاليا وإنجلترا وبلجيكا وهولندا وبروسيا وغيرها . جميعهم ترك موطن إقامته والتقى بالآخرين في هذه المدينة التي نشأت بأيديهم . التقوا وهم يقومون بالوظائف التي حددت لهم، الأجانب والحكام وأهل الصفوة لهم وظائف الإشراف والمتابعة والحراسة، والفقراء لهم وظائف : الحفر والبناء والجر والحمل والسقاية وسائر الخدمات التي تتطلبها أعمال الحفر والبناء .

في هذه الظروف - ظروف السخرة وما تلاها - اقترب الكادحون من بعضهم البعض واجتمعوا في (ضُمَات) للسمر والتسرية عن أنفسهم، ومن خلال هذه الضمات أخرجوا ما يجيش بصدورهم من لواعج الأشواق إلى ذويهم، وما يحسونه من آلام وتبايرح الغربة وأحزان وآمال وتشوفات في أغنيات شجية وبتوقيعات غاية في البساطة والبدائية، تبدأ بالتصفيق بالكف، والدق بالأرجل، والتغيم الصوتي، وتمر بالنقر بالأصابع على الأجسام الصلبة المسطحة كالترابيزات و الدك، والطرق المنتظم بالملاعق والأكواب، وتنتهي بالنبلة والرق : وفي فترة تالية ونقلاً عن الموسيقى الكنسية استخدمت الصحبجية المثلث المعدني . وصارت الضمة مجالاً للتفريغ عن أزمات الصحبجية والإعلان عن أفراحهم وأتراحهم وفيوضاتهم النفسية، وامتزجت فيها تراتيل الموت والجنائز والأناشيد الدينية والابتهاالات الصوفية بالنكات الفجة والأغاني المرحية والرقصات التعبيرية وحركات المهيسة التهرجية والمساجلات اللفظية بمفاخر الأفراد وطوائفهم والبلاد التي أتوا منها.

في البداية كان عدد الضمات محدوداً وعدد الصحبجية قليلاً لقلة أعداد الطوائف التي كانوا ينتمون إليها، فكان أغلبهم من الحفارة والفعلة والتجارين والطباخين والسفرجية، ثم ما لبثت أعدادهم أن زادت، وانتماءاتهم أن تنوعت، بازدياد أعداد وأنواع الطوائف التي استجذبت بمواقع العمل، ومن أهمها طوائف : الاشكارية (الفحامة)، البرشمجية، القلاطية، الفلايكية، العطشجية (الأتشجية)، الميموطية، القماشية، الخياطون، الحدادون، السمكرية، الإسكافية، الحلاقون، النحاسون، المبيضون، النقاشون، الفرانئون، العياشة، الصيادون، السماكون، الحمارّة، الجمّالة، الخضراوية، المنجدون، الصباغون، القباينة، القهوجية، الشربياتلية، الحلوانية، الداخانية، التراجمة، الخدامون، البوابون، الفراشون، وغيرهم.

ولأنه من الطبيعي أن تختلف كل طائفة من هذه الطوائف في ثقافتها وقانونها و" السيم" الخاص بها، عن ثقافات وقوانين و" سيم " سائر الطوائف الأخرى، مثلما هو من الطبيعي أن تختلف تأثيرات ثقافات بلاد المنشأ التي وفد منها أفراد كل طائفة، فإنه من

العادي والمتوقع أن تختلف ردود الأفعال والتعبيرات الفنية التي يبديها أفراد هذه الطوائف في جلسات الضمة التي تجمعهم؟ .. وبسبب من هذا الاختلاف ظهرت في البداية ضمات : (الصعيدة) و (الشراقة) و (المطروقة) و (الدمايطة) - نسبة إلى القادمين من : الصعيد، محافظة الشرقية، مدينة المطرية دقهلية، ومحافظة دمياط - وكانت ضمة الدمايطه هي الأشهر ؛ ثم ظهرت ضمات أصحاب المهن ؛ وضمات العائلات؛ وما لبثت ضمات (المقاهي) و(نواصي الحارات) أن ظهرت هي الأخرى للوجود، ويحسب للضمات من النوعين الأخيرين توجيدها للصحبيجة وإعلانها لما هو فني على ما هو عرقي أو مهني.

وشمة شواهد عديدة تدل على اشتراك الأتراك والشوام والمغاربة في هذه الضمات، فقيام هؤلاء بأعمال الملاحظة في ساحات الحفر والبناء وإدارة المرافق والإشراف على الخدمات، وشعورهم بوطأة الغربة، يسر عليهم متابعة جلسات سمر الوطنيين المرهقين هم والعبيد والخدم الذين يشاطرونهم إرهاباً بارهاق، ويدعم هذا الاستنتاج شيوع أنماط الغناء التركي والشامي والمغربي فيما تغنى به الصحبيجة جنباً إلى جنب أنماط الغناء الوطني والعربي والإفريقي .

ويتضح هذا في اللزومات التركية التي كان يرددها الأتراك المنتشون بسماعهم للأدوار المغناة من نوع : "أمان .. أمان .. أمان " و " يا لى .. يا لى .. يا لى " تلك التي دمجها الصحبيجة في أدوارهم الغنائية مثلما دمجوا الموسيقى التركية التي كانت مسيطرة على الأذن المصرية في ذلك العهد.

وتخاطب الصحبيجة في ضمتهن مع الشوام بأكثر من دور غنائي، منها:

يا رايعين لحلب..

جبي معاكم راح

يا محملين الغنـب..

تحت الغنـب تفاح

ومنها :

متي يا كرام الحى عيني تراكمو

واسمع من تلك الديار نداكمو ؟

وغيرها كثير.

وفعل الصحبيجة ذات الأمر مع الموشح الأندلسي القادم مع المغاربة بتأثيرات تركية بحكم وصول الاستعمار العثماني إلى تخوم بلاد المغرب، وما أكثر أدوار الموشحات التي تغنى بها الصحبيجة بعدما هجنوها بألحانهم التي داخلها الكثير من ألحان الكنيسة

الأرثوذكسية، ويطريقتهم التي لا تعترف بقواعد النحو أحياناً وتلتزم بها التزاماً صارماً أحياناً أخرى، مثلما هو الحال مع دورى "أهوى قمر" و "قاسى ما قاسى" وغيرهما . وإذا كانت التطعيمات اللحنية التركية ومخاطبات الشوام والمقتبسات المغربية من الأمور المبررة وقت نشوء هذا الفن، لتشابه الظروف التي خضع لها المصريون والشوام وقطاع من المغاربة لسنين طويلة، تلك الظروف التي فرضها الاحتلال العثماني، فإن المدهش هو صهر الصحبجية للأغاني والألحان التي تنتمي إلى بلاد لم تخضع لهذا الاستعمار ؛ ويتبدى هذا فى الأدوار التي قوامها مفردات وإيقاعات إفريقية مثلما هو الأمر مع دورى "علشان جبركو .. وعلشان جبركى"، و "تلك بركاتك شنجلا" - والدور الأخير مزج ببعض المعطيات الليبية - وهناك أدوار يمكن ردها إلى أصلها اليمنى ومنها دور "يا مركب الهند يا أم دقلين .. يا ليتنى كنت ريانك"، أكثر من هذا دمج الصحبجية ببعض المفردات المتصلة بالجزيرة والخليج العربيين بما يتغنون به، مثلما هو الحال مع دور "يا لدانا". ونص هذا الدور كما يلي :

أه يا لدانا يا لدانا
حننت جليب العاشقين
أه يا لدانا يا لدانا
الله يعين الصابرين
أنت الذى عزمته يا لدانا
أنت الذى قد خننتنى
يا ليت جليبى دلتى يا لدانا
أنت على جتلى تويت
أسمر ملك عجلى وروحى
يا لدانا أسمر وزودنى حنان
ما تحن يا جليه على يا لدانا
أصل المحبة من زمان
أه يا بنات املاوا وشيلوا
يا لدانا لنهار يطلع عليا
أه يا خوفى المحبوب يقابلنى
يا لدانا أه وأبويا محرج عليا

وقد أضاف الصحبجية إلى هذا الدور بيتين تحية لأسرة عبد العزيز آل سعود بتأثير

من أنباء نجاحهم في توطيد أركان حكمهم للحجاز ونجد. وفيما يلي نص البيت:

مكة تقول للمدينة يا لدانا

لما حكم أبو السعود

آل يحيى ومرعى يا لدانا

وال الشريف عبد العزيز

ولأنه في الغناء الشعبي قد لا يُهْتَم بالقافية مثلما لا يُهْتَم بسلامة اللغة، لذا فقد جاء

البيتان المضافان على هذا النحو .

و" الدان " و" اللدانا " و" الدانا " استهلاكات في الغناء الخليجي، دخلت في نسيج هذا

الدور من أدوار الضمة البورسعيدى، وعادة ما تستخدم استخدام لفظة " أوف " في الغناء

الشامى، و" يا ليل يا عين " في الغناء المصرى .

والرأى عندى هو ما سبق أن أخبرتكم به في مستهل حديثى عن فنون الضمة. إنه

العمل، العمل ولا شىء غيره، فما من شىء يقدر على دمج كل هذه الأنماط اللحنية المنتمية

إلى ثقافات جد مغايرة وصهرها وإخراج نمط مستقل الهوية منها سوى العمل . وقد يسر

من هذا الدمج والانصهار أن الشغلة من المُسَخَّرين والأجراء وملاحظيهم المباشرين مهما

اختلفت جنسياتهم كانوا في الكدح سواء، ولعل هذا ما ميز فنونهم شعبية الطابع عن فنون

الحكام وموظفى الطبقة العليا التى تبد شغفاً بغير الرسمى من الفنون.

وتبدأ الضمة بـ (الجواب) يصدر منغماً عن أحد الصحبجية يُعرف بـ (المُنشِد)، وقد

يُقَطع هذا الجواب ويوزع على المنشدين بحيث يؤديه أكثر من منشد مجزئاً وبالتتابع،

بعدها يأتى الرد من مجموعة الصحبجية منغماً أيضاً .كان يبدأ منشد فيقول:

- وع البنات اليكّر..

فيتبعه آخر قائلاً:

- .. لاسعى واسافر..

ويكرر صحبجي آخر أو نفس الصحبجي الأول:

- .. ع البنات اليكّر..

فيرد الصحبجية :

- العيون سودة والشفاف سكر.

ويهدف (الجواب) و(الرد) إلى تحقيق أحد الأمرين التاليين أو كليهما معاً:

أولهما: تهيئة الجو للصحبجية للدخول في الغناء.

ثانيهما: تهيئة الجمهور (السميعة) للمشاركة الإيجابية.

وكما يكون الجواب في بداية الضمة، فإنه قد يكون في بداية الدور، ويقوم في هذه الحالة مقام مفتاح الدور. ولا ضابط للجوابات فقد تكون دينية الطابع أو غزلية أو إباحية أو تجارية (نداءات الباعة)، مثلما قد تكون قصيرة أو طويلة، وقد يحدث أن يمزج الصحبجية بين جوابين أو أكثر. والنصوص والأمثلة كثيرة وليس هنا مجالها.

ولكل ضمة (ريس) يحترمه الصحبجية ويسمعون له . وهو في العادة أكبر الصحبجية سناً، وأكثرهم مهارة، وأحفظهم للأدوار، وهو الذي يوزع الأدوار، وقد يبدأ هو بأول (جواب)، ويتميز عن بقية الصحبجية بأنه قد يكثر من أداء الأدوار، ويمكنه أن يوقف أى منشئ يؤدي بطريقة خارجة عن النغم أو القول السليم . ومن العرف ألا يسمح (الريس) لأحد بالمشاركة في الضمة ما لم يئل الإجازة لهذه المشاركة . ولا تمنح هذه الإجازة بسهولة لأى راغب، إذ لايد له من تدريب صارم على يد صحبجي قديم أو أكثر من صحبجي، وعليه أن يحضر عشرات الضمات ويقف مع (السمعية) وأن يحفظ ويجيد.

أتوقف عند هذا الحد لأحدثك عن السمسية، وإن أردت المزيد عن الضمة فأرجع إلى ما ننشره من بحوث ودراسات ومقالات.

السمسية:

بظهور آلة " السمسمية " خماسية الأوتار طرأ تطور كبير ليس فقط على الموسيقى الشعبية التي كانت تعزف بالمدينة، وإنما أيضاً على الغناء والرقص وفنون الأداء الداخلة في لحمتها. ونشأ بظهورها فن جديد هو فن " السمسمية "، وأصبح ما يُغنى بمصاحبتها يسمى، كما سبق أن أخبرتك، بـ " أغاني السمسمية "، وكذا الرقص وفنون الأداء الأخرى. واختلف الباحثون في منشأ هذه الآلة، فمنهم من ردها إلى جذور مصرية قديمة كـ "الكينر" أو " الكنارة " - التي أضحت القيثارة - و" الطنبورة "، ومنهم من توغل جنوباً فردّها إلى القرن الإفريقي، أو شرقاً ليرجعها إلى الجزيرة والخليج العربيين ؛ ومنهم من أوقف نشأتها على المدينة وجعلها ابتكاراً خاصاً بها على الرغم من تشابهها مع آلات وترية أخرى منتشرة جنوباً وشرقاً.

وعن جاء بهذه الآلة إلى بورسعيد أو ابتكرها . ترددت حكايات عن شخصية هي إلى الأساطير أقرب . هذه الشخصية هي شخصية عبد الله كبيرير. والحكايات عن هذه الشخصية متضاربة ومختلف عليها . أحياناً تُصفى عليها هالات من التقديس وأخرى يُنزل بها إلى أسفل سافلين . بداية الاختلاف تتصل بما يحكيه الصحبجية عن موطن صاحب هذه الشخصية الأصلي، فمنهم من وصفه بالسوداني ومنهم أيضاً من قال بمصريته وأنه إنما جاء إلى بورسعيد من النوبة؛ وهناك صحبجية يقولون إنه شارك في حفر القناة، في

حين يقول آخرون بأنه لم يكن سوى شحاذ يتسول لقمته من أيدي الناس، ونعته نفر منهم بالخمورجي (شارب الخمر الذي قلما يفيق) وحذبوا ما يتجرعه بالبوطة، وأوجدوا له مكاناً معروفاً بـ " السبع حصون " بالمناخ التحتاني، وقال هؤلاء بأن هذه المنطقة هي المكان الذي انطلقت منه معزوفات السمسمية للمرة الأولى في المدينة، وأنه راح يطوف بنغماتها على البيوت متسولاً عطايا ساكنيها كسرات من الخبز أو ملايم قليلة، ونفر آخر من الصحبجية نفى أي علاقة لكبرير هذا بألة السمسمية وقصر دوره على مشاركاته كفقير أسود في دقات الزار عازفاً على آلة الطنبورة، لكن آخرين استهولوا أن يوصف من تنسب إليه ألهم المحبوبة بأوصاف كهذه فاستبدلوا نقيضها بها، وقالوا بأنه كان أفندياً يرتدى البدة والكرافطة والطربوش.

ومن فرط ذبوع صيت هذه الشخصية ترددت الحكايات عنها في منطقة قناة السويس بأسرها، ويمكن بتحليل بسيط لهذه الحكايات وصف هذه الشخصية - على فقرها وضعف حيلتها - بالخارقة، لظهورها بالتزامن في محافظات السويس والإسماعيلية في نفس أوقات ظهورها في بورسعيد. وهي أوقات اختلف في تحديدها أيضاً وإن انحصرت في ثلاث محطات زمنية تاريخية؛ أولها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أي عند بدء حفر قناة السويس (١٨٥٩م)؛ وثانيها في النصف الثاني من الثلاثينيات من القرن العشرين، أي مع معاهدة (١٩٣٦م)؛ وثالثها في النصف الأول من خمسينيات ذات القرن، أي مع إلغاء المعاهدة (١٩٥١م). وقيام ثورة يوليو (١٩٥٢م). وما تبعهما من أحداث، وما من رواية يمكن التحقق منها لخلوها من الأسانيد، لاسيما أن أكثر رواة هذه الحكايات لم ير عبد الله كبرير أو يعايشه، ومن زعم أنه قد رآه لم يقدم الدليل على ذلك . وأنا واحدٌ ممن يشككون في ابتكار هذا الرجل - إن كان له وجود حقيقي - لألة السمسمية أو حتى استخدامه لها.

والشك والاختلاف في علم الفولكلور ليسا فقط أمرين واردَيْن، لكنهما أيضاً منتشران ، ربما أكثر من الحقائق المثبتة، لسبب بسيط هو أن هذا العلم فرع من فروع العلوم الإنسانية، والإنسان متغير - كما هو معروف - بتغير الزمان والمكان - من هذا المنطلق، وفي ظل غياب الأدلة التوثيقية - إذ لا صور فوتوغرافية لعبد الله كبرير هذا ولا مواد فيلمية ولا مستندات ورقية أو مسجلات صوتية ولا حتى وقائع يرويها رواة ثقافة - وبافتراض أنه كان لهذه الشخصية - مع هذا - وجود فعلي في بورسعيد ؛ وارتكازاً على نتائج جهد متواضع مني ، اعتمد على التحليل المنطقي لبعض الشواهد، منها ما يتعلق بالتركيبة السكانية والحراك الاجتماعي وثقافات الجماعات الشعبية المتواجدة بالمدينة، ومنها ما

يتصل باستخدامات آلة الطنبورة ذات الأصول الإفريقية والعربية، وما عُرف عن دقات الزار وأماكنها والمشتغلين بها داخل بورسعيد، ومنها أيضاً ما يرتبط بجمع ومقابلة وتحليل ما حكى عن ذلك الرجل الغامض، فإنه يمكنني ذكر أربعة أمور احتمالية عنه، أوجزها فيما يلي :

- كان بريبرياً أسود رقيق الحال.
- جاء إلى بورسعيد في أواخر الثلاثينات أو أوائل الأربعينات من القرن العشرين مع فيض البرابرة الذين وفدوا إلى المدينة في ظروف الحرب العالمية الثانية بحثاً عن الرزق .
- كان يعزف على آلة الطنبورة في دقات الزار، وأخرج هذه الآلة إلى ما يمكن أن نطلق عليه مجازاً وصف (مقهى) السبع حصون.
- ربما كان سكيراً أو حتى حشاشاً.

وتحضرني هنا أمزوجة قصيرة كانت ذائعة على ألسنة الأطفال فيما يلي نصها:

إحنا ثلاثة برابرة

جايين م السودان

نشرب جوزة وخمرة

ونصبص ع النسوان

وأحياناً ما كانت تستبدل كلمة بوظة بكلمة جوزة التي تستخدم عادة لتدخين الحشيش.

ولعل أقصى ما يمكن نسبته إلى هذا الرجل هو إخراج آلة الطنبورة من دقات الزار إلى مقهى السبع حصون، وكانت تقع عند التقاء شارعى سعد زغلول والأمين، بمنطقة المناخ التحتاني.

واعتقد أنه قد أن الأوان لأنتقل بك عزيزي القارئ من الحديث عن شخصية هذا الرجل المحيرة إلى الحديث عن الطنبورة ذاتها، تلك التي يمكن اعتبارها أم السسمية، الطنبورة الموهلة في الزمن، التي عرفتتها الحضارتان المصرية والآشورية مثلما عرفتتها إفريقيا والجزيرة العربية . وعلى الرغم من أن طنبورة المصريين القدماء كانت - كما تظهرها نقوشهم - دقيقة الحجم خفيفة الحمل، فقد اتصفت طنبورة الزار بالضخامة والثقيل، لدرجة أن العازف عليها لم يكن بمقدوره حملها أو حتى إسنادها على ركبتيه أو فخذه، مما يدل على أن أصولها غير مصرية، وأنها إفريقية أكثر منها عربية . وكانت هذه الطنبورة تثبت على الأرض في وضع رأسى بحيث يمكن العزف عليها من وضع الجلوس أو وضع الوقوف. وكان صندوقها الرنان عبارة عن نصف قرعة عسلي مشدودة عليه قطعة من جلد الماعز فيها ثقبان ومثبت بالجزء الصلب من نصف القرعة مثلث خشبي ضخم قمته تبدأ من

وسط نصف القرعة وقاعدته لأعلى، وأوتارها خمسة مصنوعة من أمعاء الحيوانات أو من التيل، وكانت هذه الأوتار تشد إلى قاعدة المثلث بواسطة قطع خشنة من جلد الماعز أو من القماش الثخين تسمى الحوايا أو الحياصة، وكانت الأوتار من الشخانة بحيث تصدر أنغماً إفريقية غليظة ومع هذا رخيصة.

ومن عازفي الطنبورة المعروفين : إبراهيم البشير، إبراهيم خلف، عبده أبو عزيزة، الإخوان محمود ومحمد أبو سيع، وعائلة عم ياقوت : والأول كان سودانياً.

ويُنسب لإبراهيم خلف ابتكاره آلة السمسمة، وإن عمل البعض على التشكيك في هذه النسبة؛ لكنني أزعّم أنه هو مبتكرها، وزعمى هذا إنما هو استنتاج يرتكز على مجموعة من الدلائل منها ما يتصل بالعائشة والمشاهدة الشخصيين :

أولها : رُويت لهذه الآلة لأول مرة في المدينة بين يدي إبراهيم خلف في النصف الأول من خمسينيات القرن الفائت.

ثانيها : أنني لم أرها - قبل رؤيتي لها معه - في أي جلسة من جلسات الضمة التي كنت مغرمًا بمتابعتها في سنى الطفولة سواء تلك التي كانت تُعقد أسفل بيتنا أو في الشوارع والحارات القريبة.

ثالثها : أنه لم يثبت قيام أي من الصبحجية بالعزف على السمسمة قبل تطواف إبراهيم خلف بها في شوارع وحارات الحيين الشعبيين بالمدينة.

رابعها : أن زوج أم إبراهيم خلف - حسبما ذكر لي بعض الصبحجية فيما بعد - كان من العازفين على آلة الطنبورة في دقات الزار، مما أتاح لإبراهيم ليس فقط العزف عليها وإنما أيضاً دراستها.

خامسها : أن إبراهيم خلف كان من مرتادي ما نسميه على سبيل المجاز بمقهى السبع حصون، التي قيل أن أول خروج لنغمات السمسمة كان منها.

سادسها : أن إبراهيم خلف والعازفين على آله ظلوا خارج جلسات الضمة لفترة، لأن الصبحجية كانوا ينظرون في بادئ الأمر إلى آلة السمسمة بتوجس، شأنهم في هذا شأن كل من يجد نفسه في مواجهة أمر جديد لم يعتده .

وقد يكون من المفيد أن أذكر لك هنا أن إبراهيم خلف قد خرج على ما كان مستقراً في جلسات الضمة، فقد كان يعزف ويؤدي أنواره هو وأصحابه من الوضع وقوفاً، وقد رأيتهم يفعلون هذا في أكثر من مكان، في حين أن أوضاع الأداء في الضمة كانت قد استقرت على وضع الجلوس، بل إن منها الكثير الذي كان لا يؤدي إلا بالجلوس على الأرض، ولذا سمي هذا النوع بالضمة الأرضية.

والبدائية مع آلة السمسمية كانت غاية في البساطة، فالأمر كله لم يتعد تصغير آلة الطنبورة، فاستبدل إبراهيم خلف طبق صاج " غويط "، من نوعية الإطباق التي كان استخدامها شائعاً بالبيوت في أوائل الخمسينيات، بنصف القرعة . من هذا الطبق سيصنع الصندوق الرنان أو " المصوت " ؛ ولن يتطلب الأمر سوى أن يشد على هذا الطبق جلد أرنب بدلاً من جلد الماعز ؛ وما أسهل أن يقوم بتغيير المثلث الخشبي، فالأمر لا يحتاج لغير ثلاث خشبيات من كتاسة أي نجار أو من أي صندوق للشاي أو حتى للصابون، يتم تشذيبها يدوياً أو بمعرفة الخراط ثم تربط إلى بعضها البعض على هيئة المثلث المقلوب، قاعدة هذا المثلث تسمى " الفرمان " أو " الحمالة " وكل ضلع من الضلعين الآخرين يسمى " المأد "، وتشقّب قاعدة المثلث - " الحمالة " - لربط الأوتار؛ وبدلاً من ربط الأوتار بالحياصات والحواليات المصنوعة من الجلد أو القماش الخشن تستخدم قطعاً خشبية صغيرة أطلق عليها وصف " المغاتيح " لأن كل واحدة منها تدار في الثقب الخاص بها - كما يدور المفتاح في ثقب أي قفل أو باب - وأحياناً يسميها الفنان الشعبي " الملاوي " لأنها تماثل ثقب " الحمالة "، ويديرها العازف عادة إذا ما أراد شد أو إرخاء الوتر لضبط أنغامه.

الجديد كان مع الأوتار، فالأوتار القديمة المصنوعة من التيل أو أمعاء الحيوانات لا تليق بالحجم الجديد بالغ الصغر بالمقارنة بالأصل هائل الضخامة ؛ والبديل كان متاحاً وجاهزاً .. إنه سلك التليفون .. السلك النحاسي الأحمر .. ولا بأس أن يكون سلكاً صلباً .. إنه السلك الذي كان موضوعة ذلك الوقت .. صيادو السمك بالسنارة أو بالخطاف استعاضوا بهذا السلك عن الخيوط، ومن أراد لف شيء في ذلك الوقت لم يلفه بالدوبار وإنما بسلك التليفون، حتى سيدات البيوت كن قد فضلن في ذلك العهد استخدام سلك التليفون المضغوط على حبال الغسيل.. وقدم السلك نفسه لإبراهيم خلف طواعية فاختار أوتاره منه وفردّها من الفرمان حتى قلب الطبق، الذي غطاه جلد الأرنب وجوله إلى " مصوت " أو صندوق رنان، واستعان بقطعة خشبية صغيرة سماها الحصان أو الفرس - أطلق عليها بعض العازفين الحاليين اسم الكرسي - لرفع الأوتار ملليمترات قليلة عن الجلد الذي يغطي الطبق، وهكذا حدث أن تم تصغير الطنبورة إلى أدق حجم ممكن. وللأوتار الخمسة تسميات مختلفة، أشهرها بالترتيب من أسفل إلى أعلى (من وضع العزف) " الدبابة " ثم " البوق " ثم " المجاور " ثم " الرداد " ثم " الشرارة ".

وأكاد أتصور حجم الفرحة الممتزجة بالدهشة والانسجام والعازفين الأول - وفي مقدمتهم إبراهيم خلف - وهم يكتشفون القدرات اللحنية التي أتاحتها لهم هذه الآلة بالغة

الصغر والقصر، حتى أن أحدهم - مجهول - أطلق عليها وصف " المسمسة "، ولا غرو فهي - مقارنة بألمها الطنبورة - تكاد تكون أشبه بحبة السمسم أمام حبة البطيخ، ولأن نغماتها من العذوبة والطلاوة بحيث استملحها السميعة، ورأوا فيها حالة تشابه الحلاوة التي يدخل السمسم في صناعتها، تلك المعروفة بـ " السمسمة "، لذا استساعت الجماعة الشعبية إطلاق هذه التسمية عليها، وما زالت بها - حتى أطلقتها على مجموعة الفنون التي تصاحبها بالعزف - غير أن هناك من يقف إلى جانب الكابتن غزالى بالسويس في رد التسمية إلى لفظة عامية قالوا إنها أصل التسمية، وهي لفظة " تمتمية " المشتقة من الفعل العربى الفصيح " تمتم " . وأنا لا أرى، عزيزى القارئ، هذا الرأى ولا أوافق عليه، لأن التتممة - حتى مع اللهجة العامية المصرية - هي ترديد لما في الكلام من تاء وميم فلا يكاد يفهم المعنى أو المقصود، وفنون " السمسمة " غير هذا تماماً.

وقد هيأت التطورات التي شهدتها مدينة بورسعيد ومنطقة قناة السويس فى الخمسينيات والستينيات والربع الأول من السبعينيات من القرن العشرين الفرص أمام السمسمة للتعب واحداً من أهم الأدوار الوطنية، ففي الخمسينيات أُلغيت معاهدة ١٩٣٦م، وتحقق الجلاء، وتم تأميم شركة قناة السويس ، وأُفشلت مؤامرة سحب المرشدين الأجانب، وتم دحر العدوان الثلاثى ؛ وفى الستينيات وقعت هزيمة ١٩٦٧م العسكرية، ونشبت حرب الاستنزاف، وتم تهجير سكان المدينة اعتباراً من سنة ١٩٦٩م. ؛ وفى السبعينيات تحقق انتصار أكتوبر ١٩٧٣م، وبدأت عودة المهجرين إلى المدينة فى ١٩٧٤م. وتجاوبت السمسمة مع هذه الأحداث جميعاً، وعبرت باقتدار عن روح الصمود والمقاومة، وعن مخاوف الجماعة الشعبية وآمالها، ومباهجها وأحزانها، وأصبحت أدواتها الرئيسة لمواجهة متاعب الحياة، وللتحرر من قيود الفقر والحاجة، ووسيلتها لاكتشاف مكامن القوة فيها ؛ على أنغامها يبكى أفرادها ويضحكون، يستحضرون الوطن فى لثمتهم، يغنون له ويرقصون، ييثون حبيباتهم لواعج عشقهم، وعلى أنغامها يجابهون ليالى الأرق والسهاد، يجمعون البشر - كل البشر - فى حناجرهم ويتلبسونهم فى أجسادهم ويتوحدون مع الكون.

والأدوار التي تدل على ما قلنا به جد كثيرة وتستعصى على الحصر الشامل نذكر منها فى الوطنيات - إن صبح فصل ما هو وطنى عما هو حياتى أو كونى - المرتبطة بحرب ١٩٥٦م أدوار " ما تقوليش .. ما تعدلش .. كان صحيح هنا الإنجليز "، "سالة يا سلامة "، " فى بورسعيد الوطنية "، " سبع ليالى وصبحية "، " بحروف من نور وحروف من نار "، " مورهاوس "، " يا بورسعيد شباب ورجال "، " مع السلامة بامهاجرين "، " يا أخى فى مولد طنطا " . ومن الأغانى التي تلت النكسة وصاحب حرب الاستنزاف وفترة

التهجير " يا دنيا غنى واشجينا "، " إحننا شباب النصر "، " كنفأ سلاح "، " ها نخطى ..
ها نعدى "، " رفرف يا نسر فى السما "، " عاش الطيران والبحرية "، " هجرنا المصنع
والولاد "، " قفلوكى يا بورسعيد "، " هانت يا بلاطوة "، " فجر الرجوع أهو لاح "، " مركبتنا
المهاجرة "، " بحار من بورسعيد "، " والأغنيات التى عبروا بها عن إقبالهم على الحياة كثيرة
ومتنوعة منها على سبيل المثال لا الحصر: " مجلا البواخر فى المينا "، " شلبية "، " هشدك
مرزوقة تعالى جنبى "، " الحلو عدا "، " أنا بورسعيدى أصيل يا بنى "، " م العزبة لراس
البر "، " يا مسافر كام يوم "، " أم الخلول "، " أنا كلت شبار "، " اليسوسة "، " منجة .. يا
منجة "، " لما أبص ألقى الأحباب "، " بنات اليوم "، " هل الربيع "، " الليلة ليلة جميلة "، " يا
سلام ع البحر الأبيض "، " يا حلو رق وكلمنى "، " والنصوص كثيرة .

وكعادة الشعبين هى نصوص مليئة بالاعتباسات، تلك التى يطلق عليها الصحبجية
وصف الاستلاف . ومن خلال هذا الاستلاف يفعل المغنى الشعبى الكثير فى نصه، فهو
يُطعمه بالأغاني الشائعة سواء سمعها من الجرامفون أو الفونوغراف أو الراديو أو شاهد
ممثلاً يؤديها فى السينما أو فى صالة أفراح أو حتى على خشبة مسرح، وهو حر فيما
يفعله من خلال هذا الاستلاف، فقد يدمج مقاطع من أغنيات شعبية ربما قام - وسيقوم -
بأدائها مع الصحبجية بصورة منفصلة ومستقلة بذاتها ومكتملة فى ضمات أو سمسيمات،
لكن فى ضمات وسمسميات أخرى يقطع منها ما يراه لازماً لخلق الحالة التى يريد،

ويمزجه مع ما يهوى ويرغب من مقاطع استلّفها من دور أو أدوار أخرى.

المهم أنها بالشكل والمكونات والاسم والتوجه والنغمة الجديدة، وكل ما أدخلته على
الغناء الشعبى بالدينة، أخذ هذا الفن منطلقاً جديداً واكتسب أراضي جديدة وسميعة
مغايرين، وذاع صيتها ليس فقط فى بورسعيد أو فى منطقة قناة السويس أو فى مصر
وإنما تخطى حدود الوطن إلى مناطق عديدة مجاورة وقصبة.

وأصبح للسمسمية باسمها البورسعيدى تواجداً واستخداماً، ليس فقط فى مناطق
أخرى غير منطقة السويس بمصر مثل : سيناء وأسوان والنوبة، وإنما فى عديد من الدول
مثل : اليمن، السعودية (بنبع، أملج) عُمان (حضر موت)، الأردن (العقبة)، فلسطين
(القب)، لبنان .

ووجد المبتكرون من الصناع الشعبين داخل بورسعيد فى الآلة الجديدة ميداناً
لتصميماتهم، فطوروا فيها، وغيروا من صندوقها الرنان، ومن مثّلتها، ومفاتيحها، ومن
أعداد أوتارها، وأدخلوا إلى صندوقها الرنان الكهرباء ومكبرات الصوت، حتى بات كبار
السن يتشوقون إلى شكلها البدائى الذى جعل صناعتها طوع يمين أى صبي يرغب فى

ذلك . لقد فعلت المخيلة الشعبية بهذه الآلة الكثير . ويمكن رصد بداية التحويرات التي طرأت على هذه الآلة اعتباراً من الربع الأخير من سنة ١٩٧٤م - تاريخ عودة سكان المدينة إليها من التهجير الجبرى الذى بدأ سنة ١٩٦٩م - فاعتباراً من هذه السنة تعاقت على فنون السمسسية والضمة متغيرات كثيرة مدمر وقليلها داعم. وكادت تندثر تحت ركام البضائع التى أدخلها الانفتاح الاقتصادى إلى المدينة. وكاد أثرياء الطفرة أن يفسدوها هم وفنونها. لولا جهودنا نحن المثقفين من أبناء المدينة بمعاونة من مجموعة من المثقفين الغيورين على الماثور الشعبى المصرى، ولولا اهتمامات، محدودة لكنها مؤثرة، قامت بها الهيئة العامة لقصور الثقافة من خلال فرقها للفنون التلقائية، وكذا العهد العالى للفنون الشعبية، على الرغم من النقد الذى يمكن توجيهه لأساليب هاتين الجهتين.

لقد أدت هذه الغيرة، وتلك الاهتمامات - على تواضع أدواتها وقلة إمكاناتها - إلى بعث فنون الضمة والسمسسية من جديد حتى أصبحت، ليس فقط مادة للدرس والبحث فى أكاديميات الفنون الشعبية، وإنما موضوعاً للندوات والملتقيات والمهرجانات والمؤتمرات التى تعقد خصيصاً من أجلها. بداية الاهتمامات الدولية كانت عربية بمهرجان دولى عربى انعقد فى بورسعيد رعته الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ١٩٩١م. (١١)، وأخرها كان فى مدينة العقبة بالأردن حيث تم تنظيم مؤتمر دولى للسمسسية فى أواخر سنة ٢٠٠٦م (١٢)، وفيه تدارس أمور هذه الآلة باحثون عرب وأوروبيون؛ وعُزف عليها فيه عازفون من : مصر، السعودية، لبنان، الأردن، وأيضاً من اليونان، إسبانيا، وبريطانيا (!!).

الكل يحاول أن يؤصل لهذه الآلة باسمها اليورسعيدى وليس بأى اسم آخر للآلات التى تشابهها بصورة أو بآخرى .

هوامش الباب الرابع

الفصل الأول:

- (١) زين العابدين شمس الدين نجم، بورسعيد تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩ حتى عام ١٨٨٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٧١-٧٢ .
- (٢) بيتر فايس، مارا - صاد، ترجمة د. يسرى خميس، روائع المسرح العالمى، العدد ٤٣، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٥ مارس ١٩٦٧م.
- (٣) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى:
- زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ٣٨١ .
- قاسم مسعد عليوة، صفحات من تاريخ بورسعيد المسكوت عنه (٣)، بورسعيد الوطنية، حزب التجمع، بورسعيد، أبريل ٢٠٠٠م، ص ٥ .
- (٤) ضياء الدين حسن القاضي ، مرجع سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١١١ .
- (٥) زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ٧٣ - ٧٤ .
- (٦) المرجع السابق، ص ١١٤ .
- (٧) المرجع السابق، ص ١١٤-١١٥ .
- (٨) المرجع السابق، ص ١١٥ .
- (٩) د. نبيل عبد الحميد سيد أحمد، الأجانب وأثرهم فى المجتمع المصرى : من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩٩٢، الجزء الثانى، الآثار الاجتماعية، مكتبة تناسى، دمياط، ٢٠٠٤م، ص ٢١٦ . ٢١٦،

الفصل الثانى:

.....

الفصل الثالث:

- (١٠) د.زين العبدین شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨٣ .
- (١١) المهرجان الدولي الأول للموسيقى الشعبية : السمسسية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، جمهورية مصر العربية، بورسعيد، ١٢ - ١٨ ديسمبر ١٩٩٩م.
- (١٢) المنتدى العالمى الأول لآلة السمسسية الموسيقية، المملكة الأردنية، العقبة، ٧ - ٩ ديسمبر ٢٠٠٦م.
- ما لم يرد بشأنه هامش فالعمدة فيه هو الباحث اعتماداً على دراساته السابقة ورصده الميداني وخبرته بالموضوع.

الباب الخامس

الفصل الأول

مصدران للإشعاع الثقافى

(١)

سينما المناخ .. سينما الإفرنج

أعتقد أنه قد أن الأوان لانتقل بك من الحديث عن التسرى بارتياح الملاهي والمواخير بفنونها المتبدلة و من الحديث عن الفنون الشعبية من موسيقى وغناء ورقص إلى التسرية بالفنون التي يطلق عليها من باب المجاز وصف الفنون الراقية، ولعل أيسرها وأكثرها شيوعاً مشاهدة الأفلام السينمائية في دور العرض المخصصة لذلك.

وفقاً لما ذكره الناقد السينمائي على أبو شادي فإن أول عرض سينمائي في مدينة بورسعيد كان سنة ١٨٨٩م. أي بعد نحو عامين فقط من أول عرض سينمائي في مصر، وبهذا تصبح بورسعيد ثالث مدينة مصرية تدخلها السينما بعد الإسكندرية (٥ نوفمبر ١٩٨٦م) والقاهرة (٢٨ نوفمبر ١٨٩٦م)؛ وهذا التاريخ يخالف التاريخ الذي ذكره ضياء الدين القاضى في موسوعته عن المدينة، إذ أورد فيها أن أول جهاز سينما دخل بورسعيد كان ذلك الذي أدخله جريجوار سوليدس على مسرح الأولدردو سنة ١٩٠٨م. (١) وكان المسرح قد أقيم قبل إدخال جهاز السينما هذا بسنوات .

وكثيرون كانوا يتحدثون عن سينما " عيسى " باعتبار أن من لا يعرفها لا يعتبر بورسعيدياً أصيلاً، أو على الأقل يؤخذ جهله بها أنه لم يعيش في بورسعيد العتيقة ؛ غير

أننى عندما كنتُ أسأل عن " عيسى " هذا، وعن مكان الدار التي حملت اسمه، والأفلام التي كانت تعرضها: أجنبية أم عربية وغيرها من الأسئلة الطغلية، لم أكن أحصل على جواب شاف، وإن تطوع بعضهم وأشار إلى دكان هنا أو آخر هناك.

وكان بيورسعيد - على صغر مساحتها - عدد غير قليل من دور السينما، منها سينما باتيه (ماجيسك فيما بعد)، أمبير، إيسترن (الملحقة بحديقة البيت الحديد الصيفية)، ريو (وكانت تشغلها من قبل صالة مرجريتا للحفلات)، ديانا (الملحقة بالكازا دي إيتاليا)، عباس (الكوزموغراف)، الكورسال، فاروق (الحرية فيما بعد)، فريال (صيفية)، الشرق (صيفية)، رياتو (صيفية)، وكلها في حي الإفرنج .

وفى حي المناخ توجد دارين للسينما هما: مصر والأهلى، وتقع سينما مصر عند تقاطع شارعى سعد زغلول والجعفرية، بينما تقع سينما الأهلى فى نهاية شارع السواحل بالقرب من المنطقة المعروفة بمنطقة خان الخليلي وكانت تقع على حافة مرسى اللش ببجيرة المنزلة القديم (تم ردمه) ... وأذكر أننى دخلت فى طفولتى داراً صيفيه للسينما أغلب ظنى أنها كانت تسمى سينما ريفولى فى منطقة طرح البحر قريباً من امتداد شارع النيل (الجمهورية حالياً) والطابية، ولم يكن يبعدها عن البلاج سوى أمتار قليلة. واختفت هذه الدار بسرعة، وحلت محلها وفى المنطقة المحيطة بها عمائر كثيرة.

وعنى فما من دار من هذه الدور لم أدخلها وأشاهد الأفلام التي تعرضها سواء بالبلوس فى الصالة أو البلكون أو التسلل إلى اللوج ، باستثناء سينما إيسترن التي أصابنى عامل تذاكرها بجرح لم يندمل .

أربع دور عرض كانت تجذبني إليها جذباً هى : الأولادادو، ماجستيك، أمبير، ورياتو . وحينما تكون التقود فى جيبي قليلة كنت اتجه إلى سينما الحرية أو مصر أو الأهلى، لكن ولعى بارتياح سينما الأولادادو فى الشتاء ورياتو فى الصيف كان هو الولوج الأكبر . فى الأولى شاهدتُ أفضل الأفلام الأمريكية والروسية والتشيكية، وفى الثانية شاهدتُ أفضل الأفلام الإيطالية والفرنسية والإنجليزية

وأعتقد أنه بأمرين اثنين انفتح شباب المدينة من المصريين على آفاق العالم الرحبة: الميناء ودور السينما التي ذكرت أسماءها لك عزيزى القارئ:

ولكن للأسف، جميعها تهدم بفعل سطوة رأس المال والمضاربات العقارية وحُُمى ما سمي بالانفتاح الاقتصادي باستثناء اثنتين فقط هما: سينما ريو (صالة مرجريتا سابقاً) وسينما مصر، حتى سينما الأهلى التي ظل صاحبها يقاوم أغلقت بدعوى إخضاعها للتحسينات، ومضت مدة ليست بالقصيرة دون أن يجرى عليها أى تحسين.

ولى مع كل هذه الدور - ما بقى منها وما أزيل - ذكرياتُ ليس هنا مجال ذكرها، لكن اسمح لى عزيزى القارئُ بيانُك لحلات يسيرة مما صادفت من سينما مصر وسينما الأهلى . فى سينما مصر فوجئت ذات مرة أثناء الاستراحة بصورة لرجل مطربش، كثير النباشين ،رفع الشارب منطبعة على الشاشة .. بعدها صعد إلى المصطبة غير العريضة المنبسطة أسفل الشاشة رجلان أحدهما نصف عار والآخر معه بندقيّة رش مما تُصاد به العصافير، ثم انتحيا جانباً، وقام الرجل نصف العارى بتعريض صدره لبندقية زميله الذى أطلق الرش عليه وأصاب صدره فى أكثر من موضع، بعدها قام المُصاب بأكثر من حركة بهلوانية بارعة، وحينما هبطا من فوق المصطبة حيّاهما الجمهور - وأنا معهم - بحرارة لا مثيل لها، فيما ظلت صورة الرجل المطربش منطبعة على الشاشة البيضاء . كنت وقتها صغيراً جداً وأعجبنى ما رأيت كثيراً، فقط سألت الولد الجالس إلى جوارى عنم يكون صاحب الطربوش والنباشين، فأجابنى : الملك . ولأن لا أستطيع تفسير هذا المشهد، ولا أذكر إذا ما كان هذا قد حدث قبل ثورة يوليو أم بعدها، لكن المشهد بتفاصيله مازال ملتصقاً بذاكرتى.

أما سينما الأهلى فقد شاهدتُ على مسرحها بعد انتهاء عدوان ١٩٥٦ السيرك الصينى يؤدى ألعابه المبهرة، كما شاهدتُ عرضاً لفرقة البولشوى الروسية .. نعم.. فرقة البولشوى الروسية والعرضان كانا مجانين فالسيرك الراقى وفرقة الباليه الأشهر ما جانا إلا لتحية شعب بورسعيد ومباركة انتصاره على جيشى انجلترا وفرنسا .

ولعل أهم ما كان يميز دور السينما التى توصف عادة بالدرجة الثالثة هو فتواتها، هؤلاء الفتوات المسكون فى أغلب الأوقات بعضا رفيعة .. لا يشترط أن تكون صلبة، فقد تكون نسله من جريدة نخلة، وقد تكون مسطرة تلميذ سقطت منه، قد تكون أى شئ، لأنها لا تستخدم فى الضرب عادة وإنما تستخدم فى لمس ظهور الأولاد بما يعنى التنبيه عليهم بالجلوس أو بالصمت أو بالكف عن التآرجج بمقعدة الكرسي أو عدم رمى قشر اللب فى أرض الصالة أو البلكون . كما يستخدمونها فى الهش بها على رواد السينما عند انتهاء العرض للإسراع بالخروج من الدار حتى يسمح لغيرهم ممن هم فى الخارج بالدخول لمشاهدة العرض التالى، وللعصا أيضاً دور تؤديه للداخلين فهى تمنع هرولتهم وتوجههم إلى الأماكن التى ينبغي عليهم الجلوس فيها، أما الضرب فيكون بقيضة اليد ويا وياه من تناله هذه القبضة . وكثيرون هم من كانوا يقعون فى مرمى ضربياتها، لأن كثيرين من الرواد كانوا يتشاجرون مع بعضهم البعض ولم يكن ينهى الشجار سوى هذه الضربات، وأما الصفعات وما أهولها فتكون من نصيب المتأتقين من الشباب الذين يُضبطون - لسوء -

حظهم وهم يهيمون بأى فعل جنسى، ولو طفيف، حبال الفتيات اللاتي يجلسن أمامهن أو بجوارهن، حينئذ تنهال الصفعات المهينة للكرامة على من اقترف هذا الفعل، ولا تصلح لإيقافها عبارات من نوع " دى خطيبتى .. والله العظيم خطيبتى " أو " دى .. بنت خالتي " . وكان لكل سينما فتوة يخصصها، ولم تكن تعرف سوى أسماء الفتوات المفردة، وما كان ينبغي لنا غير هذا . لسينما الأهللى كان " السادات "، طول وعرض وقوة عضلات، ولسينما مصر " فاروق "، شاب ولا كل الشبان، ولسينما الحرية "الأخرس"، وكان يكفى أن تقول الأخرس - لأنه كان أخرس فعلاً - لأن يعمل له ألف حساب . ولم تكن ننطق اسم الواحد منهم مقترناً بوصفه فلا نقول " السادات " أو " فاروق " أو " الأخرس " . وتتبع الاسم بلفظة الفتوة، لأن كل منهم كان علماً بذاته، فإذا نطقت فى أقصى مكان بالمدينة اسم السادات عُرف على الفور أن المقصود هو فتوة سينما الأهللى ونفس الأمر مع الآخرين.

وباعة كل شيء يتجولون فى الممرات وبين صفوف المقاعد . يبيعون الساندويتشات واللب والبول السوداني والبطاطس المقلية والبسكويت والمياه الغازية والشاي والقهوة وأطباق المهلبية والسجائر والكبريت وحَبّ العزير والترمس، وينادون على بضائعهم بأصوات عالية جداً . وما زالت صورة " العربى " بائع المياه الغازية بيقفيه سينما مصر فى أواخر الخمسينيات والستينيات عالقة بذهنى .. زعيقه عال .. مشاجراته كثيرة .. لا يترك الجلوس فى حالهم .. وكانت تصنع فى المدينة وقتها زجاجات مياه غازية بلا ماركة .. مياه بلا لون .. شفافة .. والزجاجة التي تحتويها شفافة أيضاً، لكنها صغيرة وتأخذ شكل القيتنة المدورة، لذا كان يُطلق عليها ما يشبه وصفها . وما كان يُشبهها فى الوصف هو " البلية "، لذا كانت تعرف بالـ " بلية " . كانت هى الأرخص وكان " العربى " يوزعها داخل هذه الدار .. بالذوق بالعاقبة كان لابد للزبائن من شرائها، يكفى أن يُطرقع عليها وينادى عليها " بلية " حتى تشعر بالتوجس فالمعارك قادمة .. قادمة .. ومن بين الأمور المعتادة أن يجلس " العربى " عدداً من صبيانه عند أطراف صفوف المقاعد المهمة فى الحفلات التي تعرض فيها الأفلام الجماهيرية بحيث لا يُسمع لأى فرد من الجمهور المتدافع إلى الصالة بالجلوس إلا إذا ابتاع منه راضياً أو صاغراً زجاجة " بلية " .

نفس الأمر كان يحدث ممن يقوم بوظيفة " الأبلاسير " الذي يدخل الرواد أثناء تشغيل الفيلم، ويخوض بهم ظلام الصالة، مقدماً أمامه ضوء الكشاف الذي يمسكه بيده . كان يسلط ضوء الكشاف فى عيون الجالسين، ولا يُترك من يجلسه إلا إذا دفع له، ويا ويه إذا دفع له أقل مما توقع.

أما بالنسبة لدور السينما بحى الإفرنج فكان الأمر مختلفاً تماماً، فمثلاً لم يكن فى دار

مسرح وسينما الأولدرادو فتوات، أو كانوا موجودين لكن لا نعرفهم لأنهم لا يعلنون عن أنفسهم ولا تحدث في هذه الدار مشكلات تستدعي إعلانهم عن أنفسهم . وكل شيء في هذه الدار كان يتم همساً، والأقدام لا تكاد نسمع لها صوتاً على سجاد الأرضية . و" الأبلاسير " إذا ما خاض بك ظلمات الصالة فيأذب هو غاية ما يمكن توقعه من موظف، وضوء كشافه مصوب ناحية سجاد الأرض وبعد أن يجلسك في مقعدك ينحنى لك بعد إجلاسك وقبل انصرافه، نال منك البقشيس أم لم يزل : أما بائع الشيكولاته والمياه الغازية فلا يظهر إلا في الاستراحة ولا يمشي إلا في الممرات دون غيرها، ولا ينطق إلا همساً. ولما لم يتبق بالمدينة من دور السينما القديمة سوى دارين فقط هما مصر وريو بعدما تحولت الدور الأخرى إلى عمارات ومخازن ومحلات وجراجات، ظهرت تقليعة تخصيص بعض الصالات في القرى السياحية و المصايف الخاصة والفنادق الراقية التي انتشرت بطول الساحل للعروض السينمائية مثال ذلك قرية النورس والكروان السياحيان، مصيف الجميل للقوات المسلحة، فندق سونيسستا وأغلب هذه العروض صيفي مؤقت ينتهي بانتهاء فصل الصيف ومنها ما أقفل أبوابه ولم يعد يستقبل الجمهور. حال دور العرض السينمائي في المدينة الآن لا يسر أحداً، والحكى عنها يطول أمده والمسرح أيضاً.

(٢)

المسرح العريق

منذ النشأة الأولى عرفت بورسعيد المسرح . وقد ذكرت جريدة الأهرام في أعدادها الصادرة في ٢٩ أكتوبر ١٨٨١م، ٧ نوفمبر ١٨٨١م، ١٨ نوفمبر ١٨٨١م. أنه كانت تقام في المدينة حفلات للتمثيل والرقص وكان يحضرها كثير من الأجانب والوطنيين خصص دخلها للمنكوبي حريق قرية العرب المروع الذي التهم القرية في ذلك الحين(٢) . وذكر بعض الأجانب ممن زاروا بورسعيد أو نقلوا عن زاروها وجود مسرح في المدينة(٣)، لكنهم لم يحددوا الشكل الذي كان عليه والأعمال التي كان يقدمها أو الفرق التي كانت تؤدي أعمالها عليه(٤).

وظهر للوجود مبنى مستقل يرتاده الراغبون في مشاهدة العروض المسرحية والغنائية هو مبنى مسرح الليرا، وهو في الأصل ناد للإيطاليين كانوا يلتقون فيه ويعزفون الموسيقى ويستمعون لها، ومن قبل كانت للإيطاليين مدرسة تقع خلف البيت الحديد لتعليم الدراما. وما لبث أن جاء الوقت الذي قدم فيه الفريق المنشق عن نادى رمسيس - وسوف أحدثك عن هذا الانشقاق فيما بعد - عروضه المسرحية على خشبة مسرح الليرا، وكانت هذه الخشبة -

ولا تزال - تتصدر الصالة الصغيرة التي تشغل الطابق العلوي في المبنى الذي كان يشغله هذا النادي، وكان يشتهر وقتها - وقت شغل هذه الفرقة المنشقة لهذا المبنى بنادى موظفى الجمارك، لأن غالبية أعضائه كانوا وقتذاك يعملون بالجمرك.

ويرجع الفضل فى تأسيس أول دار عرض مسرحى تقام على أسس حديثة فى بورسعيد إلى اليونانى جريجوار سوليدس الذى أسس تياترو الأولرادو بشارع التجارة (الشهيد فريق أول عبد المنعم رياض حالياً) بالقرب من الميناء فى يونيو ١٨٩٦م، وقام أيضاً بتغيير شامل فى ديكورات هذا المسرح وأدخل النظام المتبع حالياً من البنوار والبلكون وصالة المسرح مثلما أدخل نظاماً أكثر حداثة فى الإضاءة واقتنع موسم التعديل بمسرحيتين هما: ترافياتا وتريفاتور . وكما أخبرتك من قبل أدخل عام ١٩٠٨م. على هذا المسرح جهاز عرض سينمائى ليصبح اسم الدار مسرح وسينما الأولرادو (٥) .

واسمح لى بأن أضيف شيئاً عن هذه الدار فكونها فى مبنى دعائمه وسلاله وأرضيته وسقفه من الخشب لم يقلل أبداً من استقطابها لروادها واستثنائها بهم، بل إنها بديكوراتها الفخمة وبنائورها الأنيقة، ومقاصيرها التى كانت تشغل جدرانها الثلاثة المظلة على خشبة المسرح، وبنقوشها الرائعة وألوانها الذهبية وبسطها الحمراء، كادت تضارع أوبرا الخديو إسماعيل بالقاهرة . ربما وصفتنى بالمبالغ، لكن صدقتى هذا ما رسخ فى ذهنى وأذهان كثيرين عنها، ولم يفلح الخراب الذى حل عليها مؤخراً فى زحزحة هذا الرسوخ أو النيل منه.

وأنا بعد طفل صغير، اشتركت بالتمثيل مع الفريق المسرحى لمدرستى " القناة الابتدائية المشتركة " بمسرحيتين على مسرح هذه الدار، أولاهما مسرحية بعنوان " محكمة الثورة "، وكنت أودى فيها دور جاسوس أكتشف وجوكم وقتها، وكان اسمه محمود صبرى . وفى آخر المسرحية وعقب نطق رئيس المحكمة بالحكم " حكمت المحكمة حضورياً بإعدام المتهم شنقاً حتى الموت " نهضت، حسبما استلزم الدور، وصحت " نموت وتحيا مصر " . وأذكر أنني بكيت وقتها فاستشاط الجمهور تصفيقاً وحماسة ظناً منهم أنني كنت مندمجاً فى الدور، واعتبروا بكائى حسن أداء، والحقيقة هى أن سبب هذا البكاء كان معارضة الأولاد لى، قبل العرض وأثناءه، لأننى قبلت دور الجاسوس : المسرحية الثانية كانت بعنوان (التمثيلية الصحية)، وكنت الطبيب فى هذه المسرحية، وكان على أن التفت أول دخولى المسرح إلى الشبابيك المغلقة فى غرفة الطفل المريض، الذى جاؤا بى لعلاج، ثم أصرخ " إيه .. الشبابيك مغلولة ليه ... افتحوا الشبابيك "، وبعد جملتين أو ثلاث حول أهمية الهواء المتجدد للصحة ألح أم المريض تقبله فى فمه فأصرخ فيها " إيه ده ؟ !، بتيوسيه ؟ ! أنت

مش عارفة إن البوسة أسرع طريق للعدوى ؟ .. وهكذا.

وعلى ذات هذه الخشبة، التي أُنْخِرَ بِأُنْثَى اعْتَلِيَتْهَا، شاهدتُ في الخمسينيات من القرن الماضي، عرضاً لفرقة رمسيس القاهرية، ورأيتُ رأى العين يوسف بك وهبي وأمينه رزق وهما يمثلان . وكان أبى كريماً جداً معي لما أفرغت أمامه كل ما بحصالتى من نقود فضية فأكمل عليها ما مكننى من شراء تذكرة الدخول.

ولأن الجاليات الأجنبية كانت تستقدم فرقها المسرحية وتقدم عروضها بالمدينة منذ نشأتها الأولى، فكان حريا أن تنشأ لدى الوطنيين فرقاً مسرحية تخصهم، وإذا كانت الفرق الأجنبية تقدم عروضها في دور عرض مجهزة وفخمة مثل الأولدردادو والليرا وديانا والكاديفال، فإن الأمر لا يقتضى سوى قدر من الصبر والمداومة من الفرق الوطنية لتقدم عروضها على خشبات هذه الدور وغيرها.

ولم يتأخر المسرح المصرى في المدينة عن نظيره الأجنبى، فحسب وفاء عيد المتجلى تكونت عام ١٨٩٦م، جمعيه أطلق عليها مؤسسها خورى وشكرى نصر جمعية الآداب، وانتخب لها ١٢ عضواً كانوا من نخبة الشبان الأدباء في بورسعيد، وكانت تقدم رواية أدبية كل شهر أسوة بالبلاد الإفرنجية. وكان يخصص جزء من دخل عرض هذه الروايات على فقراء المدينة.

وفي سنة ١٩٠٢م، تأسس في بورسعيد ما يعرف بالحفل الأدبي بهمة محمد على بك وكيل عام محافظه القنال وبعض وجهاء المدينة، منهم : عثمان أفندى غندر وعلى أفندى لهيطة (بك) لإقامة حفلات مسرحيه يوجه جزء من دخلها للصرف في أمور البر والخير.

كما تأسس نادى أطلق عليه النادى المصرى (بخلاف النادى المصرى للالعاب الرياضية الذى تأسس شعبيا عام ١٩١٧م. ورسميا عام ١٩٢٠م)، وتعددت الاهتمامات داخله وحرص أعضاؤه على تمثيل كثير من الروايات على خشبة مسرح الأولدردادو. بدءاً من مارس ١٩٠٩م. ومن المسرحيات التى عرضها هذا النادى مسرحية (مروءة العرب).

وحسب رواية ضياء الدين القاضى عن جده لأبيه فقد كان يأتى إلى بورسعيد رجل يدعى الشيخ إبراهيم الإسكندراني (نسبة إلى مدينه الإسكندرية)، وقد قام هذا الشيخ بتكوين فرقة للتشخيص من طلبة المدارس والعمال وعرض من خلالها روائع المسرح العالمى مثل : (هاملت) و (عطيل). وكانت هذه الفرقة هى اللبنة الأولى لفرقه نادى رمسيس المسرحية (٦).

وتأسست فرقه رمسيس المسرحية عام ١٩٢٧م. وكان قوامها مجموعة من الهواة مثل : توفيق الطيب، حامد الصفتى، طلبة رضوان، كمال علام، محمود ياقوت، احمد حامد، عبد

الحسيب الكيال، جمال خفاجه، السعيد البنا، طه الغرباوى، أحمد البنا . واحتوى هذه الفرقة نادى رمسيس الذى تأسس عام ١٩٢٣م. وكان يسمى بالنادى الأهلى و مقره الدور الأول بالعقار الكائن بشارعى الثلاثينى والمقدس أعلى محل أبو نكرى للأسماء، وذلك حسب رواية ضياء الدين القاضى عن حسيب الكيال(٧). وحسب روايته أيضا فإن تغيير اسم النادى من الأهلى إلى رمسيس بموافقة الجمعية العمومية للنادى فى ٤ يونيه ١٩٤٢م. كان تيمناً بفرقة رمسيس المسرحية بالقاهرة وعرفانا بفضل عميد المسرح العربى يوسف بك وهبى (٨) . ويُفهم من هذا أن تسمية الفرقة المسرحية برمسيس كانت أسبق من تسميته النادى . أى أن فرقة رمسيس المسرحية أنشئت من خلال النادى الأهلى . وكانت بداية النشاط التمثيلى للفرقة فى عام تشكيلها ١٩٢٧م. بمنزل غندر بشارع أوجيى عند تقاطعه مع شارع محمد على .

وإذا كانت هذه هى رواية ضياء الدين القاضى عن سنده الممثل المسرحى حسيب الكيال عن نشأة فرقة رمسيس فإن المرحوم فؤاد صالح، وكان فناناً مسرحياً أيضاً، يُقدم - والعهد عليه - نشأة الفرقة بصورة مغايرة، فقد نشأت قبل نشأة فرقة رمسيس بمدة، فرقة كشافة سمها فرقة وادى النيل للموسيقىات النحاسية، وضمت فيمن ضمت والده مصطفى صالح الشهير بالسيد عبد العال، سليمان شادوفه، محمود المصرى، محمد حمودة، محمد الطوبجى وخضر الطوبجى وأن هؤلاء استأجروا مخزناً بشارعى مظلوم والحميدى فى بيت نعمان وأقاموا فيه ما يشبه المسرح وروصوا فيه الدك وأطلقوا على أنفسهم (الفرقة الوطنية)، وكانوا يقدمون التمثيليات التى شاهدوها فى السيرك جنباً إلى جنب الأغنيات الوطنية التى انتشرت أثناء ثورة ١٩١٩م. ؛ ولما كانت هذه المجموعة الرائدة - والوصف والكلام ما زال لفؤاد صالح - تجمع بين موظفين وعمال وغيرهم من الهواة الموهوبين، فقد وقعت خلافات أدت إلى انفصال العمال ليكوّنوا نادياً خاصاً بهم، وهو نادى العمال بنفس المقر القديم للفرقة بشارعى مظلوم والحميدى، ثم انتقلوا إلى شارع الأمير فاروق (الشهيد فريق أول عبد المنعم رياض حالياً) بجوار حارة اليهود وبعدها انتقلوا إلى مبنى أمام سينما الكوزموغراف . وكان قوام نادى العمال: محمد النبع ومحمد الطوبجى وخضر الطوبجى وأبو بكر الصديق عبد الحق، الذى شارك فى تأسيس فرقة الطلبة فيما بعد، ثم عاد إلى نادى العمال ليترأسه، وضمت الفرقة فيمن ضمت محمد سالم وعبد السلام عياد .

واستقل الموظفون بأنفسهم ومعهم بعض الطلبة وكونوا فرقة أخرى سميت (فرقة الموظفين وعملوا على تقديم عروض مسرحية تجمع بين التراث العالمى والمسرح المصرى

واهتموا بما أبدعه كبار كتابه في ذلك الوقت، واتخذوا لهم مقراً عند تقاطع شارع الثلاثينى (سعد زغلول حالياً) وحارة البكرى، ثم أطلق هؤلاء الموظفين بعد ذلك اسم رمسيس على فرقته (٩). وتستكمل سلسلة الانشطار بانفصال مجموعة السعديين عن فرقة رمسيس وتكوينهم لفرقة جديدة هي فرقة "نادى المسرح" فى عام ١٩٤٠م. وتشكل أول مجلس إدارة للنادى من الدكتور محمد أبو الغيط رئيساً، ومحمد بك سرحان نائباً للرئيس، وعبد الرحمن لطفى بك (باشا فيما بعد)، والحاج إبراهيم علوان وكيلان، ومحمد الجمل، محمود شحاتة، عبد الحميد عطا الله، فهمى جودة، محمد عوض، إبراهيم فؤاد، احمد الدنف، طلبة رضوان، إسماعيل الزغبى أعضاء، وأحمد الحلوى سكرتيراً (١٠).

وقدم هذا النادى ندوات وعروضاً كثيرة، ومن آخر فرقة لفرقة النادى المسرحية نصر الدين الغريب، سمير زاهر، رشدى إبراهيم، بدر حسنين، فؤاد صالح، وغيرهم. ومن العروض التى قدمها (المشخصاتية) تأليف عبد الله الطوخى، (الزوبعة) تأليف محمود دياب، (حدث فى ٢٩) تأليف سيد حافظ، (ولا العفريت الزرق) تأليف على سالم، (كراكيب) تأليف أحمد أبو النور، وغيرها من المسرحيات منها : (بأجوج وبأجوج) و (حورية من المريخ) و (يا بهية وخبرينى).

ومما يذكر لهذا النادى إقامته صالونا ثقافيا متعدد الشُعَب يتعدد أشكال الفنون والآداب فاشتمل على شعب للشعر للقصة والمسرحية، الفنون التشكيلية، المسرح، الموسيقى، والدراسات النقدية، التاريخية، التراجم، الدراسات الدينية، السينما والفديو . وفى الخامس من أغسطس ١٩٨٢م. تأسس بمقر النادى فرع لنادى المسرح المصرى القاهرى، وحضرت حفل الافتتاح الفنانة سميحة أيوب رئيس مجلس إدارة نادى المسرح المصرى القاهرى، كما استضاف فى أواخر الثمانينيات جمعية أدباء وفنانى بورسعيد كمقر مؤقت للجمعية التى أحالت مقر النادى إلى بؤرة إشعاع قوية ليث ونشر الثقافة الرفيعة.

ويذكر أيضاً لهذا النادى تنظيمه لمهرجان فنون المسرح ببورسعيد فى فن المونودراما فى الفترة من ٢٨ ديسمبر ١٩٨٥م. حتى ٣ يناير ١٩٨٦م.، ومن خلال هذا المهرجان شاهد الجمهور ثلاثين عرضاً مسرحياً ميلودرامياً منها سبعة عشر عرضاً لمؤلفين بورسعديين، إلا أن حالة من الكون ما لبثت أن رانت على النشاط المسرحى داخل النادى، كما سبق أن حدثتكم، لصالح ألعاب البلياردو وتنس الطاولة والبريدج والشطرنج . نعود إلى فترة النشاط التى ازدهرت بنشأة فرقة نادى المسرح.

في هذه الفترة كانت العروض المسرحية للفرق الأجنبية تترى على المسرح والصالات ودور السينما الراقية بالحي الإفرنجى، ومن هذه العروض ما يخص الجاليات، كل جالية على حده، ومنها ما يُعرض لعموم الأجانب أو لعموم الأجانب والمصريين؛ ومن العروض الأجنبية ما كان يعتمد بالأساس على الهواة، ومنها العرض الفرنسى (سنيور براكولى - Signor Bracoli) وهو عرض مسرحى مأخوذ عن عمل لسانت فينسون - Saint-Vincent أخرجه موريس دوتيف Maurice de Nève، واستضافته خشبة صالة مرجريتا (سينما ريو حالياً) على مدى ليلتين هما ليلتا الجمعة والسبت ٢٥، ٢٦ مايو ١٩٣٤م. وما يستدعى التوقف عنده هو أن العرض كان يستغرق في الليلة الواحدة أربع ساعات كاملة، والمسرحية كانت تعرض للتبدلات النفسية والسلوكية التي اعتبرت أفراد أسرة وجدت نفسها محاطة بأجواء مقعّة بالألم والمعاناة بعدما عثر على ربيها مطعوناً بخنجر. وقد أدى شخصية البطل سنيور سيزار براكولى الممثل ليون إيرمان، وشاركه التمثيل: بول ميربير، لوى نيكولا، رفايل كورو، ف. أوبير؛ أما أدوار النساء فقامت بها مدام دو نيف، مدام ل. كوراي، هنرييت مينار، ومام باكو. ويبدو أن المسرحية كانت مبهرة إذ استقبلها الجمهور بحماس بالغ على الرغم من طول المدة التي يستغرقها العرض، وكانت ديكراتنها وإكسسواراتها قد جلبت من بورسعيد، وكان مستواها جيداً، وخصص دخل العرض للأعمال الخيرية.

كما حضرت فرقة الكوميدي فرانسيس إلى بورسعيد يوم الأربعاء ٢١ ديسمبر ١٩٤٩ وقدمت على مسرح سينما ديانا مسرحية (La Part Du Feu) للكاتب الفرنسى Louis Ducreux وكانت قد لاقت نجاحاً كبيراً بعد عرضها في ليون في ١٨ مايو ١٩٤٢ وقد دعا الفرقة للحضور إلى بورسعيد قنصل فرنسا في بورسعيد D-Henaut، وشهد الحفل محافظ القتال عبد الهادي غزالي وزوجته وكبار الشخصيات الفرنسية وغيرهم. وبعد انقطاع طويل عن حضور الفرق المسرحية الأجنبية إلى بورسعيد، لاسيما بعد حرب ١٩٥٦م، حضرت إلى بورسعيد ضمن فعاليات مهرجان القاهرة الدولي فرقة الكوش The Kosh البريطانية وعرضت مسرحية (أنواع منقرضة) (Endangered Species) على خشبة مسرح وسينما ديانا بكازا دي إيتاليا وتعرض المسرحية للتمزيقات النفسية الناتجة عن مجموعة من العواطف والانفعالات العنيفة، جسدها اثنان من الممثلين البارعين هما: إميل ولك Emil Walk وشيان وليامز Sian Williams، وأخرجها اثنان من المخرجين هما: جوني هاتش Johnny Hutch ومايكل ميرويتزر Michael Merwitzer

وقد شاهدت هذه المسرحية وكانت جيدة للغاية، وكان الممثلان يغيران ملابسهما أمامنا وكل ما وضع على خشبة أخرجاه من حقيبة وفقاً للمواقف الدرامية المختلفة في توقيتات وقوعها .

ولم تكن الفرق المسرحية الوافدة أجنبية فقط وإنما اشتملت أيضاً على فرق عربية مثل جوق الممثل السوري سليمان أفندي قرداحى الذى قُدم إلى بورسعيد فى مايو ١٩٠١م . ومنها الفرق المصرية القادمة من القاهرة مثل فرق: سلامة حجازى، جورج أبيض، على الكسار، نجيب الريحاني، رمسيس، أمين صدقى، إسماعيل يس، المسرح العربى الحديث، المسرح العسكرى، وفرقة المسرح الحر . وكانت تقدم عروضها على مسارح سينما الكوزموغراف، الأولدرادو، وديانا. وحينما أنشئ مسرح البلدية الصيفى فى ١٢ يوليو ١٩٥٨م، وكان يحتوى على ١٠٥٠ مقعداً، حرصت الفرق المسرحية المحلية والوافدة على تقديم عروضها فوق خشبته لاسيما فرقة المسرح القومى و فرق مسرح التلفزيون التى تشكلت فى التسعينيات من القرن الفائت و غيرها من فرق مسرح القطاعين العام والخاص الكثير . ووصل الرواج المسرحى بالمدينة إلى الدرجة التى كانت تُقدم فيه على خشبة هذا المسرح - مسرح البلدية الصيفى - عروض مسرحية تتغير كل ليلة ولمدة شهر كامل. وشهدت الحركة المسرحية فى المدينة ازدياداً فى حدة المنافسة بين الفرق المحلية الثلاث التى تستحق وصف الكبرى، وهى فرق : رمسيس، العمال، المسرح .

وما لبثت أن نشأت فرق أخرى لعل أهمها : فرقة هواة التمثيل، التى هى فرقة بورسعيد المسرحية ثم الفرقة الإقليمية وهى الفرقة التى أسسها نصر الدين الغربى و الأخوان رأفت ونجيب جبر و كامل الكيلانى، وأحمد أبو إسماعيل، وضمت: محمود فراج، محمود الحطاب، فتحى الباشا، عبد القادر رشاد، السيد عبد السلام، عبد القادر حسنى، سمير الجريتلى، محمد الشريف، أحمد أبو النور، عبد السلام الألفى، حمدي عبد الرحيم، كامل حجازى، محمود المصرى، محمد بدر الدين، محمد حامد الألفى، جمال الدين سالم، السيد عطوة، السيد العربى حنفى، محمد سالم، محمد عنانى، عبد الرحمن عرنوس، كمال عرفة، إبراهيم الدرنكى وغيرهم .

و تكاد تكون هذه الفرقة قد تخصصت فى تقديم مسرحيات نجيب الريحاني و مسرحيات الفودفيل. ومن المسرحيات التى قدمتها من هذا النوع : " حسن ومرقص وكوهين"، " لو كنت حليوة"، " ٣٠ يوم فى السجن"، " أنا ومراتى وجوزها"، " الزوجة آخر من يعلم"، " قسمتى"، و " حكم قراقوش". إلا أن تنوعاً طراً على عروضها،

بتأثير من العناصر الشابة التي انضمت إليها، فقدمت عروضاً مثل : " الكلمة الثالثة " ،
 "المصيدة" " الخماسين " ، "مقابل محروس " ، " انت اللي قتلت الوحش " ، " ما كان من
 الأول " ، "عاليها وإطيها " ، " رأس العش " ، " الدرافيل " ، " ملوك الفقر " ، " الزنقة " ،
 المغفلون في الأرض " ، " عشاق فوق العادة " ، " بالعربي الفصيح " ، " أبو العربي
 والأمريكانى " ، " رحلة حنظلة " ، " إصحي يا نايم " ، " فرعون الأمريكانى " ، وغيرها .. كما
 قدمت تجارب مسرحية فى نادى المسرح الذى تشكل من خلالها وقوامه مجموعة من شباب
 الفرقة وقدمت عروضاً غير قليلة منها : " النوة " ، " المسخ " ، " حفلة عشاء " ، " ماكيت هنا
 وهناك " ، " أحلام تايهة " ، " الوهم " . ومن مؤلفى عروض هذا النادى : محمد الشريف،
 محمد يسرى، خالد توفيق، وأسامة المصرى . ومن مخرجى عروض النادى : محمد
 الشريف، شريف مبروك، أحمد جمعة، هنادى، محمد العشرى.

ومن أخرج العروض الجماهيرية لهذه الفرقة كل من : نصر الدين الغريب، السيد
 عاشور، محمد شوقى نعمان، سيد عبد السلام، حمدي الوزير، محمد الشريف، محمد
 البحيرى، السيد طليب، أحمد عجيبه، رشدى إبراهيم، صلاح الدمرداش، سعيد حامد،
 طارق حسن، فوزى شنودة، و محمد سالم .

وألّف لها كل من: أحمد أبو النور، محمد البحيرى، محمد جعفر، محمد الشريف.
 وفى عام ١٩٥٩م أنشئت فرقة الطليعة و ضمت كلاً من عباس أحمد، محمود ياسين،
 محمد شوقى نعمان، على فلا، محمد عبد العاطى خليفة، وأبو بكر الصديق عبد الحق (ما
 لبث أن عاد إلى نادى العمال)، فؤاد صالح، أحمد عجيبه، السيد الدمرداش، السيد أبو
 العلا، عادل برهام، السيد طليب، عادل اللبان، محمود إبراهيم، عبده الزناتى وآخرون . ثم
 ما لبث أن انضم إليها مجموعة من الشباب منهم محمد شوقى صالح، محمد برهام
 (العربى برهام)، محمد الكتاتنى، عبد المنعم العجمى، و حمدي الوزير وغيرهم .

ودأبت هذه الفرقة على معارضة الفرقة الإقليمية و تقديم عروض مغايرة للعروض التي
 تقدمها تلك الفرقة، وحرصت على تقديم نصوص لكبار كتاب المسرح المصرى الجاد أمثال
 : نعمان عاشور، سعد الدين وهبة، الفريد فرج، عبد الرحمن الشرقاوى، أحمد شوقى،
 لطفى الخولى، محمود دياب وغيرهم من الكتاب المحليين و الأجانب . وقدمت عروضاً منها
 : (المحروسة) و(السبنسة) لسعد الدين وهبة، (مشهد من الجسر) لأرثر ميللر، (عبد
 الرحمن الناصر) لعباس علام ، (مجنون ليلى) لأحمد شوقى، (الحصار) لمحمود دياب،
 (عطوة أفندى قطاع عام) و(عيلة الدوغرى) لنعمان عاشور، (مأساة جميلة) لعبد الرحمن
 الشرقاوى، (القضية) للطفى الخولى و غيرها .

وقبل هذه الفرقة كانت قد أنشئت فرقة جمعية الكتاب المقدس المسرحية، ومن أعضائها: نصيف حبيب، جميل تادرس، فوزى شنودة، مراد منير، عياد حكيم، لطفى عزيز، إبراهيم جرجس، شوقي عزمي، وسمير إسكندر . وتعاون مع الفرقة و عمل معها سمير العصفورى الذى بدأ علاقته مع هذه الفرقة منذ كتب و أخرج لها عقب حرب ١٩٥٦م مسرحية (حاكم مدينة).

وبالإضافة إلى العروض الخاصة بالطقوس الكنسية قدمت هذه الفرقة عدداً كبيراً من المسرحيات الجيدة مثل : (الاعتراف الأخير)، (قضية كل يوم) عن مسرحية فاوست، وعلى الرغم من الطابع الدينى لهاتين المسرحيتين إلا أنهما تميزتا بروية تتفق ومتطلبات العرض العام . كما قدمت الفرقة مسرحية " طيب رغم أنفه " لموليير، " ثورة الدم " عن المسرح العالمى، و " نمر سبعة " وهى معالجة كوميدية قدمتها الفرقة لمسرحيات نجيب الريحانى، وكانت تعرض فى الصيف باعتبارها الحفل السنوى المعفى من الضريبة لتدر ربحاً تتفق منه الفرقة على نشاطها.

وقد يكون من المفيد هنا ذكر أنه كانت من بين ملحقات الكنيسة اللاتينية (الكاتدرال) دار للمسرح كبيرة، وكان هذا المسرح قد شيد بمرسوم ملكى، ولما آل هذا المسرح للسقوط صدر قرار جمهورى سنة ١٩٩٠م. بالترخيص ببناء المسرح مرة أخرى، وفور صدوره أعيد هذا الصرح مرة أخرى، وهو والكنيسة يتبعان الآن المطرانية الأرثوذكسية ببورسعيد(١١). وغير معروفة العروض التى قدمت عليه أو تقدم الآن، وإن غلب الظن بأنها دينية طقسية بحتة.

ونشأت فى المدينة ظاهرة الفرق المسرحية الخاصة مثل : (فرقة الجيل) و أنشأها عبده متولى و تخصصت فى تقديم أعمال الممثل أمين الهنيدى التى تُعرض بالقاهرة، فرقة (نجوم المسرح البورسعيدى) و أنشأها عبده محمد فضالى، فرقة حسن إبراهيم و كان مشهور باستئجار عروض الفرق القاهرية، فرقة (شباب المسرح) وأنشأها محمود الحطاب، وفرقة (الإمبراطور) وأسسها صلاح عاشور، وفرقة أخرى أنشأها كل من محمود ياسين وعباس أحمد والسيد طليب وقدمت على خشبة مسرح سينما ديانا مسرحيات: " نيرون "، " حب ولعب وفانتازيا "، و" مشهد من جسر " من إخراج محمود ياسين . ونشأت هذه الفرقة عبر مناقشات دارت فى جلسات كانت تعقد على مقهى توليس بشارع الجمهورية. ومن الفرق المسرحية الخاصة التى تستحق التوقف عندها فرقة (النهضة للتمثيل المسرحى). وذلك لأسباب خمسة:

أولها : أن هذه الفرقة نشأت عام ١٩٦٣م. قبل تأسيس قصر الثقافة وتشكيل الفرقة

المسرحية التابعة له.

ثانيها : أنها لم تحل نفسها و تندمج فى فرقة القصر عند تأسيسها مثلما فعلت الفرق المسرحية الأخرى.

ثالثها : أن مؤسسيها ستة من الشباب حديثى السن حديثى التجربة نصفهم من أسرة واحدة هم : محمد خضير، محمود خضير، مصطفى خضير، إبراهيم الصياد، فوزى العريان، وأحمد حماد.

رابعها : أنهم حددوا جمهورهم فى طلاب المدارس و جمهور الجمعيات و النوادى ومؤسسات الأيتام و طافوا بعروضهم على جمهورهم فى أماكن تواجده، و لم ينتظروا قدومه إلى مسرح ثابت يختارونه .

خامسها : أن عروضهم كانت متنوعة إذ جمعت بين العرض المسرحى المتكامل، و الاسكتش الفكاهى، والأوبريت، والأغاني والأناشيد الوطنية المواكبة لمرحلة المد الوطنى التى كانت تعيشها مصر وبورسعيد هذه الفترة . ومن العروض التى قدمتها هذه الفرقة: " اللحظة الحرجة "، " البخت الضائع "، " الشيخ بركات "، " الغريب "، و " أغنية على الممر " . وظلت هذه الفرقة تؤدى عروضها بقروش مؤسسيها القليلة وتطوف بالمدينة لمدة سبع سنوات متصلة ١٩٦٣م - ١٩٦٩م. ولم يؤقف نشاطها سوى التهجير الجبرى لسكان المدينة وتششت أفرادها فى أكثر من محافظة .

وتوالى ظهور الفرق المسرحية التى كان قوامها العمال والمهنيين والشباب من حديثى التخرج فى الكليات والمدارس ومراكز التدريب داخل المدينة مثل فرق : نقابة المعلمين، نقابة التطبيقين، إستاناد بورسعيد، القناة لرباط وأنوار السفن، خريجي المدارس الصناعية، مركز التدريب المهني، نادى الجمارك، الساحة الشعبية، شباب المدينة، هيئة قناة السويس، شركة بورسعيد للغزل والنسيج (بور تكس) .

وما زال الأمر كذلك حتى نهض المسرح الجامعى وتشكلت فرق فى كل من: كلية التربية الأساسية، كلية التربية النوعية، كلية التجارة، المعهد العالى للخدمة الاجتماعية وكلية الهندسة وكلية التمريض ومعهد الحاسب الآلى.

البداية كانت مع قدرى حفيلة وعرضه " بكالوريوس فى حكم الشعوب " الذى حاز المركز الأول على مستوى الجامعات المصرية فى مطلع السبعينيات من القرن الفائت، ويعد فترة ركود عاود هذا المسرح نهوضه فى أواخر الثمانينيات، ونجح عرض " دماء على أستار الكعبة " للمخرج خالد توفيق نجاحاً باهراً لفت الأنظار إليه، لاسيما أنه كان مواكبا للعرض الذى قدمته فرقة المسرح القومى بالقاهرة عام ١٩٨٩م. لذات المسرحية، ثم

توالى صعود المسرح الجامعي بالمدينة حتى حصل عرضان قدمهما لهذا المسرح المخرج طارق حسن على المركز الأول في عامين متتاليين وهما عرض " يا طالع الشجرة - ١٩٩٩م " لتوفيق الحكيم و" القرد كثيف الشعر - ٢٠٠٠ م " للكاتب الأمريكي يوجين أونيل .
وعندما تم تنظيم مهرجان للإبداع المسرحي بالمدينة سنة ٢٠٠٥م، اشتركت فيه خمس كليات ومعاهد بعروض لفرقها هي : كلية التجارة " أبو الهول الحى "، كلية الهندسة " يا بهية وخبرينى "، معهد الحاسب الآلى " لخبطة "، معهد الخدمة الاجتماعية " سعدون المجنون "، وكلية التربية " القرد كثيف الشعر " .

ولمعت فى هذا المسرح أسماء مخرجين مخضرمين وشباب من أمثال : صلاح الدمرداش ورايح رخا (المعهد العالى للخدمة الاجتماعية)، أحمد عجيبه (كلية التمريض)، علاء فراج (كلية التجارة)، محمد الملكى (كلية الهندسة)، كمال أبو الخير (كلية التربية النوعية)، ومحمد يسرى (معهد الحاسب الآلى).

وكان أن أنشئت فى سنة ١٩٦٤م، فرقة قصر الثقافة، ووقتها كانت تتبع جهاز الثقافة الجماهيرية، وكان للمخرج عباس أحمد الدور الأكبر فى هذه الفرقة عند نشوئها، بل إنها ما كانت لتنتشا لولا دمج فرقة الطلبة بأكملها فى هذه الفرقة، بما أدى إلى إلغاء فرقة الطلبة، ومن بعد هذا الانضمام وكنتيجة للنجاح الذى حققته الفرقة الجديدة انضم أغلب فنانى المسرح ببورسعيد إليها، حتى انفردت بتمثيل المسرح ببورسعيد فى المهرجانات والمسابقات المسرحية على مستوى الجمهورية، ومثلت مصر فى كثير من المهرجانات المسرحية الدولية ؛ حتى فرقة بورسعيد الإقليمية التى ظلت متماسكة إلى حد ما لأكثر من عشرين سنة، ما لبثت أن انضمت إلى قصر الثقافة - الذى أصبح يتبع الهيئة العامة لقصور الثقافة - وإن ظلت محتفظة باسمها وبالمقر الذى تؤدى عليه عروضها وهو مسرح اللبرا القديم .

وقدمت فرقة القصر عروضاً لمسرحيات كثيرة منها : " الخطوبة "، " عيلة الدوغرى "، " الحصار "، " القضية "، " المحروسة "، " السبنسة "، " سكة السلامة "، " جمهورية فرحات "، " ملك القطن "، " الزويعه "، " القاعدة والاستثناء "، " الموقع ٢٢ "، " النديم "، " القرية المفقودة "، " أحلى صباح يا بورسعيد "، " ملك الشحاتين "، " صابرة "، " المجانين "، " ملاعب "، " وصاحبه غايب "، " جحا فى المزاد "، " فرسان المؤامرة المستديمة "، " فرح العمدة "، " رحيل وطن "، و" أولاد الغضب والموت " .

وفى مسيرة التطوير تشكلت فرق ذات مستويات مختلفة بالهيئة العامة لقصور الثقافة وجاءت هذه المستويات على النحو التالى:

* فرق قومية للمحافظات.

* فرق لقصور الثقافة.

* فرق لبيوت الثقافة.

* فرق نوادى المسرح.

ومن ثم تشكلت فى بورسعيد فرقة " بورسعيد القومية المسرحية "، وفرقة " قصر ثقافة بورسعيد " (تم إلغاؤها حالياً)، وفرقتا " بيت النصر المسرحية بالقابوطى و" بورفؤاد المسرحية " ببورفؤاد.

و فيما استمرت فرقة قصر الثقافة فى تقديم عروضها إلى أن ألغيت بقرار إدارى غامض، كان أول عرض تقدمه الفرقة القومية هو عرض " الحريق " من إخراج جمدى الوزير فى أكتوبر ١٩٨٣م، ثم مالبثت العرض أن توالى منها على سبيل المثال : " زيارة السيدة العجوز"، " حلم يوسف"، " اليهودى التائه " " سيف الله"، " حانغنى لمن ؟"، " النقرزان"، " ليلة النوروز"، " المهرج " " باى باى يا عرب"، ومما قدمته فرقة بيت ثقافة النصر المصرية مسرحيتا " الفيل يا ملك الزمان " و " سعدون كيشوت"، ومما قدمته فرقة بيت ثقافة بورفؤاد مسرحيتا " السر فى بير " و " تياترو فرقة ".

وللتجريب المسرحى تواجد كبير فى المدينة، وأحرز المحررين المسرحيون من أبنائها تفوقاً مشهوداً منذ نشأة نوادى المسرح التى نشأت عام ١٩٩٠م بالهيئة العامة لقصور الثقافة حتى الآن. والافت للانتباه أن القليل من المسرحيات التجريبية التى قدمت بالمدينة سواء بقصر الثقافة أو البيوت التابعة للفرع الثقافى بالمحافظة مأخوذ عن نصوص لمؤلفين أجانب مثل ماكيبث/ شكسبير وزيارة السيدة العجوز / فريدريش دورينمات، والقليل منها أيضاً المأخوذ عن نصوص لمؤلفين عرب مثل هاملت يستيقظ متأخراً / ممدوح بدران ؛ أما الكثرة الكاثرة من العروض فلمؤلفين محليين، وهذا مؤشر جيد. ومن هؤلاء المؤلفين: رجب سليم، عبد القادر مرسى، عبد الفتاح البيه، ياسر عاشور، محمد عبد القادر، أحمد عزت، أسامة المصرى، علاء المصرى، خالد توفيق، إبراهيم سكرانة، متولى حامد، وزكى فواز. ومنهم من قام بإخراج نصوصه والتمثيل فيها .

والعروض التجريبية التى تقدمها هذه النوادى كثيرة، منها : "من يملك النار"، البطاحيش"، " حكاية وعيل"، "نص ساعة كلام"، "فلسفات حيوانية"، "راجعين"، "الجزيرة"، "إعدام فار"، "لحن الشيطان والحب"، "عود الورد"، "طاقة شوف"، "أطياف ورق"، "أومليت"، "القلع والصارى"، "من الميلاد للممات"، "العمة والعصاية"، "محاكمة زنجى

أبيض، "حانة الربيع"، "أغنية الليل و السكن"، "أوين يوفيه"، "فانتازيا العالم الرابع"، "فى محراب السيد دود"، "من الميلاد حتى المات"، و"اللوحه الأخيرة".

ومن أخرج لنوادى المسرح عروضاً تجريبية : جمال مهران، إبراهيم فهمى، حسنى عكرى، كمال أبو الخير، عبد القادر مرسى، عييز فاروق، سامح فتحى، عمرو عجمى، هانى عيسى، محمد عيسى، عمرو كمال، شريف مبروك، أحمد محسوب، مصطفى العزب، عمرو كمال، عمر الحلوجى، أدهم رشدى، زكى فواز، إبراهيم سكرانة، محمد الملكى، ومحمد ياسين (رحمه الله - أحد ضحايا محرقة بنى سويف).

منذ عام ١٩٧٤م، وبعد العودة من التهجير، ومسرح الطفل فى ازدهار فقدمت عقب العودة مباشرة مسرحيات : "الهاوى"، "أرض الأحلام" و "بلاد الحب" وذلك من خلال التأليف الجماعى للأطفال أنفسهم عبر ورشة سُميت وقتها ورشة مسرح الطفل بإشراف وتدريب من إبراهيم فهمى : ثم قدمت بعد ذلك مسرحيات للأطفال من تأليف الكبار، ومنها مسرحيات : "لوذة الذكوة"، "ثمن الحرب"، "يا ديب .. يا ديب"، "خروف بقرش"، "يحكى أن"، "كان يا ما كان"، "أراجوز فى المدينة"، "سعاد بنت الصياد"، "عصفور الجنة"، "الجزيرة الشقلوية"، "وحوى يا وحوى"، "بياع الحوايدت"، "قصر الأحلام"، "الفردي ملك الغاية"، "رحلة منصور"، "الأصدقاء والكنز"، "رحلة الست أرض"، "رحلة النرجس"، "تعلوب المغلوب"، "قدورة والعراش"، "الخوف"، "الحلم"، و"الكنز" وغيرها.

ومن المؤلفين لمسرح الطفل : عبده مخلص، أحمد زحام، عاطف عبد الرحمن، عبد الفتاح البيه، محمد خضير، عبد القادر و مصطفى العربى . ومن أخرج للطفل: على أبو الورد، علاء الشوافى، محمد الدسوقي، حسنى عكرى، إبراهيم فهمى، عبد القادر مرسى، مصطفى العزب، ومحمد نصر الدين . ومنهم أيضاً من أخرج العرض الذى ألفه، ومنهم من أدى أدواراً تمثيلية فيه.

والنتيجة هي ثراء مسرحى باهر برزت به بورسعيد سائر المحافظات المصرية، واحتشاد ملحوظ بكتائب من الفنانين المسرحيين المرموقين الذين أصبحوا محط أنظار كل محب لهذا الفن.

وإن أردت، عزيزى القارئ، فهذه بعض أسماء لأفراد من هذه الكتائب.

فى مجال التأليف المسرحى:

عباس علام، أحمد أبو النور، سيد طليب، د. أحمد سخسوخ، عبد مخلص، عاطف عبد الرحمن، محمد البحيرى، رجب سليم، محمد صالح الخولانى، على بركات، محمد سعد

بيومي، مصطفى اللبان، صلاح متولى، عادل منسى، أسامة المصرى، محمد عبد القادر، محمد حامد السلامونى، السيد الخميسي، عبد الناصر حجازى، ومحدثك عزيزى القارئ.

فى مجال الإخراج:

نصر الدين الغريب، عباس أحمد، سمير العصفورى، مراد منير، نجيب جبر، محمود الحطاب، رأفت جبر، خضر الطويجي، إسماعيل الزغبى، محمد شوقى نعمان، السيد عاشور، محمد الشريف، سيد عبد السلام، محمد سالم، عبد الرحمن عوف، سمير زاهر، رشدى إبراهيم، فوزى شنبودة، مراد منير، صلاح الدمرداش، أحمد عجيبه، حمدي الوزير، سعيد حامد، عاطف عبد الرحمن، فؤاد صالح، حسين عز الدين، طارق حسن، خالد توفيق، رابع رخا، حسنى عكرى، محمد حسن، محمد طه حماد، عبد القادر مرسى، إبراهيم فهمى، محمد يوسف، السيد رضوان، قدرى حفيظة، تاجى أباطة، إبراهيم سكرانة، جمال مهران، سامح فتحى، وزكى فواز.

فى مجال أغاني المسرح:

إبراهيم الباتى، محمد عبد القادر، أحمد سليمان، عبد الفتاح اليبه، صلاح زكريا، أسامة المصرى، طارق زرمية، محمد صالح الخولاني.

فى مجال الديكور والإكسسوارات:

تصميم:

مصطفى السيد، عباس الطرابيلى، عاطف زرمية، د. على يدوى، محمد شوقى سعيد، أحمد العدوى، حسن الداوودى، معتز حمود، محمد غريب، عادل الشاذلى، عبد القادر مرسى، إبراهيم المطيلى .

تنفيذ:

كامل حجازى، رفعت حجازى، محمود المصرى، محمد عدس، سعيد حامد، محمد عبد القادر.

فى مجال الموسيقى:

منير حزين، نصر السمطى، أحمد متولى، فاروق البولاقي، صلاح صديق، أحمد العجمى، عبد العزيز عثمان، رجب الشاذلى، عادل عثمان، محمد جمعة، إبراهيم الداوودى، الدسوقي الغنان، هشام الداوودى، محمد نصر.

فى مجال الاستعراضات المسرحية:

محمود حسين، محسن يوسف، حسن تاج الدين، أحمد عبده، محمود أبو مسلم، جمال سالم، محمد عشري، عمرو عجمى، محمد أبو صالح، أشرف شرف، طارق مديولى.

فى مجال الماكياج:

كامل الكيلانى، السيد العادلى، صلاح غنيم، محمد محبى الدين.
وإذا كانت الفرق المسرحية خارج العاصمة تشكو دائماً من ندرة العناصر النسائية، فإن من علامات الحركة المسرحية فى بورسعيد اغتناها بهذه العناصر، ومن فنانات المسرح ببورسعيد على سبيل المثال لا الحصر: ملك الجمل، عليّة عبد المنعم، فاطمة التابعى، عليّة الجباس، عفاف سحلب، عبير منصور، عبير فاروق، عفاف الرشيدى، وفاء الشطورى، مى أبو عبده، أمال العسكرى، هنادى صابر، حنان خضر، هالة خضر، هالة عبد الرازق، هالة بركات، فاطمة هدية، هناء عز الدين، فاتن عوض، مروة مجدى .
أما الممثلون فهم من الكثرة والاحتشاد بحيث يصعب، ليس فقط حصرهم، وإنما أيضاً تقديم أسماء عدد منهم ولو على سبيل المثال.
ولاحظ عزيزى القارئ أن الفنانين - بمن فيهم الممثلون والفنانون قد تنقلوا - ومازالوا - بين الفرق المختلفة، وأنه لم يعد يميز فرقة عن أخرى أى تمايز.
ولأن المسرح فى بورسعيد كان محط أنظار مصر كلها فقد حرص عدد من نجوم ونجوم الأداء التمثيلى المسرحى على الاشتراك فى العروض التى تُقدم على خشبات المسرح بالمدينة من خلال الفرق المحلية، وليس الفرق المركزية التى حرصت على القدوم إلى المدينة وتقديم عروضها بها، ومنهم على سبيل المثال: زهرة العلا، سناء جميل، ميمى شكيب، وسناء يونس، محمد السبع، توفيق عبد الحميد . ومن فنانى بورسعيد الذين اتخذوا مدارهم فى فلك النجومية بسماء القاهرة حرص على الجىء إلى مدينتهم كل من : ملك الجمل، عليّة عبد المنعم، محمد سالم، محمود ياسين، حمدي الوزير، وجمال عبد الناصر.

وكثيرون هم فنانو المسرح الذين انطلقوا من بورسعيد إلى سماء النجومية وأضاعوا فى الفلك القاهري، منهم على سبيل المثال لا الحصر : عباس علام (تأليف)، محسن سرحان (تمثيل)، أنور محمد (تمثيل)، ملك الجمل (تمثيل)، محمود ياسين (تمثيل)، فاروق يوسف (تمثيل)، محمد عنانى (تمثيل)، عليّة عبد المنعم (تمثيل)، فاطمة التابعى (تمثيل)، عباس أحمد (إخراج)، سمير العصفورى (إخراج)، جمال عبد الناصر (تمثيل)، سيد طلب (تأليف وإخراج)، محمد سالم (تمثيل وإخراج)، سيد الملاح (تمثيل وغناء مونولوجي)، مراد منير (إخراج)، يوسف معاطى (تأليف)، عليّة الجباس (تمثيل)، حمدي الوزير (تمثيل)، د. أحمد سخسوخ (تأليف وتعليم من خلال عمادته لأكاديمية الفنون المسرحية). ومن الذين أثبتوا تواجدهم فى سماء القاهرة : عادل برهام (تمثيل)، عبده الوزير (تمثيل)، حسن

الوزير (إخراج)، محمد الحديدي (تمثيل)، ناصر شاهين (تمثيل)، ماجدة منير (تمثيل)، عبد الرحيم حسن (تمثيل)، أيمن بشاي (تمثيل) نشأت خضير (تمثيل)، محمد ولاء الدين (تمثيل)، عادل اللبان (تمثيل)، محمد حامد السلاموني (تأليف)، ومحمدك عزيزي القارئ (تأليف).

ومن هؤلاء، كما هو معروف، من امتد نشاطه إلى السينما والتلفزيون مثل: محسن سرحان، ملك الجمل محمود ياسين، فاروق يوسف، عليّة عبد المنعم، فاطمة التابعي، سيد الملاح، جمال عبد الناصر، عادل برهام، يوسف معاطي، عليّة الجباس، حمدي الوزير، محمد الحديدي، عادل اللبان، ناصر شاهين، وغيرهم.

وأُشْرِقت على الشاشات المصرية كبيرة كانت هذه الشاشات (سينما) أم صغيرة (تلفزيون)، دونما مرور على المسرح القاهري أو مكوث طويل به، وجوه بورسعيدية غير قليلة، منها على سبيل المثال وجوه : عبد العزيز محمود (تمثيل وغناء وتلحين)، نادية حمزة (إخراج سينمائي)، يحيى العلمي (إخراج تلفزيوني وسينمائي)، ناهد يسرى (تمثيل سينمائي وتلفزيوني)، سامية شكرى (تأليف وتمثيل تلفزيوني وسينمائي)، حسام الدين مصطفى (إخراج سينمائي وتلفزيوني)، نعمت مختار (رقص وتمثيل)، سهير رمزي (تمثيل سينمائي)، أحمد البيه (تأليف وسيناريو سينمائي)، رضا الوكيل (تأليف وسيناريو تلفزيوني).

غير أن الحقيقة تقتضى الاعتراف بأن هذا الازدهار قد اعترته تغيرات كثيرة، ووُضعت أمامه معطلات أكثر . صحيح أنه الآن لم تظهر أعراض الذبول الكامل على ما ببستان الفنون الدرامية من أزهار، لكن احتمالات ظهورها قائمة وترهص بذبول وشيك. ومن العوامل المؤدية إلى هذه الاحتمالات ما يعود إلى:

* الممارسات الإدارية المركزية والمحلية.

* التبدلات التي اعترت المجتمع البورسعيدى.

* تطور الميديا متعددة الوسائط.

* المسرحيين البورسعديين أنفسهم.

فيما يتعلق بالممارسات الإدارية المركزية والمحلية، نجد أن هذه المعطلات قد نالت من وظائف المديرين المعروفة، من تخطيط وتنظيم وتوجيه وتنسيق ورقابة، مثلما نالت من وظائف المؤسسة المسرحية ذاتها كالتمويل والإنتاج والتسويق، حتى أضحت عرض مسرحية ما على الجمهور العام مشكلة رئيسة تحتوى على العديد من المشكلات التفصيلية المتشابكة المرهقة . ويسبب من هذه الممارسات ساعات أحوال خشبات المسرح، والمتاح من

هذه الخشبيات دخل في دائرة النذرة التي تكاد تشبه في الحجم سم الإبرة، وتدهورت أحوال الفرق المسرحية تدهوراً كبيراً .

وأُسهم في هذا التدهور الحالة المريعة التي أصبح عليها المسرح المدرسى في المدينة فبعد أن كان هو بائز حُب المسرح في التربة البورسعيدية، ومن خلاله نما أبناء جيلنا والجيل السابق علينا، أصبح منذ السبعينات من القرن الفائت ساحة جدياء، والأسباب كثيرة منها السياسى، لكن أغلبها يعود إلى قصور في الإدارة التربوية ونقص مهارات موجهي المسرح المدرسى، أو يعود إلى أولياء الأمور . صحيح أنه بذلت بعض محاولات لإقالته من عثرته، على النحو الذي ذكرته لك آنفاً، إلا أن التعثر كان سمة مصاحبة لأغلب نتائج هذه المحاولات، فكيف لمتعثر أن يقل متعثراً .

لقد قصر موجهو المسرح المدرسى في أغلب المدارس اهتمامهم على الأداء وحده، واختزل هذا الأداء في جهازة الصوت والتلوين النغمى – أحياناً – مع تحريك الزراعين برفعهما أو خفضهما أو التشويج بهما في وجوه المشاهدين، أما المسرح من حيث هو رسالة جمالية وذهنية، وما ينطوى عليه هذا من عناصر هي عماد العمل المسرحي، فلا شأن للمسرح المدرسى بها ؛ أحياناً ما يُوظف المسرح لخدمة المناهج التعليمية فيما يعرف بمسرحة المناهج، لكنها مسرحة قاصرة تتميز بالجفاف وانتفاء كثير من عناصر المسرح عن عروضها .

ومما أزداد من المخاطر التي تعرضت لها الحركة المسرحية في المدينة الارتباكات التي يعاني منها الآن مسرح الهيئة العامة لقصور الثقافة، ذلك المسرح الذي تحمل وحده عبء النهوض بالمسرح المصرى برمته، والمسرح ببورسعيد على وجه الخصوص، لاسيما في أوقات الانهيار السبعيني وما تلاها . وما كان له أن ينهض بهذا العبء لولا أنه تبنى القيم الروحية والوطنية والإنسانية الأصيلة، وعمل على مد جذوره لدى الطبقات الشعبية، وقدم النصوص المصرية والعربية والعالمية الجيدة لأنه كان منفتحاً على التجارب المسرحية المحلية والعربية باعتبارها تجارب فنية وإنسانية . وكان مسرحاً يعتنى بالهواة وينمى مواهبهم، لكن عيوباً كثيرة طرأت عليه فأعاقت أداءه ؛ منها أنه لم يعمل على إقامة خشبات مسرحية جديدة بالمحافظة، ولم يعتن الاعتناء الكاف بالتدريب المسرحي، ولم يشجع التأليف له، ولم يبتكر أشكالاً مكتملة للتنسيق بينه وبين مسرح الشركات والمسرح الجامعى والمسرح المدرسى والجهات الأخرى التي تنتج عروضاً مسرحية أو لديها استعداد لتكوين فرق وتقديم عروض مسرحية . أضف إلى هذا ضعف التحضير المادى والمعنوى وضعف التسويق وبيروقراطية الإدارة، وفجوة الأمن والسلامة التي أصابت المسرحيين بعد فاجعة

وكثيرة هي التبدلات التي طرأت على المجتمع بورسعيدى لا سيما بعد تحويل المدينة إلى قاعدة لقوضى ما يسمى بالاقتصاد الحر . في البداية خشى المثقفون أن تطغى معايير الكسب المادى على قاطنى المدينة فينصرفون إلى شئونهم ويضربون كشحاً عن الزاد الثقافي، فاجتهدوا وناضلوا - دونما مبالغة - من أجل درء هذا الخطر ؛ وكانت النتيجة أنه إلى جانب ثقافات أثرياء الطفرة التي اتسمت بالضحالة والتشوش والكومبرادورية وتسييد كل ما يحض على الاستهلاك ويؤكد التمايز الطبقي ... إلخ، تواجبت - بقوة - الثقافة الوطنية المستتيرة المنحازة إلى الطبقات الشعبية المنتجة، الداهضة لدعاوى التبعية والمناهضة للانتجاهات المرتدة، المواجهة لثقافات التجهيل وتكفير المجتمع، الوثيقة لوحدة عنصره . وكان المسرح سلاح من أسلحة استخدمها المثقفون الوطنيون في نضالهم هذا . لكن لم يدم الأمر لأكثر من عقدين ونصف العقد، لنقل لربع قرن من الزمان، ثم ما لبثت التكتسات أن توالى لصالح ثقافة الارتداد والانسلاخ بدعم من السياسات العامة والسياسات الإدارية وتوحش الأثرياء الجدد . وكلاهما أطبق أصابع كفيه على رقبة المسرح في الوراء أثخن الثقافة والمثقفين طعناً، وكلاهما أطبق أصابع كفيه على رقبة المسرح في بورسعيد، حتى كادا أن يزهقا روحه، لولا أنه ما يزال يقاوم مدفوعاً فقط بالرغبة في أن يستمر حياً . لكن ما هو شكل هذه الحياة التي يرومها والهواء اللازم له قد ضاقت مداخله؟ .. أقولها لك بصق، لا أحد يعرف .. لا من الجمهور العام .. ولا من أهل المسرح ذاته.

ومن الصور الخائقة للمسرح أن الكثرة الكاثرة من أثرياء الطفرة يحجمون عن تمويل عروضه ولو بشراء تذاكر العرض أو حتى بالتبرع لإصلاح صالاته وخشباته أو تجهيزاته أو توصيلاته الكهربائية، ناهيك عن تحديث هذه الصالات والخشبات . ومن يقدم منهم على رعاية عرض - وهذا نادر - يخلق فئس وفئس هذا العرض بما يفرضه عليهم من شروط ؛ أما من اختاروا الاتجاه الارتدادى وتوشحوا بالدين فقد نظروا إلى المسرح نظرة سوء - عن قصد أو بسلاسة نية - ورأوا فيه أداة فسق وفجور ومكاناً للاختلاط، حتى إن بعضهم أقدم عام ١٩٨٩م. على إحراق خشبة مسرح قصر الثقافة بسكب صفيحة كيروسين عليها وإضرار النار فيها .

أما أساليب الميديا الجديدة المرتكزة على طفرات هائلة من التقدم التكنولوجى فقد قدمت للمواطن بورسعيدى - شأنه شأن المواطن المصرى مواطنى كل دول العالم - صوراً للتثقيف والتسلية متعددة الأوجه، مبهرة الشكل، وهى بكل أسف تكرر أشكال التلقى

الانفرادى، وتؤكد العزلة، وتبقى المواطن فى البيت أو فى المكتب ليتلقى حاجاته دونما التقاء أو اتصال بالآخرين، فإن خرج وركب وسيلة مواصلات أو حتى تمشى فى الشارع فهو معزول أيضاً عن الآخرين، يتلقى ثقافته وحده عبر تكنولوجيا أجهزته الإلكترونية أو غير الإلكترونية، السمعية والبصرية والسمع بصرية؛ وإن لم تكن هذه الأجهزة مملوكة له فهى موزعة على الفتارين والحوائط وقريبة من أسقف وسائل النقل والمواصلات العامة ومثبتة فوق أو داخل تابلوهات كبائن قيادة المركبات الخاصة بأنواعها . والأثر المباشر لشيوع الثقافات التى تبشها هذه الأجهزة هو ضعف ارتياد الجمهور لمسارح ودور العرض السينمائي، من هنا نال المسرح فى بورسعيد ما ناله فى سائر المدن المصرية من خلو الصالات إلا فيما ندر، ومن ثم ضعف التأثير؛ واعتقد أن الإدارة المسرحية - مركزية ومحلية - قد أسهمت بنصيب وافر فى صرف الجمهور عن العروض بعدم الاعتناء بالدعاية والإعلان، وعدم اهتمامها بنشر الثقافة المسرحية بين عموم المواطنين، وضبابية السياسات التى يفترض أنها إنما تعمل على تطبيقها .

ولا أبرئ فنانى المسرح من اليورسعيديين من المسؤولية عن الأوضاع المتردية التى أصبح عليها حال المسرح ببورسعيد، فهم ضالعون فى القضاء على سمعة ومكانة المسرح فى مدينتهم بانصرافهم عن تثقيف أنفسهم بالثقافة المسرحية الواسعة، وإغلاقهم لورش المسرح التى كانت تشغى بالحركة، وعدم اهتمامهم بالمنجز المسرحى الحديث، ورنوهم الدائم إلى المركز، وخلودهم إلى النمطية، وتعليق كل المشكلات التى تعاني منها الحركة المسرحية على مشجب الإدارة والدولة والظرف العام، بالإضافة إلى السلوكيات غير السوية التى سمحوا بشيوعها فى مجتمعهم فلا انضباط ولا التزام بقواعد الإدارة المسرحية الرشيدة، والركون إلى وهم التفوق حتى شاع لدى كثيرين منهم أنهم الأفضل والأرقى وما هم كذلك، وكثيرون صرفوا جهودهم إلى إزاحة الآخرين للاستئثار بمساحات الضوء كلها، وصاحب هذا شيوع مثالب الذم والتنمية إلى آخر هذه السلوكيات الأخلاقية التى هى أفك مرض يهدد الحركة المسرحية فى المدينة، ومع هذا ما يزال المسرح فى المدينة يتنفس تنفس المحتسرج.

غير أن أكبر العقبات التى يعانى منها المسرح ببورسعيد هو تعطيل خشبة المسرح بقصر الثقافة لاعتبارات الأمن والسلامة، وعدم وجود خشبات بديلة سوى منصة للعروض الصيفية أقيمت دخل سور هذا القصر وتتقصها إمكانات وأجهزة كثيرة.

الفصل الثاني

بيوت يذكر فيها اسم الله

(٩)

مساجد المسلمين الجامعة

فى الوقت الذى اهتمت فيه شركة قناة السويس بالجانب الدينى والشعائرى للأوروبيين الكاثوليك العاملين بها، فانشأت لهم كنيسة نُشنت للصلاة منذ بدء العمل فى شق مجرى القناة، فإنها لم تول المسلمين ذات الاهتمام، وهم الأكثر عدداً وما يقومون به هو الأهم . ولما كانت ممارستهم الشعائر الدينية وعمودها الصلاة ضرورة فرضتها طبيعة الأعمال الشاقة، التى اضطروا إليها اضطراراً، فقد ظلوا يمارسون شعائر الصلاة الإسلامية فى العراء أو داخل الخيام والعشش أو تحت المظلات البائسة التى كانوا يقيمونها لهذا الغرض لمدة اقترنت من السنة.

من المساجد القديمة:

أول مسجد بالمدينة:

لم يبن أى مسجد للمسلمين فى قرية العرب قبل سنة ١٨٦٠م. تاريخ إقامة أول مسجد بالمدينة، وكان موقعه عند النقاء شارعى أحمد ماهر (الحميدى) والمقدس الحاليين . وأقامت الحكومة بيتاً فوق هذا المسجد الذى كان مبنياً من الخشب بعد استلامها إياه من الشركة سنة ١٨٦٥م، وخصصته للقاضى الشرعى الذى عينته للمدينة ، وقد تحول هذا البيت فيما

بعد إلى مقر المحكمة الشرعية.

ولأن هذا المسجد كان صغيراً وضيقاً، ومع تزايد سكان قرية العرب من المسلمين، فقد وافق الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٩م (سنة افتتاح القناة) على إنشاء مسجد آخر تتحمل نفقته الحكومة المصرية، إلا أن ندرة مواد البناء أجلت إنشاءه .

المسجد التوفيقي:

عند زيارة الخديو توفيق لبورسعيد سنة ١٨٨١م أصدر أوامره بسرعة إنشاء مسجد جديد تلحق به مدرسة لتعليم الأطفال في قرية العرب، وتم الاحتفال بوضع حجر الأساس في السابع من ديسمبر ١٨٨٢م ، وافتتح رسمياً للصلاة فيه في مايو ١٨٨٥م ، وعلى الرغم من أن مئذنته لم تكن سامقة الارتفاع، ولم يكن بها سوى طابق واحد، وارتفاعها لم يتجاوز الخمسة وعشرين متراً، فإنه - من وجهة نظري على الأقل - كان تحفة معمارية إسلامية تتسم بالأصالة والرشاقة والبساطة . ويضاف إلى الإبداع الهندسي أنه كان لسكان القرية بمثابة مجمع خدمي عظيم الأهمية، فقد ضم نحو ستة عشر محلاً ومدرسة . وفي هذه المدرسة بدأ عبد الرحمن شكرى رائد المدرسة الديوانية تعليمه الأساسي . ومن المحال - على عهدى - محل عم محمود لبيع وتركيب مستلزمات التوصيلات الكهربائية المنزلية، ومحل لبيع مستلزمات دفن الموتى، وكذا جمعية دفن الموتى التي كان يرأسها رجل المجتمع مصطفى البنا . والمربع الذي أقيم عليه المسجد وملحقاته يطل على شارعين رئيسيين هما شارع أوجيني من الشمال وشارع سعد زغلول (الثلاثيني) من الجنوب .

ومن التحولات التي شهدتها مقر المدرسة أنه أصبح مقراً للاتحاد الاشتراكي العربي في إحدى الفترات ثم آل إلى حزب العمل الاشتراكي . وكانت الميضة أسفل المسجد الذي كان يصعد إليه بعد ارتقاء سلم مكون من عدة درجات . وسمى هذا المسجد بالجامع التوفيقي، وأول إمام تم تعيينه لهذا الجامع هو الشيخ عبد الرحمن أبو الحسن .

وظل هو الجامع الرسمي للمدينة إلى أن تم بناء المسجد العباسي . وقد هُدم هذا المسجد الجامع على الرغم من كونه أثراً إسلامياً تاريخياً بالغ الأهمية، وأعيد بناؤه بتصميم مغاير وطراز مختلف وروعي فيه أن يكون صرحاً شامخاً شاهق الارتفاع له مئذنة سامقة وأربع قباب صغيرة تتوسطها قبة ضخمة وله مدخلان أحدهما جنوبى يطل على شارع سعد زغلول والآخر شمالي يطل على شارع صغية زغلول (أوجيني) . وتمت إعادة البناء بمساهمات المواطنين وصندوق الخدمات والتنمية المحلية بالمحافظة، تحت إشراف جمعية نور الإسلام للخدمات التي تأسست لإدارة شئونه في ٢٦ من رجب ١٤٠٠ هـ، الموافق ٢٦ من مايو ١٩٨٠م .

وساحة الصلاة الرئيسة فى الطابق الأول، ويصعد إليها بارتقاء سبعة عشرة درجة من كل مدخل، تسع درجات تليها بسطة عريضة تليها ثمان درجات ثم بسطة عريضة تنتهى بعتبة المدخل . وافتتح الجامع للصلاة بعد إعادة البناء فى ١٦ من ربيع الأول سنة ١٤٢٢ هـ. الموافق ٨ من يونيو ٢٠٠١ م . وحضر الافتتاح الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر، محمود حمدي زقزوق وزير الأوقاف، د . نصر الدين فريد واصل مفتى الجمهورية، ومصطفى كامل محمد محافظ بورسعيد .

المسجد العباسي :

أنشئ المسجد العباسي فى عهد الخديو عباس حلمي الثاني، فى موقع يطل على شارع المحروسة الذى يمثل امتداداً لشارعى محمد على (الشهداء) ويقع حالياً فى دائرة حى العرب، واحتفل بافتتاحه والصلاة فيه سنة ١٩٠٥م - ١٣٢٢ هـ . وأول إمام تم تعيينه لهذا الجامع هو الشيخ عبد الفتاح الجمل. وكانت نقوش سقفه المصنوع من الخشب السميك ذات الطابع الإسلامى من أهم ما يلفت الانتباه فى هذا المسجد، غير أنه تم انتزاع هذا السقف الخشبي المنقوش عند ترميمه عام ٢٠٠٠م واستبدل بأخر خشبي أيضاً لكن غابت عن السقف الجديد النقوش القديمة. وعلى الرغم من أنه تمت توسعة هذا المسجد الجامع، فإن اتجاهها إدارياً يسود هذه الأيام يرى أن هدمه وبناء مسجد آخر بدلاً منه ضرورة دونما اعتداد بالأراء التى تؤكد على أثريته. لاسيما أنه قد مضى على إنشائه أكثر من مائة عام وطرأه البنائي غير متكرر، لكنهم لم يعتدوا بهاتين الحجبتين وغيرهما، ملغما لم يعتدوا بمثيلاتهما عندما هدموا الجامع التوفيقي . والأدهى أن جهات رسمية استخرجت التصديقات اللازمة للهدم وإعادة البناء باعتبار أن ما تقرر هدمه ليس أثراً، ويحضرني هنا أن الجامع العباسي بالمنصورة، وقد بنى فى نفس العهد الذى بنى فيه المسجد العباسي ببورسعيد، عد أثراً واعتمد المجلس الأعلى للآثار ترميمه لتمتعه بهذه الصفة، الأمر الذى يستدعى التساؤل.

مسجد صالح سليم:

لم يكن اسمه من قبل مسجد صالح سليم، وإنما كان اسمه جامع فؤاد الأول. أسسه صالح سليم، أحد أثرياء فترة ما بين الحربين العالميتين، فى ٥ من فبراير ١٩٤٦م الموافق ٢ من ربيع الأول ١٣٦٥هـ، وأنعم عليه الملك فاروق برتبة الباشوية بعد إقامته هذا المسجد، وبعد الثورة أصبح المسجد يعرف باسم مؤسسه، وكان موقع هذا المسجد هو آخر المدينة من ناحية الغرب، وآخر شارع سعد زغلول وآخر حى المناخ فى وقت بنائه، غير أن العمران تجاوزه وامتد الشارع ليصبح موقع هذا المسجد الجامع عند نقطة من نقاط التقاء شارع

سعد زغول بالشوارع المتعامدة على البحر، وهي نقطة التقائه بشوارع ستانجراد (فولجوجراد حالياً).

مسجد النشار:

وهو مسجد صغير نسبياً ومقام في المنطقة التي تحمل ذات الاسم بالقرب من الساحة الشعبية بحي المناخ، وأقامه مغاول شهير من مغاولي الميناء، اسمه على النشار. وأنعم عليه الملك فاروق بترتبة البكوية مكافأة له، والمسجد بدون قبة ومئذنته متوسطة الارتفاع ولها شرفة واحدة، وقد تمت توسعة المساحة المخصصة للصلاة أكثر من مرة.

مسجد علوان:

بانيه مغاول أيضاً، لكنه متخصص في رصف الطرق، وقد احتفل بافتتاح هذا الجامع في يونيو ١٩٤٨م. وتحيط به عدة محال، أوقف ريعها للصرف على المسجد. وتمثل هذه المحال مشكلة كأداء لجهة الإدارة، وقد خطط لنقلها أكثر من مرة ولم يتم التنفيذ. والمسجد بدون قبة وإن كان بالسقف ارتفاع به نوافذ لإدخال الضوء والمئذنة متوسطة الارتفاع، ويشغل المسجد وأوقافه مربعاً كاملاً داخل حي العرب ويطل على شارع الأزهر من ناحية الشرق وعلى شارع البلدية (الشهيد عمرو محمد شاهين) من ناحية الشمال، وعلى شارع المقدس من ناحية الغرب، وعلى شارع النيل من ناحية الجنوب.

مسجد إمام:

ويقع في أقصى حي العرب من ناحية الغرب عند حدوده الإدارية مع حي المناخ ويطل من الغرب على شارع المنيا ومن الشمال على شارع روس (الأنصار) وهو مسجد متوسط الحجم. افتتح للصلاة في سنة ١٣٩٧ هـ - سنة ١٩٤٨م، وبانيه هو مصطفى إمام محمد الدمياطي ومثله مثل مسجد علوان بدون قبة ومئذنته متوسطة الارتفاع.

مسجد عبد الرحمن لطفي:

بناه عبد الرحمن لطفي باشا في المنطقة المعروفة بمنطقة الفيلات بحي الإفرنج (حي الشرق) في مكان يطل على شارع كشتنر (٢٣ يوليو حالياً) على مقربة من الكنيسة اللاتينية، واحتفل بافتتاحه للصلاة سنة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤م. وقد بلغ من روعة التصميم وحسن البناء حداً دفع شركات للسياسة إلى إدراج هذا المسجد الجامع في برامجها لزوار المدينة من السياح الأجانب القادمين عبر الميناء كمزار سياحي باعتباره واحداً من أهم الطرز المعمارية الإسلامية الموجودة بالمدينة على الرغم من حداثة نشأته آنذاك.

مسجد الرحمة:

عند تأسيسه وحتى قيام الثورة كان اسمه مسجد فاروق الأول ثم أصبح بعد قيامه

جامع الرحمة. وضع الملك فاروق حجر أساسه في يوم الخميس ١٤ من ربيع الأول ١٣٦٣هـ، الموافق ٩ من مارس ١٩٤٤م، واقتتج للصلاة يوم الجمعة الخامس من يناير ١٩٥٢م، وحضر حفل الافتتاح وزير الأوقاف إسماعيل رمزي باشا نائباً عن الملك وكذا على زكي العرابي باشا رئيس مجلس الشيوخ . تطل واجهته الجنوبية على شارع صغية زغلول والشرقية على شارع جمال عبد الناصر بدائرة حي الشرق (الإفرنج). وحسب ضياء الدين القاضي فقد صمم هذا المسجد الذي كانت مئذنته أول مئذنة ترفع في حي الإفرنج المعماري أوجست سوفيراين August Souverain، وساهم في مصاريف إنشائه وعمارته أعيان ذلك العصر، منهم : صالح سليم باشا، محمد علي سودان باشا، وعلى دحروج بك . وقد أضيفت إليه في سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م توسعة من الناحية الغربية، تولى الإنفاق عليها الحاج سيد سيد صبح . وأعيد تجديد الجامع وإعماره واستقبال المصلين من جديد اعتباراً من يوم الاثنين ٢٠ من رمضان سنة ١٤٢٣هـ الموافق ٢٥ من نوفمبر سنة ٢٠٠٢م. ويجري في الوقت الحالي الإعداد لتوسعته توسعة جديدة وإنشاء مدرسة لتحفيظ القرآن تلحق به، مع توسيع مصلى السيدات، وكذا الميضة وفصلها عن جسيم الجامع، ووضع تصميم هذه التوسعة المعماري حامد إبراهيم البنا ويتم حالياً جمع التبرعات من المواطنين من أجل تنفيذ هذه التوسعة التي بدأت أعمالها الإنشائية بالفعل من الناحية الشمالية .

مسجد المغربي:

بناه التاجر المعروف محمد محمد المغربي باشا المشهور بالدمياطى في ميدان السكك الحديدية . وحسب اللوحة التذكارية التي تنصدر واجهة المسجد فإن تأسيسه كان سنة ١٩٥٤ م ١٣٧٣ هـ وقامت بإنشائه وزارة الأوقاف بفضل محمد محمد المغربي الدمياطى. وقبة المسجد هرمية الشكل ومئذنته مربعة ومتوسطة الارتفاع . ويؤخذ على الإدارة المحلية عدم اعتنائها بالمجال البيئى الذى كان يحيط بهذا المسجد ويبرز من جماله فالمساحات الفضاء التى كانت تحيط به زحفت عليها واحتلتها من جانبيه الكتل الخرسانية قميئة المنظر وظلت في نمو إلى أن التصقت به التصاقاً قتل كثيراً من روعة بئانه، وإن قدمت خدمات للجمهور العام من خلال المنظمات التى تشغل هذه الكتل كجمعية التنمية الاجتماعية الملحق بها عيادة ومستشفى من ناحية الشرق والجراج متعدد الطوابق من جهة الغرب.

ومن المساجد الحديثة:

مسجد الإيمان الكبير:

يطل على شارع الأمين (محمد سرحان) منمنته متوسطة الارتفاع، وله قبتان مضلعتان إحداهما أكبر من الأخرى وسقفاهما هرميان . افتتحه الشيخ عبد الحليم محمود، شيخ الأزهر، عقب عودة أهالي المدينة من التهجير القسري الذي فرض عليهم بعد نكسة ١٩٦٧م، وبالتحديد عام ١٩٦٩م. واستمر إلى ما بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣م، وبالتحديد عام ١٩٧٤م. وقد ألحقت به دار للمناسبات أقامها أحد تجار المدينة سنة ٢٠٠٢م.

مسجد غنر:

هو مسجد قديم نسبياً ويحمل اسم بانيه، ومكانه الناصية الشمالية لتقاطع شارعى الشهيد محمد أحمد الجيار (عبادى سابقاً) والإسكندرية بدائرة حي العرب . مدخله بواجهته الجنوبية المطلّة على شارع الشهيد الجيار، وهو مسجد متوسط المساحة والارتفاع، وكذلك منمنته، ولا قبة له، وتم تجديده سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

مسجد السلام:

فى أقصى مكان شمال شرقى قارة إفريقيا أقيم هذا المسجد الجامع الذى تأسس فى ٢٤ رجب ١٤٠١هـ الموافق ٢٨ مايو ١٩٨١م. بناؤه ضخّم شامق، واجهته الشمالية هى مدخله الرئيس، وهذه الواجهة تطل على كورنيش البحر (شارع الشهيد عاطف السادات) وآخر شارع الجمهورية . وله فى هذه الواجهة ثلاثة أبواب، يُصعد إليها عبر درج يضم إحدى وعشرين درجة، وبالواجهة الجنوبية باب واحد يُصعد إليه من الميضأة الموجودة أسفل المسجد، ولصلى السيدات باب فى الواجهة الغربية يُفضى إليه سلم مكون من إحدى وعشرين درجة، وأسفل هذا المصلى دورة مياه لهن . وتعلو المسجد خمس قباب، أربع منها صغيرة موزعة على الأطراف، والخامسة ضخمة عالية تتوسطها جميعاً. وللجامع منمنتان سامقتان منفصلتان عن جسم المسجد، وكان من المخطط أن يكونا أعلى مما هما عليه الآن على أن ينقل الفئار إليهما، إلا أن وزارة الطيران المدنى اعترضت وطلبت خفض ارتفاعهما فامتثلت الإدارة المحلية وضربت كشحاً عن هذه الفكرة. وملحق بالمسجد مكتبة إسلامية وقاعة لعقد الزيجات ومركز لجراحة العيون تم تطويرها فى ١٥ من أغسطس ٢٠٠٠م وأنشئت فى الطرف الجنوبي الغربى من حديقته دار للمناسبات .

مسجد الإمام الحسين:

ويطلق عليه المشهد الحسينى ويقع بالمنطقة السابعة من المساكن الشعبية التى بنيت عقب حرب ١٩٥٦م. بدائرة حي المناخ، وتطل واجهته الجنوبية على شارع دمشق الذى هو

امتداد لشارع كسرى باتجاه الغرب ، وقد أعيد بناؤه وتوسعته وافتتح للصلاة فيه يوم الجمعة ٢٨ من ربيع الأول ١٤٠٥هـ، الموافق ٢١ من ديسمبر ١٩٨٤م، بحضور وزير الدولة للأوقاف د. الأحمدي أبو النور ومحافظ المدينة اللواء عبد الرحمن الفرماوى.

مسجد الوليد:

بناه رجل الأعمال عبد الوهاب قوطة، وقت أن كان نائباً بمجلس الشعب، بدائرة حى المناخ. والمسجد شاهق الارتفاع يصعد للصلاة فيه عبر سلم مكون من أربع وعشرين درجة . له ثلاثة مداخل، الرئيسى منها بالواجهة الجنوبية التى تطل على شارع السواحل، والمداخل الأخران بالواجهة الشمالية التى تطل على حارة الورشة، وملحق بالواجهة الغربية التى تطل على شارع مظلوم عيادة الشيماء الطبية، أما الواجهة الشرقية المظلة على شارع بنى سويف فملحق بها دار الشيماء للمناسبات . والمسجد بدون منئذة وله قبة ضخمة تكاد تغطى سقف المسجد بأكمله إلا من الزوايا الأربع التى تشغلها أربع قباب صغيرة، والمسجد كثير الزخرفة والنقوش البارزة، ويعود تاريخ تأسيسه إلى سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

مسجد الصالح:

أنشئ هذا المسجد بأموال المرحوم الحاج مساعد الصالح القناعى . وهو جامع شاهق البناء يصعد إليه عبر واحد وعشرين درجة، وله منئذة سامقة، وملحق به عيادة طبية ودار للمناسبات، وتطل واجهته الغربية على شارع الأمين (محمد سرحان) ويقع فى دائرة حى المناخ. وقد افتتح للصلاة فى الثانى من جمادى الأولى ١٤٠٨هـ الموافق ٢٢ من ديسمبر ١٩٨٧م بحضور وزير الأوقاف د. محمد على محبوب ومحافظ المدينة محمد سامى خضير.

مسجد قباء:

هو مسجد متفرد فى بنائه، سقفه متدرج، أينما نظرت إليه شاهدت هذا التدرج . لا يشبه الهرم، ولا يشبه الدُرَج المعتاد .. تركيبة فنية ذات طابع خاص لمجموعة من المكعبات التى تشكل فى تراكيها مشهداً فنياً لا يوجد له مثيل بالمدينة.. وتتضافر فى تكوين هذه التركيبية الفريدة مجموعة من القباب الخضراء التى يتميز بها هذا المسجد عن سواه .. واحدة خضراء كبيرة، مكتملة، فوق أعلى مكعب بنائى، وأربع - خضراء أيضاً - موزعة على الأركان الأربعة، وهذه القباب الأربع غير مكتملة، ولا تعدو أن تكون مجرد مقاطع رأسية، وإن بدت بسبب طريقة بنائها فى غاية الاكتمال. والمنئذة غير تقليدية إذ شيدت على هيئة

محراب عملاق تجويفه باتجاه القبلة. ويتألف اللونان الأبيض الذي طُليت به جدران المسجد المتدرجة والأخضر الذي طُليت به القباب والجزء العلوي من المئذنة غير التقليدية ألفة لا ينساها من ينظر إلى المسجد من أي زاوية يريد. وهذا المسجد قائم في قلب منطقة عثمان بن عفان بدائرة حي الزهور، وواجهته الرئيسية تطل على شارع يحمل اسم المسجد.

مسجد البغدادي:

مُقام غربي منطقة الـ ٥٠٠٠ وحدة سكنية وتطل واجهته الشرقية على شارع محمد رياض، وبهذه الواجهة توجد مئذنة المسجد . وهي منفصلة عن جسمه، وسامقة. والمدخل الرئيس في الواجهة الشمالية، ويجمع بين اللونين الأبيض والأخضر.

مسجد التوكيلات الملاحية:

أنشأته شركة القناة للتوكيلات الملاحية وهي شركة من شركات قطاع الأعمال العام عند تقاطع شارعى طنطا ومحمود صدقي بدائرة حي الشرق في مكان ملاصق للنادي الاجتماعي الرياضي الذي أنشأته للعاملين فيها. وهو مسجد متوسط الحجم، بسيط البناء، مئذنته متوسطة الارتفاع، وقبته ثمانية الأضلاع أسقفها مائلة عليها وتأسس سنة ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

مسجد عزيزة عصفور:

سمى على اسم محامية مشهورة أنفقت على بنائه في دائرة حي الضواحي، وهو مسجد بسيط جدرانه الخارجية بُنية اللون وقبته مضلعة مائلة الأسقف، ومئذنته متوسطة الارتفاع ولها شرفتان، وبه مساحة فضاء أمام مدخله ويحيط بالمسجد وهذه المساحة القضاء سور . وتأسس المسجد سنة ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

مسجد السمحاء:

أسسه الحاج حسين إبراهيم السقا وحرمه الحاجة سميرة بمنطقة العاشر من رمضان بدائرة حي المناخ . وبنائه بسيط، به مئذنة رشيقة وقبة هرمية الشكل صغيرة، وقد افتتح للصلاة يوم الجمعة ٢٨ من شعبان ١٤١١هـ الموافق ١٥ من مارس ١٩٩١م.

مسجد التوحيد:

أنشئ هذا المسجد بأموال سليمان حمد الحشان، وبمباشرة من بيت الزكاة الكويتي والهيئة الخيرية الإسلامية العالمية - وبإشراف ومتابعة إداريين من وزارة الأوقاف المصرية - في مكان كان يلامس مياه البحيرة إلا أنه ردم وأقيمت فوقه عمارات سكنية . تطل واجهة المسجد الشمالية على شارع الناصر ومنطقة ٦ أكتوبر بدائرة حي المناخ . وقد حل هذا المسجد محل زاوية بسيطة للغاية كانت مقامة في ذات المكان وتحمل ذات الاسم، وبعد

رديم الجزء الذى كانت تشرف عليه هذه الزاوية من البحيرة، أراد الأهالى التوسعة، إلا أن خلافات كبيرة نشبت بينهم وبين جهة الإدارة التى كانت تريد تخصيص الأرض لأغراض أخرى . والبناء يتسم بالبساطة والخلو من الزخارف والنقوش، قبة مربعة سقفا هرمى، ومئذنته منفصلة عن جسم المسجد وتواجه مدخله الشمالى، قاعدتها مئمتة إلا أنها تأخذ شكلاً مربعاً ابتداءً من سطح المسجد المتصل بها، ولها شرفتان إحداها رمزية.

مسجد الحرمين:

يتواجد هذا المسجد بنهاية شارع عمر المختار بدائرة حى الزهور وهو مسجد واسع ومسور، مئذنته منفصلة، وبدلاً من القبة المستديرة يوجد بسقف المسجد ارتفاع مضلع، ويتميز هذا المسجد بلونه الأبيض والأخضر، وتم إنشاؤه فى رمضان ١٤١٢هـ - مارس ١٩٩٢م.

مسجد الحسن:

بناه الشيخ حسن أحمد بادريق، سعودى الجنسية، بمنطقة الـ ٥٠٠٠ وحدة بدائرة حى الزهور. بناؤه بسيط ويتميز بتعدد أبوابه وبالأسماء التى أطلقت عليها . باب الحسن، باب محمود، باب على، وباب أسماء ويصعد منه إلى مصلى السيدات. قبة صغيرة ومئذنته منفصلة عن جسم المسجد وتقع إلى يمين الداخل إليه وبينها وبين المدخل مسافة. وافتتح للصلاة فى ١٤ من جمادى الأولى ١٤١٢هـ. الموافق ٢١ من نوفمبر ١٩٩٢م.

مسجد مريم القطرية:

أسسته السيدة مريم يوسف نعيم. بناؤه بسيط، قبة متوسطة الارتفاع ومئذنته رشيقة. يطل على شارعى سعد زغلول والأمين (محمد سرحان) بدائرة حى المناخ، ملحقة به دار للمناسبات، وافتتح للصلاة فى ١٤ من ذى القعدة ١٤١٥هـ الموافق ١٢ من أبريل ١٩٩٥م. وحضر الافتتاح محافظ المدينة اللواء فخر الدين عبده، وكان حجر الأساس قد وضع فى عهد المحافظ السابق عليه اللواء جميل أبو الذهب.

مسجد الكريم :

أنشأه حسن عبد الكريم، تطل واجهته الشرقية على شارع عبد الهادى الصديى وواجهته الشمالية تطل على شارع دمشق (امتداد شارع كسرى باتجاه الغرب) بدائرة حى الزهور. له ستة أبواب ثلاثة فى الواجهة الشمالية ومثلها فى الواجهة الجنوبية له قبة مربعة سقفا هرمى والمئذنة منفصلة عن جسم الجامع . وضع حجر أساسه فى ١٤ من رمضان ١٤١٣هـ الموافق ٧ من مارس ١٩٩٣م. وافتتح للصلاة فى ٢٨ من ذى القعدة ١٤١٥هـ الموافق ٢٨ من أبريل ١٩٩٥م. وحضر الافتتاح محافظ المدينة اللواء فخر الدين

خالد عبده.

مسجد الغفور:

تأسس على نفقة عبده محمد عيسى، من أبناء بورسعيد . تطل واجهته الجنوبية على شارع الناصر في دائرة حي الزهور . قبته مربعة ومئذنته متوسطة الارتفاع . افتتح للصلاة في محرم ١٤١٧هـ الموافق يونيو ١٩٩٦م . وحضر الافتتاح محافظ المدينة اللواء مصطفى إبراهيم صادق.

مسجد الفرج:

تأسس سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٩٧م بمنطقة عمر بن الخطاب بدائرة حي الزهور . واجهته تطل على شارع حسن واصف . بسيط البناء . قبته مربعة وأسقفها مثثة، ومئذنته متوسطة الارتفاع.

مسجد الرسول:

يطل على مساكن المنطقة الرابعة الشعبية من ناحية الجنوب الغربي بدائرة حي المناخ. أسسه حسنى محمد السقا في أول رمضان ١٤٢٠هـ الموافق ١٨ من نوفمبر ٢٠٠٠م. متوسط المساحة والارتفاع ويتميز بمئذنتيه اللتين تجمعان بين اللونين الأبيض والأخضر . أما قبته المصنوعة من الآجر فمتوسطة الحجم ومطلية بدهان أخضر.

مسجد النور والهداية:

هو مسجد شاهق وإن كان بسيط الخطوط يغلب عليه اللون الأحمر، قبته مضلعة وسقفها مائل والمئذنة متوسطة الارتفاع ولها شرفتان، نوافذه من الزجاج الملون على هيئة نجوم ثمانية الأضلاع، ويصعد إلى مدخله، الذي تتقدمه أربعة أعمدة وثلاثة عقود، عبر اثنين وعشرين درجة، يشغل مربعاً كاملاً، له حديقة ويحيط به وبالحديقة سور، وقد أنشأه المواطن عمر زكى أحمد اللواح في موقع بالمنطقة المعروفة بمساكن الحديدى والنادى بأقصى حدود حي العرب الجنوبية المواجهة لحدود حي الضواحي الشمالية الشرقية، وافتتحه للصلاة الدكتور مصطفى كامل محمد يوم الاثنين ٢٤ شعبان ١٤٢١هـ الموافق ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٠م.

مسجد الغفار:

يتميز هذا المسجد على اتساع مساحته وبساطة بنائه بمآذنه الأربع القصيرة الموزعة على أركان سطحه . كما يتميز بباحته العريضة المسورة ويلونه الأبيض وقمم مآذنه الخضراء، لا قبة له واستعيز عنها بارتفاع مستطيل يقوم بوظيفتي التهوية والإضاءة . أسسه جمال عبد الونيس محمد عبد الهادى بمنطقة مساكن اللنش في الثامن من ربيع

الأول ١٤٢٢هـ، الموافق الأول من يونيو ٢٠٠١م.

مسجد القديس:

يتواجد في شارع عبد الحليم محمود بأخر منطقة عمرو بن العاص بدائرة حي الزهور، مساحته واسعة، مسور، لا مآذن له ولا قباب، تأسس سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

مسجد أنوار النبوة:

يتواجد هذا المسجد في منطقة المروة بدائرة حي الزهور . وهو مسجد متوسط المساحة، مسور، لا مئذنة له، وبدلاً من القبة يوجد به ارتفاع مربع له سقف هرمي، واقتتح للصلاة في جمادى الآخر ١٤٢٤هـ - أغسطس ٢٠٠٣م.

مسجد الروضة:

هو مسجد ضخم واسع المساحة، موجود بمنطقة عمرو بن العاص بدائرة حي الزهور له خمس قباب، أربع منها متوسطة الحجم تتوسطها قبة أكبر، عالية أكثر منها ضخمة، والمئذنة شاهقة الارتفاع، ولواجهة المسجد أربعة أعمدة وثلاثة عقود . أسسه الحاج محمد عيد الفنى سالم واقتتحه الدكتور مصطفى كامل محمد محافظ بورسعيد في رمضان ١٤٢٤هـ - نوفمبر ٢٠٠٣م.

مسجد الشاطي:

أنفق على بنائه خليل خليل شرارة . وهو مسجد شاهق البناء تطل واجهته الشمالية على البحر وواجهته الجنوبية على كورنيش البحر (الشهيد عاطف السادات) بدائرة حي العرب . أقيم محل مسجد قديم كان يحمل ذات الاسم . قبة ضخمة من القيشاني الأزرق تتخلله تموجات من القيشاني الأصفر، ومئذنته سامقة ومنفصلة عن جسم الجامع وتقع إلى يسار الداخل من مدخله الجنوبي . اقتتح للصلاة في الثاني من ذي القعدة ١٤٢٤هـ. الموافق ٢٦ من ديسمبر ٢٠٠٣م. وحضر الافتتاح مفتي الجمهورية د. نصر فريد واصل، ورئيس جامعة الأزهر السابق د. أحمد عمر هاشم، ومحافظ المدينة الدكتور مصطفى كامل محمد.

مسجد الباسط :

مُقام في منطقة عثمان بن عفان السكنية بدائرة حي الزهور ومدخله الرئيسي بواجهته الجنوبية التي تطل على شارع العبور، وله بابان إضافيان في واجهته الشمالية، وفي نفس هذه الواجهة يوجد الباب الذي يُصعد منه إلى مصلى السيدات. قبة سداسية الأضلاع ذات أسقف مكثثة، ومئذنته متوسطة الارتفاع . اقتتح للصلاة في يوم الجمعة ٢٤ من شعبان ١٤٢٥هـ الموافق ٨ من أكتوبر ٢٠٠٤م. وحضر الافتتاح محافظ المدينة مصطفى

د. كامل محمد .

مسجد طيبة:

أقيم بمنطقة الصفا بدائرة حي الضواحي . له قبة ضخمة تكاد تشغل سقف الجامع بأكمله، وليست له منئذنة، وملحقة به دار للناسبات. افتتح للصلاة يوم الجمعة غرة صفر ١٤٢٦هـ الموافق ١١ مارس ٢٠٠٥م. وحضر الافتتاح محافظ المدينة د. مصطفى كامل محمد.

مسجد الرضوان:

أعاد تأسيسه سعيد محمد محمد عويضة صدقة جارية على روح المرحومة ماريهان محمد عويضة . يقع في قلب منطقة الكويت وتطل واجهته الغربية على شارع أسوان بدائرة حي العرب، وأقيم محل مسجد بذات الاسم . وهو جامع شاهق البناء له ثلاثة مداخل ، وتعلوه قبة ضخمة وقبتان صغيرتان، إحداهما باتجاه الشرق والأخرى باتجاه الغرب، والمنئذنة سامقة ومنفصلة عن جسم المسجد وتقع إلى يمين الداخل إليه من مدخله الرئيسي، وملحقة به دار ماريهان لتحفيظ القرآن . وافتتح للصلاة بعد إعادة التأسيس سنة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م. وحضر الافتتاح محافظ المدينة د. مصطفى كامل محمد.

مسجد المجمع الإسلامي:

هو مسجد شاهق الارتفاع يُصعد للصلاة فيه عبر ثلاثين درجة، ويقع في قلب منطقة تعاونيات الزهور بدائرة حي الزهور، رُوِّج لإنشائه ماضى أبو العزائم وجمع التبرعات من أجل إنشائه بعدما حصل على ترخيص البناء وبدأ في التنفيذ، لكنه لم يتمكن من استكمال البناء، فتولته وزارة الأوقاف والجامع مدخلان المدخل، الرئيس من ناحية الشمال والآخر الذي يُصعد إليه من خلال سلمين متقابلين من ناحية الشرق للجامع منئذنتان سامقتان وقبة ضخمة مدورة . وافتتح للصلاة في ٢١ من ذي القعدة ١٤٢٦هـ الموافق ٢٣ من ديسمبر ٢٠٠٥م.

مسجد حمزة:

أعاد تأسيسه الحاج حسني محمد الطناحي في نفس المكان الذي كان يشغله مسجد قديم يحمل ذات الاسم بدائرة حي العرب. مدخله الرئيسي بالواجهة التي تطل على حارة الزاوية، وواجهته الغربية تطل على حارة العريش، والشرقية على شارع الغوري، ولا توجد له واجهة شمالية لالتصاق المسجد من ناحيتها بأحد الأبنية . منئذنته متوسطة الارتفاع وقبته عالية وعلى شيء من الاستطالة الرأسية، وافتتح للصلاة بعد إعادة التأسيس في ١٢ من ربيع الأول سنة ١٤٢٧هـ الموافق ١٠ من أبريل سنة ٢٠٠٦م. وحضر الافتتاح محافظ

مسجد العظيم:

هو مسجد عظيم المساحة شاهق الارتفاع، له مئذنتان سامقتان وقيه ضخمة يغطيها الفسيفساء الأخضر ونوافذ المسجد من الزجاج الملون يجمع ما بين الأزرق والأخضر والأحمر ويشغل هو وملحقاته مربعاً كاملاً في منطقة فاطمة الزهراء ومواجهاً ما تبقى من منطقة زرزارة العشوائية بحي الضواحي . أسسه الحاج السيد عصام الدين محمود لهيئة وافتتح للصلاة يوم الجمعة ١٥ شعبان ١٤٢٧ هـ الموافق ٨ سبتمبر ٢٠٠٦م. والمسجد آية من آيات الإبداع الهندسي، وعلى هيئة هي الغاية من الجمال في منطقة هي - بكل أسف - القبح مجسداً، ويجدونى الأمل في أن يتبدل حال هذه المنطقة لتتوازى مع الجمال الذى يشع من هذا المسجد، فهل سيأتى يوم يتحقق فيه هذا الأمل؟ وثمة مساجد جامعة يجرى بناؤها وقت وضع هذا الكتاب منها :

- مسجد الإحسان وتطل واجهته الجنوبية على شارع ٢٣ يوليو وواجهته الغربية على شارع جمعية الإحسان النوبية بدائرة حي العرب . وبعد أخذ ورد مع جهة الإدارة حصل بانوه على ترخيص البناء رقم ١٢٨ لسنة ٢٠٠٥م. وهو مكون من دور أرضى ودورين علويين، والمئذنة ستكون سامقة حسب الرسم التخطيطي الخاص به .

- مسجد لم تتم تسميته بعد بأقصى الاتجاه الغربى للمدينة بالقرب من منطقة مساكن أرض قبضايا بدائرة حي الزهور حديثة النشأة، ومجاوراً لمحطى نقل الركاب من بورسعيد إلى دمياط والعكس، وهو مسجد شاهق له مئذنة مرتفعة مفصولة عن جسم المسجد وتواجه مدخله الجنوبي وخمسة قباب أربع منها متوسطة الحجم موزعة على أركانه الأربعة والخامسة ضخمة تتوسطها جميعاً.

- مسجد لم تتم تسميته بعد بمنطقة عمر بن الخطاب عند تقاطع شارعى الزهور وعباس سيد أحمد قبالة سوق منطقة على بن أبى طالب، وهو مسجد ضخم، قبه كبيرة وتكاد تشغل معظم سطح المسجد، ومئذنته منفصلة سامقة الارتفاع وقد أقيم هذا المسجد مكان آخر قديم كان متواضع البناء.

- مسجد لم تتم تسميته بعد بمنطقة خالد بن الوليد، وهو مسجد ضخم له مئذنة سامقة وخمس قباب أربع منها صغيرة جداً موزعة على أركانه الأربعة والخامسة ضخمة جداً ومغطاة بالفسيفساء الأخضر تتوسطها جميعاً.

- مسجد الهدى بجنوب شرق منطقة مساكن زمزم ويطل مدخله على امتداد شارع عبد الرحمن شكرى فى مواجهة منطقة مسكن الصفا، وقوائمه التى رفعت تبين أنه مكون من

طابقين علويين بالإضافة إلى الطابق الأرضي ونفقة البناء تبرع من السيدة سمية محمود عبد المنعم، ولم تظهر له بعد مآذن أو قباب.

ويلاحظ على عمارة المساجد الحديثة ما يلي:

* اتساع مساحاتها وضخامة أبنيتها.

* انفصال مآذن أغلبها عن أجساد المساجد، أو الاستغناء عنها تماماً، وذلك بعد ما أضحى وجودها وجوداً رمزياً وانعدم استخدامها لأغراض وظيفية، نتيجة لاستخدام مكبرات الصوت في رفع الأذان، والاستعانة بالتكنولوجيا الحديثة للتعرف على مواقيت الصلاة واستطلاع الأهلة.

* الاستعاضة عن القباب المدورة، في كثير من المساجد، بارتفاعات المربعة أو المستطيلة أو المسدسة أو المثمنة وتغطيتها بأسف مائلة مصنوعة من القرميد.

* الابتعاد عن الأنماط الجاهزة في عمارة المساجد.

* ارتفاع صحن المساجد التي تؤدي فيها الصلوات عن مستويات الطرق ارتفاعاً ملحوظاً، بحيث بات الصعود إليها لا يتم إلا بارتقاء عدد من الدرجات بتفاوت الارتفاعات.

* كثرة إنشاء الملحقات بالمساجد لأداء وظائف اجتماعية مختلفة.

* اختفاء الزخارف من أغلبها.

* اختفاء نمط الطلاء بلونين متميزين في خطين عريضين أفقيين متكررين يمتدان بطول أضلاع الجدران الخارجية أحدهما إما أصفر أو أبيض والآخر إما بني أو أخضر. ويربو عدد المساجد الجامعة بالمدينة على ٤٥٠ مسجداً موزعة ما بين مساجد حكومية وأخرى أهلية، وذلك بخلاف الزوايا التي يقيمها الأهالي حتى لا يكاد مربع سكني يخلو منها.

وإذا كانت الإحصاءات الرسمية تُظهر أن عدد المساجد الأهلية أقل من نظيراتها الحكومية، فمرجع هذا إلى أن الكثير من المساجد التي يقيمها الأهالي يتم ضمها إلى مديرية الأوقاف بعد فترة من إنشائها لتتولى شؤون الإشراف عليها وتجهيزها وفرشها وصيانتها وخدمتها بتعيين الوعاظ والأئمة والمقرئين ومقيمي الشعائر وتنظيم الدروس والمحاضرات بها، وكذا الإشراف على فصول تقوية تلاميذ المدارس.

كنائس المسيحيين**كنائس الكاثوليك**

ما فعله دى ليسيس، وفعلته شركته، مع المسلمين فعلته مع المسيحيين الأرثوذكس، وأغلبهم من المسيحيين المصريين وقليلهم من الأوروبيين الشرقيين لا سيما من الوافدين اليونانيين، فقد تجاهل بناء الكنائس لهم، ولم يستجب إلا بعد طلب وإلحاح، وفى المقابل اهتم بترضية مشاعر الأوروبيين الغربيين، لاسيما أولئك الذين قدموا من فرنسا، ووفر لهم إمكانات إقامة شعائهم الدينية.

الكنيسة الفرنساوى :

بنى دى ليسيس أول ما بنى - منذ بدء أعمال الحفر - كنيسة كاثوليكية خشبية عُرفت بالكنيسة الفرنساوى، وتكفلت الشركة بتفقات القسيس الذى عينته بها . وقبل الافتتاح بنحو سبع سنوات وأثناء الحفر وبالتحديد فى ٥ يناير ١٨٦٢ م ، احتفلت الشركة بتدشين كنيسة لعمالها وموظفيها الأجانب، وعينت لها قسيساً ينتمى لطائفة اليون باسثير (الراعى الصالح) وبعد سنة ونيف ألحق بهذه الكنيسة دير فى ١٨ أغسطس ١٨٦٢م، ثم ألحق بها مستشفى الشركة .

كنيسة سانت أوجينى :

قبل افتتاح القناة فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩م بنت الشركة كنيسة أخرى للكاثوليك عُرفت فيما بعد بكنيسة سانت أوجينى . وقد أعيد بناؤها على نفقة جمعية تيرا سانتا، وأهدتها الشركة الأرض وزودتها بكثير من مواد البناء، وأقيم أعلاها جرس كبير وساعة لها أربع واجهات، وألحقت بها مدرسة كاثوليكية هى مدرسة Ecole catholique De La Terre Sainte، وقد أعيد افتتاحها فى ١٩ مارس ١٨٩٠م.

وتقع هذه الكنيسة بينائها الفخم بحى الإفرنج بشارع رمسيس على مقربة من ميدان المنشية وملحق بها حالياً دير الرهبان الفرنسيسكان .

كنيسة الظهور الأسقفية:

وقد بُنيت سنة ١٨٨٥م عند تقاطع شارع التجارة، الذى أصبح الآن شارع الشهيد فريق أول عبد المنعم رياض - بعد أن أخذ تسميات مختلفة - مع شارع المغرب الذى أصبح شارع الشهيد نقيب محمود محمد أبو راية . وهذه الكنيسة مشهورة بالكنيسة الإنجليزية وكان الجنرال ستوكويل قائد الجيوش العتدية على المدينة فى حرب ١٩٥٦م يصلى فيها

أيام الأحاد ، وعلى سورها كتب الوطنيون أثناء هذه الحرب العبارات والشعارات المنددة بالإنجليز .

كنيسة النبي إلياس:

وهي كنيسة للروم الكاثوليك ، وتقع عند تقاطع شارع جمال عبد الناصر وورشيد (الشهيد نقيب محمد إسماعيل عبد الله العمرى حالياً) ، وتعد من الكنائس القديمة التي أقيمت للأجانب الكاثوليك .

الكنيسة اللاتينية (كاتدرائية العذراء مريم):

في أحد الأعياد الكاثوليكية الخاصة بالسيدة العذراء مريم التي أقيمت بمدينة الإسماعيلية، وكان ذلك في يوم ٨ ديسمبر ١٩٢٠م، أعلن المبعوث البابوي انخ ماريه هيرال، رئيس الأساقفة والكاهن الأول لمنطقة القناة، في خطاب ديني له عن بناء كاتدرائية العذراء مريم (ملكة الكون)، وصدر المرسوم الملكي بالترخيص ببناء هذه الكاتدرائية في سنة ١٩٢٢م، برقم ٦٠، وقام بتخطيطها ووضع رسوماتها المهندس الفرنسي (جون هولوه) مهندس أسقفية باريس، وحسب القس شنودة فتحي بدأ البناء في ٧ ديسمبر ١٩٢٤م، وتم استيراد مواد البناء بوفرة من أجل الإسراع في بنائها ، وشيدت المئذنة بأربعة أضلاع كبيرة وضخمة كيما تتلاءم وضخامة حجم تمثال السيدة العذراء الذي كان مقرراً وضعه أعلى المئذنة، لكنه لم يوضع لأنه قد اتضح أنه سيعطل عمل الفنار في حالة وضعه . ووضعت في المئذنة ستة أجراس تدار بالكهرباء وكان لكل منها دقات لكل مناسبة من المناسبات، ودشنت هذه الأجراس يوم تركيبها في ٦ فبراير ١٩٢٨م، وأقيمت صلوات الكاثوليك بمقر الكاتدرائية أثناء بنائها وذلك بعد إقامة مذابح مؤقتة دشنتها الكاردينال (ماك دوري) أسقف أيرلندا وهو في طريقه إلى استراليا .

أما التدشين الرسمي فقد تم في يوم ١٢ يناير ١٩٢٧م، في حفل كبير رأسه الأسقف دوجوتى أسقف فلادلفيا نائباً عن بابا روما . وفي عام ١٩٤٧م، بُني منبر الكنيسة من تصميم الأخوة (ألبرتى) مهندسى بورسعيد . وبالكنيسة مجموعة من المقتنيات الأثرية من بينها قطعة من خشب الصليب المقدس الذى صُلب عليه السيد المسيح . هذه مجتزأت عن رواية القس شنودة متى عن تاريخ هذه الكاتدرائية (١٢).

ويحضرني هنا أن أنكر في مجال المقارنة أن ضياء الدين حسن القاضي ذكر في موسوعته أن حجر أساس هذه الكاتدرال قد وضع في الأول من فبراير سنة ١٩٢٤م. وهذه معلومة يمكن الأخذ بها إذ يمكن، منطقياً، أن يتأخر موعد بدء البناء - ٧ ديسمبر ١٩٢٤م، حسب رواية القس شنودة - عن موعد وضع حجر الأساس ، لكنه - أي القاضي - ذكر

أمرين أحدهما غير متوافق مع رواية القس شنودة والآخر لم يرد في هذه الرواية. الأمر غير المتوافق هو ذكر القاضي لاسم البرتي Alberti باعتباره إيطالياً مشهوراً وأنه هو مصمم الكاتدرال (١٢)، في حين أن القس شنودة ذكر أن مصمم الكاتدرال هو جون مولوه مهندس أسقفية باريس وذكر تفاصيل كثيرة عن هذا المهندس وإنجازاته في بناء الكنائس، كما ذكر القاضي أن " البرتي " هو لقب عائلي لعدد من الأخوة قاموا بإعداد رسم منبر الكنيسة، وأنهم من مهندسي بورسعيد . أما الأمر الذي لم يرد في رواية القس شنودة وذكره ضياء في مرجعه فهو حضور الملك فؤاد حفل الافتتاح (١٤).

ما يهمنى من الناحية الجغرافية أن أوضح لك أن هذه الكاتدرال تحتل مريعاً كاملاً يطل على شارع كشتنر (٢٣ يوليو) من الشمال، وعلى شارع الأزهر (جمال عبد الناصر) من الغرب، وعلى شارع صلاح الدين من الشرق، وشارع إبراهيم (عبد السلام عارف) من الجنوب . ويهمنى أيضاً أن أذكر لك أن هذه الكاتدرال قد آلت إلى الأرثوذكس من المصريين، وهذا ما سوف يأتي ذكره فيما بعد .

الكنيسة الإيطالية :

في مواجهة الكاتدرال باتجاه الغرب يقع مبنى القنصلية الإيطالية ولصق هذا المبنى من الناحيتين الجنوبية والغربية بنى الإيطاليون كنيسة لأبناء جاليتههم بالمدينة تتسم ببساطة المظهر الخارجي وبالأبراج النخيلة الرشيقة في قصر، وهي في معمارها - ومعها مبنى القنصلية - تشعُر الرائي بأجواء الكنائس الإيطالية والطراز الخاص بمدينة فينيسيا تحديداً.

كنيسة القديسة تريز:

وتقع في مواجهة الكنيسة الإيطالية وتطل مثلها على شارع إبراهيم (عبد السلام عارف)، وهي كنيسة للموارنة الشوام، وقد بنيت سنة ١٩٥٠م . وبنائها فريد ومتميز إذ أخذ شكل نصف البيضة، مع زركشات غاية في البساطة .

كنائس الأرثوذكس

كنائس الروم الأرثوذكس:

الكنيسة اليونانية :

بناء على طلبهم منح دي ليسبس اليونانيين الأرثوذكس الأرض اللازمة لبناء الكنيسة سنة ١٨٦٦م، أي قبل افتتاح قناة السويس بثلاث سنوات، ووضع حجر أساسها في ١٢ أبريل ١٨٨٨م، وأقيمت فيها الصلاة في ٢٤ ديسمبر ١٨٨٨م، وفي مارس ١٨٩٤م تأسست الجمعية اليونانية للتقدم " أيوس " وجمعت التبرعات اللازمة لبناء صرح كنسي كبير للجالية

اليونانية الأرثوذكسية . وانتهى البناء وُدُشنت للصلاة في أول نوفمبر ١٩٠٢م. وتطل واجهتها الشمالية على شارع دى ليسبس (سعد زغلول) وبها المدخل الرئيسى، وتطل واجهتها الشرقية على شارع (جمال عبد الناصر) بحى الإفرنج .

كنيسة القديس نيقولاس :

هى كنيسة للروم الأرثوذكس وتقع بدائرة حى الإفرنج ومحاطة بالعمائر السكنية من ثلاثة اتجاهات هى الاتجاهات الشمالية والشرقية والجنوبية، أما الاتجاه الغربى فيطل على شارع المشرق، وهى قريبة من شارع سعد زغلول من الناحية الشمالية .

كنيسة القديس يوسف:

وكانت خشبية بدائية البناء، أقيمت للروم الشوام عند تقاطع شارعى سعد زغلول وإفريقيا وما لبثت أن هُدمت وأقيمت فى موضعها دار عرض سينمائية هى سينما فاروق (الحرية فيما بعد)، وهُدمت هذه الدار فيما بعد بتأثير من الانفتاح الاقتصادى وتحويل بورسعيد إلى مدينة حرة اقتصادياً، وأقيم مكانها عمارة سكنية شاهقة بها عدد كبير من المحال التجارية . ولا يكاد يذكر أمر هذه الكنيسة فى هذه الأيام.

كنائس الأقباط الأرثوذكس:

بداية .. أرجو أن أحيطك علماً عزيزى القارئ أن الدكتور عبد العزيز الشناوى قد أكد أن أدوات البحث قطعت بأن شركة القناة لم تشيد فى أى ساحة من ساحات الحفر حتى وقت استخدام السخرة كنيسة قبطية أرثوذكسية . فقط أرادت أن أحيطك علماً بهذه الحقيقة لتستكنه منها ما تشاء . ولم تسمح الشركة ببناء الكنائس الأرثوذكسية للأقباط إلا بعد تزايد أعدادهم وارتفاع أصواتهم المطالبة بالسماح لهم ببناء كنائسهم .

كنيسة العزراء :

هى أول كنيسة تم بناؤها فى بورسعيد للأقباط الأرثوذكس وقد دُشنت للعمل فى ٢١ بؤونة سنة ١٦٠١ش. الموافق ٢٨ يونيو ١٨٨٥م. وكان تعداد الأقباط الأرثوذكس ببورسعيد قد بلغ ١٦٧٥ نسمة، ١١٢٠ منهم ذكور و ٥٥٥ من الإناث أغلبهم أقام بحى العرب، وبالتحديد ١٦٧٥ قبطياً، أما المدينة حيث الأجانب وأهل الثراء من المصريين فكان عدد الأقباط محدوداً للغاية حيث بلغ ٢٧٨ قبطياً . وإزاء هذا التزايد وحيث أصبح بناء الكنيسة مطلباً ملحاً فقد اتجهوا نحو دى ليسبس وطلبوا قطعة أرض لهذا الغرض على أن تكون قريبة من قرية العرب التى يعيش فيها أغلبهم وقد منحهم الأرض المطلوبة سنة ١٨٨٤ م فى منطقة قريبة من قرية العرب. واستغرق بناؤها نحو السنة، وأنفق على البناء من تبرعات أقباط المدينة، ولما دُشنت للصلاة فيها كانت مكونة من طابق واحد . واستخدم فيها نظام

المشربيات حتى تتمكن النساء من الصلاة فيها وتوسعت الكنيسة في العام ١٩٠٥م. وتم تطويرها في سنة ١٩١٠م. وفي سنة ١٩١٢م باع عبد الرحمن لطفى باشا الأرض المجاورة لحد الكنيسة الشمالي لها فتوسعت وأقيم على هذه الأرض عقار شغلته المطرانية بعد ذلك . والصلاة مستمرة فيها منذ سنة ١٨٨٥م. حتى الآن، وألحقت بها مدرسة الأقباط، وكانت تقبل التلاميذ من أبناء المسلمين، وأمامها وقعت عملية فدائية إبان حرب ١٩٥٦م. ومن داخلها أمطر المحتل بوابل من الرصاص(١٥).

كنيسة الشهيد مارجرجس :

اشترت الجمعية الخيرية القبطية التي كانت ترعى شؤون الكنيسة الأرض التي أقيمت عليها هذه الكنيسة ومساحتها ١١٧٣ متراً مربعاً، وتقع على حدود حي الإفرنج الغربية وتطل على شارع محمد علي (الشهداء) وحي العرب وموقعها قريب من ميدان محطة السكة الحديدية، وتعاقدت الجمعية عليها مع مصلحة الأملاك المشتركة عام ١٩٣٦م. بعد سداد فوري لربع الثمن المتفق عليه وهو مبلغ ٨٦٠، ٩٦١ جنيهاً، ويمثل ربع القيمة الحقيقية لسعر الأرض المشتراة، أي أن الجمعية سددت نحو ٤٦٥ ٢٤٠. جنيهاً فقط وتم تقسيط الباقي، وجمعت التبرعات لسداد رسوم التسجيل وكانت وقتها ٧١٢ ٤٣٦. جنيهاً. ووضع حجر الأساس لها في ٢١ يوليو ١٩٤٣م. وفي صباح الأحد السابع من هاتور ١٦٦٩ ش. الموافق ١٦ نوفمبر ١٩٥٢م، أقيم بها أول قداس إلهي حضره محافظ القنال محمد رياض والحكمدار ورجال الإكليروس والأعيان وعامة الشعب ؛ ولم يكن الجرس الخاص بالكنيسة قد تم تركيبه في منارة الكنيسة لأنه وصل يوم ١٥ نوفمبر ١٩٥٢م، أي قبل التدشين بيوم واحد، ولم يكن من السهل تركيبه في نفس اليوم(١٦). وتتصدر واجهة الكنيسة أيقونتان من الفسيفساء الملون لمارجرجس تصوران بهيئة المشهورة عنه وهو يركب الفرس ويطنع التنين برمحه، إحداهما وهي الكبيرة تتصدر حائط الواجهة، والثانية -الصغيرة -تعلو البوابة الحديدية التي تقضي إلى الفناء المؤدى إلى مدخل الكنيسة . ولاحظ عزيزي القارئ أن بناء هذه الكنيسة قد استغرق نحو ١٦ عاماً . ولعبت هذه الكنيسة دوراً وطنياً إبان ثورة ١٩١٩م. وإبان مقاومة الاحتلال البريطاني في بداية الخمسينيات من القرن الفائت، وكان يوم الجمعة ١٦ نوفمبر ١٩٥١م. يوماً مشهوداً في تاريخ الكنيسة والمدينة حيث كانت الكنيسة في قلب العمليات الفدائية. وخلال حرب ١٩٥٦م حاولت القوات البريطانية التمرکز في الكنيسة إلا أن الأب بطرس عوض رفض.

كنيسة الأنبا بيشوى :

كانت في الأصل كنيسة كاثوليكية، وكان اسمها الأزيل كوفريه، وكانت تابعة لراهبات

الراعى الصالح . وهى أول كنيسة يحصل عليها الأقباط الأرثوذكس فى بورسعيد، وفور أيلولتها إلى الأقباط الأرثوذكس سميت باسم كنيسة الأنبا بيشوى، وكان ذلك فى ١٠ مارس ١٩٧٨ وتقع هذه الكنيسة فى دائرة حى الشرق بشارع رمسيس(١٧).

كنيسة مارمينا العجايبى :

وهى كنيسة حديثة نسبياً، إذ أقيمت على مساحة الأرض التى حصل عليها الأقباط من الحكومة وتقدر بنحو ألفى متر، وذلك عقب عودة سكان المدينة من التهجير القسرى - العودة كانت فى سنة ١٩٧٤م. وتقع هذه الأرض على حدود مساكن منطقة السلام الشعبية بامتداد شارع الأمين بدائرة حى المناخ . وفى أوائل مارس ١٩٨٠م أقيمت فوق هذه الأرض الصلوات فى خيمة أعدت لذلك، وبعد فترة ليست طويلة أنشئت كنيسة مؤقتة من الخشب والأعمدة الحديدية وألواح الصاج، وما ليثت الكنيسة أن شيدت على النحو المخطط له بعد صدور قرار رئيس الجمهورية رقم ٤٢٨ لسنة ١٩٨٤ بالتريخيص بإنشاء الكنيسة(١٨) . وتتصدر الواجهة الرئيسة للكنيسة أيقونة كبيرة من الفسيفساء الملون تصور مار مينا باسماً كفيه فى وضع ابتهاج وتضرع يعلوه ملكان وتحيط به كنيسة و إلى جوار ساقية جملان فى وضع الإنابة، وهى رموز أحاطت بهذا القديس الذى أبى الجمل الذى كان يحمل جثمانه أن يمضى به إلى أى مدفن إلا ما حددته مشيئة الرب، وهو مكان يرميوط بالإسكندرية، فبنيت فى هذا المكان كنيسة هى الرموز إليها فى الأيقونة، والملكان إنما يضعان إكليل الشهادة فوق رأس القديس، والأيقونة مثبت عليها اسم صانعها القمص يو أب الربانى، ومن ملحقات الكنيسة مستشفى هو مستشفى أفا مينا، وصيدلية هى صيدلية العجايبى .

كنيسة السيدة العذراء والملك (الكاتدرال):

ألت هذه الكنيسة بما تحتويه من نفائس ولوحات ونخائر إلى مطرانية الأقباط الأرثوذكس ببورسعيد . ومن ثم فقد تم تأسيس ثلاثة هياكل بها أحجية من الأخشاب الثمينة المنقوشة نقوشاً قبطية أصيلة . ونقل إليها بعد هذه الأيلولة أجزاء من رفات القديس توما الرسول ورفات القديس تيموثاوس الرسول . وقد وضع كل منهما فى أنبوب داخل مقصورة وصارا من نخائر الكاتدرائية .

وفى مكان أحد المذابح التى دُشنت سنة ١٩٣٤م. من أجل الصلاة فيها بصفة مؤقتة ثم إعداد كنيسة صغيرة دُشنت باسم الملك ميخائيل، وأقيم له مذبح داخل هيكلها، وزين حجابها بالأيقونات وكذلك جدرانها، وجعل الدخول إليها بدون أحذية بعدما فُرش باليسط، لتكون على غرار كنائس الأديرة، كما زُودت هذه الكنيسة الصغيرة بجزء من رفات شهداء

الفيوم ووضع داخل أنبوب في مقصورة كبيرة . وأعيد بناء المسرح الذي كان ملحقاً بها، وصدر بهذا الخصوص قرار جمهوري سنة ١٩٩٠م. كما أقيمت صالات للعرض وقاعات للاجتماعات وكذا قاعات لوسائل الإيضاح والكمبيوتر والأعمال الفنية والخدمات الكشفية وغيرها، استحدثت بها ورشة نجارة وحدادة لزوم أعمال التجديد والتشييد والتعمير(١٩).

كنيسة أبوسيفين:

حصلت المطرانية من المحافظ على قطعة أرض خصصتها لبناء هذه الكنيسة، وتقع في دائرة حى الزهور في أقصى جنوبه الغربى، داخل المنطقة العمرانية الجديدة . واتخذت المطرانية إجراءات بنائها، وتتضمن فصولاً لمدارس التربية الكنسية وقاعات لاجتماعات السيدات وغيرها.

كنائس الأقباط الإنجلييين

كنيسة نهضة القداية :

وهي كنيسة ملحقة بمدرسة للبنات أقامتها مؤسسة بنابل الأمريكية سنة ١٨٩٧م. اشتهرت باسم (مدرسة الأمريكان)، وكانت تطل على شارع كتشنر (٢٣ يوليو) والغازى مختار، وقد ألحقت الكنيسة بالمدرسة سنة ١٩٠٧م .

الكنيسة الإنجيلية:

صدر بشأنها مرسوم ملكى من الملك فؤاد بتاريخ ٢٨ ديسمبر ١٩٢٤م. وذلك بعد زيارته لبورسعيد أول مرة فى ٢٦ يناير ١٩٢٤م. وكانت أرضها قد خصصت لهذا الغرض فى ٢٤ ديسمبر ١٩٢٢م. وتقع عند تقاطع شارعى إبراهيم (عبد السلام عارف) والإسكندرية بدائرة حى العرب، وألحقت بها مدرسة للمراحل التعليمية الثلاث الأولى : الابتدائية والإعدادية والثانوية، وتعرف بالمدارس الإنجيلية الخاصة وتشرف عليها مديرية التربية والتعليم (إدارة شمال) وأجريت مؤخراً على الكنيسة والمدرسة عمليات ترميم .

الكنيسة الرسولية:

أقيمت هذه الكنيسة سنة ١٩٣٠م، بملجأ للأيتام تم بناؤه ما بين ١٩١٧م، - ١٩٢٠م، وتقع فى دائرة حى العرب، وتطل مباشرة على شارع كتشنر (٢٣ يوليو) من واجهتها الشمالية، وبها المدخل الرئيسى، أما واجهتها الغربية فتطل على شارع جمعية الإحسان النوبية، وهي كنيسة بلا أبراج ومقامة داخل العقار رقم ٩٢ وهذا العقار مصمم أساساً ليكون مبنى سكنياً، وللكنيسة سور منخفض أقيم حديثاً وفناء محدود الحجم . وأغلب الكنائس ملحق بها وحدات لأداء وظائف دينية واجتماعية مختلفة.

معابد اليهود

هما معبدان أقيما داخل منطقة تجمعهم بالمدينة (حارة اليهود)، وكان هذه التجمع غربى شارع التجارة (الشهيد فريق أول عبد المنعم رياض) بدائرة حي الإفرنج، وهذان المعبدان هما:

معبد سوكات شالوم :

كان معبدًا صغيراً ضيقاً وأقيم بتقاطع شارعى التجارة والمشرق، قريباً من مدرسة اليون باستير (الراعى الصالح) وبناه يهودى من أصل عدنى اسمه " مناحم ميشا " وأهداه للجمعية الإسرائيلية .

معبد ميشيل أوهيل :

أقامه تاجر يهودى عدنى الأصل أيضاً اسمه " بنين " بتقاطع شارعى أفريقيا والوكيل، بالقرب من حديقة الباشا سنة ١٩١١م، وألحقت بهذا المعبد مدرسة لليهود وخصص فوقها منزل للحاخام.

ولى عزيزى القارئ مع حارة اليهود قصة لا أظن أن ستتاح لى فرصة حكايتها لك الآن.

الفصل الثالث

بورفؤاد .. لؤلؤة خرجت من صدفتها

النشأة والافتتاح

حتى أول مايو ١٩٢٥م، لم يكن بالضفة الشرقية لقناة السويس في المنطقة المواجهة لمدينة بورسعيد من ميان سوى مبنى الحجر الصحي (الكارنتينا) التي أنشئت قبل هذا التاريخ بنحو ربع القرن وبالتحديد سنة ١٩٠١م لعزل المسافرين المرضى بأمراض معدية، وكذا بعض الورش والمخازن والمستودعات، وكانت زيادة حركة المرور في القناة وزيادة حمولات السفن زيادة غير منتظمة سنة ١٩١٣ م هي التي أوجدت هذه الإنشاءات في هذا الجزء من الشاطئ الآسيوي، ويضاف إلى تزايد حركة المرور تعاضد نشاط تصليح ما يطرأ على السفن العابرة من إعطاب هي وأسطول الكراكات والقاطرات والصنادل التي تمتلكها الشركة، لذلك استدعت الحاجة التفكير في إقامة مبان لسكنى مستخدمي الشركة وعمالها، وأغلبهم من الأوروبيين المشتغلين في هذه المنشآت، وقد ارتفعت أصوات هؤلاء بالشكوى لشعورهم بأنهم إنما يعملون في منفى بسبب اختلاف ظروف العمل بينهم وبين أقرانهم الذين يعملون في بورسعيد (٢٠).

كانت مجرد فكرة، وكان الهدف هو تسكين مستخدمي الشركة من عمال وموظفين بإنشاء ٣٠٠ مسكن لهم . كانت بالفعل مجرد فكرة، ولكن الشركة لم تتخل عن استثمارها لصالحها، كما هي عادتها، فقد عملت على الاستفادة إلى أقصى حد ممكن من أساليب

الضغط والمراوغة والاستثمار التي برعت في استخدامها . ومعروف ما لجأت إليه عند إبرام اتفاق سنة ١٨٦٦م، بينها وبين الحكومة المصرية، مما أدى إلى نجاحها في بسط سيطرتها على مساحات شاسعة من الأراضي غير تلك التي أتاحها لها امتياز سنة ١٨٥٤م، المصدق عليه من الباب العالي في يناير ١٨٥٦ م. ؛ فبعد أن كانت هذه الأراضي محددة بالمشغول منها فقط بالقناة وشواطئها وموانئها، مكنها هذا الاتفاق - اتفاق ١٨٦٦ م - من أن تلحق بالمستودعات والمخازن والورش والمرافئ ومساكن الحرس والملاحظين والعمال المكلفين بأعمال الصيانة أراض يمكن زرعها بصفة حدائق لاستنبات الخضروات في أماكن محرومة من كل مورد، كما مكن هذا الاتفاق الشركة من الحصول على الأراضي الكافية لإقامة المنشآت اللازمة لحماية القناة من تراكم الرمال وضمان وقايتها .. غير أن الحكومة المصرية خشيت من انتفاع الشركة بجميع هذه الأراضي أو المضاربة عليها بقصد الربح، فنصت صراحة بالبند الرابع من الاتفاق المذكور على أنه ألا يجوز للشركة أن تطالب بمساحات من الأراضي يقصد المضاربة أو الحصول على أرض لزراعتها أو لبيعها عند تكاثر السكان، وحددت مناطق على طول القناة مبنية برسوم وخرائط أرفقت بذلك الاتفاق(٢١).

وقد استهولت الشركة أيلولة ما سوف تجبر على تهبيده من أراض أو إنشاءه من أبنية يستلزمها تطور العمل بالشركة، إلى الحكومة المصرية دونما مقابل وفقاً لما رتبته عقد امتياز ١٨٥٤م . الذي نص على أنه " عند انتهاء أجل الامتياز تحل الحكومة محل شركة القناة وتتمتع بدون قيد بجميع حقوقها وتمتلك القناة بين البحرين تملكاً تاماً مع جميع المنشآت التابعة لها " . ولهذا عملت الشركة على التخلص من كل ذلك، وعكفت على استثمار هذه الأراضي التي أصبحت بعد شق القناة ذات قيمة مادية كبيرة . ووسيلتها كانت البيع. لذا كان لا بد من عقد اتفاق آخر يحقق لها ما تريد . وقد تمكنت بالفعل في إبريل ١٨٦٩م . أي قبيل افتتاح القناة للملاحة البحرية بشهور قليلة وبعد الاتفاق الأخير بثلاث سنوات فقط . من عقد اتفاق يبيح في بنده الأول للشركة أن تقوم ببيع الأراضي المخصصة لها الصالحة لإنشاء المدن والمحطات والمباني الخصوصية، ما عدا ما يتضح لزومه لاستغلال القناة .

وإذا كان من الطبيعي أن يعود الربح الناتج عن هذا البيع إلى الحكومة المصرية وحدها دون شريك، فإنه من الغريب فعلاً أن ينص البند الثاني من هذا الاتفاق على أن ما يتكون من مجموع ثمن هذه الأراضي يعتبر مالأً مشتركاً، يقسم صافى التحصل منه مناصفة بين الحكومة والشركة ؛ ووفقاً للبند الخامس من الاتفاق يشكل قومسيون من عضوين

يختارهما الخديو وعضوين تختارهما الشركة لتقرير وتحديد الأراضي التي تعرض للبيع في المناطق المختلفة من القناة والأكثر ملائمة لإقامة السكان بها .

هذا القومسيون هو ما عرف بمصلحة الأملاك المشتركة . من هنا تيسر للشركة، كلما أرادت الحصول على إيرادات جديدة ببيع بعض قطع من الأراضي التي ترتفع أسعارها، أن تقوم بالتنازل عنها لمصلحة الأملاك المشتركة باتفاقات خاصة، لتصبح الأراضي المتنازل عنها قابلة للتجزئة وكتسب شرعية البيع فيحق للشركة مقاسمة الحكومة في عوائد البيع، في حين أن الحكومة المصرية هي المالك الأصلي لجميع نواتج هذا البيع (٢٢).

وإن أستطرد في شرح التفاصيل المخزنية لما ترتب على هذا الاتفاق في المنطقة التي أقيمت عليها بور فؤاد فيما بعد، ولا كيف استولت الشركة على ٩٩ هكتاراً (٢٤٥ فدناً تقريباً) في هذه المنطقة بموجب اتفاق أبرم سنة ١٨٨٦م، بمقابل غاية في الضمالة والهزال، وبشروط تقترب من حدود التفريط من قبل الحكومة المصرية . أقول إنني لن أستطرد في هذه التفاصيل لأنني لا أتقبل بك إلى تبلور فكرة إنشاء المدينة الجديدة، التي بدأت المفاوضات بشأنها سنة ١٩٢٠م . وكانت الشركة قد عازمت على إطلاق اسم "بورسعيد الشرقية" على ما تفكر في بنائه في هذه البقعة، إلا أن المجلس البلدى عند مناقشته لفكرة إنشاء هذه المدينة قرر بجلسته ٢١ نوفمبر ١٩٢٠م أن يعطيها اسم "بورفؤاد" ، وكان رجاءهم أن يعرض هذا الاسم على صاحب العظمة مولانا السلطان فؤاد للموافقة (٢٣).

وبعد تبادل المذكرات بين الشركة والحكومة المصرية أمر رئيس مجلس الوزراء المصرى وقتذاك توفيق نسيم باشا - وزير الداخلية في نفس الوقت - بتشكيل لجنة من وزارة الداخلية لدراسة ما جاء بهذا المشروع من الوجهتين الفنية والإدارية . وقد ضمت هذه اللجنة مندوبين من مصلحة الجمارك والصحة والبلديات و المالية، واستمر عملها حتى سنة ١٩٢٢م، حيث قدمت لرئيس مجلس الوزراء الجديد عبد الخالق ثروت تقريرها الذى تضمن حلولاً لكثير من المسائل التي تبين للجنة أنها تؤدي إلى تحقيق المشروع (٢٤).

وبعد إتمام هذا التقرير تقدمت الشركة للحكومة بتاريخ ٨ مايو ١٩٢٢م باقتراحات رسمية مفصلة عن المشروع وشروط تنفيذه فاستصدرت وزارة المالية قراراً من مجلس الوزراء بتاريخ ٤ يونيو ١٩٢٢م . بتأليف لجنة بمعرفة وزارة المالية يُعهد إليها بدراسة موضوع إنشاء مدينة جديدة على الشاطئ الأسيوى تجاه مدينة بورسعيد وتقديم تقرير بذلك إلى مجلس الوزراء . وتشكلت اللجنة تحت رئاسة حضرة صاحب السعادة صادق حنين باشا وكيل المالية في ذاك العهد، وعضوية حضرات محمود بك رفعت (باشا) محافظ القنال والشيخ إبراهيم يوسف عطا الله وعلى أفندى لهيطة (بك) عضوى الشيوخ والنواب

عن دائرة القتال، والمستر باكستر السكرتير المالي لوزارة المالية، وحنين جرجس حنين بك مندوب الحكومة في مصلحة الأملاك المشتركة . وشريف صبرى بك (صاحب المقام الرفيع شريف صبرى باشا) مدير قسم البلديات في ذلك الوقت، والدكتور مصطفى صفوت البقلى بك مندوباً عن مصلحة الصحة، ومحمد وجيه بك سكرتيراً للجنة .

ومن بين المهام التي وضعت أمام اللجنة لدراستها ما كان يتعلق بالأمور المالية من حيث تقدير نفقات التأسيس والصيانة والموارد الكفيلة بتغطيتها، شروط التنازل لقومسيون الأملاك المشتركة عن الأراضي التي ستقام عليها المدينة، ونوعية العلاقات التي ستترتب على نشأة المدينة الجديدة بين الحكومة المصرية وشركة القناة طوال المدة المتبقية من فترة الامتياز، وكذا طريقة تصفية هذه العلاقات عند نهاية الامتياز.

وقد قامت اللجنة بفحص الموضوع بأكمله، واستعانت بالمستشارين الملكيين المسيو بيولا كازالى والمسيو واتليه وتقدمت لمجلس الوزراء بتقرير مصحوب بمشروع الاتفاق الذي انتهى المجلس إلى قبوله في ١٠ أكتوبر ١٩٢٢م. وعقده مع الشركة بتاريخ ١١ أكتوبر سنة ١٩٢٥م (٢٥)

والغريب أنه في ذات يوم توقيع هذا العقد، أى في ١١ أكتوبر ١٩٢٥م. أرسل وزير المالية المصرى يحيى إبراهيم كتاباً إلى مسيو دى بنوا - وكيل عام الشركة - أورد فيه تعديلات طفيفة على العقد لصالح الشركة، وذكر في هذا الكتاب أنه إذا رأت الشركة أنها محتاجة في استغلال القناة لما يزيد عن الأراضي التي تضع يدها عليها في هذا المكان (٨٥ ألف متر مربع) فإن كل طلب يُقدم منها لتوسيع هذه المساحة سيقابل من الحكومة بعين العطف (٢٦).

ويهمنى هنا أن أذكر بعضاً مما كان من شأن عضو اللجنة على أفندى لهيئة عضو اللجنة النائب عن دائرة القتال، في جلسة المجلس البلدى المنعقدة السبت في ٤ أغسطس ١٩٢٢م، التي خصصت بالكامل لمناقشة مسألة إنشاء مدينة بورفؤاد، ورأسها المحافظ حسن باشا مظلوم، وحضرها جناب البارون دى بنوا لكى يعطى المناقشين إيضاحاً عن مشروع إنشاء المدينة الجديدة بالبر الشرقى .

لقد كان النائب على أفندى لهيئة متخوفاً من تأثير إنشاء المدينة الجديدة على مستقبل مدينة بورسعيد ودخل في مساجلة طويلة - أظهرها محضر هذه الجلسة - مع البارون دى بنوا ؛ ويتلخص رأى على لهيئة أفندى في أن إنشاء البلدة الجديدة سيؤدى بعدد كبير من الناس إلى ترك بورسعيد للإقامة بها فيبدأ انحطاط بورسعيد، وعلى الأخص من الوجهة التجارية، وأنه إذا كان من حجج إنشائها عدم وجود أراض لسكنى الفقراء - كما تحجج

دى بنوا فان مصلحة الاملاك المشتركة يمكنها أن تنشئ أراض بالردم فى بحيرة المنزلة كما فعلت منذ عامين، وإذا كانت الشركة غير مستعدة لأن تنشئ فى البحيرة أراضى جديدة، فالحكومة يمكنها أن تباع أراضى المناخين لإقامة مساكن للعمال عليها، لأنه يرى - من وجهة نظره - وجوب الانتفاع بكل الأراضى الفضاء الموجودة ببورسعيد أولاً، وإذا لم تُرد مصلحة الاملاك المشتركة إنشاء أراض بالردم فى بحيرة المنزلة فالبلدية تقوم بهذه العملية، وأن البلدية مستعدة لإصلاح أراضى المناخين وبيعها بشروط مخفضة (٢٧).

وتطرق إلى بعض الجوانب الاقتصادية المتعلقة بأسعار الأراضى فى البلدة الجديدة . فالشركة ستطرح فى البداية هذه الأراضى بأثمان بخسة نقل عن ثمنها ببورسعيد بهدف جلب المشترين، فيقدم سكان المدينة عليها ويحولون عن مدينتهم، ثم تقوم الشركة بزيادة الأسعار تدريجياً بعد ذلك، وهذا - حسبما قال - ما حدث فى بورسعيد نفسها . وحينما يحاول دى بنوا التخفيف من أثر الأسعار على الحالة السكانية بقوله " لكن المباني ستكون كبيرة النفقات " يرد عليه على أفندى لهيطة بأنه من المحتمل أن تشكل إذ ذاك شركات لتبنى مساكن بالتقسيم من نوع شركة عين شمس . والحقيقة أنه لم يكن الوحيد من النواب المتخوف من نشأة المدينة الجديدة فقد شاركه نفس الموقف النواب : إبراهيم أفندى لهيطة، على أفندى البحراوى، ومحمد بك غندر . وقد أيدهم العضو الدكتور سكوفر بولو ورأى أنه من الأفضل الانتظار حتى تملأ الأراضى الفضاء - الكثيرة - ببورسعيد لكى يتسنى بعد ذلك بيع أراضى البر الشرقى . والحقيقة أن محضر هذه الجلسة حافل بما هو جدير بالدراسة المتأنية، لأن على أفندى لهيطة على مناقشاته التى تحمل وجهة نظر معارضة قال فى نهاية الجلسة " نحن لا نعارض مطلقاً فى إنشاء البلدة الجديدة طالما أنها تكون قاصرة على مساكن الشركة " (٢٨).

وواقع الأمر أن نواب بورسعيد إنما كانوا يترجمون واقعاً حياً شهدته المدينة فيعدها تأكد سكانها فى أواخر يوليو ١٩٢٤ من عزم الشركة على إنشاء المدينة الجديدة انتظروا - حسب خلدوبيس صاحب المرجع اليونانى الذى اعتمد عليه ضياء الدين حسن القاضى - اللجنة التى سوف ترسلها الحكومة المصرية، وكانوا فى غاية من الخوف والاضطراب للدرجة التى قاموا معها بتشكيل جمعية من مختلف الجنسيات والطوائف دفاعاً عن مستقبل مدينتهم وحاربت هذه الجمعية منذ إنشائها شركة قناة السويس، إلا أن الشركة والحكومة مضيا على عزمهما .

وأشرقت مصلحة الاملاك المشتركة على إدارة أوضاع المدينة الجديدة وذلك بصفة مؤقتة حتى يسمح الوضع داخل المدينة الجديدة بإنشاء مجلس بلدى قائم بذاته وكان عقد ١١

أكتوبر ١٩٢٥م، قد نص في مادته التاسعة على احتفاظ الحكومة بأن تنشئ بعد مضي عشرين سنة من تاريخ الاتفاق أى اعتباراً من ١١ أكتوبر ١٩٥٤م مجلساً بلدياً لمدينة بورفؤاد يحل محل لجنة ١٩٤٩م لتصفية كثير من المسائل بين الشركة والحكومة ؛ لكن الحكومات المتعاقبة أغفلت هذا النص ولم تقم بتطبيقه لمدد طالت كثيراً (٢٩).

ومن الناحية المالية فصلت اللجنة الموازنة المالية للمدينة الجديدة فصلاً تاماً عن موازنة مصلحة الأملاك المشتركة فلا تُحصل إيراداتها ولا تُسدد أى عجز يحصل فى هذه الإيرادات . وتضمنت تكاليف الإنشاء كل ما يتعلق بمصاريف ردم المنطقة بناتج الكراكات التي كانت تقوم بتعميق وتوسعة مدخل القناة وإنشاء أحواض جديدة وأرصعة لتشوين الفحم على الشاطئ الآسيوى، وشملت هذه المصاريف إنشاء سحارة (سيفون) تحت قاع القناة لتوصيل مياه الشرب من الشاطئ الأفريقى إلى الشاطئ الآسيوى . وقدرت اللجنة هذه التكلفة بنحو ١٢٥ ألف جنيه، أما المصاريف المتعلقة بإصلاح وتمهيد المنطقة وإعدادها للبيع فقد قدرتها بنحو ٥٠ ألف جنيه تقريباً، بخلاف المصاريف التكميلية لإنشاء المجارى وتكملة رصف الشوارع وإبنارتها، وقدرت خسارة الحكومة المحتملة بحوالى ٥٠ ألف جنيه تنازلت عنها الحكومة للشركة . أما مصاريف الصيانة فقد قضى الاتفاق مبدئياً بإيجاد مورد لها بطريق ربط ضرائب مختلفة على الأراضي المباعه، على أن يسد كل عجز يظهر فى هذا الباب من حصة الحكومة فقط من ناتج بيع الأراضي .

وتقرر أن تُحصل الضرائب البلدية كالآتى :

(أولاً) ١٠٠ مليم لكل متر طولى من واجهات المباني المطلّة على الشوارع العمومية نظير الكس والرش و المكدام .

(ثانياً) ١٠٠ مليم لكل متر طولى من واجهات المباني إذا كانت تطل على متنزهات عمومية .

(ثالثاً) ٤٠ مليماً لكل متر طولى من واجهات المباني نظير الإنارة العمومية.

(رابعاً) ٢٠ مليماً لكل متر طولى من واجهات المباني نظير غرس الأشجار على جانبي الطريق

(خامساً) ١٠ مليمات لكل متر طولى من واجهات المباني نظير مقاومة التاموس .

وقدّر ما تحصله مصلحة الأملاك المشتركة بهذه الطريقة من كل منزل من المنازل العادية بمبلغ يتراوح بين ٨ جنيهات و ١٢ جنيهاً سنوياً، وهى قيمة أقل من العوائد البلدية المعتادة فى المدن الأخرى، وذلك بالطبع علاوة على ما تحصله الحكومة من عوائد المباني(٣٠).

وقد بلغت المساحة التي خصصت لإقامة المدينة مليوناً ومائتين وثلاثين ألف متر مربع (٢٠٠٠,٠٠٠ م^٢) احتفظت الشركة منها بـ ٨٥ ألف متر مربع لمبانيها الخاصة، وسمحت للحكومة بالاحتفاظ بمساحة قدرها ١٥ ألف متر مربع لإنشاء المدارس والمستشفيات ودار البلدية والجمرك والبوليس والحكمة وغيرها . وقُسمت المدينة إلى أربع مناطق، وذلك على أساس طبقي :

المنطقة الأولى : وكانت تقع إلى جنوب ورش الشركة وعرضتها بأثمان مرتفعة حتى تخصص للفيلات الفخمة لأعلى طبقة ستقيم بهذه المدينة .

المنطقة الثانية : وتلي المنطقة الأولى جنوباً وخصصت للفيلات العادية .

المنطقة الثالثة : وتلي المنطقة الثانية وخصصت للفيلات والمباني الأصغر حجماً .

المنطقة الرابعة : خصصت للعمال، وكانت تقع بالقرب من الأحواض الجديدة التي أنشأتها الشركة لتشوين الفحم .

وعند وضع التصميمات الهندسية للمدينة تم الأخذ بأحدث ما وصل إليه تخطيط المدن من أساليب قبلت عروض الشوارع في ثلاثة منها خمسين متراً، ولم يقل عرض أغلب الشوارع عن عشرين متراً، كما أخذ المخطط بتعدد المتنزهات والميادين العامة حتى بلغت نسبة المساحة التي خصصت للمتنزهات ٧ ٪ من مجموع هذه المساحة، وهذه النسبة غير موجودة في أي مدن أخرى بالقطر المصري حتى في الإسمايلية ومصر الجديدة كما لاحظ فؤاد فرج بحق.

أما الجزء الذي يقع من المدينة على شاطئ البحر المتوسط ويخلو من الورش فقد أقيم به مصيف يورفؤاد المميز بكابانه الخشبية وكازينوهات الفخمة وأنديته البحرية التي عدت وقتها أندية من الطراز الأول .

وكانت الحكومة المصرية قبل إبرامها الاتفاق مع الشركة في ١١ أكتوبر ١٩٢٥م قد نشرت في العدد الصادر أول مايو ١٩٢٥م من الجريدة الرسمية موافقتها على قيام الشركة بوضع حجر الأساس لمدينة يورفؤاد .

وسواء كان التعمير قد بدأ في قبل أول مايو ١٩٢٥م (تاريخ النشر في الجريدة الرسمية)، كأن يكون التعمير قد بدأ سنة ١٩٢٠م، كما ذكرت بعض المراجع غير المسندة، أو بعد هذا التاريخ، أو حتى بعد ١١ أكتوبر ١٩٢٥م (تاريخ إبرام الاتفاق) فقد شهدت المدينة الواعدة حركة إعمار جريئة وسريعة حيث افتتحها رسمياً الملك فؤاد الأول في يوم الثلاثاء ٢١ ديسمبر ١٩٢٦م.

وقد ذكر لنا شفياء الدين القاضى نقلًا عن خليلوبس نص ما كتب على لوحة الافتتاح

وهو كما يلي :

" افتتحت مدينة بورفؤاد في ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٥هـ. الموافق الثلاثاء ٢٠ ديسمبر ١٩٢٦م بحضور صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول في السنة العاشرة من حكمه يرافقه صاحب العزة عدلى يكن باشا رئيس الوزراء والمسئو جوناو مدي عام شركة قنال السويس، كما حضرها جميع رجال الإدارة وأعضاء لجنة تأسيس مدينة بورفؤاد وهم إسماعيل رمزي باشا، أصلان قطاوى باشا (ممثلين عن الحكومة المصرية) والكونت دى سريون، البارون لوى دى بنواه (ممثلين عن شركة قنال السويس) "

وكان الملك فؤاد الأول قد وصل إلى بورسعيد على ظهر اليخت الملكي (المحروسة) مساء يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٢٦م، وفي اليوم التالي وصلت البارجة الحربية البريطانية كوينكورد Concord إلى ميناء بورسعيد قادمة من الإسكندرية وعلى متنها المندوب السامي البريطاني لورد لويد . كما تواتر وصول المدعوين والزوار. وبدأت حفلات الافتتاح في الساعة الثالثة والنصف في سرادق ضخم أقيم فيه حفل شاي أقيمت أثناءه كلمات الترحيب. ولما عاد الملك إلى ظهر اليخت المحروسة في الخامسة والنصف مساء توهجت سماء المدينة بالألعاب النارية (٣١).

وهكذا كانت نشأة هذه المدينة، نشأة تراوحت بشأنها وجهات النظر بين طامع (الشركة) ومتواطي (الحكومة) ومتوجس (الشعب) .

هي نشأة غريبة الأطوار بالفعل تجاور فيها الخوف والرجاء، القحط والبذخ، الحمق والحيلة، التوجس والاطمئنان : لكنها في النهاية كشفت بوضوح عن علاقة إذعان بين طرفين متواجهين : شركة انتفخت من كثرة ما هضمت من خراف، ووطن لا يملك إلا أن يقدم لها خرافة قطعان بعد قطعان .

وضع إذا استمر يصبح ظلماً بيئاً

ألم تلحظ عزيزي القارئ تكرار التصاق وصف المدينة ببورفؤاد كلما تردد اسمها فيما ذكرت، فهل هي حقاً مدينة ؟

اسمح لي، بداية، بأن أذكر لك أنها لم تنفصل أبداً منذ نشأتها حتى الآن عن مدينة بورسعيد، وأن مسميها الإداري بدأ بتصنيفها كشيخة ثم أصبحت قسماً أو حياً وما تزال كذلك الآن، ففي تعداد ١٩٢٧م كانت بورفؤاد شيخة تابعة لقسم الإفرنج، وهو أحد أقسام بورسعيد، ومنذ تعداد ١٩٢٧م وحتى تعداد ١٩٦٠م انتقلت تبعية هذه الشيخة إلى قسم الميناء، ثم فصلت عنه سنة ١٩٦٩م (٣٢)، لتعود إلى قسم الإفرنج الذي أصبح اسمه

(قسم الشرق) ، وفي سنة ١٩٧٩م أصبحت قسماً مستقلاً بذاته (٣٣)، وما زالت كذلك حتى الآن .

ومع هذا فإنها لم تكن تُذكر قبل وأثناء النشأة إلا باعتبارها مدينة، أكثر من هذا فإن الخرائط المساحية التي تصدرها الجهات الحكومية الرسمية، وفي مقدمتها خرائط مصلحة (هيئة) المساحة والجهاز المركزي للتعبئة العامة للإحصاء لا تذكر بورفؤاد إلا مسبقة بكلمة مدينة . من ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

- خريطة ضواحي مدينة بورسعيد وبورفؤاد الصادرة عن مصلحة المساحة سنة ١٩٢٧م (مقياس رسم ١ : ٥٠,٠٠٠) .

- خريطة بورسعيد وبورفؤاد الصادرة عن مصلحة المساحة أيضاً سنة ١٩٣٣م (مقياس رسم ١ : ٢٥,٠٠٠) .

- خرائط بورسعيد وبورفؤاد الصادرة عن وزارة الإسكان سنة ١٩٧٨م (مقياس رسم ١ : ٥,٠٠٠) وهي ثماني خرائط .

- خريطة تخطيط الأراضي في بورسعيد وبورفؤاد الصادرة عن جهاز تخطيط الأراضي بمحافظة بورسعيد سنة ١٩٨٠م (مقياس ١ : ٥,٠٠٠) (٣٤) .

ومع هذا فما تزال بورفؤاد تصنف في نظام الإدارة المحلية كقسم أو حي . وأعتقد، ومثلّي آخرون، أن بورفؤاد مؤهلة لأن تكون مدينة مكتملة المقومات لأنها بالفعل كذلك . وقد قدم البدرى فرغلي عضو مجلس الشعب عن دائرة بورفؤاد والشرق اقتراحاً بهذا الخصوص في دورة ٢٠٠٠م - ٢٠٠٥م إلا أنه لم يؤخذ به.

حدود المدينة:

أحالت تفريعة قناة السويس الجزء الأكبر من بورفؤاد إلى جزيرة مثلثة، ذلك أن حدودها الإدارية الشرقية، التي هي حدود محافظة بورسعيد، مع محافظة شمال سيناء تتجاوز التفريعة إلى غرب طريق بالوظة / الساحل، كما أن حدودها الجنوبية تمتد إلى نقطة الكيلو ٤٠ شمال مدينة القنطرة شرق محافظة الإسماعيلية.

أما حدها الشمالي والغربي فهما البحر المتوسط وقناة السويس . وفي نقطة التقاء هذين الحدين كانت النواة الأولى لبورفؤاد، وتحديدًا عند نقطة التقاء القناة بالبحر بالقرب من الحاجز الشرقي للقناة، وبتجاه الشرق والجنوب كان تنامي هذه النواة.

والمدينة النواة نُظمت وصممت مبانيتها ومنشأتها وميادينها وطُرزها على الطراز الفرنسي ولأغراض وظيفية قبل أن تكون جمالية . ويثير وضعها الحالي نقاشات موضوعها الرئيس المقارنة بين الطرز المعمارية المتباينة بين النواة وامتداداتها .

مقومات المدينة :

تبلغ مساحة بورفؤاد الآن ٥١١,٨٧٥ كم^٢ بنسبة ٢٨ ٪ من جملة محافظة بورسعيد، وعلى الرغم من أن مساحتها تعادل ٢ / ٥ مساحة المحافظة، إلا أن عدد سكانها البالغ ٣٧٧٠٦ نسمة وفقاً لتعداد ١٩٩٦م لم يكن يمثل إلا ٦ ٪ من جملة السكان (٣٥). غير أنه مع الحراك السكاني ووفقاً لمعدل الزيادة الطبيعي نجد هذه النسبة قد تضاعفت سنة ٢٠٠٦ م حيث وصل عدد سكان بورفؤاد إلى ٧٠,٥٩٣ نسمة من إجمالي سكان بورسعيد التي وصل في هذه السنة إلى ٥٤٥٧٩٢ نسمة أي أصبح يمثل ١٢,٩ ٪ من جملة السكان (٣٦). وإن أشار هذا إلى شيء فإنما إلى تعاظم شأن بورفؤاد . وهذا التعاظم لم يأت من فراغ فهي تقوم بمجموعة من الوظائف شديدة الحيوية، ففيها نشطت صناعات وخدمات مختلفة منها:

(١) الصناعات المينائية :

في بورفؤاد ترسانة بحرية افتتحتها جمال عبد الناصر تضم عدداً من القزقات لبناء السفن حتى حمولة ١٢ ألف طن للسفينة الواحدة، وبها ثلاثة أحواض عائمة (الأحواض الجافة) طاقاتها على التوالي ٥٠٠ طن، ١٠,٠٠٠ طن، ٢٥٠٠٠ طن وبها ورش متخصصة في كل ما يتعلق بصناعة وإصلاح وصيانة السفن من أنواع الروبو (الدرجة) وكذا القاطرات ووحدات الإطفاء والإنقاذ البحريين ومعدات الركاب واللنشات وغيرها . وتشرف هيئة القناة أيضاً على شركة القناة للإنشاءات البحرية التي تقوم بترميم وصيانة وتكسير السفن وانتشالها وبناء وصيانة مختلف العائمات، فضلاً عن صناعتها للأبراج والكبارى والصهاريج والشمندورات، وكذا شركة الأعمال الهندسية البورسعيدية وتعمل في مجالات بناء السفن والصنادل واللنشات وإصلاحها وتركيب وصيانة أجهزة الرادار واللاسلكي والبوصلات البحرية وإنشاء صهاريج البترول وبناء منصات وأنابيب البترول والغاز وما يلزم لمحطات الصرف الصحي .

(٢) صيد الأسماك:

ولا يتم الصيد فقط من شاطئ المتوسط ومن مجرى القناة، ولكن أيضاً من بحيرة بورفؤاد التي تقع عند شرق تفرعة بورفؤاد وظلت - وما زالت - مصدراً هاماً لإمداد سكانها بالأسماك من أنواع البوري والدنيس والقاروص واللوت، وهذه البحيرة تتصل بالبحر المتوسط من خلال بوغانز القلعة وبوغانز بورفؤاد وكانت مساحة هذه البحيرة حتى يونية ١٩٦٨م، تقرب من ٦٢ ألف فدان لكنها تقلصت كثيراً حتى وصلت في وقتنا الحاضر إلى ٢٥ ألف فدان فقط . ويمكن إرجاع هذا التقلص إلى ثلاثة أسباب هي (٣٧):

* قيام إسرائيل عام ١٩٦٧ بإنشاء طريق في منتصف البحيرة يصل بين رمانة ورأس العش، مما أدى إلى تقليصها بمقدار ١٢ ألف فدان نتيجة جفاف الحوض الجنوبي لها (جنوب الطريق المذكور) .

* إطفاء بوغانز القلعة الواقع شمال شرق البحيرة مما أدى إلى جفاف الحوض الشرقي للبحيرة ومساحته ١٤ ألف فدان .

* قيام هيئة قناة السويس بحفر تفرعة بورفؤاد وإلقاء ناتج التكربك من رمال وطمى داخل هذه البحيرة مما أدى إلى تقليصها بمقدار ١٠ آلاف فدان كما أدى ذلك إلى سد المواسير التي كانت تغذي البحيرة بمياه قناة السويس .

(٣) استخراج الغاز الطبيعي :

من أهم الحقول التي يستخرج فيها الغاز الطبيعي:

* حقل بورفؤاد البحري ويضم أربعة آبار ويقع على مسافة قدرها ٣٦ كم من شاطئ بورفؤاد ويبلغ عمق مياه البحر عنده ٢٨ متراً، ويتدفق الغاز من هذا الحقل بمعدل ٧٠ مليون قدم مكعب يومياً بالإضافة إلى متكتففات (زيت عالي الجودة) بمعدل ثلاثة آلاف برميل يومياً . ويقدر احتياطي هذا الحقل بنحو ٢٨٠ بليون قدم مكعب فضلاً عن ٦ ملايين بترول .

* حقل وقار البحر ويقع على مسافة قدرها ٥٢ كم من شاطئ بورفؤاد (شمال غرب حقل بورفؤاد) ويبلغ عمق المياه عنده ٤٦ متراً، وهو مكون من طبقتين يبلغ حجم تدفق الغاز من الطبقة الأولى بمعدل ٢٦ مليون قدم مكعب يومياً بالإضافة إلى متكتففات قدرها ٢٠٧٠ برميل يومياً وذلك من الطبقة الأولى، أما الطبقة الثانية فيتدفق منها الغاز بمعدل ٢١ مليون قدم مكعب يومياً مصحوباً بمتكتففات قدرها ٢٤٦٠ برميلاً يومياً (٢٨).

(٤) استخراج الملح :

وهي صناعة قديمة ارتبطت بنشأة بورفؤاد وحقيقت سمعة عالمية، و يستخرج من المياه المالحة التي يوغرها البحر المتوسط وبحيرة بورفؤاد ومجرى قناة السويس، وتقع الملاحنة جنوب شرقي بورفؤاد في منطقة محصورة بين قناة السويس غرباً والتفرعة الجديدة شرقاً وتنتج حوالي نحو ٤٠٠ ألف طن من الملح (٣٥ ٪ من جملة إنتاج الملح بالبلاد) ويصدر منه نحو ٢٣٠ ألف طن . وأشكال الملح الذي تنتجه بورفؤاد متنوعة ما بين ملح المطبخ وملح المائدة، وملح الصناعات، وأقراص طبية للمناطق الحارة، وقوالب كعلاج كيميائي للماشية، وملح مجروش مُعالج للطيور، وقد جُنت تفرعة القناة على هذه الملاحنة جنباً إلى جنباً إذ اقتطعت منها مساحات كبيرة في جانبيها الشرقي مما قلص مساحتها الكلية تقليصاً

كبيراً اضطرت معه الحكومة إلى تعويض الشركة التي تديرها عن الأجزاء المقتطعة بمنحها مساحة مماثلة من أراض منخفضة تقع إلى الجنوب من أحواض الملاحة لتستخدم كأحواض للتركيبن والتيلور(٣٩).

٥) الزراعة :

بوصول مياه ترعة السلام إلى سيناء انطلقاً من جنوب بورسعيد دخل مخطط التنمية الزراعية لشمال سيناء حيز التنفيذ باستزراع ٤٠٠ ألف فدان خص سهل جنوب بورفؤاد منها ٦٠ ألف فدان تم توزيعها بالفعل واستزاعها.

٦) السياحة :

تملك بورفؤاد بأهلها وموقعها وشاطئها وبحيرتها وأسماكها وطيورها أكثر من مقوم سياحى . ولعلها تصلح أكثر ما تصلح للسياحة الترفيهية المتصلة بالصيد والاصطياف، وهذا ما فطن إليه مخطوطها الأولون حينما هبوا شاطئها لتحقيق هذا الغرض وبنوا عليه مجموعة الكباشن الخشبية الجميلة . دمرها الفرنسيون عند احتلالهم لها فى حرب ١٩٥٦م، وقامت شركة قناة السويس بإنشاء كازينو الشاطئ سنة ١٩٣٦م وهو كازينو بالينير Ca-sino Balneaire De Port-Fauad وقامت بتأجيريه لرجل الفنادق السياحية الأشهر سيمونينى . ولعل هذا ما فطنت إليه الإدارة الحالية فقررت إنشاء قريتين سياحيتين فى المنطقة الشمالية الشرقية منها .

وكان من الممكن أن تتضاعف هذه الطاقات لو أنه قد تم تنفيذ مشروع شرق بورسعيد وفقاً لما تضمنه مخططة الهيكل من استخدامات لتفرعة قناة السويس الواقعة شرقى بورفؤاد. وتوزعت هذه الاستخدامات على ٢٢٠ كم٢ (٥٢٤٠٠ فدان) وذلك على النحو التالى(٤٠):

الاستخدامات الرئيسية	المسطحات	
	كم٢	فدان
الميناء المركزى المحورى (شاملة الامتدادات)	٢٢,٥	٥٤٠٠
المنطقة الصناعية الحرة	٨٧,٦	٢٠٨٠٠
منطقة سياحية	٥,٧	١٤٠٠
المنطقة الإدارية	٤,٧	١١٠٠
مزارع سمكية (شاملة البحيرات)	٩٩,٥	٢٣٧٠٠
الإجمالى	٢٢٠,٠	٥٢٤٠٠
		١٠٠

فإذا أضفنا العنصر البشرى وجدناه كأفضل ما تكون حالاته في الدول النامية، سواء في بورفؤاد أو في بورسعيد، فلهذه من مقومات تنميته الكثير، فهو يعمل ويتعلم ويتثقف ويتربى ويتطرب ويمارس السياسة ويصلى ويلهو، وتوفر له هذه الخدمات مؤسسات كثيرة من تعليمية وصحية وثقافية ورياضية واجتماعية ودينية ومالية وأمنية.

فمن المؤسسات التعليمية المتواجدة ببورفؤاد كليات: الهندسة، التجارة، التربية الرياضية بخلاف المدارس الحكومية والخاصة، الأهلية والأجنبية ومعاهد التدريب وأشهرها الأبرانتيه ويتبع هيئة القناة.

ومن المؤسسات الثقافية يوجد بيت ثقافة بورفؤاد بحديقة الزهور وعدد من المكتبات العامة التي يشرف عليها الفرع الثقافي بالمحافظة، ومركز إعلام بورفؤاد وفرع الهيئة المصرية العامة للكتاب، وكذا مسرح جامعة قناة السويس، ومسرح هيئة قناة السويس . وكانت توجد ببورفؤاد إلى عهد غير بعيد داران للعروض السينمائية هما دارسينما قاميلا ودارسينما بورفؤاد الصيفي.

ومن المؤسسات الرياضية نادى بورفؤاد الرياضى ويتبع هيئة قناة السويس، وصالة الألعاب المغطاة (الجمنيزيوم) التابعة للتوجيه الرياضى بمديرية بورسعيد التعليمية، ومركز شباب بورفؤاد، ونادى التجديف وغيرها.

ومن المؤسسات الصحية توجد مستشفى بورفؤاد العام ، والصحة المدرسية والكثير من المستشفيات والعيادات الخاصة.

ومن المؤسسات السياسية تتواجد ببورفؤاد مقار لأربعة أحزاب نشطة هي : الوطنى، الأحرار، الوفد، والتجمع (٤١).

وما أكثر المؤسسات الاجتماعية التي تأخذ أشكالاً عدة من أهمها النوادى والمقاهى، ومن النوادى ما يخص بالعاملين بالجهات الرسمية كنادى العاملين بديوان حى بورفؤاد أو من تعودنا على تسميتهم العاملين فى الجهات ذات السيادة كنادى الشرطة الذى يطل على قناة السويس مثلاً أو نوادى النقابيين كنادى نقابة المعلمين.

أما المقاهى تلك التى تعد مزيجاً من مصانع للكسل، والتلهى، وإزجاء أوقات الفراغ، والتحرر من أشكال القهر والكتب فى أماكن العمل والبيت، والإقبال على الحياة عن طريق المنادمة والمعاونة المتبادلة بين الغرباء، فهى فى بورفؤاد كثيرة ومتنوعة، منها على سبيل المثال لا الحصر المقاهى الآتية : النمس (شارع رقم ٢)، بلياردو (ميدان ٦ أكتوبر)، القصيفى، الزعيم، النجمة (منطقة البلاج)، الفردوس (شارع العباس بن عبد المطلب)، سهر، روتانا (شارع الشيخ محمد متولى الشعراوى)، نور جراند (فى مواجهة الملاحه)،

الجزيرة (شارع عمر بن عبدالعزيز)، البورفاج (شارع ٢٣ يوليو).
وهذا كله بخلاف مقومات أخرى كثيرة متوفرة بها وتفتقر إليها مدن كثيرة مثل:
* الصناعات البحرية وخدماتها ولبورفواد بها خبرات وأية خبرات.
* الطرق ووسائل النقل - بل صناعة النقل - وقد تزايدت طاقاتها ببورفواد بعد إنشاء
الميناء المحوري على تقريعة القناة شرقي بورفواد.
* شبكات الاتصال الحديثة.
* التمويل والائتمان والتأمين وإعادة التأمين.
إن تأمل هذه المقومات - وغيرها كثير - لكفيل بأن يجعل أى منصف متيقناً من أن
ظلماً بيناً يقع على بورفواد إذا لم تعامل رسمياً معاملة المدن.

الطرز المعمارية بين التنميط والاختلاف:

بالفعل يا عزيزي، اختلفت طرز المباني في النواة عن امتداداتها المتنامية، ومع هذا فإنه
من الخطأ القول بأن طرز بناء النواة كانت متشابهة تشابهاً مطلقاً .. لا .. لم تكن متشابهة
في كل تفاصيلها، فكما ذكرت لك أنفاً تم تقسيم الأراضي المخصصة للبناء إلى أربعة
مناطق، وأذكر أنني قلتُ لك أن التقسيم كان ذا طابع طبقي، وأنَّ أَرْدأَ منطقة كانت هي
المنطقة المخصصة لسكنى العمال، وهذا صحيح وما زلتُ مصرراً عليه، وسوف أريك رأي
العين عندما أصبحك إلى قلب هذه المدينة . عندئذ سوف تثقف على الحقيقة كما هي
موجودة على أرض الواقع، فتوحيد الطرز المعمارية لم يكن شاملاً لكل المباني السكنية، بل
تنوع ما بين فيلات فاخرة للأجانب من مهندسين وريابنة وخبراء، وشغلت أقصى الشمال
باتجاه الشرق وفيلات متوسطة مكونة من طابقين وحديقة وهي في الوسط، ثم أخرى لم
يكن يطلق عليها لفظ فيلا، لأنها لا تصلح لأن تكون كذلك، وإنما كانت تسمى بالعناير وهذه
كان يمسكن بها العمال من الوطنيين وثمة فرق بين العنبر والفيلا سواء في مواد البناء أو
المساحة أو نمط البناء ذاته فمواد بناء الفيلات من قوالب الطوب الأسمنتى المطفى - أيضاً -
باللون الرمادي وأسقفها مائلة ومصنوعة من القرميد الأحمر أما العناير فمن الحجر
الجيري العاري من أى طلاء ومساحة الوحدة السكنية المخصصة لأسرة العامل في العنبر
أقل كثيراً من مساحات الفيلات، ونمط بناء العناير مختلف تماماً فلا طوايق تعلو الطابق
الأرضي ولا أسقف من قرميد ولا شرفات ولا حدائق ولا استقلال بين الوحدات السكنية،
وإنما تلاصق فيما يضمه العنبر الواحد، والانفصال لا يكون إلا بين العناير، وكانت هذه
العناير تقع إلى الجنوب .
صحيح أن فيلات المنطقة التي أعطيناها الترتيب الثالث متلاصقة هي أيضاً داخل كل

مربع أو معين سكني، لكنها ليست كالعنابر فكل فيلا خصوصيتها وحديقتها وطابق ثانٍ وشرفات تحملها كوابيل، أكثر من هذا فإن الشركة خصصت المساكن التي تتواجد على رؤوس الشوارع أو تطل على التقاطعات للملاحظين والأسطوات، وهذا أيضاً نوع من التمييز الطبقي ذي الصبغة الإدارية يضاف إلى التمييز المعماري.

لكن نمط بناء مساكن المنطقة التي أعطيناها الترتيب الثاني، تلك المخصصة لمن هم أرقى في منظومة العمل من ساكني المنطقتين السابقتين، مختلف، بل واضح الاختلاف، فقد صممت بحيث يقع كل زوج منها متجاورين . لاحظ أنني قلت " زوج " زوج " فقط . فالخصوصية هنا أكثر احتراماً وتأميناً، لأن التمايز يجب أن يكون واضحاً لمن هم دونهم . وقد تميزت هذه المساكن بأمر أربعة هي:

* فخامة البناء.

* الشرفات العريضة.

* الحدائق الواسعة.

* حجرات الخدم في نهايات الحدائق.

أما أنماط مساكن الطبقة الأعلى تلك التي تضم على القوم والمديرين - وجلبهم من الأجانب ومن العاملين بالشركة بطبيعة الحال وقتها - ولا حظ أنني قلت " أنماط " بصيغة الجمع، وهذا ما أقصده تحديداً، ذلك أن الفيلات هنا مختلفة ومنفصلة تماماً عن بعضها البعض . الاختلاف يوضحه التمايز البين في الطرز المعمارية، والانفصال يؤكد الشوارع التي تبدو كما لو أنها شقت خصيصاً ليكون لكل فيلا طريقها المقصور عليها، ويضاف إلى هذه الشوارع الخاصة المساحات الخضراء المسورة التي تحيط بها، فضلاً عن إنشاء حديقة مركزية واسعة المساحة بديعة التنسيق وسط هذه الفيلات.

واسمح لي بأن أذكر لك أمراً كان موضع اهتمام المنشغلين بأمر السياسة وغير المنشغلين بها سواءً بسواء، ولا تطلب مني تعليقاً من أي نوع، فقد جذبت الروعة التي عليها هذه الفيلات الرئيس محمد أنور السادات ليتخذ من إحداها - أقصد من أفضلها - استراحة له لتكون هي الثانية له، بالإضافة إلى استراحته بكبائن المعمورة الموجودة بالجانب الإفريقي من المحافظة.

ومن رأيي أن السبب في بهاء بورفؤاد / النواة لا يعود إلى توحيد الطرز المعمارية في المناطق الأربع التي ذكرتها وحده، وإنما أيضاً إلى خطوط التنظيم التي عدت مبتكرة وقت إنشائها، فقد جمعت هذه الخطوط بين نمطين في تنظيم الوحدات السكنية والشوارع هما

النمط الإشعاعي والنمط الشبكي . فالشوارع تتبثق عن الميادين انبثاق الأشعة عن قرص الشمس أو الكشاف الكهربى المضاء، وتتسع الفُرَج بينها كلما استطالت، وإذا تميل فى خطوط طولية بزاوية ٥٥° باتجاه الميادين فإنها تتقاطع مع بعضها البعض فتشكل شبكة من الطرق تحيط بالوحدات السكنية وتفصلها عن بعضها البعض بصورة واضحة الانسجام . وساهمت الطرز الموحدة، على اختلاف المناطق الأربع التى حدثت عنها، وكذا خطوط التنظيم فى إضفاء صفات محببة إلى المناطق السكنية، فهي هادئة، نظيفة، صحية، جميلة، وزاد من بهائها الأشجار التى غرست على جوانب الطرق وفوق الجزر التى تشق أنهارها ومساحات الخضرة المنتشرة بها .

وشمة أمر لم يلتفت إليه أحد، وهو غياب التسميات عن شوارع بورفؤاد/ النواة والاستعاضة عنها بالأرقام، مثال ذلك: شارع رقم (١)، شارع رقم (٢) وهكذا ... وللتمييز بين الشوارع الرئيسية والشوارع الفرعية تذكر الصفة إلى جوار الرقم، مثال ذلك: شارع رقم (١) رئيسى، شارع رقم (٢) رئيسى، أو شارع رقم (١) فرعى، شارع رقم (٢) فرعى . وهى ظاهرة لا تتواجد ببورسعيد بالصورة التى هى عليها فى بورفؤاد، فالعامة لا يتذكرون أن فى بورسعيد من الشوارع ما يحمل أرقاماً سوى شارع (٩٩) وشارع (١٠٠)، والمحققون قد يتذكرون شارع رقم (٤١) الذى أصبح سنة ١٩١٦م، كتشنر فـ ٢٣ يوليو بعد الثورة، وشارع نمره (١) الذى هو شارع التجارة والأمير فاروق والنهضة والشهيد فريق أول عبد المنعم رياض على الرغم من أنه ليس أول الشوارع التى شقت بالمدينة . هذه الشوارع الأربعة هى التى يمكن تذكر أرقامها فى بورسعيد لاسيما أنها جميعاً أطلقت عليها تسميات مختلفة وأغلبها منذ أزمان مبكرة جداً، لكن مع بورفؤاد/ النواة فالأمر مختلف إذ أن الشوارع المرقمة كثيرة جداً، وما تزال لوحاتها تحمل أرقامها دون تسميات بديلة.

لماذا؟ ..

طرحْتُ على نفسى هذا السؤال ولم أتوصل إلا لبعض التماعات من أفكار قد لا تشكل إجابات حاسمة على هذا السؤال العارض لكنها محاولة تحتاج إلى استكمال . بداية فلنتفق على أن قرارات تسميات الشوارع فى مصر هى من شئون جهة الإدارة وليست من شئون المعماري أو مسئولى التخطيط الهندسى، وأنه نادراً ما ترتبط الأسماء بعمليات تصميم المدن والمناطق الحضرية الجديدة وهى بعد فى وضع التصميم ورسم الخرائط، ولهذا فقد تغطى هذه التصميمات رموزاً أو أرقاماً أو الاثنين معاً - الرموز والأرقام - على إحداثيات هذه الخرائط وفى المواقع عند بداية التنفيذ، وقد تستمر هذه الرموز والأرقام

حتى تمام التنفيذ ليتم استبدال أسماء جديدة بها، وقد يتم هذا الاستبدال قبل تمام التنفيذ؛ وقد حدث هذا مع بورسعيد فلماذا لم يحدث مع بورفؤاد ؟

أولي الأفكار المتعلقة بهذه المسألة تفرق بين ظروف نشأة المدينتين فمع بورسعيد كانت الأوضاع متوترة والشركة الدنية لم تستقر بعد والأسد البريطاني دائم التحرش بها، وهناك من يجب ترضيتهم من الأوروبيين والحكام المحليين، وللحكام الإقليميين رغبات وأحلام يجب أن تنفذ، لذا كانت التسميات ضرورة حتى قبل افتتاح القناة، مثلما كان الأمر مع أول رصيف ينشأ ببورسعيد، فقد كان من اللازم والضروري ترضية حاكم فرنسا الإمبراطور نابليون الثالث بإطلاق اسم زوجته الجميلة الإمبراطورة أوجيني على هذا الرصيف الذي أصبح شارعاً، وكذا كان الأمر مع فرانسوا جوزيف، والسلطان عثمان، ودي ليسبس، وواجهورن، وكنتشنر .. وهكذا.. المسألة كانت وقتها تحتاج إلى ترضيات وممالآت وإشباع غرور بعض الشخصيات المؤثرة لتحقيق مصالح الشركة؛ أما مع بورفؤاد فكانت الأوضاع قد استقرت كثيراً، فالأسد تصالح مع الذئب بعدما سيطر على العرين المصري، والحرب العالمية الأولى كانت قد وضعت أوزارها، والسلطان فؤاد أصبح الملك فؤاد، ومن ثم لم يكن المجال مجال ترضيات أو ممالآت، وتكفى ترضية واحدة للملك المصري بإطلاق اسمه على المدينة الجديدة كما طلب المجلس البلدى؛ فلماذا العجلة فى رفع أرقام الشوارع وإطلاق تسميات عليها ؟

ثانية هذه الأفكار تتعلق بالمخطط التنظيمى لبورفؤاد / النواة، فقد أخرج هذا المخطط المدينة الجديدة فى صورة هندسية ذات طابع وظيفى أكثر منه اجتماعى أو شخصانى؛ فلا زركشات ولا زخارف، فلماذا تنسب منطقة أو مناطق لأسماء بعينها ؟.. ثم إن أرقام الشوارع تتوافق مع معطيات الهندسة أكثر مما تتوافق مع الحروف التى تكون الأسماء سواء كانت لأشخاص طبيعيين أو اعتباريين أو أوصاف لمعان أو أماكن.

وثالثها يتعلق بطرائق الاستدلال، فعند تقاطع شارعين تمت تسميتهما بذكر اسم الشارعين، وأسهل من هذا نكر الرقمين اللذين يدلان على الشارعين . وبالنسبة للوحدات السكنية المتلاصقة من فيلات وعنابر فإن التنسيب يكون هو الأفضل بذكر رقم الشارع ورمز الفيلا - مستقلة أو غير مستقلة - أو الوحدة السكنية الملحقة بالعنبر.

هذه مجرد أفكار مستنتجة أكثر منها معلومات مؤكدة فربما كان أحدها أو بعضها أو حتى كلها السبب فى استمرار حمل أغلب شوارع بورفؤاد النواة لأرقامها، والأمر يحتاج إلى استكمال.

أما الامتدادات، تلك التى أقيمت بعد تأميم قناة السويس، ويتحدد أكثر بعد انتهاء

حرب ١٩٥٦م. حتى التهجير الجبرى سنة ١٩٦٩م الذى استلزمته ضرورات هزيمة ١٩٦٧م وحرب الاستنزاف، ويعد حرب ١٩٧٣م وبتحديد أكثر بعد العودة من التهجير سنة ١٩٧٤م، فقد جاءت على نمط مختلف، فلا الطرز هي الطرز ولا التنظيم هو التنظيم . فالوحدات السكنية أصبحت رأسية، وأشكال البناء تعددت والألوان تنوعت والارتفاعات تفاوتت، والمساحات لم يعد يسيطر عليها ضابط .

والأسباب كثيرة، منها:

* الانفجار السكاني.

* قلة المساحات المتاحة للبناء الإسكاني.

* ارتفاع أسعار الأراضي ومواد البناء.

* الضعف الاقتصادى.

* تنوع الملاك بين أفراد ومؤسسات أهلية وجمعيات تعاونية إسكانية، فضلاً عن الحكومة وما تتيحه من مبان سكنية قبيحة الشكل.

* تغيير هيئة قناة السويس ذاتها لأنماط بناء وحداتها السكنية، ومنشأتها الإدارية، فبعد أن هدمت عنابر أسر العمال قامت ببناء عمارات سكنية متعددة الطوابق بدلاً منها، كما قامت ببناء مجموعات مماثلة فى الشمال الشرقى بمواجهة منطقة البلاج.

* مسابرة بعض المماريين لأنماط البناء فى المناطق المميزة بسائر أنحاء الوطن حيث ظهرت الأبراج السكنية تلبية لرغبات الملاك من الأفراد والشركات والجمعيات الإسكانية، حتى المباني الحكومية زادت طوابقها من أربعة طوابق إلى ستة طوابق.

* التعاقدات الانفرادية على عمليات التصميم والبناء، مما نوع من أعداد المماريين ومن ثم اختلفت المدارس وتجاوزت القدرات الابتكارية والتقليدية، فتلاصقت المباني الحداثية والمستنسخة فى نفس المشهد.

* شيوع قيم التحرر من أسر الطرز الجاهزة لدى قطاع عريض من المماريين.

وبالنسبة للنقطة الأخيرة فإنه يمكن القول بأن العمارة مع الألفية الثالثة تتجه بقوة إلى نبذ مبدأ التكرار الذى كان أحد ملامح الهوية المعمارية، ربما بتأثير من الثورات التكنولوجية المتتالية، وربما بسبب جهود معماريين مبتكرين يعتمدون فلسفات مغايرة لما ساد لآماد طويلة، وربما لأسباب أخرى، أيّاً ما كان الأمر فقد باتت الطرز المعمارية مزخرفة أو غير مزخرفة - أشبه بالموضة القديمة.

ومع هذا فإن الخروج على مبدأ التكرار، والازورار عن الطرز المنمطة لا يعنىان بآية حال إلغاء الهوية ؛ فيقدر ما تتيحه الثورات التكنولوجية وابتكارات المماريين من

تغييرات، بقدر ما تتفتح المجالات واسعة لإعادة تشكيل الهوية. وعلى كل ما زالت بورفؤاد في تنام وامتداد حتى وصلت الوحدات السكنية إلى منطقة الملاحة وتجاوزت منطقة الجبانة . وفي الوقت الذي لم يعد ممكناً فيه سوى البحث عن ظهير عمراني شرقي البحيرة في سهل الطينة، لم يعد ممكناً أيضاً البناء على نفس الطرز القديمة.

ومع اختلاف طرز البناء الحديثة عن مثيلاتها القديمة فإن في هذه المدينة من الوحدات المعمارية ما يقوم بالربط بين ما هو قديم وما هو حديث، أو بالأصح بين ما هو غربي وما هو شرقي أو عربي.

ومن هذه الوحدات مبنى المحكمة المختلطة بطرازه المراكشي وواجهته ذات الأعمدة الأربعة و عقوده الثلاثة وبرجه المستطيل ذي الأضلاع الأربعة بارتفاعه غير المبالغ فيه وفسيفسائه الخضراء البديعة، وقد افتتح هذا المبنى في مايو ١٩٣٤م. باحتفال كبير تكلفت بنفقاته شركة القناة بإشراف البارون دي بنوا، وكان قد دعا رئيس محكمة الاستئناف المختلط المستر هوسون Houson ورئيس محكمة المنصورة المستشار إيمان وكثير من المحامين لحضور هذا الاحتفال وحضروا بالفعل(٤٦).

وقد تحولت هذه المحكمة إلى محكمة للاستئناف، ولفترة شغلت مكاتب ديوان حي بورفؤاد الجزء الخلفي منه ولم تغادره حتى تم تشييد مبنى مستقل للحى، ثم شغل نفس هذا الجزء مكتب خبراء وزارة العدل . وأياً ما كانت التغييرات التي طرأت على هذا المبنى، فإنه يظل شاهداً على انحراف العدالة في واحدة من أشد الفترات التي شهدتها مصر حلقة بتفريقها بين الأجنبي المميز والوطني مهضوم الحق.

ومن الوحدات المعمارية التي قامت بمهمة الربط بين القديم والحديث من الطرز المعمارية مباني الترسانة البحرية التي تجمع بين أنماط البناء الغربي والفرعوني والإسلامي في وحدة عضوية تتأني على الفصل وتنسجم مع القيلات السكنية التي تواجهها لا سيما المبني الرئيس بشرفاته المتعددة نوات الأعمدة المستديرة والنوافذ الخضراء التي تفتح بدفعها إلى الأمام، وبزخارفه الحمراء البسيطة على الواجهة، وسورة الرمادي الذي تتخلله وحدات زخرفية غاية في البساطة تجمع بين الأحمر والأبيض وتتألف مع ما يحيط بها من مبان.

ومبنى النادي الاجتماعي لنقابة المعلمين المقام بشارع الشيخ محمد متولي الشعراوي يقطب مناطق العمران الجديدة التي تاحمت منطقة الملاحة يقوم بنفس المهمة بجمهرته الخفيفة والمجسمين المصممين على هيئة زهرتي لوتس تحفان بيوأته المريضة، وبرجيه

الذين يحتضنان مبناه الرئيس ولا يرتفعان عنه كثيراً والقرميد الأحمر الذي يغطي مظللات النوافذ والأبواب.

غير أن أهم ما يقوم بهذا الدور ولا يربط فقط بانسجام ما بين الطرز المعمارية غير المنسقة، وإنما أيضاً يعطى الدليل على إمكان المصالحة بينها والعيش في تجاور ووثاق، على الأقل من الناحيتين التاريخية والجمالية، فهو دور العبادة، بقبابها ومآذنها وأهلتها (المساجد) وبأبراجها، أيقوناتها وصلبانها (الكنايس)، فهذه الدور تبعد بسموها وبساطتها وضراعة مآذنها وأبراجها، أي إحساس بالتوزع أو التشتت بين البيوت المنخفضة والعناصر متفاوتة الارتفاعات، وهي بالتصاقها بالأرض ورنوها نحو السماء ترفع ما انخفض من مبان وتخفف ما ارتفع واستعلى .

واسمح لي عزيزي القارئ بأن أحكى لك نبذة عن بعض من هذه الدور .

دور العبادة ببورفؤاد

(١)

مساجد المسلمين الجامعة

المسجد الكبير:

أقدمها هو المسجد الكبير ولم يكن يُعرف بهذا الاسم حين إنشائه، وإنما كان اسمه مسجد فاروق الأول ببورفؤاد، ووضع الملك فاروق حجر أساسه في ١٥ من ربيع الأول سنة ١٣٣٦ هـ الموافق ١٠ مارس ١٩٤٤م. في نفس اليوم الذي وضع فيه حجر أساس مسجده ببورسعيد .

واجهته تكاد تشبه واجهة مبنى محكمة المختلط بأعمدته الأربعة وعقوده الثلاثة . منذئذ غير مبالغ في ارتفاعها ومربعة الأضلاع، وقبته مئمنة، ومظلات شبابيكه ومداخله مائلة ومصنوعة من القرميد الأحمر . وما هي إلا سنوات قليلة وزال اسم الملك فاروق عن هذا المسجد مثملاً زال عن المسجد الذي وضع حجر أساسه في بورسعيد . حدث هذا بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م.

وإذا كان مسجد بورسعيد قد اكتسب اسماً جديداً هو مسجد الرحمة، فقد عرف الناس هذا المسجد باسم الجامع الكبير، وتسمى الميدان الذي يشرف عليه بالميدان الكبير . ورفعت مظلة من الصاج في حديقة المسجد أمام واجهته الرئيسة لتيسر على المصلين، المتزايدة أعدادهم، الصلاة أيام الجمع والأعياد، وفي أوقات تغير الأحوال المناخية، إلا أن هذه المظلة حجب بعضاً من بهاء هذا المسجد.

مسجد النور:

وهو مسجد متوسط الحجم، قريب من ميدان ٦ أكتوبر من الناحية الشمالية، أبيض اللون، قبته مربعة ومئذنته قصيرة، أسسه السيد السيد صبح ، وأفتتح للصلاة فيه يوم الاثنين ٢٨ من رجب ١٣٨٥ هـ الموافق ٢٢ نوفمبر ١٩٦٥م.

مسجد قباء:

وهو مسجد متوسط الحجم، يحتل الناصية الشمالية الشرقية لتقاطع شارعى ٢٣ يوليو والشيخ محمد متولى الشعراوى، قبته مضلعة بأسقف مائلة ومئذنته متوسطة الارتفاع منفصلة عن جسم المسجد متعدد الأضلاع، والمسجد ساحة مسورة، وتأسس فى رمضان ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م على نفقة المغفور لها ريهام محمد الكيلانى.

مسجد الرحمن:

أسسه محمود صبح وهو مشهور بمسجد الشعراوى نسبة إلى الشارع الذى يطل عليه وهو شارع الشيخ محمد متولى الشعراوى . القبة مضلعة وأسقفها مائلة ومصنوعة من القرميد المطفى بالأخضر، والمئذنة منفصلة عن جسم المسجد ولها شرفة واحدة. والمسجد ساحة مسورة، وأفتتح للصلاة يوم الجمعة ٢٧ صفر ١٤١٥ هـ الموافق ٥ أغسطس ١٩٩٤م وحضر الافتتاح محمد على محجوب وزير الأوقاف وفخر الدين خالد عبده محافظ بورسعيد.

ومن المساجد فى طور الإنشاء ببورفؤاد مسجد السيدة خديجة بنهاية شارع ابن خلدون عند مدخل الملاحه، وهو متوسط الحجم يتكون من طابقين، ليس له مئذنة وقبته من الفسيفساء الأخضر.

مسجد المجمع الإسلامى ببورفؤاد:

افتتح هذا المسجد الجامع للصلاة فيه يوم الجمعة ٢٠ من رجب سنة ١٤١٥ هـ الموافق ٢٣ من ديسمبر ١٩٩٤م، وحضر افتتاحه كل من شيخ الأزهر جاد الحق على جاد الحق والدكتور محمد على محجوب وزير الأوقاف والدكتور محمد سيد طنطاوى وقت أن كان مفتياً للديار المصرية وفخر الدين خالد عبده محافظ بورسعيد . وهو جامع شامخ يُعد ماثرة معمارية، ويقع عند مدخل بورفؤاد الغربى حيث يطل على ساحة المعديات وميدان ٦ أكتوبر ويصعد إليه عبر اثنتين وعشرين درجة، وله مئذنتان شاهقتا الارتفاع وأربع قباب صغيرة تتوسطها قبة ضخمة، وبواجهته الرئيسة أربعة أعمدة وثلاثة عقود، وله مظلات لواجهاته قصيرة مائلة ومصنوعة من القرميد المطفى بالأخضر . وقد استغرق بناء هذا المسجد نحو إحدى عشرة سنة.

مسجد عباد الرحمن:

هو مسجد ضخم البناء تطلوه قبة واحدة ضخمة، ولا مآذن له، يقع في نهاية شارع الشيخ محمد متولي الشعراوي من الجهة الجنوبية . تأسس يوم الاثنين ١٢ من رمضان سنة ١٤١٥هـ الموافق ١٢ من فبراير ١٩٩٥م.

المسجد المحدث:

هو أيضاً مسجد متوسط الحجم، يقع في بداية منطقة العبور الإسكانية الشعبية، مئذنته مرتفعة وبها شرفتان، وقته عالية ذهبية اللون وبها شريط أخضر اللون . أنشأه محمد إبراهيم، وافتتح للصلاة سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م وأجريت عليه توسعات وتعديلات تم تمويلها بالجهود الذاتية، وأعيد افتتاحه للصلاة سنة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

(٢)

كنائس المسيحيين

الأقباط الأرثوذكس:

كنيسة مار جرجس:

بتاريخ ٢٠ من يناير ١٩٤٠م أسس الأقباط الأرثوذكس ببورفؤاد جمعيتهم الخيرية، وتقدمت هذه الجمعية لمصلحة الأملاك المشتركة بطلب للحصول على قطعة أرض لتشييد كنيسة لهم، و حصلت على الأرض التي بلغت مساحتها ٨٧٨ متراً سنة ١٩٤٦م (موقعها الآن شارع ١٥ سبتمبر) وبمجرد حصولها على الأرض أقامت كنيسة صغيرة مؤقتة تم تدشينها عام ١٩٤٨م، وتعثرت الجمعية في بناء الكنيسة لأسباب تتعلق بالإدارة ؛ وعلى الرغم من صدور قرار رئيس الجمهورية (اللواء محمد نجيب) رقم ١٢ لسنة ١٩٥٣م ببناء الكنيسة ونشره بالعدد رقم ٧٥ من جريدة الوقائع الرسمية الصادر في أول سبتمبر ١٩٥٢م، فإن الجمعية أجلت البناء ريثما تشتري قطعة الأرض المجاورة لها من ناحية الشمال التي عرض مالكاها بيعها . غير أنها تعثرت في سداد التزاماتها المالية قبل مصلحة الأملاك المشتركة ، فحصلت المصلحة على حكم بالحجز على أرض الكنيسة برقم ١٤ لسنة ١٩٦٥م وتحدد يوم ٢١ نوفمبر ١٩٦٥م، لبيع الأرض، إلا أن الأوامر صدرت بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩٦٥م بإعفاء الكنيسة من كل الديون المستحقة، ومع هذا لم تبدأ أعمال استكمال البناء إلا في ١٨ ديسمبر ١٩٧٦م ولمّا أصبحت الكنيسة جاهزة، نُشنت للصلاة في الثاني من سبتمبر عام ١٩٨٤م(٤٣).

ومبنى الكنيسة شامخ تنصدر واجهته أيقونة تصور مار جرجس في هيئته التقليدية راكباً حصانه وطاعناً التنين برمحه. ويصعد من جانبي المبنى برجان أعلى كل منهما صليب مربع.

كنيسة مارمرقس:

بتاريخ ١٨ طوية ٧١٤ ش. الموافق ٢٦ يناير ١٩٩٨ م. صدر القرار الجمهوري رقم ٤١ لسنة ١٩٩٨ م. بالموافقة على إنشاء هذه الكنيسة بمناطق الامتداد السكاني الجديد جنوب بورفؤاد، في المنطقة المعروفة بأرض المعاشات . وكالعادة أقيم مبنى مؤقت في هذا الموقع للصلاة فيه، وتم تدشين هذا المبنى في ١٦ من إبريل ١٩٩٨ م. بإقامة قداس خميس العهد برئاسة الأنبا تادرس(٤٤). وتم تشييد ثلاثة طوابق منها حتى الآن، وتجرى أعمال الاستكمال لبقية الطوابق، ويمكن لمن يمر في التفريعة الشرقية للقناة رؤية المبنى غير المكتمل.

الاقباط الإنجليون:

الكنيسة الإنجيلية:

تشغل عمارة عادية بامتداد شارع الجزائر.

كنيسة نهضة القداية:

تشغل هي أيضاً عمارة عادية بشارع الحرية.

وفي بورفؤاد كنيسة تحولت إلى دار لرعاية الأيتام والأرامل، تقع هذه الكنيسة في الشارع رقم ٢٥ مكرر، ما بين مدرسة سان جورج للأباء الفرنسيين ومبنى الجمعية التعاونية الاستهلاكية للعاملين بهيئة قناة السويس، وهو بالناسبة من مباني بورفؤاد القديمة إذ يعود تاريخه إلى سنة ١٩٢٧م، وما زال مبنى الكنيسة قائماً ومتماسكاً.

مرفق معديات بورفؤاد

نعم .. نعم .. بالتأكيد يا عزيزي السمع ليس كالرؤية .

وليس من سمع كمن رأى .

لذا سأصحبك إلى الضفة الآسيوية للقناة لترى بعينيك أن ما أخبرتك به عن بورفؤاد وأحوالها حقيقة وليس خيالاً.

الأمر لا يتطلب سوى دقائق لعبور القناة، والعبور يستلزم معدية، والمعدية تحتاج إلى مرسيين أحدهما على الشاطئ الإفريقي والآخر في الشاطئ الآسيوي ،أي أحدهما في بورسعيد والآخر في بورفؤاد، وهذا ما يوفره لى ولك والكافة مرفق المعديات الذي وصلنا إليه الآن ونحن نتبادل الحديث .

انظر .. إنَّ الموجود ليس مرسي واحدًا، وإنما عدة مراس، وهي ليست معدية واحدة وإنما عدة معديات . أراك منبهراً بحجم الحركة .. رسو وإقلاع، راجلون وراكبون، دراجات وسيارات .. زحام منضبط ، وهولات في اتجاهات شتى، وعمال ينظمون الحركة.

هذا هو مرفق المعديات بورسعيد / بورفؤاد يا عزيزي .

مرفق قديم يعود تاريخه إلى تاريخ نشأة بورفؤاد .. إلى سنة ١٩٢٥م ، أى قبل افتتاحها بسنة . فقد سيرتها الشركة منذ هذا التاريخ وعملت على أن تكون وسيلة مريحة لنقل الركاب والمركبات بين الضفتين حتى وُصفت في وقت بأنها تبدو كشوارع عائِم ينتقل به الإنسان فيما يشبه الحلم، إذ يُخيل إليه أنه لم يترك الطريق الذي كان سائراً فيه من فرط إبتقان المناسيب في الجانبين، وعدم وجود أى فارق بين سطح المعدية وسطح الشوارع في أى من الجانبين، لا سيما أن عملية التعدية لا تستغرق إلا دقائق معدودة وتتسم بغاية النظام والهدوء والراحة .

هذا ليس كلامي، إنه كلام فؤاد فرج الذي نقلت لك عنه الكثير(٤٥).

ها هي واحدة قد رست . لا تتعجل الركوب . انتظر حتى يغادرها ركابها وكما ترى هم كثير.

هذا المرفق لا يتوقف أبداً، لا في وقدة الصيف ولا في زمهرير الشتاء .. سقط السحاب ثلجاً، أو هبط غماماً .. التمع الماء بالشمس لا تستطيع النظر إليه، أو أعطشه الضباب فلا ترى ضفتيه .. أبداً ما توقف .. لا يمكن أن يتوقف هذا المرفق، ولا يتصور أحد من هؤلاء الجادين في الهبوط أو القلقين من الانتظار أنه من الممكن أن يتوقف ولو لبعض يوم . القناة هي فلك هذا المرفق الخاص، فيه تتحرك معدياته.. تذهب وتؤوب .. تؤوب وتذهب .. بانتظام لا يعرف التوقف.

في الماضي لم يكن هذا المرفق يملك سوى ثلاث معديات فقط، وكانت لها أسماء: إفريقيا " ، آسيا " ، و أوروبا " . كانت الظروف غير الظروف والزحام كان غير الزحام .. لكن كما هو الحال مع المعديات التي تراها أمامك الآن كانت هذه المعديات الثلاث تنقل سبواً لا تتوقف من البشر، فقد قُدر متوسط ما تنقله بنحو ٥ آلاف راجل، وستمئة مركبة، وألف وثلاثمائة دراجة، لكن ازدياد حجم بورفؤاد وتضخماً أعداد سكانها، زيادة وتضخم لا يعرفان التمثل، وضع المرفق في قلب مشكلة مروية كبيرة، لا سيما أن المعدية الواحدة لا تزيد طاقتها الاستيعابية عن ست مركبات من الحجم الصغير، وهناك أوقات ذروة يحتقن أثناءها المرفق، لا سيما في مواعيد ذهاب العمال إلى ورش الشركة ببورفؤاد أو في مواعيد عودتهم منها، وكذا في المرات التي كانت تشهد فيها بورفؤاد مباريات رياضية، وكذا في فترات التنزه المسائي . كل هذا كان - وما يزال - استلزام أن تكون معديات المرفق على استعداد دائم وكاملة الصيانة باستمرار . لذا فقد كانت هذه المعديات تعمل بالناوبة أو بالتبادل بين الضفتين بحيث أصبح المرفق شبيهاً بما ياتيه

البهلوان الذي يتلاعب بثلاث كرات معاً بيديه الائتنتين .
وكانت هناك أمورٌ في أسلوب تشغيل هذه المعدات نراها الآن جميلة . وتنحسر على غيابها:

أولها : الصفارة المميزة التي تنذر بالتحرك الوشيك للمعدة التي ستغادر.
ثانيها : الأبواب الجرارة التي يتم إحكام إغلاقها قبيل التحرك بمسمار غليظ مثبت بسلسلة ما زال أبناء جيلي يتذكرونها.
ثالثها : العمال - بزي البحارة - الذين يعاونون الأطفال والمسنين من النساء والرجال على الصعود إلى المعدة أو الهبوط منها، لا سيما أن فراغاً كان موجوداً دائماً بين المعدة ورصيف المرسى سببه لفات الجبال المضغوط والإطارات الكاوتشوك المعلقة على جانبي المعدة لتحفظ جسم المعدة عند الاحتكاك بالمرسى.
رابعها : فصلها بين الركاب المترجلين وسائر المركبات سواء كانت سيارات أو عربات أو حيوانات جر أو دراجات، فالتترجلون لهم جانبياً المعدة، والراكبون لهم ممر يتوسط المعدة، وثمة فواصل بين الأجزاء الثلاثة لا تمنع من رؤية الكل للكل.
خامسها : الصالونان البديعان اللذان يتوسطان الجزئين المخصصين للمترجلين، فكانا صالونين رائعي التصميم بحق، الدخول لكل منهما كان يتم عن طريق اجتياز باب يُقفل عند اشتداد البرد أو الريح .
سادسها : تلك الأناقة التي كانت عليها كل معدة حتى لكأنها - من أناقة طلائها ذي اللمعة الورنيشنية واللون الكلاسيكي - قد صنعت من خشب الأرو أو الماهوجنى على اختلاف نوعيهما .

سابعها : وجود معدات السلامة والإنقاذ من الغرق في متناول الركاب.
ثامنها : اختفاء مشغلي كل معدة عن أعين الركاب - باستثناء عمال الأبواب - إما في قاع المعدة أو في كابينة القيادة .
تاسعها : عدم تأثر الركاب بأبخنة التشغيل لأن لكل معدة مدخنتين علويتين مفضولتين عن أماكن تواجد الركاب.

عاشرها : توفر إضاءة جيدة داخل المعدة لإنارتها أثناء العبور الليلي.
لكن هذه الميزات العشر قلل منها كثيراً أمران أولهما الطبقية التي صاحبت استخدامها، وتبدت هذه الطبقية في البوابات التي كانت موضوعة عند المداخل المؤدية إلى مراسيها في الضفتين الغربية والشرقية، والبوابات التي كانت موجودة في بورسعيد كانت تتخلل الصائط الشبكي شاهق الارتفاع المصنوع من أسلاك غليظة جداً، وكان على

الرصيف بجوار باب رقم ١٥ المخصص للإشكارية (الفحامة) باب صغير لدخول الوطنيين وجلبهم من العمال الذاهبين على أرزاقهم في منطقة القناة أو الذاهبين إلى ورش الشركة ببورغوا، وباب آخر أوسع طويلاً وعرضاً كان يفتح ويغلق نهر الشارع - شارع دى ليسيس/ سعد زغلول - أمام السيارات والدراجات. وكان تقتبش الوطنيين يتم أمام هاتين البوابتين إن حزب الأمر أو أراد الأجانب أو الحكام تمكيد أمجة العابرين من الوطنيين، أما الأجانب وأبناء الطبقة الراقية فكان لهم شارع السلطان حسين : ومن ثم كان أحد جانبي كل معدي للوطنيين والآخر للأجانب وأبناء الطبقة الراقية ولا التقاء بينهما ، لكن أمام الأطفال لم تكن هناك أية موانع تحول بين تحركهم في جميع أرجاء المعدي شاء النظام هذا أم لم يشأ.

الأمر الثاني هو كثرة حوادث وقوع الركاب في مياه القناة، لكنها على العموم ليست حوادث مفاجئة، والحوادث الملاحية من الضالة بما لا يجعلها رقماً يُذكر.

وكان ركوب المعديات بلا مقابل حتى عام ١٩٣٧م حيث أصبحت بمقابل زهيد: مليونين للرجال وثلاثة مليونات للدراجات وضعفها للسيارة. وظل هذا المقابل سارياً إلى ما بعد التأميم، كل ما طرأ عليه من تغيير هو اللغة المطبوعة بها التذكرة، فقد أصبحت تطبع باللغة العربية الخالصة .

لكن الأوضاع تغيرت بفعل التقادم والزحام، فأحيلت المعديات الثلاث إلى الاستيداع وظهرت أجيال أخرى من المعديات تواترت حتى ظهر الجيل العريض الضخم المكشوف في أغلبه ذو الطاقة الاستيعابية الكبيرة التي يتحرك أمامنا الآن.

أول هذه الأجيال - أجيال ما بعد المعديات الفرנסاوى - لم يكن كما تراه أمامك، كان أصغر كثيراً، وبوابته من نوع الـ (Ramp البوابات المنحدرة) كانت تنزل بإرخاء جنزير غليظ وترتفع بجذب ذات الجنزير، وكان عامل يقوم بهذه المهمة العضلية عبر بكرة تيسر له قيامه بعمله، وقد لعب هذا الجيل من المعديات دوراً مهماً إبان هزيمة يونيو ١٩٦٧م، فقد كانت تنقل الجنود المنسحجين من سيناء هم ومركباتهم، وتخيل عزيزى القارئ كيف كانت المعدي من هذا الجيل تنقل الدبابات والمجنزرات .. إنها مهمة لم تُعد لها أصلاً .. حقاً لقد قامت معديات هذا الجيل بمعجزة.

بعدها تم توسيع المعديات وزيادة طاقاتها الاستيعابية، لكنها كانت مكشوفة بالكامل للهواء والمطر، ثم أدخلت عليها الصالونات، لكنها صالونات معدنية، والكراسي أضحت بلاستيكية، ومطالع ومنازل الركاب والمركبات استمرت بالبوابات من نوع الـ Ramp، لكن أدخل عليها النظام الهيدروليكي، لكن ظلت مزاحمة سيارات النقل الثقيل وعربات الكارو

وحیوانات الجر تزامم البشر ومركبات الركاب، وظل الشحاذون والباعة المتجولون يزعمجون كل من یركب المعدية، ووقعت حوادث سقوط الركاب المتعجلین والشبان المغامرین، الذین یحاولون القفز إلى المعدية بعد تحركها، فی مياه القناة، ولم یكن هناك ما یحد أو یخفف من هذه الحوادث، فالیوابات من نوع الـ Ramp تغرى بالوثوب إلى المعدیات على الرغم من یقین الواثب من أنها تتحرك، كما أنها تغرى بالوقوف علیها أثناء رحلة العبور للاستمتاع باستقبال الهواء الدافق مثلما فعل دى كابریرو وحبیبتة فوق ظهر السفینة تايتانك فی الفیلم المشهور، أو لكسب قصب السبق بالهبوط المُجَل إلى المرسى حتى قبل تمام الرسو.

وكانت أشياء كثيرة غائبة، فلم تكن اللوحات الإرشادية تنبه وتلح فی التنبيه، والحواجر التى تمنع من الوقوف على الیوابات لم یكن لها وجود، ولم یكن هناك عمال یساعدون الركاب أو یمنعونهم من إتيان ما لا تحمد عقباه، فضلاً عن أن العوامات ومعدات الإنقاذ كانت قليلة ویمنأى عن الركاب. وتصادف أن أصبحت مديراً لمتابعة شئون المیناء بديوان عام محافظة بورسعيد، وأسمح لى بأن أتحدث عن نفسى، عزیزى القارئ فی هذه الجزئية، فبادرت بمخاطبة هیئة القناة وبدأت المحافظة والهیئة - ممثلة فی مرفق المعدیات - عهداً من التعاون أثمر تركيب حواجز مفصلية فی جميع المعدیات منعت المغامرین والمتعجلین من امتطاء الیوابات، وتعيين عمال یرتدون ملابس موحدة للمساعدة والمنع، وتثبيت اللوحات الإرشادية فی أماكن مرئية، وزيادة أعداد العوامات ومعدات الإنقاذ وتعليقها بحيث تكون فی متناول الركاب، وكان المهندس المسئول عن المرفق وقتها متعاوناً إلى أقصى حد. وبشأن الشحاذین والباعة الجائلین الصاعدين إلى المعدية ومفترشى الطريق المؤذیه إلى المراسى خاطبت شرطة المیناء بشأنهم فانتهى تردد هؤلاء إلى حين. وعقدنا الاجتماعات لتو الاجتماعات لتطویر المرفق، وأثيرت مشكلات وطُرحت حلول، وفاجأتنا هیئة قناة السويس بزيادتها لعدد المراسى وإنشاء مرسى جدید باتجاه الجنوب عند منطقة الرسوة، وشرعت الهیئة فی التنفيذ وأنا ومعاونى فی المتابعة إلى أن تم الانتهاء من مرسى الرسوة/ بورفؤاد لیتم التخفيف من أعباء معدیات بورسعيد/ بورفؤاد بتولى المرسیین الجدیدین مهمة نقل عربات النقل الثقیل والخفیف والأتوبيسات وعربات الكارو وحيوانات الجر إلى بورفؤاد عبر معدیتین خصصتا لهذا الغرض.

لكن أموراً أخرى لم تتحقق منها التنظيمى ومنها الجمالى، لن أزعجك بها، لن أنظر باتجاه شارع زغلول . كما ترى فإن السيارات التى یروم أصحابها ركوب أى معدية إلى بورفؤاد یدخلون إلى حارات (ممرات) وینتظرون فیها . عدها ، إنها ست حارات ممتدة

بطول يقترب من ١٢٥ متراً وتستوعب كل حارة ما بين ٣٥ و ٤٠ سيارة صغيرة . فى أوقات الذروة تزدهج هذه الحارات بالسيارات المنتظرة لأدوارها، أى أن المكان يحتشد بما يتراوح بين ٢١٠ و ٢٤٠ سيارة، ومع هذا فهي حارات مغلقة من جميع الجوانب، فإن حدث عطب أو حريق لا سمح الله فى سيارة وسط هذا الزحام فلن يتيسر النجاة لكثيرين، أضف إلى هذا أنه لا توجد فى أماكن الانتظار هذه معدات إطفاء حريق ملائمة ولا طفايات تتحرك على عجلات، وهذا أبسط ما يطلب.

تطلع إلى المراسى التى أمامك هنا فى بورسعيد، عددها أربعة، ويقابلها فى بورفؤاد أربعة مراس شبيهة . أيام الفرنسيين لم يكن هناك سوى مرسى واحد ببورسعيد يقابلها آخر ببورفؤاد . عد المدييات سواء الراسية هنا فى بورسعيد أو التى تعبر القناة الآن أو تلك التى تلوح لك راسية فى البر الشرقى .. إنها ست مدييات، لكن دقق النظر هناك إلى يمين مراسى بورفؤاد، شمة واحدة ساكنة لا ركاب فوقها ولا تتحرك . حسناً .. هذه المديية احتياطية لمواجهة متطلبات النقل فى أوقات الذروة أو أوقات الطوارئ . إذن هى سبع مدييات تعمل بين هاتين النقطتين . أيام الفرنسيين كانت ثلاثاً كما سبق أن أخبرتك. لا تظن أنني أستكثر هذا العدد من المدييات أو أراه كافياً لتلبية حاجات النقل بين ضفتى القناة بكل من بورسعيد وبورفؤاد، بالعكس هو عدد قليل، وإن لم يستتبط حل جذرى فإن المشكلة ستعاود الظهور بأحد مما كانت عليه . من قبل تردد الحديث- وما زال - عن كوبرى يربط بين المدينتين، لكن الكوبرى كان من نصيب موقع يقع إلى جنوب مدينتى القنطرة غرب والقنطرة شرق . وأثناء وبعد إتمام نفق الشهيد أحمد حمدي كان هناك حديث عن نفق مماثل يربط بورسعيد ببورفؤاد ومناطق أخرى من سيناء، وقيل كثير عن مساهمات للقطاع الخاص حتى يرى مشروع النفق النور، ونشرت الصحف صوراً للمكثات ورسوم تخطيطية ونقلت تصريحات وحوارات، ثم ما لبث كل هذا أن خمد. المشكلة ليست بنت هذه الأيام لكنها كانت موضع تفكير من قبل مسئولى شركة قناة السويس عند نشأة بورفؤاد الأولى فقد فكروا فى وسيلة مبتكرة، وقد ذكر ضياء الدين القاضى نقلاً عن مرجعه اليونانى خلدوبيس أنه كان من المقرر إقامة وسيلة اتصال كهربائية أعلى القناة، إلا أنها لم تنفذ(٤٦)، ونحسب هذه الوسيلة هى التلفريك. وما أبغى من إثارة ما أثرت، إلا التبصير بما قد يحدث فى مستقبل الأيام والتحسب له من الآن.

والآن .. هيا بنا نركب، فالمعدية أخلت ركابها، وهاهم آخرون يركبونها. أنت الآن تعبر القناة التى ضحى من أجلها ١٢٠ ألف مواطن مصرى . أنت الآن تعبر

ماءٌ تخضبُ بالدم في حروب غير قليلة، والمعدية تمرق بك وبى وبكل هؤلاء الذين يحيطون بنا من بين شمندورات شهدت الكثير من أحداث الزمان ، وتشق ونحن على متنها زحاما من أجنحة النوارس لطالما عانتُ مثلما عانى أبناء المدينة التي غابرها والمدينة التي نحن مقلوبن عليها.

صفحة الماء داكنة الزرقة، تزنو إلينا .. وكعادتها تتدلل أمام مقدمة معديتنا، وتفسح لنا الطريق إلى القارة الآسيوية .. إلى بورفؤاد التي تراها شديدة القرب منك، ها هو مسجد المجمع الإسلامي يرفع مئذنتيه ذراعين ممتدتين إلى السماء في ضراعة. وسمح لى أن أخبرك، قبل أن نصل إلى المرسى وقيل أن أنسى، بأن هناك مرسيين آخرين على ضفتى التقريفة الشرقية تعمل بينهما معديتان تصلان ما بين بورفؤاد وبالوطة (التحريف العربى لبيروزيوم) .. هل تذكر حديثى عنها فى الباب الأول ؟

قاعدة جرانيتية حمراء

ها نحن قد وصلنا، وها هي أقدامنا تطأ الأرض الآسيوية. انظر إلى زحام العربات والدراجات والناس.. أمامك ١٨ حارة بطول حوالى ستمين متراً لكل حارة، أغلبها مشغول بالسيارات المنتظرة للانطلاق إلى المعديّة التي هيطننا منها أو أية معدية أخرى، هل ترى الكشك الموجود هناك ؟.. ما من سيارة يمكنها أن تقف فى أية حارة إلا إذا مرت من أمام هذا الكشك. إنه كشك تحصيل رسوم العبور من السيارات ومن السيارات فقط .

وهاك مسجد المجمع الإسلامى الذى حدثك عنه مشربب بقبابه ويعد مئذنتيه ناحية السماء، ومحكمة الاستئناف بعيانها المراكشية تلوح هادئة وديعة إلى جوارها : وأمامهما فى الوسط، بعد النافورة قرنفلية الشكل، قاعدة جرانيتية حمراء..

آه .. القاعدة الجرانيتية الحمراء..

أتعرف قصة هذه القاعدة ؟..

سأحكىها لك ثم أتوقف عن الحكى لأريك ما قصصته عليك رأى العين. حدث فى سنة ١٩٥١م، سنة الانتهايات والغاء معاهدة ١٩٣٦م، أن حاولت شركة القناة استمالة الملك فاروق إليها ومخاطبة عواطفه، فلم تجد أفضل من أن تنشئ تمثالا لأبيه الملك فؤاد الأول وتضعه فى مدخل المدينة المسماة باسمه . لذا أقامت يا عزيزى هذه القاعدة المصنوعة من الجرانيت الأحمر، وأنفقت على هذا التمثال حتى تم، ورتبت زيارة الملك فاروق ليحضر حفل إزاحة الستار عن التمثال فى الأول من نوفمبر من نفس السنة . وتقرر بالفعل أن يصل الملك فاروق الأول إلى بورسعيد على متن اليخت فخر البحار فى هذا اليوم قادماً من

الإسكندرية، لكن حدث ما لم يكن في حسيبان الشركة، أو كان في حسيبانها لكنه تعدى نطاقات السيطرة، ذلك أن عمال ميناء بورسعيد أضربوا عن العمل، وهجمات الفدائيين المصريين على ثكنات الإنجليز بقيادة السويس احتدت، فكان لا بد من الإلغاء المؤقت للزيارة الملكية، ولأن التمثال لم يكن قد وُضع بعد على هذه القاعدة، فإن قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م. وعزل الملك فاروق ثم إخراجه من البلاد استتبع أن يكون الإلغاء هذه المرة أبدياً.

ومع هذا، فالحكاية لم تنته لأن أغرب فصولها قد وقع بعد أكثر من نصف قرن من الزمان، وبالتحديد بعد واحد وخمسين سنة، ذلك أنه في صيف ٢٠٠٢م. استيقظ الأهالي ذات صباح ففوجئوا بتمثال الملك فؤاد الأول قائماً فوق القاعدة، فصار سخط عظيم، واشتعلت الأجواء وطالب المثقفون الوطنيون، وأحسب نفسه من زمريهم، برفع التمثال لأسباب كثيرة، منها السياسى والتاريخى والثقافى والفنى، وعارضنا من يمكن وصفهم باللامباليين أو السائرين في الركاب أو المفرطين . وفي ظرف يومين اثنين تمت إزالة التمثال بعد طلب إحاطة عاجل قدمه النائب البدرى فرغلى فى مجلس الشعب ثم بدأت معركة كلامية شديدة الوبطيس، لكنها أيضاً سرعان ما خبت(٤٧).

والسؤال هو ما الذى يحول دون عرض تماثيل من ووطوا الوطن فى المتاحف ؟ .. ألم تجعل المتاحف لتكون مكاناً لقراءة التاريخ وهدفاً لطلاب السياحة ؟ ..

الآن وقد أملت بطرف من بعض الحكايا، لنترك القاعدة الجرائيمية الحمراء خالية كما هى، ولنهتم بما هو أهم.

لقد أن يا عزيزى أن أتوقف عن الحكى لأصطحبك كما أخبرتك، فتمعال نستأجر دراجتين لتشهد وتعاين بنفسك ما حكيت لك عنه وتراه رأى العين.

هوامش الباب الخامس

الفصل الأول:

- (١) لزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى :
- على أبو شادي، وقائع السينما المصرية في مائة عام: ١٨٩٦ - ١٩٩٥، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ١٥ - ٢٢، ص ٢٤ .
- ضياء الدين حسن القاضي، موسوعة تاريخ بورسعيد، الجزء الثاني، مرجع سبق ذكره، ص ٨١ .
(٢) زين العابدين شمس الدين نجم، بورسعيد تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩ حتى عام ١٨٨٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٢٨١ .
(٣) المرجع السابق، ص ٢٨١ .
(٤) المرجع السابق ، ٢٨١ - ٢٨٢ .
(٥) ضياء الدين حسن القاضي ، مرجع سبق ذكره، الجزء الثاني، ص ٨١ .
(٦) المرجع السابق، ص ٨٠ .
(٧) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٦٣ .
(٨) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٨٥ .
(٩) فؤاد صالح، من البداية، بورسعيد، بدون تاريخ نشر، ويرجع أن يكون تاريخ النشر في عام ١٩٩٦، ص ص ٩ - ١١ .
(١٠) ضياء الدين حسن القاضي ، مرجع سبق ذكره، الجزء الثاني، ص ٨٦ .
(١١) القس شنودة فتحي، إبيارشية بورسعيد قديماً وحديثاً، ط ١، دار الأوتل للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٢٨٢ .

الفصل الثاني:

- (١٢) المرجع السابق، ص ص ٢٧٤-٢٧٩ .
(١٣) ضياء الدين حسن القاضي، مرجع سبق ذكره، الجزء الثاني، ص ١٨٥ .
(١٤) المرجع السابق، ص ١٨٥ .
(١٥) القس شنودة فتحي، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢١٦ - ٢٢١ .
(١٦) المرجع السابق، ص ص ٢٢١ - ٢٢٢ .
(١٧) المرجع السابق، ص ص ٢٦٠ - ٢٦١ .
(١٨) المرجع السابق، ص ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .
(١٩) المرجع السابق، ص ص ٢٧٤ - ٢٨١ .

الفصل الثالث:

- (٢٠) فؤاد فرج، المدن المصرية وتطوراتها مع العصور، مجلد ٢، منطقة قناة السويس، مكتبة ومطبعة المعارف، القاهرة، بدون تاريخ نشر (ربما صدر سنة ١٩٤٢م)، ص ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

- (٢١) المرجع السابق، ص ٢٦٨-٢٦٩ .
- (٢٢) المرجع السابق، ص ٢٦٩-٢٧٠ .
- (٢٣) ضياء الدين حسن القاضي، ج ١، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٩ .
- (٢٤) لمزيد من التفاصيل حول هذا التقرير يمكن الرجوع إلى:
- المرجع السابق، ص ١٦٩ .
- فؤاد فرج، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .
- (٢٥) المرجع السابق، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .
- (٢٦) وليم إبراهيم قوسة، جنود تاريخية لمدينة مصرية، الجزء الأول، بدون ناشر، ١٩٩٥م، ص ٢٣٦ .
- (٢٧) للاطلاع على تفصيل ما ورد في محضر جلسة القومسيون الانتخابية المنعقدة في يوم السبت ٤ أغسطس سنة ١٩٢٣ يمكن الإطلاع على:
- ضياء الدين حسن القاضي، ج ١، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٣ - ١٧٤ .
- (٢٨) المرجع السابق، ص ١٧٤ .
- (٢٩) وليم إبراهيم قوسة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٥ .
- (٣٠) فؤاد فرج، مرجع سبق ذكره، ص ٧٥ - ٧٦ .
- (٣١) ضياء الدين القاضي، ج ١، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٤ - ١٧٥م.
- (٣٢) بموجب القرار الوزاري رقم ٢٣٣ لسنة ١٩٦٩م.
- (٣٣) بمقتضى القرار الوزاري رقم ٦١ لسنة ١٩٧٩م.
- (٣٤) د. مصطفى البغدادي : تغيرات التركيب والوظائف في بورفؤاد، مؤتمر شرق التفريعة : جغرافياً، اقتصادياً، بحرياً، بورسعيد، ٢٢-٢٣ سبتمبر ١٩٩٨ م، ص ١ .
- (٣٥) دليل المسح الإحصائي الشامل، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، محافظة بورسعيد ١٩٩٦ - ١٩٩٧ م، ص ٤ .
- (٣٦) نشرة المعلومات، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، محافظة بورسعيد، ٢٠٠٦ م، ص ٣٨ .
- (٣٧) مصطفى البغدادي، مرجع سبق ذكره، ص ١٢، نقلاً عن : ورقة عمل للمؤتمر العام الثاني للثروة المائية، بورسعيد، ٢٧-٢٩ ديسمبر ١٩٩٨، ص ٣٦ - ٣٨ .
- (٣٨) المرجع السابق، ص ١٤ - ١٥ .
- (٣٩) المرجع السابق، ص ١٨ - ١٩ .
- (٤٠) مشروع شرق بورسعيد، ملحق مجلة الأهرام الاقتصادي، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ٧ سبتمبر ١٩٩٨م، ص ١٣ .
- (٤١) هذا الترتيب حسب تواتر الحصول على هذه القار (الباحث).
- (٤٢) ضياء الدين حسن القاضي، ج ١، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٧ .
- (٤٣) القس شنودة فتحي، تاريخ إبيارشية بورسعيد قديماً وحديثاً، ط ١، دار الأوائل للطباعة، القاهرة، نوفمبر ٢٠٠١م، ص ٢٤٣، ٢٢٣ .
- (٤٤) المرجع السابق، ص ٢٨٤ - ٢٨٨ .
- (٤٥) فؤاد فرج، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .
- (٤٦) ضياء الدين حسن القاضي، ج ١، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٤ .

(٤٧) للمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى :

- قاسم مسعد عليوة، ماذا نقيم تمثلاً للملك فؤاد ببورسعيد ونتجاهل عبد الناصر، القاهرة، القاهرة، العدد ٦، أغسطس ٢٠٠٢، ص ٢٦ .
 - إبراهيم راجح، المعارضة تقود حرباً شعواء على الملك فؤاد الأول ملك مصر، (تحقيق)، الحياة البورسعيدية، بورسعيد، يونيو ٢٠٠٢ ص ٣ .
- ما لم يرد بشأنه هامش فالعمدة فيه هو الباحث اعتماداً على دراساته السابقة ورصده الميداني وخبرته بالموضوع.

المراجع

أولاً - الكتب:

- ١- أبو الحجاج حافظ، صفحات من التاريخ السرى لمعركة بورسعيد، دار الميثاق للطباعة، القاهرة، بدون تاريخ نشر.
- ٢- أحمد عبد الرازق وحسن صادق عمران، الحميات الطبيعية ببورسعيد، جهاز شئون البيئة فرع بورسعيد، بورسعيد، بدون تاريخ نشر.
- ٣- أحمد هانى قزامل، انهيار سد مصر: بورسعيد قبل أن تتحول إلى قدس أخرى بدون ناشر بورسعيد، ١٩٩٧م.
- ٤- بيتر فايس ، مارا - صاء، ترجمة د. يسرى خميس، روائع المسرح العالمى، العدد ٤٣، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٥ مارس ١٩٩٧م.
- ٥- د. جمال حمدان، شخصية مصر: دراسة فى عبقورية المكان، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، العدد ٥٠٩، مايو ١٩٩٣م.
- ٦- د. جمال حمدان، شخصية مصر: دراسة فى عبقورية المكان، الجزء الأول، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٠م.
- ٧- جـون مارلسو، تاريخ النهب الاستعماري لمصر من الحملة الفرنسية ١٧٩٨م، إلى الاحتلال البريطاني ١٨٨٢م، ترجمة د. عبد العزيز رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦م.
- ٨- حسن السرزاز، طرق مصر المقدسة، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م.
- ٩- حسن رفعت عبد الجواد، ٢٥ عاماً لإدارة مصرية، دار الجامعى العربى، القاهرة، بدون تاريخ نشر.
- ١٠- ديفيد لاندن، بنوك وباشاوات، ترجمة د. عبد العظيم أنيس، كتاب الأهالى، حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى، القاهرة، العدد السابع، ١٩٨٥م.
- ١١- رفعة الجادرجى ، حوار بنيوية الفن والعمارة، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت - لندن، ١٩٩٥م.
- ١٢- روبنير سوليه، مصر: ولع فرنسى، ترجمة لطيف فرج، دار المستقبل العربى، القاهرة ١٩٩٩م.
- ١٣- د. زين العابدين شمس الدين نجم، بورسعيد: تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩ حتى عام ١٨٨٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.

- ١٤- القس شنودة فتحي، إيباشية بورسعيد قديماً وحديثاً، ط ١، دار الأوتل للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- ١٥- ضياء الدين حسن القاضي، موسوعة تاريخ بورسعيد، جزآن، المستقبل للطباعة، بورسعيد، ١٩٩٧م.
- ١٦- عبد الحميد أبو بكر، قناة السويس والأيام التي هزت الدنيا، (مذكرات)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧م.
- ١٧- عبد العزيز الشناوى، النسخة في حفر قناة السويس، ط٢، تاريخ المصريين، العدد رقم ٢٢٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- ١٨- عبد الرحمن الراقعى، عصر إسماعيل، الجزء الأول، الأعمال الفكرية، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٨م.
- ١٩- اللواء عبد المنصف محمود، على ضفاف بحيرات مصر، الجزء الأول، سلسلة من الشرق والغرب، العدد ١٩٨، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ٨ يناير ١٩٦٧م.
- ٢٠- عبد المنعم حنفي، المقومات الجغرافية لتنمية بورسعيد، بدون ناشر، ٢٠٠٥م.
- ٢١- علماء الحملة الفرنسية، وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، المجلد الثالث، دراسات عن المدن والأقاليم المصرية، بدون ناشر، ١٩٨٤م.
- ٢٢- علي أبو شاذى، وقائع السينما الرصية في مائة عام: ١٨٩٦ - ١٩٩٥، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧م.
- ٢٣- فتحي رزق، قناة السويس الموقع والتاريخ، دار النصر للطباعة الإسلامية، شبرا مصر، القاهرة، ١٩٨٣م.
- ٢٤- فؤاد فـسـرج، المدن المصرية وتطوراتها مع العصور، مجلد ٢، منطقة قناة السويس، مكتبة و مطبعة المعارف، القاهرة، بدون تاريخ نشر، (ترجع أن يكون تاريخ إصدار ١٩٤٢م).
- ٢٥- ماري - لور كورنييه وآخرون، بورسعيد: عمارة القرن التاسع عشر والقرن العشرين، التاريخ والمعمار، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- ٢٦- محمد الشافعي و محمد يوسف، قناة السويس : ملحة شعب.. تاريخ أمة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٦م.
- ٢٧- محمد سامى عسل، الجغرافيا الطبيعية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٣م.
- ٢٨- د. محمد صفى الدين، مورفولوجية الأراضي المصرية، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٧م.
- ٢٩- محمد عوض محمد، نهر النيل، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٩٦٢م.
- ٣٠- د. مصطفى الحفناوى، قصة قناة السويس، الطبعة الثانية، ذاكرة الكتابة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- ٣١- محمود صالح منمنى، مشروع قناة السويس بين أتباع سان سيمون وفريدنيان دى ليسبس، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٧١م.

- ٢٢- مندى بهاء الدين وآخرون، عالم الطيور في مصر، برنامج الطيور المهاجرة، المركز الدولي لحماية الطيور ومركز التعليم والوعي البيئي بحديقة الحيوان، الجيزة، ١٩٩٠م.
- ٢٣- د. نبيل عبد الحميد سيد أحمد، الأجنبي وأثرهم في المجتمع المصري : من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩٩٢، الجزء الثاني، الآثار الاجتماعية، مكتبة تناسي، دمياط، ٢٠٠٤م.
- ٢٤- هنري سورنس، الملكة المستحيلة : فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر والانتشار العربي، القاهرة وبيروت، ١٩٧٧م.
- ٢٥- وليم إبراهيم قوسية، جذور تاريخية لمدينة مصرية، الجزء الأول، بدون ناشر، ١٩٩٥م.
- ٢٦- د. يسرى الجوهري، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٦م.
- ثانياً - الدوريات:**
- ١- إبراهيم راجح ، المعارضة تقود حرباً شعواء على الملك فؤاد الأول ملك مصر، (تحقيق)، الحياة البورسعيدية، بورسعيد، يونيو ٢٠٠٢م.
- ٢- المسعيد السويركي، دعوات خبيثة لنقل تمثال المحتال ديليسيس للإسماعيلية، جريدة العربي، القاهرة، العدد ٤٠١ يوليو ١٩٩٩م.
- ٣- جريدة الشعب، القاهرة، ٢٤ ديسمبر ١٩٥٦م.
- ٤- جريدة الشعب، القاهرة، ٢٩ ديسمبر ١٩٥٦م.
- ٥- جريدة الأهرام، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ٩ أغسطس ١٩٨٩م.
- ٦- جريدة الأهرام، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ٣ سبتمبر ١٩٨٩م.
- ٧- جريدة الوفد، حزب الوفد، بورسعيد، أكتوبر ١٩٨٩م.
- ٨- جريدة بورسعيد الوطنية، حزب التجمع الوطني التقدمي، بورسعيد، مايو ١٩٩١م.
- ٩- جريدة المدينة الحرة، بورسعيد، منتصف مايو ١٩٩٨م.
- ١٠- جريدة الحدث البورسعيدى، بورسعيد، يناير ١٩٩٩م.
- ١١- جريدة أخبار اليوم، مؤسسة الأخبار، القاهرة، ١٢ يونيو ١٩٩٩م.
- ١٢- جريدة الرأي البورسعيدى ، بورسعيد، ديسمبر ٢٠٠٠م.
- ١٣- طارق حسن وآخرون، استطلاع حول تمثال ديليسيس، جريدة المدينة الحرة، بورسعيد العدد ١٦، أول مارس ١٩٩٨م.
- ١٤- فاطمة ناعوت، العبارة والشعر، الثقافة الجديدة، القاهرة، يناير ٢٠٠٥م.
- ١٥- قاسم مسعد عليوة، ماريتا أهل الكافيار وماريتة عم أحمد، جريدة بورسعيد الوطنية، حزب التجمع الوطني التقدمي، بورسعيد، العدد الأول ٦ يونيو ١٩٩٢م.
- ١٦- قاسم مسعد عليوة، بعض الخجل يا أتباع ديليسيس: فضائح بالجملة، جريدة العربي، القاهرة، العدد ١٦، ٤٠٢ يوليو ١٩٩٩م.
- ١٧- قاسم مسعد عليوة، إعادة تمثال دى ليسيس على استمارة، جريدة القاهرة، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠ مارس ٢٠٠١م.

- ١٨- قاسم مسعد عليوة، صفحات من تاريخ بورسعيد المسكوت عنه (٢)، بورسعيد الوطنية، حزب التجمع، بورسعيد، أبريل ٢٠٠٠م.
- ١٩- قاسم مسعد عليوة، لماذا نقيم تمثالاً للملك فؤاد بورسعيد ونتجاهل عبد الناصر، القاهرة، القاهرة، العدد ٦، ١٢١ أغسطس ٢٠٠٢م.
- ٢٠- مجلة المسحور، دار الهلال، القاهرة، ٢٧ ديسمبر ١٩٥٦م.
- ٢١- مشروع شرق بورسعيد، ملحق مجلة الأهرام الاقتصادي، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ٧ سبتمبر ١٩٩٨م.
- ٢٢- نغمات حسين، "دعوة للمحافظة على ٢ مليار طائر مهاجر تغير أرض مصر"، الحياة الجديدة، جهاز شئون البيئة، القاهرة، العدد ٢٨، مارس ١٩٨٩م.
- ثالثاً - الرسائل العلمية :**
 - ١- عيبر الحسيني أحمد موافى، الوحدة الفنية ذات التعددية في عمارة بورسعيد القديمة كمصدر لاستلهام أعمال تصوير، رسالة ماجستير، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان، القاهرة، ٢٠٠٢م.
 - ٢- مصطفى محمد البغدادي، مدينة بورسعيد: دراسة في جغرافية الفن، رسالة ماجستير، قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٥م.
- رابعاً - مؤتمرات:**
 - ١- د. السيد عباس زغلول، "التطور الجيولوجي لبحيرة المنزلة"، المؤتمر القومي لبيئة بحيرة المنزلة، محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد، ٢٧-٢٩ أكتوبر ١٩٩١م.
 - ٢- د. جميل عبد المولى، "أهمية بحيرة المنزلة كمأوى للطيور البرية"، المؤتمر القومي لبيئة بحيرة المنزلة، محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد، ٢٧-٢٩ أكتوبر ١٩٩١م.
 - ٣- خالد منتصر، "المشاكل التي تواجهها حافظة دمياط من تلوث بحيرة المنزلة: الاقتراحات - التوصيات"، المؤتمر القومي لبيئة بحيرة المنزلة، محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد، ٢٧-٢٩ أكتوبر ١٩٩١م.
 - ٤- فريق عمل محافظة بورسعيد، "بورسعيد وبحيرة المنزلة"، المؤتمر القومي لبيئة بحيرة المنزلة، محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد، ٢٧-٢٩ أكتوبر ١٩٩١م.
 - ٥- د. محمد حسن عامر، "مصادر التلوث في بحيرة المنزلة وطرق التخلص منها"، المؤتمر القومي لبيئة بحيرة المنزلة، محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد، ٢٧-٢٩ أكتوبر ١٩٩١م.
- خامساً - شبكة المعلومات الدولية:**
http://en.wikipedia.org/wiki/Ferdinand_de_Lessep
http://www.bbc.com.uk/historic_figures/Lesseps_Ferdinand_de.shtm

سائداً - آخري:

- (١) ج.م.ع.، مجلس الشعب، الفصل التشريعي السادس، دور الاعتقاد العادي الأول، مضبطة الجلسة السادسة عشرة، ٩ فبراير ١٩٩١م.
- (٢) قسم علوم البحار بكلية العلوم جامعة قناة السويس، تقرير أولى عن التلوث في المياه الإقليمية لبورسعيد، مرفوع لمحافظة بورسعيد، أكتوبر ١٩٩٠م.
- (٣) د.أحمد أمين الجمل، "تلوث المياه في مصر وأثره على صحة الإنسان"، (إعداد)، الدورة التدريبية الأولى لفروع ومكاتب البيئة بالمحافظات، جهاز شئون البيئة ومؤسسة فريدريش إيبيرت، الإسكندرية، ١٧-٢١ يوليو ١٩٨٩م.
- (٤) محافظة بورسعيد، الخريطة الاقتصادية لمحافظة بورسعيد، بورسعيد، يونيو ١٩٨٦م. (٥) محافظة بورسعيد، بورسعيد جوهرة مصر، مطبعة بورفؤاد، بورسعيد، ديسمبر ١٩٩٧م.
- (٦) دليل المسح الإحصائي الشامل، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، محافظة بورسعيد ١٩٩٧م.
- (٧) نشرة المعلومات، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، محافظة بورسعيد، ٢٠٠٦م.
- (٨) الملتقى العالمي الأول لآلة السمسمية الموسيقية، الملكة الأردنية، البقية، ٧-٩ ديسمبر ٢٠٠٦م.
- (٩) المهرجان الدولي الأول للموسيقى الشعبية : السمسمية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، جمهورية مصر العربية، بورسعيد، ١٢ - ١٨ ديسمبر ١٩٩١م.
- (١٠) وزارة الخارجية، جمهورية مصر، الكتاب الأبيض في تأميم شركة قناة السويس، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٢ أغسطس سنة ١٩٥٦م.

ملحق الصور

١٢



مشهد علوى لبورسعيد القديمة — وتظهر بعض الجزر القديمة



معدية بورفؤاد القديمة ويلاحظ جنزير الجر والسقالات الخشبية



الخديو إسماعيل



تمثال دي ليسس لحظة انهياره في أعقاب حرب ١٩٥٦



تمثال دي ليسس وقد تم تجهيزه



المعدية ذات المنحنتين



المعدية عند مرسى بورسعيد
ويبدو الرصيف الخشبي
ومبنى شرطة الميناء



ركاب المعدية يهبطون منها
ويلاحظ أن من بينهم عدد
من الجنود

الفلاحون المصريون يشقون
الغداة قبالة بورسعيد



الإشكارية (الفحامون)
يقومون بأعمالهم

مخيم المهندسين في موقع الحفر





رصيف فرانسوا جوزيف سنة ١٨٨٦م



مبنى شرطة الميناء وتظهر إلى جواره المباني المنخفضة



أحد شوارع بورسعيد — لاحظ
(التراسيلت — الشرفات — والأعمدة)



الشارع الرئيس بقرية العرب
لاحظ الطرق غير المرصوفة



ترام يجره بغاثن
بشارع الثلاثيني
لاحظ القضيبين الحديدين



شارع فؤاد الأول



شارع يحيى العرب ويلاحظ الطريق الترابي



سوق بحى العرب



صورة تبين الحالة السيئة لقرية العرب



مقهى جيانولا



مقهى بلدى بقرية العرب



مسجد عبد الرحمن لطفي بعي طرح البحر



كنيسة الظهور الإنجيلية



صورتان: للمباني القريبة من القناة في بورسعيد القديمة



مبنى سيمون أرزت



فندق اكستنج في أول عهد



كازينو البانبيير بشاطئ بورفؤاد



موقع بور فؤاد على الضفة الشرقية وهي أرض جرداء



حفل الافتتاح الأسطوري ببورسعيد



احتفالية دينية عند الافتتاح

22 المدينة المستند الهيئة العامة لقصور الثقافة



وصول إمبراطور النمسا إلى بورسعيد



دخول البحت الملكي "لاجل" مظلة بورسعيد

رسمان قديمان ويظهر اليخت الملكي أسفل الصورة



كارت بوستال لشارع فرنسوا جوزيف - لاحظ سور قناة السويس



كارت بوستال لشارع بالحي الوطني - حي العرب

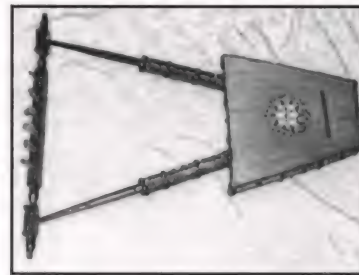
فَنَارُ بَورِ سَعِيدِ الْحَجَرِي



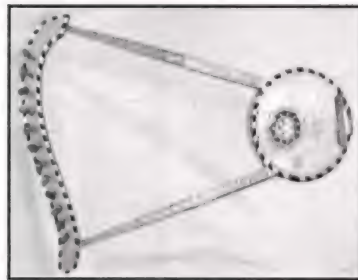
مِثْقَالُ هَيَاةِ قَنَاةِ الْمَوَيْسِ



رسم للصحابي رجب أبو حسن



أحد أشكال السمسمة المتطورة



سمسمة خليجية متعددة الأوتار

المسجد التوفيقي بعد إعادة بنائه



مسجد السلام ببورسعيد



مسجد بوفؤاد الكبير من أعلى وتظهر القبة المثلثة



المجمع الإسلامي ببوفؤاد



مسجد عبد الرحمن لطفى - بورسعيد



الكندرائية الفرنسية



الكنيسة الإيطالية



فندق زكازينو بالاس في أوج ازدهاره وملحق به حديقة واصف بكار



كارت بوسنل للكباتن الخشبية



منزل قديم ببور سعيد



منزل له شرفات محمولة على أعمدة خشبية



منزل خشبي بحى الأفرنج سقفه الخشبي مائل وله كرائيش خشبية



مبنى كازاليناليا وقد ظهرت عليه علامات الهرم وحاصرته العمارات



مبنى تابع لهيئة قناة السويس متأثر بالطراز اليوناني



مبنى المسرح الإيطالي وتظهر عليه بعض التشوهات



ممشى سياحي بجوار قناة السويس



جانب من أحد منازل عمال هيئة قناة السويس



شرفتان



شرفة مغلقة بنوافذ زجاجية ويلاحظ الكورنيش الخشبي



شرفات من الحديد المشغول وأبوابها



شرفات مكشوفة أسوارها وكوابيلها من الحديد المشغول



صورة توضح شكل البواكي



أحد البواكي بشوارع بورسعيد